القول المفيد
على
كتاب التوحيد

الجزء الأول

لفضيلة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين، وعليه نتوكل

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: كتاب التوحيد.

لم يـذكر في النسخ الـتي بأيـدينا خطبة للكتـاب من المؤلـف، فإما أن تكــون ســقطت من النســاخ وإما أن يكــون المؤلف اكتفى بالترجمة لأنها عنوان على موضوع الكتاب وهو التوحيد، وقد ذكر المؤلف في هذه الترجمة عدة آيات.

والكتاب بمعنى: مكتوب أي مكتوب بالقلم، أو بمعنى مجموع من قولهم: كتيبة وهي المجموعة من الخيل.

والتوحيد في اللغة: مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحداً، فهو مصدر وحد يوحد، أي: جعل الشيء واحداً.

وفي الشرع: إفراد الله - سبحانه - بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

1• **أقسامه:** ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

1- توحيد الربوبية. 2- توحيد الألوهية. 3- توحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت في قوله تعالى: **رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً** [مريم: 65].

2• **القسم الأول : توحيد الربوبية:**

هو إفراد الله - عز وجل - بالخلق، والملك، والتدبير.

فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسـان أنه لا خـالق إلا اللـه، قـال تعـالى: **ألا له الخلق والأمر** [الأعراف: 54]، فهـذه الجملة تفيد الحصر لتقـديم الخـبر؛ إذ إن تقـديم ما حقه التـأخير يفيد الحصـر، وقـال تعـالى: **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض** [فـاطر: 3]؛ فهـذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله، لأن الاستفهام فيها مشرب معنى التحدي.

أما ما ورد من إثبـات خلق غــير اللــه؛ كقوله تعــالى: **فتبــارك الله أحسن الخالقين** [المؤمنـون: 14]، وكقوله في المصـورين: يقـال لهم "**أحيوا ما خلقتم**"[(1)].

فهذا ليس خلقاً حقيقة، وليس إيجاداً بعد عـدم، بل هو تحويل للشـيء من حال إلى حال، وأيضاً ليس شاملاً، بل محصـور بما يتمكن الإنسـان منـه، ومحصور بدائرة ضيقة؛ فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

وأما إفراد الله بالملك:

فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم؛ كما قال تعــالى: **ولله ملك السـماوات والأرض** [آل عمـران: 19]، وقـال تعـالى: **قل من بيـده ملكوت كل شيء** [المؤمنون: 88].

وأما ما ورد من إثبــات الملكية لغــير اللــه؛ كقوله تعــالى: **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملـومين** [المؤمنـون: 6]، وقــال تعــالى: **أو ما ملكتم مفتاحه** [النــور: 61]، فهو ملك محــدود لا يشمل إلا شيئاً يسيراً من هذه المخلوقات؛ فالإنسان يملك ما تحت يـده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكـذا هو ملك قاصر من حيث الوصـف؛ فالإنسـان لا يملك ما عنده تمـام الملـك، ولهـذا لا يتصـرف فيه إلا على حسب ما أذن له فيه شرعاً، فمثلاً: لو أراد أن يحرق ماله، أو يعذب حيوانه؛ قلنـا: لا يجـوز، أما الله - سبحانه ـ، فهو يملك ذلك كله ملكاً عاماً شاملاً.

وأما إفراد الله بالتدبير:

---

(1) البخاري: كتاب اللباس/ باب عذاب المصورين يوم القيامة، ومسلم: كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم صورة الحيوان.

فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده؛ كما قال تعـالى: ﴿**قل من يـرزقكم من السـماء والأرض أم من يملك السـمع والأبصـار ومن يخـرج الحي من الميت ويخـرج الميت من الحي ومن يـدبر الأمر فسـيقولون الله فقل أفلا تتقـون. فـذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون**﴾ [يونس: 31].

وأما تدبير الإنسان؛ فمحصور بما تحت يـده، ومحصـور بما أذن له فيه شرعاً. وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الـذين بعث فيهم الرسـول ﷺ، بل كـانوا مقـرين بـه، قـال تعـالى: ﴿**ولئن سـألتهم من خلق السـماوات والأرض ليقـولن خلقهن العزيز العليم**﴾ [الزخـرف: 9]، فهم يقرون بأن الله هو الذي يدبر الأمر، وهو الذي بيده ملكـوت السـماوات والأرض، ولم ينكره أحد معلـوم من بـني آدم؛ فلم يقل أحد من المخلـوقين: إن للعالم خالقين متساويين.

فلم يجحد أحد توحيد الربوبيـة، لا على سـبيل التعطيل ولا على سـبيل التشريك، إلا ما حصل من فرعون؛ فإنه أنكره على سـبيل التعطيل مكـابرة؛ فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده، قال تعالى حكاية عنه: ﴿**فقـال أنا ربكم الأعلى**﴾ [النازعـــات: 24]، ﴿**ما علمت لكم من إله غـــيري**﴾ [القصص: 38]. وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الرب غـيره؛ كما قـال تعـالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً**﴾ [النمل: 14]، وقال تعـالى حكاية عن موسى وهو ينـاظره: ﴿**لقد علمت ما أنـزل هـؤلاء إلا رب السماوات والأرض**﴾ [الإسراء: 102]؛ فهو في نفسه مقر بأن الرب هو الله –عز وجل-.

وأنكر توحيد الربوبية على سبيل التشـريك المجـوس، حيث قـالوا: إن للعـالم خـالقين هما الظلمة والنـور، ومع ذلك لم يجعلـوا هـذين الخـالقين متسـاويين، فهم يقولـون: إن النــور خـير من الظلمــة؛ لأنه يخلق الخــير، والظلمة تخلق الشر، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر.

وأيضاً؛ فإن الظلمة عدم لا يضيء، والنور وجود يضـيء؛ فهو أكمل في ذاته.

ويقولـون أيضـاً بفـرق ثـالث، وهـو: أن النـور قـديم على اصـطلاح الفلاسفة، واختلفوا في الظلمة، هل هي قديمة، أو محدثة؟ على قولين.

دلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد:

قال الله تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كـان معه من إله إذاً لـذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضـهم على بعض**﴾ [المؤمنـون: 91]، إذ لو أثبتنا للعالم خالقين؛ لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق ويستقل به كعادة الملوك؛ إذا لا يرضى أن يشاركه أحد، وإذا استقل بـه؛ فإنه يريد أيضـاً أمراً آخر، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد.

وحينئذ إذا أرادا السلطان؛ فإما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخـر، أو يسيطر أحدهما على الآخر؛ فإن سيطر أحدهما على الآخر ثبتت الربوبية لـه، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعـــاً؛ لأن العـــاجز لا يصلح أن يكون ربّاً.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

ويقال له: توحيد العبادة باعتبـارين؛ فاعتبـار إضـافته إلى الله يسـمى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العبادة.

وهو إفراد الله - عز وجل - بالعبادة.

فالمستحق للعبـادة هو الله تعـالى، قـال تعـالى: **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل** [لقمان: 30].

والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبـد: بمعـنى التـذلل لله - عز وجل - بفعل أوامـره واجتنـاب نواهيه؛ محبة وتعظيماً.

الثـاني: المتعبد بـه؛ فمعناها كما قـال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضـاه من الأقـوال والأعمـال الظـاهرة والباطنة".

مثال ذلك: الصـلاة؛ ففعلها عبـادة، وهو التعبـد، ونفس الصـلاة عبـادة، وهو المتعبد به.

فإفراد الله بهـذا التوحيـد: أن تكـون عبـداً لله وحـده تفـرده بالتـذلل؛ محبة وتعظيماً، وتعبده بما شرع، قال تعالى: **لا تجعل مع الله إلهـاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً** [الإسـراء: 22]. وقـال تعـالى: **الحمد لله رب العالمين** [الفاتحة: 2]؛ فوصفه سبحانه بأنه رب العالمين كالتعليل لثبـوت الألوهية لـه؛ فهو الإله لأنه رب العـالمين، وقـال تعـالى: **يا أيها النـاس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم** [البقرة: 21]؛ فالمنفرد بالخلق هو المستحق للعبادة.

إذ من السفه أن تجعل المخلوق الحادث الآيل للفناء إلهـاً تعبـده؛ فهو في الحقيقة لن ينفعك لا بإيجاد ولا بإعـداد ولا بإمـداد، فمن السـفه أن تـأتي إلى قـبر إنسـان صـار رميمـاً تـدعوه وتعبـده، وهو بحاجة إلى دعائـك، وأنت لست بحاجة إلى أن تـدعوه؛ فهو لا يملك لنفسه نفعـاً لا ضـراً؛ فكيف يملكه لغيره؟!

وهـذا القسم كفر به وجحـده أكـثر الخلـق، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال الله تعالى: **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** [الأنبياء: 25].

ومع هذا؛ فأتباع الرسل قلة، قال عليه الصلاة والسلام: "فرأيت النـبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد"[1].

3• تنبيه:

من العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون على توحيد الربوبية، وكأنما يخاطبون أقواماً ينكرون وجود الـرب - وإن كـان يوجد من ينكر الرب ـ، لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة!!.

ولهذا ينبغي أن يركز على هذا النوع من التوحيد حتى نخرج إليه هـؤلاء المسلمين الذين يقولون بأنهم مسلمون، وهم مشركون، ولا يعلمون.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

وهو إفراد الله - عز وجل - بما له من الأسماء والصفات.

وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت لله - عز وجل - جميع أسـمائه وصـفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو سنة نبيه ﷺ.

الثـــاني: نفى المماثلـــة، وذلك بـــأن لا نجعل لله مـــثيلاً في أســـمائه وصـفاته؛ كما قـال تعـالى: **ليس كمثله شيء وهو السـميع البصـير**

---

[1] البخاري: كتاب الطب/باب من أكتوى أو كوى غيره، ومسلم: كتاب الإيمان/باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

[الشورى: 11]. فدلت هذه الآية على أن جميع صـفاته لا يماثله فيها أحد من المخلــوقين؛ فهي وإن اشــتركت في أصل المعــنى، لكن تختلف في حقيقة الحـال، فمن لم يثبت ما أثبته الله لنفسـه؛ فهو معطـل، وتعطيله هـذا يشـبه تعطيل فرعون، ومن أثبتها مع التشبيه صار مشابهاً للمشركين الـذين عبـدوا مع الله غيره، ومن أثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين.

وهـذا القسم من التوحيد هو الـذي ضـلت فيه بعض الأمة الإسـلامية وانقسموا فيه إلى فرق كثـيرة؛ فمنهم من سـلك مسـلك التعطيـل، فعطـل، ونفى الصفات زاعمـاً أنه منزه للـه، وقد ضـل، لأن المـنزه حقيقـةً هو الـذي ينفي عنه صفات النقص والعيب، ويـنزه كلامه من أن يكـون تعمية وتضـليلاً، فإذا قال: بأن الله ليس له سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة، لم يـنزه اللـه، بل وصـمه بـأعيب العيـوب، ووصم كلامه بالتعمية والتضـليل، لأن الله يكـرر ذلك في كلامه ويثبتـه، **سـميع بصـير**، **عزيز حكيم**، **غفـور رحيم**، فإذا أثبته في كلامه وهو خال منـه؛ كـان في غاية التعمية والتضـليل والقـدح في كلام الله - عز وجل ـ، ومنهم من سلك مسلك التمثيل زاعماً بأنه محقق لما وصف الله به نفســه، وقد ضــلوا لأنهم لم يقــدروا الله حق قــدره؛ إذا وصموه بالعيب والنقص، لأنهم جعلـوا الكامل من كل وجه كالنـاقص من كل وجه.

وإذا كـان اقـتران تفضـيل الكامل على النـاقص يحط من قـدره، كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فكيف بتمثيل الكامل بالنـاقص؟! هـذا أعظم ما يكـون جنايـةً في حق الله - عز وجل ـ، وإن كان المعطـوف أعظم جرمـاً، لكن الكل لم يقـدر الله حق قدره.

فالواجب: أن نـؤمن بما وصف الله وسـمى به نفسه في كتابـه، وعلى لسان رسوله ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف ، ولا تمثيل.

هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم.

فالتحريف في النصوص، والتعطيل في المعتقد، والتكييف في الصفة، والتمثيل في الصـــفة، إلا أنه أخص من التكـــييف؛ فكل ممثل مكيـــف، ولا عكس، فيجب أن تبرأ عقيدتنا من هذه الأمور الأربعة.

ونعني بالتحريف هنا: التأويل الذي سلكه المحرفون لنصوص الصفات؛ لأنهم سموا أنفسهم أهل التأويل، لأجل تلطيف المسـلك الـذي سـلكوه؛ لأن النفـوس تنفـرُ من كلمة تحريـف، لكن هـذا من بـاب زخرفة القـول وتزيينه للناس، حتى لا ينفروا منه.

وحقيقة تأويلهم: التحريف، وهو صرف اللفظ عن ظاهره؛ فنقول: هذا الصرف إن دل عليه دليل صحيح؛ فليس تأويلاً بـالمعنى الـذي تريـدون، لكنه تفسير.

وإن لم يــدل عليه دليــل؛ فهو تحريــف، وتغيــير للكلم عن مواضــعه؛ فهؤلاء الذين ضلوا بهذه الطريقة، فصاروا يثبتون الصـفات لكن بتحريـف؛ قد ضلوا، وصاروا في طريق معاكس لطريق أهل السنة والجماعة.

وعليه لا يمكن أن يوصفوا بأهل السنة والجماعة؛ لأن الإضـافة تقتضي النسبة، فأهل السنة منتسبون للسـنة؛ لأنهم متمسـكون بهـا، وهـؤلاء ليسـوا متمسكين بالسنة فيما ذهبوا إليه من التحريف.

وأيضاً الجماعة في الأصـل: الاجتمـاع، وهم غـير مجتمعين في آرائهم؛ ففي كتبهم التداخل، والتناقض، والاضطراب، حتى إن بعضـهم يضـلل بعضـاً، ويتناقض هو بنفسه.

وقد نقل شــارع "الطحاويــة" عن الغــزالي - وهو ممن بلغ ذروة علم الكلام - كلامــاً إذا قــرأه الإنســان تــبين له ما عليه أهل الكلام من الخطأ والزلل والخطل، وأنهم ليسوا على بينة من أمرهم.

وقال الرازي وهو من رؤسائهم:

نهاية إقــدام العقــول عقــال	وأكـثر سـعي العـالمين ضـلال
وأرواحنا وفي وحشة من جســـومنا	وغاية دنيانا أذى ووبـــــــــــــال
ولم نســتفد من بحثنا طــول عمرنا	ســـوى أن جمعنا فيه قيل وقـــالوا

ثم قـال: لقد تـأملت الطـرق الكلامية والمنـاهج الفلسـفية؛ فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقـرأ في الإثبات: **الرحمن على العرش استوى** [طـه: 5] **إليه يصـعد الكلم الطيب** [فاطر: 10]؛ يعني: فأثبت، وأقرأ في النفي: **ليس كمثله شيء** [الشورى: 11]، **ولا يحيطون به علمـاً** [طـه: 110]؛ يعـني: فـأنفي المماثلــة، وأنفي الإحاطة به علمــاً، ومن جــرب مثل تجربــتي عــرف مثل معرفتي.

فتجـدهم حيـارى مضـطربين، ليسـوا على يقين من أمـرهم، وتجد من هداه الله الصراط المستقيم مطمئناً منشرح الصدر، هـادئ البـال، يقـرأ في كتاب الله وفي سـنة رسـوله ﷺ، ما أثبته الله لنفسه من الأسـماء والصـفات؛ فيثبت؛ إذ لا أحد أعلم من الله بالله، ولا أصدق خبراً من خـبر اللـه، ولا أصح بياناً من بيان الله؛ كما قال تعالى: **يريد الله ليـبين لكم** [النسـاء: 26]، **يــبين الله لكم أن تضـلوا** [النســاء: 176]، **ونزلنا عليك الكتـاب تبياناً لكل شيء** [النحل: 89]، **ومن أصدق من الله قيلاً** [النسـاء: 122]، **ومن أصدق من الله حديثاً** [النساء: 87]. فهذه الآيـات وغيرها تدل على أن الله يبين للخلق غاية البيان الطريق التي توصلهم إليـه، وأعظم ما يحتـاج الخلق إلى بيانه ما يتعلق بالله تعـالى وبأسـماء الله وصـفاته حـتى يعبدوا الله على بصيرة؛ لأن عبادة من لم نعلم صفاته، أو من ليس له صــفة أمر لا يتحقق أبــداً؛ فلابد أن تعلم من صـفات المعبـود ما تجعلك تلتجئ إليه وتعبده حقاً.

ولا يتجاوز الإنسان حده إلى التكـييف أو التمثيـل؛ لأنه إذا كـان عـاجزاً عن تصور نفسه التي بين جنبيه؛ فمن باب أولى أن يكون عـاجزاً عن تصـور حقائق ما وصف الله به نفسه، ولهـذا يجب على الإنسـان أن يمنع نفسه عن السؤال بـ "لِمَ" و"كيف" فيما يتعلق بأسـماء الله وصـفاته، وكـذا يمنع نفسه من التفكير بالكيفية.

وهذا الطريق إذا سـلكه الإنسـان اسـتراح كثـيراً، وهـذه حـال السـلف رحمهم الله، ولهذا لما جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله قال: يا

أبا عبدالله! ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، كيف استوى؟ فأطرق برأسه وقال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً".

أما في عصرنا الحاضر؛ فنجد من يقول إن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، فيلزم من هذا أن يكون كل الليل في السماء الدنيا؛ لأن الليل يمشي على جميع الأرض؛ فالثلث ينتقل من هذا المكان إلى المكان الآخر، وهذا لم يقله الصحابة رضوان الله عليهم، ولو كان هذا يرد على قلب المؤمن؛ لبينه الله إما ابتداءً أو على لسان رسوله ﷺ: أو يقيض من يسأله عنه فيجاب، كما سأل الصحابة رسول الله ﷺ أين كان الله قبل أن يخلق السماوات والأرض، فأجابهم[1].

فهذا السؤال العظيم يدل على أن كل ما يحتاج إليه الناس فإن الله يبينه بأحد الطرق الثلاثة.

والجواب عن الإشكال في حديث النزول[2]: أن يقال: ما دام ثلث الليل الأخير في هذه الجهة باقياً، فالنزول فيها محقق، وفي غيرها لا يكون نزول قبل ثلث الليل الأخير أو النصف، والله - عز وجل - ليس كمثله شيء، والحديث يدل على أن وقت النزول ينتهي بطلوع الفجر.

وعلينا أن نستسلم، وأن نقول: سمعناً، وأطعنا، واتبعنا، وآمنا؛ فهذه وظيفتنا لا نتجاوز القرآن والحديث.

* * *

وقول الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذريات: 56] الآية.

- **الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وما خلق الجن والإنس إلا ليعبدون﴾**.

قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي: ما خلق الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.

واللام في قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول؛ إذ لو كان كذلك للزم أن يكون الخلق كلهم عباداً يتعبدون له، وليس الأمر كذلك، فهذه العلة غائية، وليست موجبة.

فالعلة الغائية لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل، لكنها قد تقع، وقد لا تقع، مثل: بريت القلم لأكتب به؛ فقد تكتب، وقد لا تكتب.

والعلة الموجبة معناها: أن المعلول مبني عليها؛ فلابد أن تقع، وتكون سابقة للمعلول، ولازمة له، مثل: انكسر الزجاج لشدة الحرة.

قوله: ﴿خلقت﴾، أي أوجدت، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير.

قال الشاعر.

ولأنت تفري ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفري

قوله: ﴿الجن﴾: هم عالمٌ غيبيٌ مخفيٌ عنا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلان على الخفاء والاستتار، ومنه: الجَنة، والجِنة، والجُنة.

---

[1] البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق﴾.

[2] البخاري: كتاب التهجد/باب الدعاء والصلاة آخر الليل، ومسلم: كتاب صلاة المسافر/ باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل.

قوله: ﴿**الإنس**﴾ سموا بذلك، لأنهم لا يعيشون بدون إيناس، فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرك بعضهم إلى بعض.

قوله: ﴿**إلا ليعبدون**﴾ فُسِّر: إلا ليوحدون، وهـذا حـق، وفُسِّـر: بمعـنى يتـذللون لي بالطاعة فِعلاً للمـأمور، وتركـاً للمحظـور، ومن طاعته أن يوحد سبحانه وتعالى؛ فهذه هي الحكمة من خلق الجن والإنس.

ولهذا أعطى الله البشر عقولاً، وأرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتبـاً، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خلق البهـائم؛ لضـاعت الحكمة من إرسال الرسل، وإنـزال الكتب؛ لأنه في النهاية يكـون كشـجرة نبتت، ونمت، وتحطمت، ولهذا قال تعالى: ﴿**إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**﴾ [القصص: 85]؛ فلابد أن يردك إلى معادٍ تجازى على عملك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وليست الحكمة من خلقهم نفع اللــه، ولهــذا قــال تعــالى: ﴿**ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون**﴾ [الذريات: 57].

وأما قوله تعــالى: ﴿**من ذا الــذي يقــرض الله قرضــاً حســناً فيضاعفه له**﴾ [البقرة: 245].

فهذا ليس إقراضاً لله سـبحانه، بل هو غـنيٌّ عنـه، لكنه سـبحانه شـبه معاملة عبده له بالقرض؛ لأنه لا بد من وفائه، فكأنه الـتزامُ من الله سـبحانه أن يوفى العامل أجر عمله كما يوفي المقترض من أقرضه.

* * *

وقوله تعـالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسـولاً أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: 36]

▪ الآية الثانية قوله تعــالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رســولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: 36].

قوله: ﴿**ولقد**﴾: اللام موطئه لقسم مقدر، وقد: للتحقيق.

وعليه؛ فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام، وقد.

قوله: ﴿**بعثنا**﴾؛ أي: أخرجنا، وأرسلنا في كل أمة.

والأمة هنا: الطائفة من الناس.

وتطلق الأمة في القرآن على أربعة معانٍ:

1- الطائفة: كما في هذه الآية.

2- الإمام، ومنه قوله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتـاً لله**﴾ [النحل: 120].

3- الملـة: ومنه قوله تعـالى: ﴿**إنا وجـدنا آباءنا على أمة**﴾ [الزخرف: 23].

4- الـزمن: ومنه قوله تعـالى: ﴿**وادكر بعد أمة**﴾ [يوسـف: 45].

فكل أمة بعث فيها رسول من عهد نوح إلى عهد نبينا محمد ﷺ.

4• والحكمة من إرسال الرسل:

1- إقامة الحجة: قال تعالى: ﴿**رسـلاً مبشـرين ومنـذرين لئلاً يكــون للنــاس على الله حجة بعد الرسل**﴾ [النســاء: 165].

2- الرحمـــة: لقوله تعـــالى: ﴿**وما أرســـلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [الأنبياء: 107].

3- بيــان الطريق الموصل إلى الله تعــالى، لأن الإنســان لا يعرف ما يجب لله على لوجه التفصيل إلا عن طريق الرسل.

قوله: ﴿**أن اعبدوا الله**﴾ أن: قيل تفسيرية، وهي التي سبقت بما يدل على القول دون حروفـه؛ كفوله تعـالى: ﴿**فأوحينا إليه أن اصـنع الفلك**﴾ [المؤمنون: 27]، والوحي فيه معـنى القـول دون حروفـه، والبعث متضـمن معنى الوحي؛ لأن كل رسول موحى إليه.

وقيل: إنها مصدرية على تقدير الباء؛ أي: بأن اعبـدوا، والـراجح الأول؛ لعدم التقرير. أي: تذللوا له بالعبادة، وسبق تعرف العبادة[1].

قوله: ﴿**واجتنبوا الطاغوت**﴾ أي: ابتعدوا عنه بأن تكونـوا في جـانب، وهو في جــانب، والطــاغوت: مشــتق من الطغيــان، وهو صــفة مشــبهة، والطغيـــان: مجـــاورة الحـــد؛ كما في قوله تعـــالى: ﴿**إنا لما طغا المـــاء حملناكم في الجارية**﴾ [الحاقة: 11]؛ أي: تجاوز حده.

وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكـره ابن القيم رحمه الله بأنــه: "ما تجاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع".

ومراده من كـان راضـياً بـذلك، أو يقـال: هو طـاغوت باعتبـار عابـده، وتابعه، ومطيعه؛ لأنه تجاوز به حـده حيث نَزَّله فـوق منزلته الـتي جعلها الله له، فتكـون عبادته لهـذا المعبـود، واتباعه لمتبوعـه، وطاعته لمطاعه طغيانـاً لمجاوزته الحد بذلك.

فالمتبوع مثل: الكهان، والسحرة، وعلماء السوء.

والمعبود مثل: الأصنام.

والمطاع مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة الله، فإذا اتخذهم الإنســان أربابـاً يحل ما حـرم الله من أجل تحليلهم لـه، ويحـرم ما أحل الله من أجل تحريمهم له؛ فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت، قـال تعـالى: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتـاب يؤمنـون بـالجبت والطـاغوت**﴾ [النساء: 51]، ولم يقل: إنهم طواغيت.

ودلالة الآية على التوحيد: أن الأصــنام من الطــواغيت الــتي تعبد من دون الله. والتوحيد لا يتم إلا بركنين، هما:

1- الإثبات.

2- النفي.

إذ النفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة.

مثال ذلك: زيد قـائم، يـدل على ثبـوت القيـام لزيـد، لكن لا يـدل على انفراده به.

ولم يقم أحد، هذا نفي محض.

ولم يقم إلا زيد، هذا توحيد له بالقيام؛ لأنه اشتمل على إثبات ونفي.

قوله: "**الآية**" أي: إلى آخر الآية، وتقرأ بالنصب؛ إما على أنها مفعــول به لفعل محذوف تقديره أكمل الآية، أو أنها منصوب بنزع الخـافض؛ أي: إلى آخر الآية.

---

(1) ص3.

ووجه الاستشــهاد بهــذه الآية لكتــاب التوحيــد: أنها دالة على إجمــاع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الـدعوة إلى التوحيـد، وأنهم أرسـلوا بـه؛ لقوله تعالى: ﴿**أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾.

* * *

وقوله تعــالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبــدوا إلا إيــاه وبالوالــدين إحساناً**﴾. [الإسراء: 23] الآية.

▪ **الآية الثالثة قوله تعــالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبــدوا إلا إياه...﴾ الآية.**

قوله: ﴿**قضى**﴾ قضاء الله - عز وجل - ينقسم إلى قسمين:

1- قضاء شرعي. 2- قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضي عليه وعدمــه، ولا يكــون إلا فيما يحبه الله.

مثال ذلك: هذه الآية: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيـاه**﴾ [الإسـراء: 23]؛ فتكون قضى بمعنى: شرع، أو بمعنى: وصى، وما أشبههما.

والقضــاء الكــوني: لابد من وقوعــه، ويكــون فيما أحبه اللــه، وفيما لا يحبه.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتــاب لتفســدن في الأرض مــرتين ولتعلن علــواً كبــيراً**﴾ [الإســراء: 4] فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يحبه.

قولـه: ﴿**أن لا تعبـدوا**﴾ .﴿**أن**﴾ هنا مصـدرية بـدليل حـذف النـون من تعبدوا، والاستثناء هنا مفرغ؛ لأن الفعل لم يأخذ مفعوله؛ فمفعوله ما بعد إلا.

قوله: ﴿**إلا إياه**﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصــال؛ لأن المتصل لا يقع بعد إلا، قال ابن مالك:

وذو اتصال منه ما لا يبتدا ولا يلي إلا اختياراً أبداً

• 5 **إشكال وجوابه:**

إذا قيــل: ثبت أن الله قضى كونــاً ما لا يحبــه؛ فكيف يقضي الله ما لا يحبه؟

فالجواب: أن المحبوب قسمان:

1- محبوب لذاته.

2- محبوب لغيره.

فــالمحبوب لغـيره قد يكــون مكروهــاً لذاتــه، ولكن يحب لما فيه من الحكمة والمصلحة؛ فيكون حينئذ محبوباً من وجه، مكروهاً من وجه آخر.

مثال ذلك: الفســاد في الأرض من بـني إسـرائيل في حد ذاته مكـروه إلى اللـــه؛ لأن الله لا يحب الفســـاد، ولا المفســـدين، ولكن للحكمة الـــتي يتضمنها يكون بها محبوباً إلى الله - عز وجل - من وجه آخر.

ومن ذلك: القحط، والجدب، والمرض، والفقــر؛ لأن الله رحيم لا يحب أن يؤذي عباده بشـيء من ذلـك، بل يريد بعبـاده اليسـر، لكن يقـدره للحكم المترتبة عليه؛ فيكون محبوباً إلى الله من وجه، مكروهاً من وجه آخر.

قـال الله تعـالى: ﴿**ظهر الفسـاد في الـبر والبحر بما كسـبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الـذي عملـوا لعلهم يرجعـون**﴾ [الـروم: 41].

فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوباً من وجه مكروهاً من وجه آخر؟

فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جرعة من الدواء مُرَّة كريهة الرائحة واللون، فيشربها، وهو يكرهها لما فيها من المرارة واللون والرائحة، ويحبها لما فيها من الشفاء، وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديدة المحماة على النار، ويتألم منها؛ فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه أخر.

فإن قيل: لماذا لم يكن قوله: **وقضي ربك أن لا تعبدوا إلا إياه** من باب القضاء القدري؟

أجيب: بأنه لا يمكن؛ إذ لو كان قضاءً قدرياً لعبد الناس كلهم ربهم، لكنه قضاء شرعي قد يقع وقد لا يقع.

والخطاب في الآية للنبي ولكن، لكنه قال: **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه**، ولم يقل "أن لا تعبد"، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: **يا أيها النبي إذا طلقتم النساء** [الطلاق: 1] ؛ فالخطاب الأول للرسول والثاني عام؛ فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟

أجيب: إن الفائدة من ذلك:

1- التنبيه؛ إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلم، وهذا حاصل هنا بتغيير الأسلوب.

2- أن النبي زعيم أمته، والخطاب الموجه إليه موجه لجميع الأمة.

3- الإشارة إلى أن ما خوطب به الرسول فهو له ولأمته؛ إلا ما دلّ الدليل على أنه مختص به.

4- وفي هذه الآية خاصة الإشارة إلى أن النبي مربوب لا رب، عابد لا معبود؛ فهو داخل في قوله: **تعبدوا**، وكفى به شرفاً أن يكون عبداً لله – عز وجل – ولهذا يصفه الله تعالى بالعبودية في أعلى مقاماته؛ فقال في مقام التحدي والدفاع عنه: **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** [البقرة: 23]، وقال في مقام إثبات نبوته ورسالته إلى الخلق: **تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده** [الفرقان: 1]، وقال في مقام الإسراء والمعراج **سبحان الذي أسرى بعبده** [الإسراء: 1]، **فأوحى إلى عبده ما أوحى** [النجم: 10].

- **أقسام العبودية:**

تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

1- عامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق، قال تعالى: **إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً** [مريم: 93]، ويدخل في ذلك الكفار.

2- عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة العامة، قال تعالى: **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً** [الفرقان: 63]، وهذه تعم كل من تعبد لله بشرعه.

3- خاصّة الخاصّة، وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى عن نوح: **إنه كان عبداً شكوراً** [الإسراء: 3]، وقال عن محمد: **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على**

عبـدنا [البقـرة: 23]، وقـال في آخـرين من الرسـل: **وأذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصـار** [ص: 45].

فهذه العبودية المضـافة إلى الرسل خاصة الخاصـة؛ لأنه لا يبـاري أحد هؤلاء الرسل في العبودية.

قولـه: **وبالوالـدين إحسـاناً** أي: قضى ربك أن نحسن بالوالـدين إحسـانا، والوالـدان: يشـمل الأم، والأب، ومن فوقهمـا، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولى بالإحسان، والإحسـان، بـذل المعـروف، وفي قوله: **وبالوالدين إحساناً** بعد قولــه: **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه** دليل على أن حق الوالدين بعد حق الله- عز وجل -.

فإن قيل: فأين حق الرسول ؟

أجيب: بـأن حق الله متضـمن لحق الرسـول ؛ لأن الله لا يعبد إلا بما شرع الرسول .

وقولـه: **إما يبلغن عنـدك الكـبر أحـدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أوفٍّ** أي: كف الأذى عنهما؛ ففي قوله: **إحسـاناً**: بـذل المعـروف، وفي قوله: **فلا تقل لهما أوفٍّ**: كف الأذى، ومعنى "أف": أتضـجر؛ لأنك إذا قلته؛ فقد يتأذّيان بـذلك، وفي الآية إشـارة إلى أنهما إذا بلغا الكـبر صـارا عبئاً على ولدهما؛ فلا يتضـجر من الحـال، ولا ينهرهما في المقـال إذا أسـاءا في الفعل أو القول.

قوله: **وقل لهما قولاً كريمـاً**، أي: لينا حسـناً بهـدوء وطمأنينـة؛ كقولـك: أعظم الله أجـرك، أبشـري يا أمي، أبشر يا أبي، وما أشـبه ذلـك؛ فالقول الكريم يكـون في صـيغته، وأدائـه، والخطـاب بـه، فلا يكـون مزعجـاً كرفع الصوت مثلاً، بل يتضمن الدعاء والإيناس لهما.

والشاهد في هذه الآية: قوله تعالى: **ألا تعبـدوا إلا إيـاه**؛ فهـذا هو التوحيد لتضمنه للنفي والإثبات.

* * *

وقوله تعالى: **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً** [النساء: 36].

- **الآية الرابعة قوله تعالى: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً... الآية.**

ولا تشركوا في مقابل "لا إله"؛ لأنها نفي.

وقوله: **واعبدوا** في مقابل "إلا إله"؛ لأنها إثبات.

وقولـه: **شيئاً** نكـرة في سـياق النهي؛ فتعم كل شـيء: لا نبيـاً، ولا ملكاً، ولا ولياً، بل ولا أمراً من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الـدنيا شـريكاً مع اللـه، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابداً لها؛ كما قال : "**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة**"[1].

قوله: **وبالوالدين إحساناً** يقال فيها ما قيل في الآية السابقة[2].

قوله: **وبذي القربى واليتامى والمساكين**؛ أي: إحساناً.

وذو القربى هم من يجتمعون بالشخص في الجد الرابع.

واليتامى: جَمْعُ يتيم، وهو الذي مات أبوه، ولم يبلغ.

والمساكين: هم الذين عدموا المال فأسكنهم الفقر.

وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به النفقة.

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد/ باب الحراسة في الغزو.

[2] أنظر: (ص 12).

قوله: ﴿**والجار ذي القربى والجار الجنب**﴾ الجار: الملاصق للبيت، أو من حوله، وذي القربى؛ أي: القريب، والجار الجنب؛ أي: الجار البعيد.

قوله: ﴿**والصاحب بالجانب**﴾، قيل: إنه الزوجة، وقيل: صاحبك في السفر، لأنه يكون إلى جنبك، ولكل منهما حق؛ فالآية صالحة لهما.

قوله: ﴿**وما ملكت أيمانكم**﴾ هذا يشمل الإحسان إلى الأرقّاء والبهائم؛ لأن الجميع ملك اليمين.

قوله: ﴿**إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾.

المختال: في هيئته.

والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا ولا هذا.

* * *

وقوله تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً**﴾ [الأنعام: 151] الآيات.

- الآية الخامسة إلى السابعة قوله تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم...**﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، أمره الله أن يقول للناس: ﴿**تعالوا**﴾؛ أي أقبلوا، وهلموا، وأصله من العلو كأن المنادي يناديك أن تعلو إلى مكانه، فيقول: تعالى؛ أي: ارتفع إلي.

وقوله: ﴿**أتل**﴾ بالجزم جواباً للأمر في قوله: ﴿**تعالوا**﴾.

وقوله: ﴿**ما حرّم ربكم عليكم**﴾ "ما" اسم موصول مفعول لأتل، والعائد محذوف، والتقدير: ما حرمه ربكم عليكم.

وقال: ﴿**ربكم**﴾ ولم يقل: ما حرم الله؛ لأن الرب هنا أنسب، حيث إن الرب له مطلق التصرف في المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته.

قوله: ﴿**ألا تشركوا**﴾ أن: تفسيرية، تفسر ﴿**أتل ما حرم**﴾؛ أي: أتلو عليكم ألا تشركوا به شيئاً، وليست مصدرية، وقد قيل به، وعلى هذا القول تكون "لا" زائدة، ولكن القول الأول أصح، أي: أتل عليكم عدم الإشراك؛ لأن الله لم يحرم علينا أن لا نشرك به، بل حرم علينا أن نشرك به، وما يؤيد أنّ "أنْ" تفسيرية أن "لا" هنا ناهية لتتناسب الجمل؛ فتكون كلها طلبية.

قوله: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾، أي: وأتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

قوله: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم**﴾، بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حق الفروع.

والأولاد في اللغة العربية: يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿**يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ [النساء: 11].

قوله: ﴿**من إملاق**﴾، الإملاق: الفقر، و ﴿**من**﴾ للسببية والتعليل؛ أي: بسبب الإملاق.

قوله: ﴿**نحن نرزقكم وإيّاهم**﴾، أي: إذا أبقيتموهم؛ فإنّ الرزق لن يضيق عليكم بإبقائهم، لأن الذي يقوم بالرزق هو الله.

وبدأ هنا برزق الوالدين؛ وفي سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة في ذلك أنه قال هنا: ﴿**من إملاق**﴾؛ فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿**خشية إملاق**﴾ [الإسراء: 31]؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

وتقييد النهي عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناءٍ على واقع المشــركين غالباً، فلا مفهوم له.

قولــه: ﴿**ولا تقربــوا الفــواحش**﴾، لم يقــل: لا تــأتوا؛ لأن النهي عن القــرب أبلغ من النهي عن الإتيــان؛ لأن النهي عن القــرب نهي عنهــا، وعما يكون ذريعة إليها، ولذلك حَرُم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية، وأن يخلو بها، وأن تسافر المرأة بلا محرم؛ لأن ذلك يقرب من الفواحش.

قوله: ﴿**ما ظهر منها وما بطن**﴾، قيــل: ما ظهر فحشــه، وما خفي؛ لأن الفواحش منها شيء مسـتفحش في نفـوس جميع النـاس، ومنها شــيء فيه خفاء.

وقيــل: ما أظهرتمـوه، وما أسـررتموه، فالإظهـار: فعل الزنا - والعيـاذ بالله - مجاهرةً، والإبطان فعله سراً.

وقيل: ما عظم فحشه، وما كان دون ذلك؛ لأنّ الفــواحش ليست على حد سواء، ولهذا جاء في الحديث: "**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**"[1]، وهذا يدل على أن الكبائر فيها أكبر وفيها ما دون ذلك.

قولــه: ﴿**ولا تقتلوا النفس الـتي حـرم الله إلا بــالحق**﴾، النفس الــتي حــرم اللــه: هي النفس المعصــومة، وهي نفس المســلم، والــذمي، والمعاهد، والمستأمن؛ بكسر الميم.

والحق: ما أثبته الشرع.

والباطل: ما نفاه الشرع.

فمن الحق الــذي أثبته الشــرع في قتل النفس المعصــومة أن يــزني المحصن فـيرجم حـتى يمـوت، أو يقتل مكافئـه، أو يخـرج على الجماعـة، أو يقطع الطريق؛ فإنه يقتل، قال ﷺ: "**لا يحل دم امرئ مسـلم إلا بإحـدى ثلاث: النفس بـالنفس، والثّيب الـزاني، والتـارك لدينه المفـارق للجماعة**"[2].

وقـال هنـاك: ﴿**ولا تقتلـوا النفس الـتي حـرم الله إلا بـالحق**﴾، وقـال قبلهـا: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم**﴾؛ فيكـون النهي عن قتل الأولاد مكـرراً مرتين: مرة بذكر الخصوص، ومرة بذكر العموم.

وقوله: ﴿**ذلكم وصاكم به**﴾، المشار إليه ما سـبق، والوصـية بالشـيء هي العهد به على وجه الاهتمام، ولهذا يقـال: وصـيته على فلان؛ أي: عهـدت به إليه ليهتم به.

قوله: ﴿**تعقلون**﴾، العقل هنـا: حسن التصـرف، وأما في قوله تعـالى: ﴿**إنا جعلنــاه قرآنــاً عربيــاً لعلكم تعقلــون**﴾ [الزخــرف: 3]، فمعنــاه: تفهمون.

وفي هذا دليلٌ على أن هـذه الأمـور إذا الـتزم بها الإنسـان؛ فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل.

وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا:

الأولى : توحيد الله.

الثانية : الإحسان بالوالدين.

الثالثة : أن لا نقتل أولادنا.

الرابعة: أن لا نقرب الفواحش.

---

[1] البخاري: كتاب الشهادات/ باب ما قيل في شهادة الزور، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر).

[2] البخاري: كتاب الديات/ باب قول الله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس...﴾، ومسلم: كتاب القسامة/ باب ما يباح به دم المسلم.

الخامسة : أن لا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

قولـه: **ولا تقربـوا مـال اليـتيم إلا بـالتي هي أحسن**، قولـه: **ولا تقربوا** هذا حماية لأموال اليتـامى أن لا نقربها إلا بالخصـلة الـتي هي أحسـن؛ فلا نقربها بـأي تصـرف إلا بما نـرى أنه أحسـن، فـإذا لاح للـولي تصرفان أحـدهما أكـثر ربحـاً؛ فـالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكـثر ربحـاً لأنه أحسن.

والحسن هنا يشـمل: الحسن الـدنيوي، والحسن الـديني، فـإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحاً وفيه رباً، والآخر أقل ربحـاً وهو أسـلم من الربـا؛ فنقدم الأخير؛ لأن الحسن الشرعي مقدم على الحسن الدنيوي المادي.

قوله: **حتى يبلغ أشده**، **حتى** هنا: حرف غاية؛ فما بعدها مخالف لما قبلها.

أي: إذا بلغ أشـده؛ فإننا ندفعه إليه بعد أن نختـبره، وننظر في حسن تصرفه، ولا يجوز لنا أن نبقيه عندنا.

ومعنى أشده: قوته العقلية والبدنية، والخطـاب هنا لأوليـاء اليتـامى أو للحـاكم على قـول بعض أهل العلم، وبلـوغ الأشد يختلـف، والمـراد به هنا الأشد الذي يكون به التكليف، وهو تمام خمسة عشرة سـنة، أو إنبـات العانة أو الإنزال.

قولـه: **وأوفـوا الكيل والمـيزان**، أي: أوفـوا الكيل إذا كلتم فيما يكال من الأطعمة والحبوب.

وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً.

والأمر بالإيفـاء شـاملٌ لجميع ما تتعامل به مع غـيرك؛ فيجب عليك أن توفي بالكيل والوزن وغيرهما في التعامل.

قوله: **بالقسط**، أي: بالعدل، ولما كان قولـه: **بالقسط** قد يشق بعض الأحيان؛ لأن الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل أو الـوزن أحيانـاً، أعقب ذلك بقوله: **لا نكلف نفساً إلا وسـعها**، أي: طاقتهـا، فـإذا بـذل جهـده وطاقتـه، وحصل النقص؛ فلا يعد مخالفـاً؛ لأن ما خـرج عن الطاقة معفو عنه فيه، كما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوسـع؛ فإنها تفيد التغليظ من وجـه، وهو أن على المـرء أن يبـذل وسـعه في الإيفـاء بالقسط، ولكن منى تبين الخطأ وجب تلافيه لأنه داخل في الوسع.

قوله: **وإذ قلتم فاعدلوا**، معناه: أي قـول تقولـه؛ فإنه يجب عليك أن تعدل فيه، سواء كان ذلك لنفسك على غيرك، أو لغـيرك على نفسـك، أو لغيرك على غيرك، أو لتحكم بين اثنين؛ فالواجب العـدل؛ إذ العـدل في اللغة الاستقامة، وضده الجـور والميـل، فلا تمل يمينـاً ولا شـمالاً، ولم يقل هنا **لا نكلف نفساً إلا وسعها**؛ لأن القول لا يشق فيه العدل غالباً.

قوله: **ولو كان ذا قـربى**، أي: المقـول له ذا قرابـة، أي: صـاحب قرابة، فلا تحابيه لقرابته، فتميل معه على غيره من أجله؛ فأجعل أمـرك إلى الله – عزّ وجـلّ- الـذي خلقـك، وأمـرك بهـذا، وإليه سـترجع. ويسـألك – عز وجل - ماذا فعلت في هذه الأمانة.

وقد أقسم أشـرف الخلـق، وسـيد ولد آدم، وأعـدل البشـر، محمد ﷺ، وقـال: "**وايم اللـه؛ لو أن فاطمة بنت محمد سـرقت؛ لقطعت يدها**"[1].

---

[1] البخاري: كتاب الحدود/ باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، ومسلم: كتاب الحدود/ باب قطع السارق الشريف.

قوله: ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾، قدم المتعلق؛ للاهتمام به، وعهد الله: ما عهد به إلى عباده، وهي عبادته سبحانه وتعالى والقيـام بـأمره؛ كما قـال عز وجل: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثـني عشر نقيبـاً وقـال الله إني معكم لئن أقمتم الصـلاة وآتيتم الزكـاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً**﴾ [المائـدة: 12]، هـذا ميثـاق من جـانب المخلـوق، وقوله تعـالى: ﴿**لأكفـرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهـار**﴾ [المائـدة: 12]، هذا من جانب الله - عز وجل -.

قوله: ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تـذكرون**﴾، هـذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عز وجل:

الأولى: أن لا نقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا. صار الجميع تسع وصايا.

ثم قال عز وجل: ﴿**وأن هذا صراطي مسـتقيماً فـاتبعوه**﴾، هـذه هي الوصية العاشرة، فقوله: ﴿**وأن هذا صـراطي**﴾ يحتمل أن المشـار إليه ما سـبق؛ لأنك لو تأملته وجدته محيطـاً بالشـرع كلـه؛ إما نصـاً، وإما إيمـاءً، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين الله؛ أي: هذا الذي جاءكم به الرسـول ﷺ هو صراطي؛ أي: الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى.

والصـراط يضـاف إلى الله – عز وجل ـ، ويضـاف إلى سـالكه؛ ففي قوله تعالى: ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ [الفاتحـة: 7] هنا أضـيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى: ﴿**صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض**﴾ [الشورى: 53] هنا أضيف إلى الله - عز وجل - ؛ فإضافته إلى الله - عز وجل - لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضـعه لعبـاده - جل وعلا ـ، وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه.

قوله: ﴿**مستقيماً**﴾ هذه حال من "صراط"؛ أي: حال كونه مستقيماً لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

قوله ﴿**ولا تتبعوا السـبل فتفـرق بكم عن سـبيله**﴾ السـبل؛ أي: الطرق الملتوية الخارجة عنه.

وتفرق: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذفت منه تاء المضـارعة، وأصـلها: "تتفـرق"، أي أنكم إذا اتبعتم السـبل تفـرقت بكم عن سبيله، وتشتت بكم الأهواء وبعدت.

وهنا قال: ﴿**السبل**﴾: جمع سبيل، وفي الطريق الـتي أضـافها الله إلى نفسه قال: ﴿**سبيله**﴾ سبيل واحد؛ لأن سبيل الله – عز وجل – واحد، وأما ما عداه؛ فسبل متعـددة، ولهـذا قـال النـبي ﷺ: "**وستفترق هـذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة**"[1]؛ فالسبيل المنجي واحد، والباقية متشعبة متفرقـة، ولا يـرد على هـذا قوله تعـالى: ﴿**يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السـلام**﴾ [المائـدة: 16]، لأن "سـبل" في الآية الكريمة؛ وإن كانت مجموعة؛ لكن أضيفت إلى السـلام فكـانت منجيـة، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

---

[2] مسند الإمام أحمد (2/332)، (3/145)، (4/120)، وسنن أبي داود (4596)، والترمذي (2640)، وابن ماجة(3991)، والحاكم وصححه (1/128).

وقولــه: ﴿**ذلكم وصــاكم به لعلكم تتقــون**﴾، أي: ذلك المــذكور وصاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

* * *

قـال ابن مسـعود: "من أراد أن ينظر إلى وصـية محمد ﷺ الـتي عليها خاتمـة؛ فليقـرأ قوله تعـالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حـرم ربكم عليكم ألا تشــركوا به شـيئاً...**﴾ إلى قولــه: ﴿**وأن هــذا صــراطي مســتقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل**﴾ [الأنعام: 151 - 153] الآية[1].

▪ **قوله: قال ابن مسعود: "من أراد..." إلخ.** الاستفهام هنا للحث والتشويق، واللام في قوله: "فليقرأ" للإرشاد.

قوله: "**وصية محمد**"، الوصية بمعنى العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان في أمر هام.

وقولــــه: "**محمد ﷺ**"، أي: رســـول الله محمد بن عبدالله الهاشــــمي القرشي ﷺ، وهذا التعبـير من ابن مسـعود يـدل على جـواز مثلـه، مثـل: قـال محمد رسـول الله ﷺ، ووصـية محمد ﷺ، ولا ينـافي قوله تعـالى: ﴿**لا تجعلـوا دعاء الرسـول بينكم كـدعاء بعضـكم بعضـاً**﴾ [النـور: 63]؛ لأن دعـاء الرسول هنا أي: مناداته؛ فلا تقولـوا عند المنـاداة: يا محمـد! ولكن قولـوا: يا رسول الله! أما الخبر؛ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجـوز أن تقـول: أنا تابعٌ لمحمد ﷺ، أو اللهم! صل على محمد، وما أشبه ذلك.

قوله: "**التي عليها خاتمه"،** الخاتم بمعنى التوقيع.

وقولـه: "**وصـية محمد ﷺ**" ليست وصـية مكتوبة مختومـاً عليهـا؛ لأن النبي ﷺ لم يوص بشيء، ويدل لذلك: أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: لا. والـذي فلق الحبة وبـرأ النسـمة إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هـذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر[1].

فلا يظنّ أن النبي ﷺ أوصى بهذه الآيات وصـية خاصة مكتوبـة، لكن ابن مسـعود رضي الله عنه يـرى أن هـذه الآيـات قد شـملت الـدين كلّـه؛ فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ وأبقاها لأمته.

وهي آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها؛ حصلت له الأوصـاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوى.

وقوله: "**فليقرأ قوله تعالى...**" إلخ الآيات سبق الكلام عليها.

* * *

وعن معاذ بن جبل (رضي الله عنـه)؛ قـال: "كنت رديف النـبي ﷺ على حمار، فقـال لي: "**يا معاذ! أتـدري ما حق الله على العبـاد، وما حق العبــاد على اللــه؟**". قلت: الله ورســوله أعلم. قــال: "**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.**

قوله: "**رديف**" بمعنى رادف؛ أي: راكب معه خلفه؛ فهو فعيل بمعـنى فاعل، مثل: رحيم بمعنى راحم، وسميع بمعنى سامع.

قوله: "**على حمار**" ، أي: أهلي؛ لأن الوحشي لا يركب.

قوله: "**أتدري**"، أي : أتعلم.

---

[1] الترمذي (أبواب تفسير القرآن، 8/230)، وقال: "حديث حسن غريب".

[1] البخاري: كتاب الديات/باب العاقلة.

قولـه: "**ما حق الله على العبـاد؟**"، أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به، وألقاه على معاذ بصيغة السـؤال؛ ليكـون أشد حضـوراً لقلبه حتى يفهم ما يقول .

قوله: "**وما حق العباد على اللـه؟**"، أي: ما يجب أن يعـاملهم بـه، والعباد لم يوجبوا شيئاً، بل الله أوجبه على نفسه فضلاً منه على عباده، قال تعــالى: **كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم ســوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم** [الأنعام: 54].

فـأوجب سـبحانه على نفسه أن يـرحم من عمل سـوءاً بجهالـة؛ أي: بسفه وعدم حسن تصرف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

ومعنى كتب؛ أي: أوجب.

قولــه: "**قلت: الله ورســوله أعلم**"، لفظ الجلالة اللــه: مبتــدأ، و"رسـوله": معطـوف عليـه، وأعلم: خـبر المبتـدأ، وأفـرد الخـبر هنا مع أنه لاثنين؛ لأنه على تقدير: "**مِنْ**"، واسم التفضيل إذا كـان على تقـدير: "**مِنْ**"؛ فإن الأشهر فيه الإفراد والتذكير.

والمعنى: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضاً.

قوله: "**يعبدوه**"، أي: يتذللوا له بالطاعة.

قوله: "**ولا يشركوا به شيئاً**"، أي: في عبادته وما يختص به، وشيئاً نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل شيء لا رسولاً ولا ملكاً ولا ولياً ولا غيرهم.

* * *

وحق العبـاد على الله أن لا يعـذب من لا يشـرك به شـيئاً". قلت: يا رسـول اللـه! أفلا أبشر النـاس؟ قـال: "**لا تبشـرهم فيتكلـوا**". أخرجاه في "الصحيحين"[1].

وقولـه: "**وحق العبـاد على الله أن لا يعـذب من لا يشـرك به شيئاً**"، وهذا الحق تفضل الله به على عباده، ولم يوجبه عليه أحد، ولا تظن أن قوله: "**من لا يشرك به شيئاً**" أنه مجرد عن العبادة؛ لأن التقـدير: من يعبده ولا يشـرك به شـيئاً، ولم يـذكر قولـه: "**من يعبده**"؛ لأنه مفهـوم من قوله: "**وحق العباد**"، ومن كان وصفه العبودية؛ فلابد أن يكون عابداً.

ومن لم يعبد الله ولم يشرك به شيئاً؛ هل يعذب؟

الجـواب: نعم، يعـذب؛ لأن الكلام فيه حـذف، وتقـديره: من يعبـده ولا يشرك به شيئاً، ويدل لهذا أمران:

الأول: قولــه: "**حق العبــاد**"، ومن كــان وصــفه العبوديــة؛ فلابد أن يكون عابداً.

الثــاني: أن هــذا في مقابل قوله فيما تقــدم: "**أن يعبــدوه، ولا يشركوا به شيئاً**"؛ فعلم أن المراد بقولـه: "**لا يشـركوا به شـيئاً**"؛ أي: في العبادة.

قوله: "**أفلا أبشر الناس**"، أي: أأسكت فلا أبشر الناس؟ ومثل هـذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة لعلماء النحو فيه قولان:

الأول: أنّ بين الهمــزة وحــرف العطف محــذوفاً يقــدر بما يناسب المقام، وتقديره هنا: أأسكت فلا أبشر الناس؟.

الثاني: أنه لا شيء محذوف، لكن هنا تقـديم وتـأخير، وتقـديره: فـألا أبشر؟ فالجملة معطوفة على ما سـبق، وموضع الفـاء سـابق على الهمـزة؛

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد/باب اسم الفرس والحمار، ومسلم: كتاب الإيمان/باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

فالأصل: فألا أبشر الناس؟ لكن لما كـان مثل هـذا الـتركيب ركيكـاً، وهمـزة الاستفهام لها الصدارة؛ قدمت على حـرف العطـف، ومثل ذلك قوله تعـالى: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾ [الغاشـية: 17]، وقوله تعـالى: ﴿**أفلا تبصـــرون**﴾ [الســجدة: 27] وقوله تعــالى: ﴿**أفلم يســيروا في الأرض**﴾ [الحج: 46].

والبشارة: هي الإخبار بما يسر.

وقد تسـتعمل في الإخبـار بما يضـر، ومنه قوله تعـالى: ﴿**فبشـرهم بعذاب أليم**﴾ [الانشقاق: 24]، لكن الأكثر الأول.

قوله: "**لا تبشرهم**"، أي: لا تخبرهم، ولا ناهية.

ومعنى الحديث أن الله لا يعذب من لا يشـرك به شـيئاً، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبـارهم؛ لئلا يعتمـدوا على هـذه البشرى دون تحقيق مقتضاها؛ لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأن المعاصي صــادرة عن الهــوى، وهــذا نــوع من الشــرك، قــال تعــالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾ [الجاثية: 23].

ومناسبة الحديث للترجمة: فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب الله.

* * *

* فيه مسائل:

الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس. **الثانيـــة:** أن العبـــادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه.

المسائل:

- **الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس،** أخذها رحمه الله من قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: 56]؛ فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح.

الثانيــة: أن العبــادة هي التوحيــد، أي: أن العبــادة مبنية على التوحيـد؛ فكل عبـادة لا توحيد فيها ليست بعبـاده، لاسـيما أن بعض السـلف فسروا قوله تعالى: ﴿**إلا ليعبدون**﴾: إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تماماً لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيـد؛ فكل عبـادة لا تبـنى على التوحيد فهي باطلـة، قـال ﷺ: "**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشــرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه**"[1].

وقولـــه: "**لأن الخصـــومة فيه**"، أي: في التوحيد بين الرســـول ﷺ وقريش؛ فقريش يعبدون الله يطوفون له ويصلون، ولكن على غير الإخلاص والوجه الشـرعي؛ فهي كالعـدم لعـدم الإتيـان بالتوحيـد، قـال تعـالى: ﴿**وما منعهم أن تقبل منهم نفقـاتهم إلا أنهم كفـروا بالله وبرسـوله**﴾ [التوبة: 54].

* * *

- **الثالثـة:** أن من لم يـأت بـه، لم يعبد اللـه، ففيه معـنى قولـه: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ [الكافرون: 3].
- **الرابعة:** الحكمة في إرسال الرسل.
- **الخامسة:** أن الرسالة عمت كل أمة.

---

[1] مسلم: كتاب الزهد/باب من أشرك في عمله غير الله.

▪ **وقوله في الثالثـــة: ففيه معـــنى قولـــه: ﴿ولا أنتم عابــدون ما أعبد﴾،** لســتم عابــدين عبــادتي؛ لأن عبــادتكم مبنية على الشرك، فليست بعبادة لله تعالى.

▪ **الرابعـة: الحكمة في إرسـال الرسـل،** أخـذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسـولاً أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: 36].

فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

▪ **الخامسـة: أن الرسـالة عمت كل أمـة،** أخـذها من قوله تعال: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً**﴾ [النحل: 36].

* * *

السادسـة: أن دين الأنبيـاء واحـد. **السـابعة:** المسـألة الكبـيرة أن عبادة الله لا تحصل إلى بالكفر بالطـاغوت؛ ففيه معـنى قوله تعـالى: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت...**﴾ [البقرة: 256].

▪ **السادسة: أن دين الأنبياء واحـد،** أخـذها من قوله تعـالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رســـولاً أن اعبـــدوا الله واجتنبـــوا الطاغوت**﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿**وما أرسـلنا من قبلك من رسـول إلا نـوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبـدون**﴾ [الأنبيـاء: 25]، وهـذا لا ينـافى قوله تعـالى : ﴿**لكل جعلنا منكم شـرعة ومنهاجـاً**﴾ [المائـدة: 48]؛ لأن الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنـة، وأما أصل الدين؛ فواحد، قـال تعـالى: ﴿**شرع لكم من الـدين ما وصى به نوحـــاً والـــذي أوحينا إليك وما وصـــينا به إبـــراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ [الشورى: 13].

▪ **السابعة: المسـالة الكبـيرة أن عبـادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطـاغوت** .ودليله قوله تعالى: ﴿**واجتنبـوا الطـاغوت**﴾، فمن عبَدَ الله ولم يكفر بالطـاغوت؛ فليس بموحـد، ولهـذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة؛ لأن كثـيراً من المسـلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

*** تنبيه**

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئاً من ذلك؛ لأن الحكم بذلك في هـذه وغيرها له أسـباب وله موانـع؛ فلا نقـول لمن أكل الربا: ملعون؛ لأنه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليـه؛ كالجهل مثلاً، أو الشـبهة، وما أشـبه ذلـك، وكـذا الشـرك لا نطلقه على من فعل شـركاً؛ فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسـبب تفريط علمـائهم، وكـذا نقـول: من صـام رمضــان إيمانــاً واحتســاباً؛ غفر له ما تقــدم من ذنبــه، ولكن لا نحكم بهــذا لشخص معين، إذ إن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشـخاص إلا بتحقق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصاً يتبرز في الطريق؛ فهل نقول له: لعنك الله؟

الجــواب: لا، إلا إذا أريد بــاللعن في قولــه: "**اتقــوا الملاعن**"[1] أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشـخص ويكرهونـه، ويرونه مخلاً بـالأدب مؤذيـاً للمسلمين؛ فهذا شيء أخر.

---

[1] مسند الإمام أحمد 1/299، سنن أبي داود: كتاب الطهارة/ باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، وابن ماجة: كتاب الطهارة/ باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق، والحاكم - وقال: "صحيح"، ووافقه الذهبي

فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقـول لشـخص معين فعلـه: هـذا مشرك؛ حتى نعرف قيام الحجة عليه، أو نقول: هـذا مشـرك باعتبـار ظـاهر حاله.

* * *

الثامنة: أن الطاغوت عـام في كل ما عبد من دون اللـه. **التاسـعة:** عظم شـأن الثلاث آيـات المحكمـات في سـورة الأنعـام عند السـلف، وفيها عشر مسائل، أولها النهي عن الشرك.

- **الثامنــة: أن الطــاغوت عــام في كل ما عبد من دون الله**. فكل ما عبد من دون الله، فهو طـاغوت، وقد عرّفه ابن القيم: بأنه كل ما تجــاوز به العبد حــده من معبــود أو متبــوع أو مطــاع، فــالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالم، والمطاع كالأمير.
- **التاسعة**: **عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام،** المحكمـات؛ أي: الـتي ليس فيها نسـخ، أخذ ذلك من قـول ابن مسعود رضي الله عنه.

* * *

العاشرة: الآيات المحكمات في سـورة الإسـراء، وفيها ثمـاني عشر مســألةً، بــدأها الله بقوله تعــالى: **﴿لا تجعل مع الله إلهــاً آخر فتقعد مـذموماً مخـذولاً﴾** [الإسـراء: 22]. وختمها بقوله تعـالى: **﴿ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنّم ملومــاً مــدحوراً﴾** [الإســراء: 39]، ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسـائل بقولـه: **﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾** [الإسراء: 39].

- **العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإســراء. وهي قوله تعــالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبــدوا إلا إيــاه﴾** [الإســراء: 23]، وفيها ثماني عشرة مسألة بـدأها بقوله تعـالى: **﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخـذولاً﴾**، وختمها بقوله تعـالى: **﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾**.

وقد نبهنا الله - سبحانه - على عظم شأن هذه المسائل بقوله تعـالى: **﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾**.

فبدأها الله بالنهي عن الشرك بقوله تعالى: **﴿لا تجعل مع الله إلهــاً آخر فتقعد مــذموماً مخــذولاً﴾**، والقاعد ليس قائمــاً؛ لأنه لا خــير لمن أشرك بالله، مذموماً عند الله وعند أوليائـه، مخـذولاً لا ينتصر في الـدنيا ولا في الآخرة.

وختمها بقولـه: **﴿ولا تجعل مع الله إلهـاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾** [الإسراء: 39]، فهـذه عقوبته عنـدما يلقى في النـار كـلٌّ يلومه ويدحره فيندحر والعياذ بالله.

* * *

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقـوق العشـرة، بدأها الله تعالى بقولـه: **﴿واعبدوا الله ولا تشـركوا به شـيئاً﴾** [النسـاء: 36]، **الثانية عشرة:** التنبيه على وصـية رسـول الله ﷺ عند موتـه. **الثالثة عشرة:** معرفة حق الله علينا.

- **الحادية عشــرة: آية ســورة النســاء الــتي تســمى آية الحقــوق العشــرة، بــدأها بقوله تعــالى: ﴿واعبــدوا الله ولا**

تشركوا به شيئاً، فـأحق الحقـوق حق اللـه، ولا تنفع الحقـوق إلا به فبدئت هذه الحقوق به، ولهذا لما سأل النبي حكيم بن حزام عمن كـان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟ فقـال النـبي : "**أسلمت على ما أسلفت من الخير**"[1] ؛ فدل على أنه إذا لم يسلم لم يكن له أجر ، فصارت الحقوق كلها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله .

- **الثانية عشــرة :التنبيه على وصــية رسـول الله عند موته** . وذلك من حديث ابن مسعود رضى الله عنه[2] ، ولكن النبي لم يـوص بها حقيقـةً، بل أشـار إلى أننا إذا تمسـكنا بكتـاب اللـه؛ فلن نضـلّ بعده، ومن أعظم ما جاء به كتاب الله قوله تعالى: **قل تعـالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم** [الأنعام: 151].
- **الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.** وذلك بأن نعبـده ولا نشرك به شيئاً.

* * *

الرابعة عشــرة: معرفة حق العبــاد عليه إذا أدوا حقــه. **الخامسة عشرة:** أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة. **السادسة عشرة:** جـواز كتمان العلم للمصلحة.

- **الرابعة عشـــرة: معرفة حق العبـــاد عليه إذا أدوا حقّـه.** وذلك بـأن لا يعـذّب من لا يشـرك به شـيئاً، أما من أشـرك؛ فإنه حقيقٌ أن يعذّب.
- **الخامسة عشـرة: أن هـذه المسـألة لا يعرفها أكـثر الصحابة.** وذلك أن معاذاً أخبر بها تأثماً، أي خروجاً من إثم الكتمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة؛ وكأنه رضي الله عنه علم أن النبي كان يخشى أن يفتتن الناس بها ويتكلوا، ولم يـرد كتمها مطلقـاً؛ لأنه لو أراد ذلك لم يخبر بها معاذاً ولا غيره.
- **السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.** هـذه ليست على إطلاقها؛ إذ إن كتمان العلم على سـبيل الإطلاق لا يجـوز لأنه ليس بمصـلحة، ولهـذا أخـبر النـبي معـاذاً ولم يكتم ذلك مطلقـاً، وأما كتمــان العلم في بعض الأحــوال، أو عن بعض الأشــخاص لا على ســبيل الإطلاق؛ فجائزٌ للمصلحة؛ كما كتم النبي ذلك عن بقية الصـحابة خشـية أن يتّكلوا عليه، وقال لمعاذ: "**لا تبشّرهم فيتّكلوا**"[1].

ونظير هذا الحديث قوله لأبي هريرة: "**بشّر الناس أن من قـال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنّة**"[2]

بل قد تقتضي المصلحة تـرك العمـل؛ وإن كـان فيه مصـلحة لرجحـان مصلحة الترك، كما هم النـبي أن يهـدم الكعبة ويبنيها على قواعد إبـراهيم، ولكن ترك ذلك خشية افتتان الناس، لأنهم حديثو عهد بكفرٍ[3].

* * *

---

[1] البخاري: كتاب الأدب/ باب شراء من وصل رحمه في الشرك ثم أسلم، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده.

[2] سبق تخريجه (ص 18)

[1] سبق تخريجه (ص20)

[2] مسلم: كتاب الإيمان/باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

[3] البخاري: كتاب العلم/ باب ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، ومسلم: كتاب الحج/باب نقض الكعبة.

السـابعة عشـرة: اسـتحباب بشـارة المسـلم بما يسـرّه. **الثامنة عشرة:** الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

- **السابعة عشرة: اسـتجاب بشـارة المسـلم بما يسـره.** لقوله: "أفلا أبشّر الناس؟"، وهذه من أحسن الفوائد.
- **الثامنة عشـرة: الخـوف من الاتّكـال على سـعة رحمة الله.** وذلك لقوله: "**لا تبشّرهم فيتكلوا**"، لأن الاتّكـال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة ويسـبب اليـأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمد: "ينبغي أن يكون سـائراً إلى الله بين الخوف والرجـاء؛ فأيهما غلب هلك صـاحبه" فـإذا غلب الرجـاء أدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوف أدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله.

وقـال بعض العلمـاء: إن كـان مريضـاً غلّب جـانب الرجـاء، وإن كـان صحيحاً غلّب جانب الخوف.

وقـــال بعض العلمـــاء: إذا نظر إلى رحمة الله وفضـــله غلّب جـــانب الرّجاء، وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ويستدلون بقوله تعالى: ﴿**والذين يؤتون ما آتوا وقلـوبهم وجلة**﴾ [المؤمنون: 60]؛ أي: خائفة أن لا يكون تقبّل منهم لتقصير أو قصـور، وهـذا القول جيد، وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن بالله، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمات الله.

وفي قوله: "**أفلا أبشّر الناس؟**"[1] دليل على أن التبشـير مطلــوب فيما يسرّ من أمر الدين

والدنيا ، ولذلك بشّـرت الملائكة إبـراهيم ، قـال تعـالى : ﴿**وبشّروه بغلام عليم**﴾ [الذريات: 28] ، وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشّر النبي ﷺ أهله بابنه إبــراهيم، فقـــال: "**ولد لي الليلة ولد ســـميته باسم أبي إبــراهيم**"[2]؛ فيؤخذ منه أنه ينبغي للإنسـان إدخـال السـرور على إخوانه المسـلمين ما أمكن بـالقول أو بالفعـل؛ ليحصل له بـذلك خـيرٌ كثـيرٌ وراحة وطمأنينة قلب وانشراح صدر.

وعليه، فلا ينبغي أن يدخل السوء على المسلم، ولهذا يروى عن النبي ﷺ: "**لا يحدثني أحدٌ عن أحد بشيء، فإني أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصّدر**"[3]

وهذا الحديث فيه ضعفٌ، لكن معناه صـحيح؛ لأنه إذا ذكر عنـدك رجـلٌ بسـوءٍ؛ فسـيكون في قلبك عليه شـيءٌ ولو أحسن معاملتـك، لكن إذا كنت تعامله وأنت لا تعلم عن سـيئاته، ولا محـذور في أن تتعامل معـه؛ كـان هـذا طيبـاً، وربما يقبل منك النصـيحة أكـثر، والنفـوس ينفر بعضـها من بعضٍ قبل الأجسام، وهذه مسائل دقيقةٌ تظهر للعاقل بالتأمّل.

* * *

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

- **التاسـعة عشــرة: قــول المســؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم،** وذلك لإقرار النـبي ﷺ معـاذاً لما قالهـا، ولم ينكر النـبي ﷺ

---

[1] سبق تخريجه (ص 34)

[2] مسلم: كتاب الفضائل/باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال.

[3] مسند الإمام أحمد 1/396، وقال أحمد شاكر: إسناده حسن على الأقل. وسنن أبي داود: كتاب الأدب/باب في رفع الحديث من المجلس، - وسكت عنه - .

على معــاذٍ، حيث عطف رســول الله على الله بــالواو، وأنكر على من قال: "ما شاء الله وشئت"، وقـال: "**أجعلتني لله نـداً؟! بل ما شـاء الله وحده**"[4]

فيُقال: إن الرسول عنده من العلـوم الشـرعية ما ليس عند القائـل، ولهذا لم ينكر الرسول على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القدرية؛ فالرسول ليس عنده علم منها.

فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟

جـاز أن نقـول: الله ورسـوله أعلم، ولهـذا كـان الصـحابة إذا أشـكلت عليهم المســائل ذهبــوا إلى رســول الله فيبينها لهم، ولو قيــل: هل يتوقع نزول مطر في هـذا الشـهر؟ لم يجز أن نقـول: الله ورسـوله أعلم، لأنه من العلوم الكونية.

* * *

العشرون: جـواز تخصـيص بعض النـاس بـالعلم دون بعض. **الحادية والعشـــرون:** تواضـــعه لركـــوب الحمـــار مع الإرداف عليـــه. **الثانية والعشرون:** جواز الأرداف على الدابة.

- **العشـرون: جـواز تخصـيص بعض النـاس بـالعلم دون بعض.** وذلك لأن النـــبي خص هـــذا العلم بمعـــاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

فيجـــوز أن نخصص بعض النـــاس بـــالعلم دون بعض، حيث أن بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم افتتن، قـال ابن مسـعود: "إنك لن تحـدث قوماً بحدث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضـهم فتنـة"[1]، وقـال علي: "حـدثوا الناس بما يعرفون"[2]، فيحدث كل أحد حسب مقدرته وفهمه وعقله.

- **الحادية والعشــرون: تواضــعه لكــروب الحمــار مع الإرداف عليه.** النـبي أشـرف الخلق جاهـاً، ومع ذلك هو أشد النـاس تواضعاً. حيث ركب الحمـار وأردف عليـه، وهـذا في غاية التواضـع؛ إذ إن عادة الكبراء عدم الإرداف، وركب الحمار، ولو شـاء لـركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك؛ إذ إن من توضع لله – عز وجل – رفعه.

- **الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابـة.** وذلك أن النبي أردف معـاذاً، لكن يشـترط للإرداف أن لا يشق على الدابـة، فـإن شق؛ لم يجز ذلك.

*   *   *

الثالثة والعشــــرون: عظم شـــــأن هـــــذه المســـــألة. **الرابعة والعشرون:** فضيلة معاذ بن جبل.

- **الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.** حيث أخبر النبي معاذاً، وجعلها من الأمور التي يبشر بها.

- **الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ رضي الله عنــه.** وذلك أن النبي خصه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار.

---

[4] مسند الإمام أحمد (1/214)، وابن ماجة: كتاب الكفارات/باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، وقال أحمد شاكر، إسناده صحيح (1839).

[1] رواه: مسلم: المقدمة/ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

[2] البخاري: كتاب العلم/ باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

سبق أن ذكر المؤلف كتاب التوحيد؛ أي: وجوب التوحيد، وأنه لا بد منه، وأن معنى قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: 56]: أن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد.

وهنا ذكر المؤلف فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أن يكون غير واجب، بل الفضل من نتائجه وآثاره.

ومن ذلك صلاة الجماعة ثبت فضلها بقوله ﷺ: "**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**". متفق عليه[1].

ولا يلزم من ثبوت الفضل فيها أن تكون غير واجبة؛ إذ إن التوحيد أوجب الواجبات، ولا تقبل الأعمال إلا به، ولا يتقرب العبد إلى ربه إلا به، ومع ذلك؛ ففيه فضل.

قوله: "**وما يكفر من الذنوب**". معطوف على "فضل"؛ فيكون المعنى: باب فضل التوحيد، وباب ما يكفر من الذنوب، وعلى هذا؛ فالعائد محذوف والتقدير ما يكفره من الذنوب، وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب، لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب.

فمن فوائد التوحيد:

1- أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة؛ لأن الموحد يعمل لله – سبحانه وتعالى - ؛ وعليه، فهو يعمل سراً وعلانية، أما غير الموحد؛ كالمرائي مثلاً، فإنه يتصدق ويصلى، ويذكر الله إذا كان عنده من يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: "إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو".

2- أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ [الأنعام: 82].

* * *

وقول الله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾ الآية [الأنعام: 82].

قوله: ﴿**لم يلبسوا**﴾، أي: يخلطوا.

قوله: ﴿**بظلمٍ**﴾، الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشرك، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: "**ليس الأمر كما تظنون، إنما المراد به الشرك، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح – يعني لقمان - : ﴿إن الشرك لظلمٌ عظيم﴾"**[1].

*** والظلم أنواع:**

1- أظلم الظلم، وهو الشرك في حق الله.

2- ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

3- ظلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

---

[1] البخاري: كتاب الجماعة والإمامة/ باب فضل صلاة الجماعة، ومسلم: كتاب المساجد/ باب فضل صلاة الجماعة.

[1] البخاري: كتاب الإيمان/ باب ظلم دون ظلم، مسلم: كتاب الإيمان/ باب صدق الإيمان وإخلاصه.

وإذا انتفى الظلم، حصل الأمن، لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب: أنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصيةٌ؛ فالأمن أمنٌ مطلق، أي كامل، وإذا كان الإيمان مطلق إيمانٍ - غير كامل ـ؛ فله مطلق الأمن؛ أي: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكب الكبيرة، أمنٌ من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: 116].

وهذه الآية قالها الله تعالى حكماً بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿**وكيف أخاف ما أشركتم...**﴾ إلى قوله: ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ [الأنعام: 81،82]؛ فقال الله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم...**﴾ الآية [الأنعام: 82]، على أنه قد يقول قائلٌ: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾ [الأنعام 83].

قوله: ﴿**الأمن**﴾، أل فيها للجنس، ولهذا فسرنا الأمن بأنه إما أمن مطلق، وإما مطلق أمن حسب الظلم الذي تلبس به.

قوله: ﴿**وهم مهتدون**﴾، أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد كما قال الله تعالى في أصحاب الجحيم: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم**﴾ [الصافات: 42].

والاهتداء بالعمل: هداية توفيق، وهم مهتدون في الآخرة إلى الجنة.

فهذه هداية الآخرة، وهي للذين ظلموا إلى صراط الجحيم؛ فيكون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿**أولئك لهم الأمن**﴾: إن الأمن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب أنها عامةٌ بالنسبة للأمن والهداية في الدنيا والآخرة.

مناسبة الآية للترجمة:

أن الله أثبت الأمن لمن لم يشرك ، والذي لم يشرك يكون موحدا ؛ فدل على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمن.

* * *

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**" أخرجاه[1].

قوله: "**من شهد أن لا اله إلا الله**" **،** الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق ، قال تعالى: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف: 86]، وهذا العلم قد يكون مكتسباً وقد يكون غريزياً.

فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزيٌ، قال ﷺ: "**كل مولودٍ يولد على الفطرة**"[2]. وقد يكون مكتسباً، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكر فيها.

ولابد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها.

قوله: ﴿**أنْ**﴾، مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مشددة خطأٌ، لأن المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخفّفة يمكن حذفه.

قوله: ﴿**لا إله**﴾، أي: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيماُ، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

قوله: ﴿**إلا الله**﴾، أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكي عن قريش قولهم: ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجابٌ**﴾ [ص: 5].

أما قوله تعالى: ﴿**فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء**﴾ [هود: 101]، فهذا التأله باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفيٌ شرعاً، وإذا انتفى شرعاً؛ فهو كالمنتفي وقوعاً؛ فلا قرار له، ﴿**ومثل كلمة خبيثة كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض ما لها قرار**﴾ [إبراهيم: 26].

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿**فما أغنت عنهم آلهتهم**﴾ [هود: 101]، وقوله تعالى حكايةً عن قريش: ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً**﴾ [ص: 5]، وبين قوله تعالى: ﴿**وما من إله إلا الله**﴾ [آل عمران: 62]؛ فهذه الآلهة مجرد أسماء لا معاني لها ولا حقيقة؛ إذ هي باطلة شرعاً، لا تستحق أن تسمى آلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كما قال تعالى: ﴿**ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾ [يوسف: 40].

* **التوحيد عند المتكلمين:**

يقولون: إن معنى إله: آله، والآله: القادر على الاختراع؛ فيكون معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله.

والتوحيد عندهم: أن توحد الله، فتقول: هو واحد في ذاته، لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له، ولو كان هذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته ولآمنت به وصدقت؛ لأن قريشاً تقول: لا خالق إلا الله، ولا خالق أبلغ من كلمة لا قادر، لأن القادر قد يفعل وقد لا يفعل، أما الخالق؛ فقد فعل وحقق بقدرة منه، فصار فهم المشركين خيراً من فهم هؤلاء المتكلمين والمنتسبين للإسلام؛ فالتوحيد الذي جاءت به الرسل في قوله تعالى: ﴿**ما لكم من إله غيره**﴾ [الأعراف: 59]؛ أي من إله حقيقي يستحق أن يعبد، وهو الله.

---

[1] البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

[2] البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم: كتاب القدر/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

ومن المؤسف أنه يوجد كثير من الكتاب الآن الذين يكتبون في هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون على التوحيد لا يقررون أكثر من توحيد الربوبية، وهذا غلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس في قلوب المسلمين توحيد الألوهية أكثر من توحيد الربوبية، لأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إنكاراً حقيقياً، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذي يغلب فيه الهوى هو نقص عظيم، فعبادة غير الله هي التي يسيطر فيها هوى الإنسان على نفسه حتى يصرفه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء ويعبد هواه، حتى جعل النبي ﷺ الذي همه الدرهم والدينار ونحوهما عابداً [1]، وقال الله - عز وجل -: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾ [الجاثية: 23].

فالمعاصي من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك. وأما بالمعنى الأخص؛ فتنقسم إلى أنواع:

1- شرك أكبر.
2- شرك أصغر.
3- معصية كبيرة.
4- معصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يتعلق بحق الله، ومنها ما يتعلق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق.

وتحقيق لا إله إلا الله أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: "كل معصية، فهي نوع من الشرك".

وقال بعض السلف: "ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص"، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا يجاهد نفسه على الإخلاص، ولهذا قيل لابن عباس: "إنّ اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة. قال: فما يصنع الشيطان بقلبٍ خرب؟!"؛ فالشيطان لا يأتي ليخرّب المهدوم، ولكن يأتي ليخرّب المعمور، ولهذا لما شُكي إلى النبي ﷺ أن الرجل يجد في نفسه ما يستعظم أن يتكلم به؛ قال: "**وجدتم ذلك؟**". قالوا: نعم.

قال: "**ذاك صريح الإيمان**"[1]؛ أي: أن ذاك هو العلامة البينة على أنّ إيمانكم صريح لأنّه ورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص.

قوله: "**من شهد أن لا إله إلا الله**"، من: شرطية، وجواب الشرط: "**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**".

والشهادة: هي الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما قال المنافقون للرسول ﷺ: ﴿**نشهد إنّك لرسول الله**﴾ [المنافقون: 1] وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله بقوله: ﴿**والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾ [المنافقون: 1]؛ فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان لأنه خالٍ من الاعتقاد بالقلب، وخالٍ من التصديق بالعمل، فلم ينفع؛ فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

وقوله: "**لا إله إلا الله**"، أي: لا معبود على وجه يستحق أن يعبد إلا الله، وهذه الأصنام التي تعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: ﴿**وحده لا شريك له**﴾، **وحده**: توكيد للإثبات، **لا شريك له**: توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ولهذا كان النبي ﷺ وغيره من المؤمنين يلجؤون إلى الله تعالى عند الشدائد؛ فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ وعنده أصحابه، وقد علق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ قال: "**يمنعني الله**"[2]، ولم يقل أصحابي، وهذا هو تحقيق توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذين يملك النفع، والضر، والخلق، والتدبير، والتصرف في الملك؛ إذ لا شريك له فيما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختص به حتى نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النّافين للصفات؛ لأن النّافين للصفات زعموا أن إثبات الصفات إشراك بالله - عز وجل -، حيث قالوا: يلزم من ذلك التمثيل، لكننا نقول: للخالق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به.

قوله: "**وأنّ محمداً**"، محمد: هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، القرشي، الهاشمي، خاتم النبيين.

وقوله: "**عبده**"؛ أي: ليس شريكاً مع الله.

وقوله: "**ورسوله**"؛ أي: المبعوث بما أوحى إليه، فليس كاذباً على الله.

فالرسول ﷺ عبدٌ مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئاً واحداً، وهو ما يعود إلى أسافل الأخلاق؛ فهو منزه معصوم منه، قال تعالى: ﴿**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله**﴾ [الإعراف: 188]، وقال تعالى: ﴿**قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً. قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً**﴾ [الجن: 21،22].

فهو بشر مثلنا؛ إلا أنه يوحى إليه، قال تعال: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد**﴾ [فصلت: 6].

ومن قال: إن الرسول ﷺ ليس له ظل، أو أن نوره يطفئ ظله إذا مشى في الشمس؛ فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "كنت أمد رجلي بين يديه، وتعتذر بأن البيوت ليس فيها

---

[1] سبق تخريجه (ص 23).

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب الوسوسة في الإيمان.

[2] البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة ذات الرقاع، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين/ باب صلاة الخوف.

مصابيح"، فلو كان النبي ﷺ له نور؛ لم تعتذر رضي الله عنها، ولكنه الغلو الذي أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله.

ومن الغلو قول البوصيري في "البردة" المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك لله شيئاً ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ.

ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أن محمداً عبدالله، بل شهد أن محمداً فوق الله! كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد؟!

وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: "**من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وأنا مع عبدي إذا ذكرني**"[1]، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلى التالي "المخرّف" كلمة المصطفى قاموا جميعاً قيام رجل واحد، يقولون: لأن الرسول ﷺ حضر مجلسنا بنفسه، فقمنا إجلالاً له، والصحابة رضي الله عنهم أشدّ إجلالاً منهم ومنا، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهو حيٌّ يكلمهم لا يقومون له، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا أو جاءهم شبح إن كانوا يشاهدون شيئاً، فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد! فهؤلاء ما شهدوا أن محمداً عبدالله ورسوله، وهؤلاء المخرفون مساكين، إن نظرنا غليهم بعين القدر؛ فنرق لهم، ونسأل الله لهم السلامة والعافية، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع؛ فإننا يجب أن ننابذهم بالحجة حتى يعودوا إلى الصراط المستقيم، والرسول ﷺ أشد الناس عبودية لله، أخشاهم لله، واتقاهم لله، قام يصلي حتى تورمت قدماه، وقيل له في ذلك؛ فقال: "**أفلا أكون عبداً شكوراً**"[2]، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا تحقيق العبادة العظيمة.

أما الرسالة؛ فهو رسول أرسله الله – عزوجل – بأعظم شريعة إلى جميع الخلق، فبلغها غاية البلاغ، مع أنه أوذي وقوتل، حتى إنهم جاؤوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوه على ظهره، كل ذلك كراهيةً له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، يلقون الأذى والأنتان والأقذار على عتبة بابه، لكن هذا للنبي الكريم امتحان من الله – عز وجل ـ؛ لأجل أن يتبين صبره وفضله، يخرج ويقول: "**أي جوار هذا يا بني عبد مناف؟**"[3]، فصبر ﷺ؛ حتى فتح الله عليه، وأنذر أم القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانةً وأقواهم على الاتباع؛ الصحابة رضي الله عنهم، وأدوها إلى الأمة نقيّة سليمة، ولله الحمد.

ونحب الرسول ﷺ لله وفي الله؛ فحب الرسول ﷺ من حبّ الله، ونقدمه على أنفسنا وأهلنا وأولادنا والناس أجمعين، وأحببناه من أجل أنه رسول الله ﷺ.

ونحقق شهادة أن محمداً رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بألسنتنا، ونطبق ذلك في متابعته ﷺ بجوار حنا، فنعمل بهديه، ولا نعمل له.

أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة، فهو:

1- فعل المعاصي؛ فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة؛ لأنك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ.

2- الابتداع في الدين ما ليس منه؛ لأنك تقربت إلى الله بما لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ، والابتداع في الدين في الحقيقة من الاستهزاء بالله، لأنك تقرّبت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرب إلى الله بهذا العمل الذي أبتدعه.

قيل له: أنت أخطأت الطريق؛ فتعذر على نيتك، ولا تعذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق.

فالمبتدعون قد يقال: إنهم يثابون على حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نخطّئهم فيما ذهبوا إليه، أما أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردّوه ليبقوا جاههم؛ ففيهم شبه بأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهم الذين قابلوا رسالة النبي ﷺ بالرد إبقاءً على رئاستهم وجاههم.

أما بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة؛ فينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئاً، ولم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنّوا أن ما هم عليه هو الحق؛ فهؤلاء معذورون.

القسم الثاني: من علموا الحق، ولكنهم ردّوه تعصّباً لأئمتهم؛ فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مهتدون**﴾ [الزخرف: 22].

قوله: "**وإن عيسى عبدالله ورسوله**"، الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمداً رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل على شرعنا.

---

[1] البخاري: كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء/ باب الحث على ذكر الله تعالى.

[2] البخاري: كتاب التهجد/ باب قيام النبي ﷺ حتى تورم قدماه، ومسلم: كتاب صفات المنافقين/ باب إكثار الأعمال.

[3] ذكره ابن هشام في "السيرة النبوية" (2/416)، وابن كثير في "البداية والنهاية"(3/133).

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا؛ فنحن متبعون لشريعتنا.
الثالثة: أن يكون مسكوتاً عنها في شريعتنا، وفى هذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟
والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:
1- قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ [الأنعام: 90].
2- قوله تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب**﴾ [يوسف: 111].
وقد تطرّف في عيسى طائفتان:
الأولى: اليهود كذبوه، فقالوا: بأنه ولد زنى، وأنّ أمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعاً؛ أي: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله الشرعي؛ لقوله تعالى عنهم: ﴿**إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم**﴾ [النساء: 157]، وأما بالنسبة لحكم الله القدري؛ فقد كذبوا، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، ولكن شبه لهم، فقتلوا المشبّه لهم وصلبوه.
الثانية: النصارى قالوا: إنه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلهاً مع الله، وكذبوا فيما قالوا.
أما عقيدتنا نحن فيه: فنشـهد أنه عبد الله ورسـوله، وأن أمه صـديقة؛ كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنّها عذراء، ولكن مثله عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فيكون.
وفي قوله: "**عبدالله"،** رد على النصارى.
وفي قوله: "**ورسوله**"، رد على اليهود.
قوله: "**وكلمته ألقاها إلى مريم**"، أطلق الله عليه كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة عليه السلام؛ فالحديث ليس على ظاهره؛ إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية، قال الله تعالى: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ [آل عمران: 59].
وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله؛ إذ إن كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أما عيسى؛ فهو ذات بائنة عن الله – سبحانه - ، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب.
قوله: "**ألقاها إلى مريم**"، أي: وجّهها إليها بقوله: ﴿**كن فيكون**﴾؛ كما قال تعالى: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ [آل عمران: 59].
ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول ﷺ كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم[1]، فهارون أخو مريم، ليس هارون أخا موسى، بل هو آخر يسمى باسمه، وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى.
قوله: "**وروح منه"،** أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله؛ أي: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم.
وعيسى عليه السلام ليس روحاً، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام**﴾ [المائدة: 75].
فبالنفخ صار جسداً، وبالروح صار جسداً وروحاً.
قوله: "**منه**"، هذه هي التي أضلّت النصارى، فظنوا أنه جزء من الله، فضلوا وأضلوا كثيراً، ولكننا نقول: إن الله قد أعمى بصائركم؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور؛ فمن المعلوم أن عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضاً أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءاً من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويدّعى أنه قتل وصلب؟
وعلى هذا تكون "من" للابتداء، وليس للتبعيض؛ فهي كقوله تعالى: ﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه**﴾ [الجاثية: 13]؛ فلا يمكن أن نقول: إن الشمس والقمر والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.
فقوله: "**منه**"؛ أي: روح صادرة من الله – عز وجل ـ، وليست جزءً من الله كما تزعم النصارى.
وأعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول: العين القائمة بنفسها، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق؛ كقوله تعالى: ﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه**﴾ [الجاثية: 13]، وقوله تعالى: ﴿**إن أرضي واسعة**﴾ [العنكبوت: 56].
وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه، كقوله تعالى: ﴿**وطهر بيتي للطائفين**﴾ [الحج: 26]، وكقوله تعالى: ﴿**ناقة الله وسقياها**﴾ [الشمس: 13]، وهذا القسم مخلوق.
الثاني: أن يكون شيئاً مضافاً إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قوله تعالى: ﴿**وروح منه**﴾ [النساء: 171]؛ فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفاً؛ فهي روح من الأرواح التي خلقها الله، وليست جزءً أو روحاً من الله؛ إذ أنّ هذه الروح حلت في عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله، وهذا القسم مخلوق أيضاً.
الثالث: أن يكون وصفاً غير مضاف إلى عين مخلوقة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي**﴾ [الأعراف: 144]، فالرسالة والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة؛ فهذه الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة: قسمان منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق.

---
[1] مسلم: كتاب الآداب/ باب النهي عن التكني بأبي القاسم وما يستحب من الأسماء.

فالأعيـان القائمة بنفسـها والمتصل بهـذه الأعيـان مخلوقـة، والوصف الـذي لم يـذكر له عين يقـوم بها غـير مخلـوق؛ لأنه يكـون من صـفات اللـه، وصفات الله غير مخلوقة.

وقد اجتمع القسمان في قوله: "**كلمته، وروح منه**"؛ فكلمته هذه وصف مضاف إلى الله، وعلى هذا، فتكون كلمته صفة من صفات الله.

وروح منه: هذه أضيفت إلى عين، لأن الروح حلت في عيسى، فهي مخلوقة.

قوله: "**أدخله الله الجنة**" إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتمّ العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل.

فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذّبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذّبه، قال الله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: 116].

* * *

ولهما [1] في حديث عتبان: **فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله.**

قوله: "**عتبان**"، هو عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، كان يصلي بقومه، فضعف بصره، وشق عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يخرج إليه وأن يصلي في مكان من بيته ليتخذه مصلى، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما دخل البيت، قال: "أين تريد أن أصلي؟". قال: صل ها هنا. وأشار إلى ناحية من البيت، فصلى بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدُّخْشُم، فقال بعضهم: هو منافق. فقال رسول الله ﷺ: "**لا تقل هكذا؛ أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!**". ثم قال: "**فإن الله حرم على النار...**" الحديث.

فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنهم لا يدرون عما في قلبه؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وهنا الرسول قال هكذا، ولم يبرئ الرجل، إنّما أتى بعبارة عامة بأن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، ونهى أن نطلق ألسنتنا في عباد الله الذي ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مراء، هذا فاسق، وما أشبه ذلك؛ لأننا لو أخذنا بما نظن فسدت الدنيا والآخرة؛ فكثير من الناس نظن بهم سوءً، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك وظاهرهم الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

قوله: "**فإن الله حرم على النار**"، أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

قوله: "**من قال: لا إله إلا الله**"، أي: بشرط الإخلاص، بدليل قوله: "**يبتغي بذلك وجه الله**"، أي: يطلب وجه الله، ومن طلب وجهاً؛ فلا بد أن يعمل كل ما في وسعه للوصول إليه؛ لأن مبتغي الشيء يسعى في الوصول إليه، وعليه؛ فلا نحتاج إلى قول الزهري رحمه الله بعد أن ساق الحديث؛ كما في "صحيح مسلم" [2]، حيث قال: "ثم وجبت بعد ذلك أمور، وحُرّمت أمور؛ فلا يغتر مغترٌ بهذا"؛ فالحديث واضح الدلالة على شرطية العمل لمن قال: لا إله إلا الله، حيث قال: "**يبتغي بذلك وجه الله**"، ولهذا قال بعض السلف عن قول النبي ﷺ: "**مفتاح الجنة: لا إله إلا الله**"[1]، لكن من أتى بمفتاح لا أسنان له لا يفتح له.

قال شيخ الإسلام: إنّ المبتغي لا بد أن يكمّل وسائل البغية، وإذا أكملها حرمت عليه النار تحريماً مطلقاً، وإن أتى بالحسنات على الوجه الأكمل؛ فإنّ النار تحرم عليه تحريماً مطلقاً، وإن أتى بشيء ناقص، فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النار عليه فيه نقص، لكن يمنعه ما معه من التوحيد من الخلود في النار، وكذا من زنى، أو شرب الخمر، أو سرق، فإذا فعل شيئاً من ذلك ثم قال حين فعله: أشهد أن لا إله إلا الله ابتغي بذلك وجه الله؛ فهو كاذب في زعمه؛ لأن النبي ﷺ قال: "**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**"[2]، فضلاً عن أن يكون مبتغياً وجه الله.

وفي الحديث ردٌّ على المرجئة الذين يقولون: يكفي قول: لا إله إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

وفيه ردٌّ على الخوارج والمعتزلة؛ لأن ظاهر الحديث أن من فعل هذه المحرمات لا يخلد في النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلد في النار.

* * *

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ قال: "**قال موسى عليه السلام: يارب! علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يارب! كل عبادك يقولون هذا؟.**

قوله: "**أذكرك وأدعوك به**"، صفة لشيء، وليست جواب الطلب؛ فموسى عليه السلام طلب شيئاً يحصل به أمران:

1- ذكر الله.
2- دعاؤه.

---

[1] البخاري: كتاب الصلاة/ باب المساجد في البيوت، ومسلم: كتاب المساجد/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر.

[2] مسلم: كتاب المساجد/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر.

[1] الإمام أحمد في "المسند" 5/242، والهيثمي في "المجمع" 1/16، والخطيب في "المشكاة" 1/91، قال الهيثمي: "رواه أحمد والبزار وفيه انقطاع"، وضعفه الألباني في "الضعيفة" 3/477.

[2] البخاري: كتاب الأشربة/ باب قوله تعال: ﴿إنما الخمر والميسر...﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب نقصان الإيمان بالمعاصي.

فأجابه الله بقوله: "**قل لا إله إلا الله**"، وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء؛ لأن الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته إذاً؛ فهو متضمن للدعاء. قال الشاعر:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حباؤك إن شيمتك الحباء.

يعني: عطاؤك.

واستشهد ابن عباس على أن الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

إذا أثنى عليك العبد يوماً   كفاه من تعرضه الثناء

قوله: "**كل عبادك يقولون هذا"**، ليس المعنى أنها كلمة هينة كلٌّ يقولها؛ لأنّ موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظَم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئاً يختص به؛ لأن تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له ورفعة؛ فبين الله لموسى أنه مهما أعطي فلن يعطى أفضل من هذه الكلمة، وأنّ لا إله إلا الله أعظم من السماوات والأرض وما فيهن؛ لأنها تميل بهن وترجح، فدل ذلك على فضل لا إله إلا الله وعظَمها، لكن لابد من الإتيان بشروطها، أما مجرد أن يقولها القائل بلسانه؛ فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوي شيئاً؛ لأنّه لم يقلها على الوجه الذي تمت به الشروط وانتفت به الموانع.

* * *

قال: **يا موسى! لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة و(لا إله إلا الله) في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله**" رواه ابن حبان والحاكم وصححه[1].

قوله: "**والأرضين السبع**"، في بعض النسخ بالرفع. وهذا لا يصلح؛ لأنه إذا عطف على اسم أنّ قبل استكمال الخبر وجب النصب.

قوله: "**مالت**"، أي: رجحت حتى يملن.

قوله: "**عامرهن**"، أي: ساكنهن، فالعامر للشيء هو الذي عمر به الشيء.

قوله: "**غيري**"، استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأن قول لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى في السماء ليس ككون الملائكة في السماء؛ فكون الملائكة في السماء كون حاجي، فهم ساكنون في السماء؛ لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجاً إليها، بل إن السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى؛ فلا يظن ظانٌّ أن السماء تقل الله أو تظله أو تحيط به، وعليه؛ فالسماوات باعتبار الملائكة أمكنة مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظل لهم، أما بالنسبة لله؛ فهي جهة لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، لا يقله شيء من خلقه.

* * *

وللترمذي وحسنه عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ؛ يقول: "**قال الله تعالى: يا ابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك به شيئاً؛ لأتيتك بقرابها مغفرة**"[2]

قوله: "قال الله تعالى : يا ابن آدم..." إلخ.

هذا من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغاً، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله- عز وجل -.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في لفظ الحديث القدسي: هل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ؟

على قولين:

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله تعالى. ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لاسيما والنبي ﷺ أقوى الناس أمانةً وأوثقهم روايةً.

القول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه لفظ النبي ﷺ، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظاً ومعنى؛ لكان أعلى سنداً من القرآن، لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه تعالى بدون واسطة؛ كما هو ظاهر السياق، أما القرآن، فنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل؛ كما قال تعالى: ﴿**قل نزله روح القدس من ربك**﴾ [النحل: 102]، وقال: ﴿**نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين**﴾ [الشعراء: 193-195].

الوجه الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله، لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفقا في الأصل، ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته؛ فلا يثاب على كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: 9]، والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفاً أو موضوعاً، وهذا وإن لم يكن منها لكن نسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية، فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى والأكثرون على جوازه.

---

[1] ابن حبان (2324)، والحاكم (1/528) - وصححه ووافقه الذهبي -، وقال الحافظ في "الفتح": أخرجه النسائي بسند صحيح.

[2] مسند الإمام أحمد (5/147)، والترمذي: كتاب الدعوات/ باب غفران الذنوب، وقال: "حسن غريب".

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفاً أجمع القراء عليه؛ لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئاً منها مدعياً أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافراً لتكذيبه النبي ﷺ.

وأجاب هؤلاء عن كون النبي ﷺ أضافه إلى الله، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلى قائله معنىً لا لفظاً؛ كما في القرآن الكريم؛ فإن الله تعالى يضيف أقوالاً إلى قائليها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنىً لا لفظاً، كما في "قصص الأنبياء" وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعاً.

وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف في هذا كالخلاف بين الأشاعرة وأهل السنة في كلام الله تعالى؛ لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالى؛ فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى، لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالى، فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقي مسموع يتكلم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه وليس بحرف وصوت، وكلن الله تعالى يخلق صوتاً يعبر به عن المعنى القائم بنفسه، ولا شك في بطلان قولهم، وهو في الحقيقة قول المعتزلة، لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام الله وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام، فقد اتفق الجميع على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق.

ثم لو قيل في مسألتنا - الكلام في الحديث القدسي ـ: إن الأولى ترك الخوض في هذا؛ خوفاً من أن يكون من التنطع الهالك فاعله، والاقتصار على القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبي ﷺ عن ربه وكفى؛ لكان ذلك كافياً، ولعله أسلم والله أعلم.

* (**فائدة**):

إذا انتهى سند الحديث إلى الله تعالى سمي (قدسياً)؛ لقدسيته وفضله، وإذا انتهى إلى الرسول ﷺ سمي مرفوعاً، وإذا انتهى إلى الصحابي سمي موقوفاً، وإذا انتهى إلى التابعي فمن بعده سمي مقطوعاً.

قوله: "**بقراب الأرض**"، أي: ما يقاربها؛ إما ملئاً، أو ثقلاً، أو حجماً.

قوله: "**خطايا**"، جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب، ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته**﴾ [البقرة: 81].

قوله: "**لا تشرك بي شيئاً**" جملة "لا تشرك" في موضع نصب على الحال في التاء، أي: لقيتني في حال لا تشرك بي شيئاً.

قوله: "**شيئاً**" نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا شركاً أصغر ولا أكبر.

وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري؛ فحب المال مثلاً بحيث يلهي عن طاعة الله من الإشراك، قال النبي ﷺ: "**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة....**" الحديث[1]. فسمى النبي ﷺ من كان هذا همه سماه: عبداً له.

قوله: "**لأتيتك بقرابها مغفرة**"، أي: أن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

* **مناسبة الحديث للترجمة:**

أن في هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب؛ فهو مطابق لقوله في الترجمة: "وما يكفر من الذنوب".

* * *

■ **فيه مسائل:**

الأولى: سعة فضل الله. **الثانية:** كثرة ثواب التوحيد عند الله. **الثالثة:** تكفيره مع ذلك الذنوب. **الرابعة:** تفسير الآية التي في سورة الأنعام.

قوله: "**فيه مسائل**":

- **الأولى: "سعة فضل الله"،** لقوله: "أدخله الله الجنة على ما كان من العمل".
- **الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله،** لقوله: "**مالت بهن لا إله إلا الله**".
- **الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب،** لقوله: "**لأتيتك بقرابها مغفرة**"؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحياناً؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.
- **الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام،** وهي قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالظلم**﴾؛ فالظلم هنا الشّرك، لقوله ﷺ: "**ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم**﴾"[2].

* * *

---

[1] سبق تخريجه (ص13).

[2] سبق تخرجه (ص 28).

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة. **السادسة:** أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده؛ تبين لك معنى قول: "**لا إله إلا الله**"، وتبين لك خطأ المغرورين. **السابعة:** التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان. **الثامنة:** كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل (**لا إله إلا الله**).

- **الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة:**

1- 2- الشهادتان.

3- أن عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

4- أن الجنة حق.

5- أن النار حق.

- **السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس؛ تبين لك معنى قوله: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين،** لأنَّه لا بد أن يبتغي بها وجه الله، وإذا كان كذلك؛ فلابد أن تحمل المرء على العمل الصالح.
- **السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان،** وهو أن يبتغي بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرد القول؛ لأن المنافقين كانوا يقولونها ولم تنفعهم.
- **الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله**، فغيرهم من باب أولى.

* * *

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها بخف ميزانه. **العاشرة:** النص على أن الأرضين سبعٌ كالسماوات.

- **التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه،** فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنه قد يكون اختل شرطٌ من الشروط؛ أو وجد مانع من الموانع؛ فإنها تخف بحسب ما عنده، أما القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.
- **العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسماوات،** لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحاً أن السماوات سبع بقوله تعالى: ﴿**قل من رب السماوات السبع**﴾ [المؤمنون: 86]، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن**﴾ [الطلاق: 12]؛ فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية في العدد.

أما السنة؛ فهي صريحة جداً بأنها سبع؛ مثل قوله ﷺ: "**من اقتطع شبراً من الأرض؛ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**"[1]

وقد اختلف في قوله ﷺ: "**من سبع أرضين**"؛ كيف تكون سبعاً؟

فقيل: المراد: القارات السبع، وهذا ليس بصحيح؛ لأن هذا يمتنع بالنسبة لقوله: "**طوقه من سبع أرضين**"، وقيل: المراد المجموعة الشمسية، لكن ظاهر النصوص أنها طباق كالسماوات، وليس لنا أن نقول إلا ما جاء في الكتاب والسنة عن هذه الأرضين؛ لأننا لا نعرفها.

* * *

الحادية عشرة: أن لهن عماراً. **الثانية عشرة:** إثبات الصفات خلافاً للأشعرية. **الثالثة عشرة:** أنك إذا عرفت حديث أنس؛ عرفت أن قوله في حديث عتبان: "فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله"؛ أن ترك الشرك، ليس قولها باللسان. **الرابعة عشرة:** تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

- **الحادية عشرة: أن لهن عماراً،** أي: السماوات، وعمارهن الملائكة.
- **الثانية عشرة:** إثبات الصفات خلافاً للأشعرية، وفي بعض النسخ خلافاً للمعطلة، وهذه أحسن؛ لأنها أعم، حيث تشمل الأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم؛ ففيه إثبات الوجه لله سبحانه بقوله: "**يبتغي وجه الله**"، وإثبات الكلام بقوله: "**وكلمته ألقاها**"، وإثبات القول في قوله: "**قل لا إله إلا الله**".
- **الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس؛** عرفت أن قوله في حديث عتبان:

"**فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**" أن ترك الشرك.

وفي بعض النسخ: إذا ترك الشرك. أي: أن قوله: "حرم على النار من قال: **لا إله إلا الله يبتغي بذلك (يعني: ترك الشرك)"،** وليس مجرد قولها باللسان؛ لأن من ابتغى وجه الله في هذا القول لا يمكن أن يشرك أبداً.

- **الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون كل من عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.** عبدي: منصوب على أنه خبر كون؛ لأن كون مصدر كان وتعمل عملها.

وعيسى ومحمد: اسم كون.

وتأمل الجميع من وجهين:

الأول: أنه جمع لكل منهما بين العبودية والرسالة.

الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فتبين أن عيسى مثل محمد، وأنه عبد ورسول، وليس رباً ولا ابناً للرب - سبحانه -.

---

[1] البخاري بلفظ "من ظلم قيد شبر...": كتاب المظالم/ باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، ومسلم: كتاب المساقاة/باب تحريم الظلم وغصب الأرض.

وقول المؤلف: "**تأمل**"؛ لأنّ هذا يحتاج إلى تأمل.

* * *

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله. **السادسة عشرة:** معرفة كونه روحاً منه. **السابعة عشرة:** معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار. **الثامنة عشرة:** معرفة قوله "**على ما كان من العمل**".

- **الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله،** أي: أن عيسى انفرد عن محمد في أصل الخلقة؛ فقد كان بكلمة، أما محمد ﷺ؛ فقد خلق من ماء أبيه.
- **السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه،** أي: أن عيسى روح من الله، و"من" هنا بيانية أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي: روح جاءت من قبل الله وليست بعضاً من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.
- **السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار،** لقوله في حديث عبادة: "**وأن الجنة حق، والنار حق"،** والفضل أنه من أسباب دخول الجنة.
- **الثامنة عشرة: معرفة قوله: "على ما كان من العمل"،** أي: على ما كان من العمل الصالح ولو قل، أو على ما كان من العمل السيئ ولو كثر، بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد ويوجب الخلود في النار، لكن لا بد من العمل.

ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج، ولم تذكر أركان الإسلام هنا؛ لأن منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر، فإن الصحيح أنه لا يكفر إلا بترك الشهادتين والصلاة، وإن كان روي عن الإمام أحمد أن جميع أركان الإسلام يكفر بتركها، لكن الصحيح خلاف ذلك.

* * *

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

العشرون: معرفة ذِكر الوجه.

- **التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان،** أخذها المؤلف من قوله: "**لو أن السماوات.... إلخ، وضعت في كفّة ولا إله إلا الله في كفة**"، والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل، يعني أن قول: لا إله إلا الله أرجح من كل شيء، وليس في الحديث أن هذا الوزن في الآخرة، وكأن المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهني؛ فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.
- **العشرون: معرفة ذكر الوجه،** يعني: وجه الله تعالى، وهو صفة من صفاته الخبرية الذاتية التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء؛ لأن من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماه بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، ولا نقول بالنسبة لله تعالى أبعاض؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب الله تعالى الله.

باب من حقق التوحيد؛ دخل الجنة بغير حساب

هذا الباب كالمتمم للباب الذي قبله؛ لأن الذي قبله: "باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب"، فمن فضله هذا الفضل العظيم الذي يسعى إليه كل عاقل، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قوله: "**من**"، شرطية، وفعل الشرط: "**حقق**"، وجوابه: **"دخل"**، قوله: "**بلا حساب**"؛ أي: لا يحاسب لا على المعاصي ولا على غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصة من الشرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئاً قبل أن تعلمه، قال الله تعالى: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله**﴾ [محمد: 19].

الثاني: الاعتقاد، فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب**﴾. [ص:5]؛ فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿**إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون* ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾ [الصافات: 35/36].

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإن الجنة مضمونة له بغير حساب، ولا يحتاج أن نقول إن شاء الله؛ لأن هذا حكاية حكم ثابت شرعاً، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى بذلك في الترجمة دون أن يقول: إن شاء الله.

أما بالنسبة للرجل المعين؛ فإننا نقول: إن شاء الله.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين، ومناسبتهما للباب الإشارة إلى تحقيق التوحيد، وأنه لا يكون إلا بانتفاء الشرك كله:

* * *

وقول الله تعالى: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين**﴾ [النحل: 120]

- **الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة...﴾ الآية.**

قوله: ﴿**أمة**﴾، أي: إماماً، وقد سبق أن أمة تأتي في القرآن على أربعة أوجه، إمام، ودهر، وجماعة، ودين[1].

وقوله: ﴿**إن إبراهيم كان أمة**﴾، هذا ثناء من الله - سبحانه وتعالى - على إبراهيم بأنه إمام متبوع؛ لأنه أحد الرسل الكرام من أولي العزم، ثم إنه ﷺ قدوة في أعماله وأفعاله وجهاده؛ فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقي في النار فصبر.

ثم ابتلاه الله - سبحانه وتعالى - بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيده، وقد بلغ معه السعي (أي: شب وترعرع)؛ فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق به النفس كثيراً، فصار على منتهى تعلق النفس به.

ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله، قال الله تعالى عنه: ﴿**قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾ [الصافات: 102]، لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من بره بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالى، وأنظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله في قوله: ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾.

فالسين في قوله: ﴿**ستجدني**﴾ تدل على التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد على نفسه، بل استعان بالله في قوله: ﴿**إن شاء الله**﴾.

وامتثلا جميعاً وأسلما، وانقاداً لله - عز وجل -، وتله للجبين؛ أي: على الجبين، أي جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرى وجهه، فجاء الفرج من الله تعالى: ﴿**وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين**﴾ [الصافات: 104،105]، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديداً، ونحو ذلك.

قوله: ﴿**قانتاً**﴾، القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على كل حال؛ فهو مطيع لله، ثابت على طاعته، مديم لها في كل حال.

كما أن ابنه محمداً ﷺ يذكر الله على كل أحيانه[1]: إن قام ذكر الله، وإن جلس ذكره، وإن نام، وإن أكل، وإن قضى حاجته ذكر الله؛ فهو قانت آناء الليل والنهار.

قوله: ﴿**حنيفاً**﴾، أي: مائلاً عن الشرك، مجانباً لكل ما يخالف الطاعة، فوصف بالإثبات والنفي، أي: بالوصفين الإيجابي والسلبي.

قوله: ﴿**ولم يك من المشركين**﴾، تأكيد، أي لم يكن مشركاً طول حياته؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام معصوماً عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناعه عن الشرك استمراراً في قوله: ﴿**حنيفاً**﴾، وابتداءً في قوله: ﴿**ولم يك من المشركين**﴾، والدليل على ذلك: أن الله جعله إماماً، ولا يجعل الله للناس إماماً من لم يحقق التوحيد أبداً.

ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وما جرى عليه وجد أنه في غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفى غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنه لا يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب، فمن

---

[1] سبق تخريجه (ص 8، 9)

[1] مسلم: كتاب الحيض/ باب ذكر الله تعالى حال الجنابة.

عنده شك أو تردد لا يصبر على هذا؛ لأن النفس لا تدع شيئاً إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئاً إلا ما ظنت فائدته، أو تيقنت.

ويجب أن نعلم أن ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان:

الأول: محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيراً، كما أن من أثنى الله عليه شراً، فإننا نبغضه ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان إماماً حنيفاً قانتاً لله ولم يكن من المشركين، ونكره قومه؛ لأنهم كانوا ضالين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا؛ لأنهم قائمون بأمر الله، ونكره الشياطين، لأنهم عاصون لله وأعداء لنا ولله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنهم عاصون لله أيضاً وأعداء لله ولنا.

الثاني: أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه؛ لأنها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: 111]، وقال تعالى: ﴿**قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه**﴾ [الممتحنة: 4]، وقال تعالى: ﴿**لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾ [الممتحنة:6].

وهذه مسألة مهمة؛ لأن الإنسـان أحيانـاً يغيب عن باله الغـرض الأول، وهو محبة هذا الذي أثنى الله عليه خـيراً، ولكن لا ينبغي أن يغيب؛ لأن الحب في الله، والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.

* **فائدة:**

أبو إبراهيم مات على الكفر، والصواب الذي نعتقده أن اسمه آزر؛ كما قال الله تعال: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة**﴾ [الأنعام: 74]، وقال تعالى: ﴿**وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه**﴾ [التوبة: 114]؛ لأنه قال: ﴿**سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً**﴾ [مريم: 47]، ﴿**فلما تبين له أنه عدو لله بترأ منه إن إبراهيم لأواه حليم**﴾ [التوبة: 1114]، وفي سورة إبراهيم قال: ﴿**ربنا أغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب**﴾ [إبراهيم: 41]، ولكن فيما بعد تبرأ منه.

أما نوح؛ فقال: ﴿**رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات**﴾ [نوح: 28]، وهذا يدل على أن أبوي نوح كانا مؤمنين.

* **فائدة أخرى:**

قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازي، والملاحم، والتفسير؛ فهذه الغالب فيها أنها تذكر بدون إسناد، ولهذا؛ فإن المفسرين يذكرون قصة آدم، ﴿**فلما آتاهما صالحاً**﴾ [الأعراف: 190]، وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة في ذلك[1].

فالقاعدة إذاً: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئاً إلا من طريق الوحي، قال تعالى: ﴿**ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله**﴾ [إبراهيم: 9].

* * *

وقال: ﴿**والذين هم بربهم لا يشركون**﴾ [المؤمنون: 59].

- **الآية الثانية: قوله: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾.**

هذه الآية سبقها آية، وهي قوله: ﴿**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون**﴾ [المؤمنون: 57].

لكن المؤلف ذكر الشاهد. وقوله تعالى: ﴿**من خشية ربهم**﴾؛ أي: من خوفهم منه على علم، و ﴿**مشفقون**﴾؛ أي: خائفون من عذابه إن خالفوه.

فالمعاصي بالمعنى الأعم – كما سبق ـ[2] شرك؛ لأنها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾ [الجاثية: 23].

أما بالنسبة للمعنى الأخص؛ فيقسمها العلماء قسمين:

1- شرك.
2- فسوق.

وقوله: ﴿**لا يشركون**﴾، يراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال الله تعالى: ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾ [آل عمران: 135].

* * *

وعن حصين بن عبد الرحمن؛ قـال: كنت عند سـعيد بن جبـير، فقـال: أيكم رأى الكوكب الذي أنقض البارحة؟ فقلت: أنـا. ثم قلت: أما إنيً لم أكن في صلاةٍ.

قوله: "**عن حصين بن عبد الرحمن؛ قال: كنت عند سعيد بن جبير**".

وهما رجلان من التابعين ثقتان.

---

[1] أنظر: باب قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلاً لها شركاء فيما آتاهما...﴾.

[2] أنظر (ص 31).

قوله: "**انقض البارحة**"، أي: سقط البارحة، والبارحة: أقرب ليلة مضت، وقال بعض أهل اللغة: تقول فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال، وفعلنا البارحة كذا إن قلته بعد الزوال.

وفي عرفنا؛ فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول: البارحة لليلة الماضية، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول: الليلة لليلة التي نحن فيها.

بل بعض العامة يتوسع متى قام من الليل قال: البارحة؛ وإن كان في ليلته.

قوله: "**فقلت أنا**"، أي: حصين.

قوله: "**أما إني لم أكن في صلاة**"، أما: أداة استفتاح، وقيل: إنها بمعنى حقاً، وعلى هذا؛ فتفتح همزة "إن"، فيقال: أما أني لم أكن في صلاة، أي حقاً لم أكن في صلاة.

وقال هذا رحمه الله لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل، وهذا خلاف ما عليه بعضهم، يفرح أن الناس يتوهمون أنه يقوم يصلي، وهذا من نقص التوحيد.

وقول حصين رحمه الله ليس من باب المراءاة، بل هو من باب الحسنات، وليس كمن يترك الطاعات خوفاً من الرياء؛ لأن الشيطان قد يلعب على الإنسان، ويزيِّن له ترك الطاعة خشية الرياء، بل أفعل الطاعة، ولكن لا يكن في قلبك أنك ترائي الناس.

* * *

ولكني لدغت. قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريده بن الحصيب؛ أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة.

قوله: "**لدغت**"، أي: لدغته عقرب أو غيرها، والظاهر أنها شديدة؛ لأنه لم ينم منها.

قوله: "ارتقيت"، أي: استرقيت؛ لأن افتعل مثل استفعل، وفي رواية مسلم: "استرقيت"؛ أيك طلبت الرقية.

قوله: "**فما حملك على ذلك**"، أي: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

قوله: "**حديث حدثناه الشعبي**"، وهذا يدل على أن السلف رضي الله عنهم يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة، فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

قوله: "**لا رقية**"، أي: لا قراءة أو لا استرقاء على مريض أو مصاب.

قوله: "**إلا من عين**"، وهي نظرة من حاسد، نفسه خبيثة، تتكيف بكيفية خاصة فينبعث منها ما يؤثر على المصاب، ويسميها العامة الآن: "النحاتة"، وبعضهم يسميها "النفس"، وبعضهم يسميها "الحسد".

قوله: "**حُمَة**"، بضم الحاء، وفتح الميم، مع تخفيفها: وهي كل ذات سم، والمعنى لدغته إحدى ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

* * *

قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس.. إلخ.

إذن، فحصين استند على حديث: "لا رقية إلا من عين أو حمة"، وهذا يدل على أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإن الرُّقى تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضاً، وكثير من الناس يقرؤون على الملدوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذي بعثه النبي في سرية، فاستضافوا قوماً، فلم يضيفوهم، فلدغ سيدهم لدغة عقرب، فقالوا: من يرقي؟ فقالوا: لعل هؤلاء الركب عندهم راقٍ، فجاؤوا إلى السرية، قالوا: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقي لكم إلا بشيء من الغنم، فقالوا: نعطيكم. فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثاً أو سبعاً، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال : "وما يدريك أنها رقية؟" (يعني: الفاتحة)[1]، وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهي أن يؤتي بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.

وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضاً، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره. أي: ما يلي جسمه من الثياب. كالثوب، والطاقية، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مجرب.

وأما العائن؛ فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يبرّك عليه؛ لقول النبي لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: "**هلا برّكت عليه**"[2]؛ أي: قلت: بارك الله عليك.

* * *

ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ؛ أنه قال: "**عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**".

قوله: "**ولكن حدثنا**"، القائل: سعيد بن جبير.

قوله: "**عرضت علي الأمم**"، العارض لها الله - سبحانه وتعالى -، وهذا في المنام فيما يظهر. وأنظر: "فتح الباري" (11/407، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً، كتاب الرقاق)، والأمم: جمع أمة وهي أمم الرسل.

قوله: "**الرهط**"، من الثلاثة إلى التسعة.

---

[1] البخاري: كتاب الطب/ باب الرقي بفاتحة الكتاب. ومسلم: كتاب السلام/ باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن.

[2] مسند الإمام أحمد (3/486)، وموطأ الإمام مالك (211/938)، وشرح السنة (1211/164).

قوله: "**والنبي ومعه الرجل والرجلان**"، الظاهر أن الواو بمعنى أو؛ أي: ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغني أن يقول: ومعه ثلاثة، لكن المعنى: والنبي ومعه الرجل، النبي الثاني ومعه الرجلان.

قوله: "**والنبي وليس معه أحد**"، أي: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ، يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة.

* * *

إذ رفع لي سوادٌ عظيمٌ، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت؛ فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ". ثم نهض. فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك. فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله .

قوله: "**إذ رفع لي**"، هذا على تقدير محذوف؛ أي: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لي.

قوله: "**سواد عظيم**"، المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده، أي: شخصه، أي أشخاصاً عظيمة كانوا من كثرتهم سواداً.

قوله: "**فظننت أنهم أمتي**"، لأن الأنبياء عرضوا عليه بأممهم؛ فظن هذا السواد أمته - عليه الصلاة والسلام - .

قوله: "**فقيل لي: هذا موسى وقومه**"، وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: "**فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك**"، وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

قوله: "**بغير حساب ولا عذاب**"، أي: لا يعذبون ولا يحاسبون كرامةً لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة.

قوله: "**فخاض الناس في أولئك**"، هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظرياً وعملياً حتى يكونوا منهم.

قوله: "**الذين صحبوا رسول الله**"، يحتمل أن المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمل أن المراد الذين صحبوه في هجرته، ويؤيده أنه لو كان المراد الصحبة المطلقة، لقالوا: نحن؛ لأن المتكلم هم الصحابة، ويدل على هذا قول الرسول لخالد بن الوليد: "**لا تسبوا أصحابي**"[(1)]؛ فإن المراد بهم الذين صحبوه في هجرته، لكن يمنع منه أن المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفاً.

ويمنع الاحتمال الأول: أن الصحابة أكثر من سبعين ألفاً، ويحتمل أن المراد من كان مع الرسول إلى فتح مكة؛ لأنه بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً.

وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر.

* * *

وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً... وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ، فأخبروه، فقال: "**هم الذين لا يسترقون**".

قوله: "**الذين ولدوا في الإسلام**"، أي: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفاً.

قوله: "**فخرج عليهم رسول الله، فأخبروه**"، أي: أخبروه بما قالوا وما جرى بينهم.

قوله: "**لا يسترقون**"، في بعض روايات مسلم[(1)]: "لا يرقون".

ولكن هذه الرواية خطأ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن الرسول كان يرقي[(2)]، ورقاه جبريل[(3)]، وعائشة[(4)]، وكذلك الصحابة كانوا يرقون[(5)].

واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى؛ أي: طلب الرقية، أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم، لما يلي:

1- لقوة اعتمادهم على الله.
2- لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله.
3- ولما في ذلك من التعلق بغير الله.

* * *

ولا يكتوون ولا يتطيرون.

وقوله: "**ولا يكتوون**"، أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم.

ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: "**ولا يسترقون**".

أما بالنسبة لمن أعد للكي من قبل الحكومة، فطلب الكي منه ليس فيه ذل؛ لأنه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر على ذلك من الحكومة، ولأن هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنه محتاج إلى الكي، وليس سؤال تذلل.

---

(1) البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي / باب قول النبي : "لو كنت متخذاً خليلاً"، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم.

(1) مسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

(2) البخاري: كتاب الطب/ باب رقية النبي ، ومسلم: كتاب السلام/باب استحباب الرقية من العين.

(3) مسلم: كتاب السلام/ باب الطب والمرض والرقى.

(4) البخاري: كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات، ومسلم: كتاب السلام/ باب رقية المرضي.

(5) كما في قصة صاحب السرية.

قوله: "**ولا يتطيرون**"، مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطيّر، والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعم من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتطير، حتى لو أراد الإنسان منهم خيراً ثم رأى الطير سنحت يميناً أو شمالاً حسب ما كان معروفاً عندهم، تجده يتأخر عن هذا الذي أراده، ومنهم من إذا سمع صوتاً أو رأى شخصاً تشاءم، ومنهم من يتشاءم من شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: "عقد علي رسول الله في شوال، وبنى بي في شوال؛ فأيكن كان أحظى عنده"[1]، ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر، وهذا كله مما أبطله الشرع؛ لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً، وكون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور، هذا هو التوكل على الله، ولهذا ختم المسألة بقوله: "**وعلى ربهم يتوكلون**"؛ فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكلهم.

وهل هذه الأشياء تدل على أن من لم يتصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أن الكمال فاته إلا بالنسبة للتطير؛ فإنه لا يجوز؛ لأنه ضرر وليس له حقيقة أصلاً.

أما بالنسبة لطلب العلاج، فالظاهر أنه مثله لأنّه عام، وقد يقال: إنّه لولا قوله: "**ولا يسترقون**"؛ لقلت: إنه لا يدخل؛ لأن الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى، لكن كلمة "**يسترقون**" مشكلة؛ فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، وهنا نقول: الدواء مثلها، لأن الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضاً؛ لأنّ الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلاً: ما تؤكد منفعته إذا لم يكن في الإنسان إذلال لنفسه؛ فهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل الكسر وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن في الزائدة وغيرها.

ولو قال قائل بالاقتصار على ما في هذا الحديث، وهو أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وأن ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية؛ كالعسل والحبة السوداء؛ لكان له وجه.

وإذا طلب منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك؛ لأن النبي لم يمنع عائشة أن ترقيه[2]، وهو أكمل الخلق توكلاً على الله وثقةً به، ولأن هذا الحديث: "لا يسترقون..." إلخ إنما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب.

* * *

فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: "**أنت منهم**". ثم قال رجلاً آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: "**سبقك بها عكاشة**"[1].

قوله: "**فقال: أنت منهم**"، وقول الرسول هذا هل هو بوحي من الله إقراري، أو وحي إلهامي، أو وحي رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقراري بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقره الله عليه؛ صارت وحياً إقرارياً.

لكن رواية البخاري: "**اللهم اجعله منهم**" تدل على أن الجملة: "أنت منهم" خبر بمعنى الدعاء.

قوله: "**ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة**"، لم يرد النبي أن يقول له: لا، ولكن قال: سبقك بها، أي: بهذه المنقبة والفضيلة، أو بهذه المسألة عكاشة بن محصن.

وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسول هذا الكلام؟

فقيل: إنه كان منافقاً، فأراد الرسول ألا يجابهه بما يكره تأليفاً.

وقيل: خاف أن ينفتح الباب فيطلبها من ليس منهم؛ فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً، وهذا أقرب.

* * *

- **فيه مسائل: الأولى:** معرفة مراتب الناس في التوحيد. **الثانية**: ما معنى تحقيقه. **الثالثة:** ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.

قوله: "**فيه مسائل**"، أي: في هذا الباب مسائل:

- **المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد،** وهذه مأخوذة من قوله: "**يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**". ثم قال: "**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون**"
- **الثانية: ما معنى تحقيقه؟** أي: تحقيق التوحيد، وسبق لنا في أول الباب أن تحقيقه: تخليصه من الشرك.
- **الثالثة: ثناؤه - سبحانه - على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين،** وهو ظاهر في الآية الكريمة: **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين** [النحل: 120]؛ فإن هذه الآية لا شك أنها سيقت للثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛ دل ذلك على أن كل من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله - سبحانه وتعالى -.

---

[1] مسلم: كتاب النكاح/ باب استحباب التزوج والتزويج في شوال.

[2] سبق تخريجه (ص54).

[1] البخاري: كتاب الرقاق/ باب يدخل الجنة سبعون ألفاً)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

* * *

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك. **الخامسة**: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد. **السادسة**: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل. **السابعة**: عمق علم الصحابة بمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

- **الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك،** لقوله تعالى: **والذين هم بربهم لا يشركون**، وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: **إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** [المؤمنون: 57-61]؛ فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: الأولياء السادات، وليس يريد رحمه الله السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذي هم سادات الخلق.
- **الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد،** لقوله: "الذين لا يسترقون ولا يكتوون"؛ فالمراد بقول المؤلف: "الرقية والكي": الاسترقاء والاكتواء.
- **السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل،** والخصال هي: ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطير، يعني أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله- عز وجل .
- **السابعة: عمق عمل الصحابة لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل،** أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفاً هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أن الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء.

* * *

الثامنة: حرصهم على الخير. **التاسعة:** فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية. **العاشرة:** فضيلة أصحاب موسى. **الحادية عشرة:** عرض الأمم عليه - عليه الصلاة والسلام - .

- **الثامنة: حرصهم على الخير،** وجهه خوضهم في هذا الشيء؛ لأنهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها.
- **التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميّة والكيفيّة،** أما الكميّة، فلأن النبي رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذي كان مع موسى، وأما الكيفيّة؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.
- **العاشرة: فضيلة أصحاب موسى،** وهو مأخوذ من قوله: "**إذ رفع لي سوادٌ عظيمٌ"،** ولكن قد يقال: إن التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث؛ لأن الحديث يقول: "سواد عظيم فظننت أنهم أمتي"، وهذا يدل على الكثرة.
- **الحادية عشرة: عرض الأمم عليه - عليه الصلاة والسلام ـ،** وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد، فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: **ما كنت بدعاً من الرسل**.

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثر أتباعاً وأفضلهم؛ فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان.

* * *

الثانية عشرة: أن كلّ أمةٍ تحشر وحدها مع نبيها. **الثالثة عشرة:** قلّة من استجاب للأنبياء. **الرابعة عشرة:** أن من لم يجبه أحدٌ يأتي وحده. **الخامسة عشرة:** ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

- **الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها،** لقوله: "**رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان**"، ولولا أنّ كل نبي متميز عن النبي الآخر؛ لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع، ويدل لذلك قوله سبحانه وتعالى: **وترى كل أمةٍ جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها** [الجاثية: 28]؛ فإنه يدل على أن كل أمة تكون وحدها.
- **الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء،** وهو واضح من قوله: "**والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**".
- **الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده،** لقوله: "**والنبي وليس معه أحد**".
- **الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة.. إلخ،** فإن الكثرة قد تكون ضلالاً، قال الله تعالى: **وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله** [الأنعام: 116]، وأيضاً الكثرة من جهة أخرى إذا اغتر الإنسان بكثرة وظن لن يغلب أو أنّه منصور؛ فهذا أيضاً سبب للخذلان؛ فالكثرة إن نظرنا إلى أن أكثر أهل الأرض ضلال لا تغتر بهم، فلا تقل: إن الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟.

كذلك أيضاً لا تغتر بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق؛ فكلام المؤلف له وجهان:

الوجه الأول: أن لا نغتر بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الوجه الثاني: أن لا نغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس وعدم الزهد في القلة، أي أن لا نزهد بالقلة؛ فقد تكو القلة خيراً من الكثرة.

* * *

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة. **السابعة عشرة:** عمق علم السلف، لقوله: "**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا**"، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

- **السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة،** مأخوذ من قوله: "**لا رقية إلا من عين أو حمة**".
- **السابعة عشرة: عمق علم السلف، لقوله: "قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا"؛ فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني،** لأن قوله: "**لا رقية إلا من عين أو حمة**" لا يخالف الثاني؛ لأن الثاني إنما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه؛ فإنه لا ينافي قوله: "**ولا يسترقون**"، لأن هناك ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالث: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحداً أن يرقيهم[1]؛ لأن هذا لا يؤثر في التوكل.

* * *

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه. **التاسعة عشرة:** قوله: "**أنت منهم**": علم من أعلام النبوة. **العشرون:** فضيلة عكاشة.

- **الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه،** يؤخذ من قوله: **"أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت"؛** لأنه إذا كان رأى الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظان، واليقظان: إما أن يصلي، وإما أن يكون له شغل آخر، وإما أن يكون لديه مانع من النوم.
- **التاسعة عشرة: قوله:"أنت منهم" علم من أعلام النبوة.** يعني: دليلاً على نبوة الرسول ﷺ، وكيف ذلك؟، لأن عكاشة بن محصن رضي الله عنه بقي محروساً من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون في هذا علم، يعني: دليلاً من دلائل نبوة الرسول ﷺ، هذا إذا قلنا: إن الجملة خبرية وليس جملة دعائية، فإن قلنا: إنها جملة دعائية، فقد نقول أيضاً: فيه علم من أعلام النبوة، وهو أن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ، لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبي، وحينئذ لا يمكن أن تكون علماً من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.
- **العشرون: فضيلة عكاشة،** بكون ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم، لأن الرسول ﷺ شهد له بها.

* * *

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض. **الثانية والعشرون:** حسن خلقه ﷺ.

- **الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.** وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لقول الرسول ﷺ: "**سبقك بها عكاشة**"؛ فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقاً فلم يرد النبي ﷺ أن يجعله مع الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإما خوفاً من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.
- **الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ.** وذلك لأنه رد هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.

* * *

---

[1] أنظر: (ص 54)

باب الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: 116].

---

* **مناسبة الباب للبابين قبله:**

في الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله تحقيق التوحيد، وفى الباب الثاني ذكر أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث بهذا الباب رحمه الله تعالى، لأن الإنسان يرى أنه قد حقق التوحيد وهو لم يحققه، ولهذا قال بعض السلف: "ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص"، وذلك أن النفس متعلقة بالدنيا تريد حظوظها من مال أو جاه أو رئاسة، وقد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص في الإخلاص، وقل من يكون غرضه الآخر في كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله ما سبق من البابين بهذا الباب، وهو الخوف من الشرك، وذكر فيه آيتين:

الأولى قوله: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾.

﴿**لا**﴾: نافية، ﴿**أن يشرك به**﴾: فعل مضارع مقرون بأن المصدرية، فيحول إلى مصدر تقديره: أن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكاً به، فالشرك لا يغفره الله أبداً، لأنه جناية على حق الله الخاص، وهو التوحيد.

أما المعاصي، كالزنى والسرقة، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أما الشرك، فهو اعتداء على حق الله تعالى، وليس للإنسان فيه حظ نفس، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده، ولكنه ظلم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ [لقمان: 13].

وهل المراد بالشرك هنا الأكبر، أم مطلق الشرك؟

قال بعض العلماء: إنه مطلق يشمل كل شرك لو أصغر، كالحلف بغير الله، فإن الله لا يغفره، أما بالنسبة لكبائر الذنوب، كالسرقة والخمر، فإنها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل اختلف كلامه في هذه المسألة، فمرة قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر، وعلى كل حال فيجب الحذر من الشرك مطلقاً، لأن العموم يحتمل أن يكون داخلاً فيه الأصغر، لأن قوله: ﴿**أن يشرك به**﴾ أن وما بعدها في تأويل مصدر، تقديره: إشراكاً به، فهو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.

قوله: ﴿**ويغفر ما دون ذلك**﴾، المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

* * *

وقال الخليل عليه السلام: ﴿**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾ [إبراهيم: 35]

الآية الثانية: قوله: ﴿**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾.

قيل: المراد ببنيه: بنوه لصلبه، ولا نعلم له من صلبه سوى إسماعيل وإسحاق، وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول ﷺ دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم[1] فلم يجب الله دعاه.

وأيضاً يمنع من الأول أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل.

ومعنى: ﴿**اجنبني**﴾، أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبني من عبادة الأصنام، لأنه إذا كان في جانب عنها كان أبعد.

فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء، فما بالك بنا نحن إذن؟.

فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النفاق، إذ لا يأمن النفاق إلا منافق، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، ولهذا قال ابن أبي مليكة: "**أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه**"[2].

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف على نفسه النفاق، فقال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أسر إليه النبي ﷺ بأسماء أناس من المنافقين، فقال له عمر رضي الله عنه: "أنشدك الله، هل سماني لك رسول الله ﷺ مع من سمى من المنافقين؟. فقال حذيفة رضي الله عنه: لا، ولا أزكي بعدك أحداً"[3]، أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة، وإلا، فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة.

ولا يقال: إن عمر رضي الله عنه أراد حث الناس على الخوف من النفاق ولم يخفه على نفسه، لأن ذلك خلاف ظاهر اللفظ، والأصل حمل اللفظ على ظاهره، ومثل هذا القول يقوله بعض العلماء فيما يضيفه النبي ﷺ إلى نفسه في بعض الأشياء، يقولون: هذا قصد به التعليم، وقصد به أن يبين لغيره، كما قيل، إن الرسول ﷺ لم يقل: رب اغفر لي لأن ليس له ذنباً ولكن لأجل أن يعلم الناس الاستغفار، وهذا خلاف الأصل وقول بعضهم: إنه جهر بالذكر عقب الفريضة ليعلم الناس الذكر، لا لأن الجهر بذلك من السنة ونحو ذلك.

قوله: ﴿**أن نعبد الأصنام**﴾. أن والفعل بعدها في تأويل مصدر: مفعول ثان لقوله: اجنبني.

والأصنام: جمع صنم، وهو ما جعل على صورة إنسان أو غيره يعبد من دون الله.

---

[1] يأتي تخريجه (ص 487).

[2] البخاري: كتاب الإيمان/ باب خوف المؤمن أن يحبط عمله.

[3] أنظر: "طريق الهجرتين" لابن القيم آخر الطبقة الخامسة عشرة.

أما الوثن، فهو ما عبد من دون الله على أي وجه كان، وفي الحديث: "**لا تجعل قبري وثناً يعبد**"[1]، فالوثن أعم من الصنم.

ولا شك أن إبراهيم سأل ربه الثبات على التوحيد، لأنه إذا جنبه عبادة الأصنام صار باقياً على التوحيد.

* **الشاهد من هذه الآية:**

أن إبراهيم خاف الشرك، وهو إمام الحنفاء، وهو سيدهم ما عدا رسول الله ﷺ.

* * *

وفي الحديث: "**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**". فسئل عنه فقال: "**الرياء**"[2].

قوله: "**وفي الحديث**". الحديث: ما أضيف إلى الرسول، والخبر: ما أضيف إليه وإلى غيره، والأثر: ما أضيف إلى غير الرسول ﷺ، أي: إلى الصحابي فمن بعده، إلا إذا قيد فقيل: وفي الأثر عن رسول الله ﷺ، فيكون على ما قيد به.

قوله: "**أخوف ما أخاف عليكم**". الخطاب للمسلمين، إذ المسلم هو الذي يخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس.

قوله: "**الرياء**"، مشتق من الرؤية مصدر راءى يرائي، والمصدر رياء، كقاتل يقاتل قتالاً.

والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابداً، وليس يريد أن تكون العبادة للناس، لأنه لو أراد ذلك، لكان شركاً أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا، فقد يكون رياء، وقد يكون سماعاً، أي يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب.

أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها، فليس هذا رياء، بل هذا من الدعوة إلى الله - عز وجل -، والرسول ﷺ يقول: "**فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي**"[3].

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، أي ما قام يتعبد إلا للرياء، فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في "الصحيح" مرفوعاً، قال الله تعال: "**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**"[1].

الثاني: أن يكون الرياء طارئاً على العبادة، أي أن أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء، فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه، فهذا لا يضره.

مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه، فإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد.

القسم الثاني: أن استرسل معه، فكل عمل ينشأ عن الرياء فهو باطل، كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى، فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأولى: أن يكون آخر العبادة مبيناً على أولها، بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها، فهذه كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة، فالصلاة مثلاً لا يمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها، وحينئذ تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها، بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء، فهو صحيح، وما كان بعده، فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال، فتصدق بخمسين بنية خالصة، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء، فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة، لأن آخرها منفك عن أولها.

فإن قيل: لو حدث الرياء في أثناء الوضوء، هل يلحق بالصلاة فيبطل كله، أو بالصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط.

فالجواب: يحتمل هذا وهذا، فيلحق بالصلاة لأن الوضوء عبادة واحدة ينبني بعضها على بعض، ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة، ويلحق بالصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه ولا الصدقة من كل وجه، لأننا إذا قلنا ببطلان ما حصل فيه الرياء، فأعاد تطهيره وحد لم يضر، لأن تكرر غسل الوضوء لا يبطل الوضوء ولو كان عمداً بخلاف الصلاة. فإنه إذا كرر جزءاً منها كركوع أو سجود لغير سبب شرعي، بطلت صلاته، فلو أنه بعد أن غسل يديه رجع وغسل وجهه، لم يبطل وضوؤه، ولو أنه بعد أن سجد رجع وركع، لبطلت صلاته، والترتيب موجود في هذا وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لا تبطله، والرجوع مثلاً إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضاً، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءاً لأنه غير شرعي، وربما يكون في الأولى غسل وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه، ثم قال: الأحسن أن أكمل الثلاث في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتب أي سيغسل وجهه ثم يديه، فوضوؤه صحيح.

ولو ترك التسبيح ثلاث مرات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوت على نفس فضيلة، سأرجع لأجل أن أسبح ثلاث مرات، فتبطل صلاته، فالمهم أن هناك فرقاً بين الوضوء والصلاة، ومن أجل هذا الفرق لا أبت فيها الآن حتى أراجع وأتأمل إن شاء الله تعالى.

---

[1] موطأ الإمام مالك (1/172)

[2] مسند الإمام أحمد (5/428) وشرح السنة (14/324).

[3] البخاري: كتاب الجمعة/باب الخطبة على المنبر، ومسلم: كتاب المساجد/باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة.

[1] سبق تخريجه (ص37).

* * *

وعن أبي مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله قال: "**من مات وهو يدعو من دون الله نداً، دخل النار**". رواه البخاري[1].

قوله: "**من**". هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى.

قوله: "**يدعو من دون الله نداً**"، أي: يتخذ لله نداً سواء دعاء عبادة أم دعاء مسألة، لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام، فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنها تتضمن الدعاء بلسان المقال.

ويدل لهذا القسم قوله تعالى: **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي** [غافر: 60]، فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كله شرك، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله، فقد كفر كفراً مخرجاً له عن الملة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظمه كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود، لكان مشركاً، ولهذا منع النبي من الانحناء عن الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن يحني له؟ قال: "**لا**"[2].

خلافاً لما يفعله بعض الجهال إذا سلم عليك انحنى لك، فيجب على كل مؤمن بالله أن ينكره، لأنه عظمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة، فهذا ليس كله شركاً، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك، فليس بشرك، كقوله: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قال : "**من دعاكم فأجيبوه**"[1]، وقال تعالى: **وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه** [النساء: 8].

فإذا مد الفقير يده، وقال: ارزقني، أي: اعطني، فليس بشرك، كما قال تعال: **فارزقوهم منه** ، وأما أن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله، فإن دعوته شرك مخرج عن الملة.

مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن ينزل الغيث معتقداً أنه قادر على ذلك.

والمراد بقول الرسول : "**من مات وهو يدعو من دون لله نداً**" المراد الند في العبادة، أما الند في المسألة، ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف، ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلاناً المقبور الذي بقى جثة أو أكلته الأرض ينفع أو يضر، أو يأتي بالنسل لمن لا يولد لها، وهذا - والعياذ بالله - شرك أكبر مخرج من الملة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزنا واللواط، لأنه إقرار على كفر، وليس إقراراً على فسوق فقط.

قوله: "**دخل النار**". أي: خالداً، مع أن اللفظ لا يدل عليه، لأن دخل فعل، والفعل يدل على الإطلاق.

وأيضاً قال الله تعالى: **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** [المائدة: 72]، وإذا حرمت الجنة، لزم أن يكون خالداً في النار أبداً، فيجب أن نخاف من الشرك مادامت هذه عقوبته، فالمشرك خسر الآخرة، لأنه في النار خالد، وخسر الدنيا أيضاً، لأنه لم يستفد منها شيئاً، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر - والعياذ بالله ـ ما استفاد شيئاً من الدنيا، قال تعالى: **أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير** [فاطر: 37]، وقال الله – عز وجل ـ: **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين * يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** [الحج: 11-13]، وقال تعالى: **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** [الزمر: 15].

فخسر نفسه، لأنه لم يستفد منها شيئاً، وخسر أهله، لأنهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك، لأنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جداً، فقد يكون في الإنسان وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف: "ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص".

فالشرك أمره صعب جداً ليس بالهين، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لا يقصد مدح الناس أو ذمهم أو ثناءهم عليه، فالناس لا ينفعونه أبداً، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلا عمله، قال : "**يخرج مع الميت أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى عمله**"[1].

وكذلك أيضاً من المهم أن الإنسان لا يفرحه أن يقبل النـاس قوله لأنه قولــه، لكن يفرحه أن يقبل النــاس قوله إذا رأى أنه الحق لأنه الحــق، لا أنه قوله، وكـذا لا يحزنه أن يـرفض النـاس قوله لأنه قولـه، لأنه حينئذ يكـون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً.

[2] مسند الإمام أحمد (3/198)، والترمذي: كتاب الاستئذان/ باب ما جاء في المصافحة، وقال: "حديث حسن"، وابن ماجة: كتاب الأدب/ باب في المصافحة.

[1] مسند الإمام أحمد (2/68)، وأبو داود (3/17)، والنسائي (5/28)، والحاكم وصححه.

[1] البخاري: كتاب الرقاق/ باب سكرات الموت، ومسلم (كتاب الزهد والرقائق.

فالإخلاص صعب جداً، إلا أن الإنسان إذا كان متجهاً إلى الله اتجاهاً صادقاً سليماً على صراط مستقيم، فإن الله يعينه عليه، وييسره له.

ولمسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار"[1].

* * *

قوله: "**من**". شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: "**لقي**"، وجوابه قوله: "**دخل الجنة**"، وهذا الدخول لا ينافي أن يعذب بقدر ذنوب إن كانت عليه ذنوب، لدلالة نصوص الوعيد على ذلك، وهذا إذا لم يغفر الله له، لأن داخل تحت المشيئة.

قوله: "**لا يشرك**". في محل نصب على الحال من فعل "لقي".

قوله: "**شيئاً**". نكرة في سياق الشرط، فيعم أي شرك حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول دخل النار، فكيف بمن يجعل الرسول أعظم من الله، فيلجأ إليه عند الشدائد، ولا يلجأ إلى الله، بل ربما يلجأ إلى ما دون الرسول ؟! وهناك من لا يبالي بالحلف بالله صادقاً أم كاذباً، ولكن لا يحلف بقوميته إلا صادقاً، ولهذا اختلف فيمن لا يبالي بالحلف بالله، ولكنه لا يحلف بقوميته إلا صادقاً، ولهذا اختلف فيمن لا يبالي بالحلف بالله، ولكن لا يحلف بملته أو بما يعظمه إلا صادقاً، فلزمته يمين، هل يحلف بالله أو يحلف بهذا؟

فقيل: يحلف بالله ولو كذب، ولا يعان على الشرك، وهو الصحيح.

وقيل: يحلف بغير الله، لأن المقصود الوصول إلى بيان الحقيقة، وهو إذا كان كاذباً لا يمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقاً حلف ووقع في الشرك.

- **مسألة:** هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر كما دلت عل ذلك النصوص، فإنه لا يلزم من ذلك الخلود في النار. وإن كان أكبر، فإنه يلزم منه الخلود في النار.

لكن لو حلمنا الحديث على الشرك الأكبر في الموضعين في قوله: "**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**"[(1)]، وفي قوله: "**ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار**"[(2)]، وقلنا: من لقي الله لا يشرك به شركاً أكبر دخل الجنة، وإن عذب قبل الدخول في النار بما يستحق، فيكون مآله إلى الجنة، ومن لقيه يشرك به شركاً أكبر دخل النار مخلداً فيها لم نحتج إلى هذا التفصيل.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: الخــوف من الشــرك. **الثانيــة:** أن الريــاء من الشــرك. **الثالثة:** أنه من الشرك الأصغر.

فيه مسائل:

- **الأولى: الخوف من الشرك.** لقوله: **إن الله لا يغفر أن يشرك به**، ولقوله: **واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**.
- **الثانية:** أن الرياء من الشرك. لحديث: "**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**"، فسئل عنه فقال "الرياء"، وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.
- **الثالثة:** أنه من الشرك الأصغر، لأن النبي لما سئل عنه فقال: "الرياء"، فسماه شركاً أصغر، وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟

ظـاهر الحـديث لا يمكن، لأنه قـال: "الشـرك الأصـغر"، فسـئل عنـه، فقال: "الرياء".

لكن في عبارات ابن القيم رحمه الله أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسير الرياء، فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكمية، فنعم، لأنه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركاً شركاً أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية، فظاهر الحديث أنه أصغر مطلقاً.

* * *

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين. **الخامسة:** قرب الجنة والنار. **السادسة:** الجمع بين قربهما في حديث واحد. **السابعة:** أنه من لقيه يشرك به شيئاً، دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.

- **الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين**. وتؤخذ من قوله: "**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**"، ولأنه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه وتطلع النفس إليه، فإن كثيراً من النفوس تحب أن تمدح بالتعبد لله.
- **الخامسة**: **قرب الجنة والنار.** لقوله: "**من لقي الله لا يشرك به شيئاً، دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً، دخل النار**".
- **السادسة**: **الجميع بين قربهما في حديث واحد. "من لقي الله لا يشرك به شيئاً...."** الحديث.

---

[1] مسلم كتاب الإيمان/ من مات ولا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة.

(1) سبق تخريجه (ص112).

(2) سبق تخريجه (ص112).

- **السابعة**: **أن من لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.**

تؤخذ من العموم في قوله: **"من لقي الله"**، لأن "من" للعموم، لكن إن كان شركه أكبر، لم يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس، لقوله تعالى: **﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾** [المائدة: 72]، وإن كان أصغر، عذب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

* * *

الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام. **التاسعة:** اعتباره بحال الأكثر، لقوله: **﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾** [إبراهيم: 36]. **العاشرة:** فيه تفسير (**لا إله إلا الله)** كما ذكره البخاري. **الحادية عشرة:** فضيلة من سلم من الشرك.

- **الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام،**

تؤخذ من قوله تعالى: **﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾**.

- **التاسعة: اعتباره بحال الأكثر،** لقوله: **﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾**.

وفيه إشكال، إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: **﴿كثيراً من الناس﴾**، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: **﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾** [الإسراء: 70]، فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق، فالآدميون فضلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرمهم.

- **العاشرة: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري.** الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب، لأن لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات.

- **الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.** لقوله: **﴿ويغفر ما دون ذلك﴾**، وقوله: "**من لقي الله لا يشرك به شيئاً، دخل الجنة**".

* * *

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة**﴾ الآية [يوسف: 108].

هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون، لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك، لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿**والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [سورة العصر].

فلا بد مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلا، كان ناقصاً، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقاً في اعتقاده، فلابد أن يكون داعياً إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به.

* * *

قوله: ﴿**قل هذه سبيلي**﴾، المشار إليه ما جاء به النبي ﷺ من الشرع عبادة ودعوة إلى الله.

سبيلي: طريقي.

قوله: ﴿**أدعو**﴾، حال من الياء في قوله: ﴿**سبيلي**﴾، ويحتمل أن تكون استئنافاً لبيان تلك السبيل.

وقوله: ﴿**إلى الله**﴾، لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

1- داع إلى الله.
2- داع إلى غيره.

فالداعي إلى الله تعالى هو المخلص الـذي يريد أن يوصل النـاس إلى الله تعالى.

والداعي إلى غيره قد يكون داعياً إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يعظم بين الناس ويحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهياً أعظم منه، لكن لم يدع إلى تركه.

وقد يكون داعياً إلى رئيسه كما يوجد في كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل، يدعو إلى رؤسائهم.

من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة، فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارين منه، فلا ييأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول ﷺ قال لعلي: "**انفذ على رسلك، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**"[1]، يعني: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله ولم يجب، فليكن غضبه من أجل أن الحق لم يتبع، لا لأنه لم يجب، فإذا كان يغضب لهذا، فمعناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد، كفى، وإذا لم يستجب أحد، فقد أبرأ ذمته أيضاً، وفي الحديث: "**والنبي وليس معه أحد**"[1].

ثم إنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل، لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأقر الباطل مع طول الزمن، ينقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً.

قوله: ﴿**على بصيرة**﴾، أي: علم، فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم، لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم في قوله ﴿**على بصيرة**﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل، العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: "**إنك تأتي قوماً أهل كتاب**"[2].

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي، لأن علمي أن هذا الرجل قابل للدعوة باللين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات أمر زائد على العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا والتشجيع، كقوله ﷺ: "**من قتل قتيلاً، فله سلبه**"[3]، أو بالتأليف، فالنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلى مئة بعير[4]، فهذا كله من الحكمة، فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محموداً وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ، لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

قوله: ﴿**أنا ومن اتبعني**﴾، ذكروا فيها رأيين:

الأول: "أنا" مبتدأ، وخبرها "**على بصيرة**"، "**ومن اتبعني" معطوفة على** "إنا" أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة، أي: في عبادتي ودعوتي.

الثاني: "أنا" توكيد للضمير المستتر في قوله: "أدعو"، أي: أدعو أنا إلى الله ومن اتبعني يدعو أيضاً، أي: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ويدعو من اتبعني، وكلانا على بصيرة.

قوله: ﴿**وسبحان الله**﴾، أي: أن أكون أدعو على غير بصيرة!

وإعراب "سبحان": مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح.

قوله: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾، محلها مما قبلها في المعنى توكيد، لأن التوحيد معناه نفي الشرك.

---

[1] يأتي (ص126).

[1] سبق تخريجه (ص 6)

[2] البخاري: كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين.

[3] البخاري: كتاب المغازي/ باب قول الله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم...﴾، ومسلم: كتاب الجهاد/ باب استحقاق القاتل سلب القتيل.

[4] البخاري: كتاب الخمس/ باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة.

* * *

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: "**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله...**

* * *

(وفي رواية: **إلى أن يوحدوا الله**)، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله **افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإن ليس بينها وبين الله حجاب**". أخرجاه [1].

وقوله (أي: قول ابن عباس): "**بعث معاذاً**" أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلم والحاكم والداعي، وبعثه في ربيع الأول سنة عشرة من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما، بعث معاذاً إلى صنعاء وما حولها، وأبا موسى إلى عدن وما حولها، وأمرهما: "**أن اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسرا ولا تعسرا، وبشرا وذكرا ولا تنفرا**"[1].

قوله: "**لما**"، إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود، و"**لو**": حرف امتناع لامتناع، و"لولا" حرف امتناع لوجود.

قوله: "**إنك تأتي قوماً من أهل كتاب**"، قال ذلك مرشداً له، وهذا دليل على معرفته بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم، فله طريقان:

1- الوحي. 2- العلم والتجربة.

قوله: "**من**" بيانية، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، فيكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون، لكن الأكثر اليهود والنصارى، ولهذا اعتمد الأكثر.

وأخبره النبي بذلك، لأمرين:

الأول: أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعداً لهم، لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم.

قوله: "**فليكن**"، الفاء للاستئناف أو عاطفة، واللام للأمر، و"أول": اسم يكن، وخبرها "شهادة"، وقيل العكس، يعني "أول" خبر مقدم و"شهادة" اسم يكن مؤخراً.

والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول ما يكون هي الشهادة، وإذا كان كذلك، يكون "أول" مرفوعاً على أنه اسم يكن، أي: أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: "**شهادة**"، الشهادة هنا من العلم، قال تعالى: **إلا من شهد بالحق وهم يعلمون** [الزخرف: 86]، فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان، لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم وإخبار وقبول وإقرار وإذعان، أي: انقياد.

فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه: أشهد أن لا إله إلا الله، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه ليس بمسلم بالإجماع حتى ينطق بها، لأن كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلابد من النطق، فالنية فقط لا تجزئ، ولا تنفعه عند الله حتى ينطق، والنبي قال لعمه أبي طالب: "قل"[1]، ولم يقل: اعتقد أن لا إله إلا الله.

قوله: "**لا إله**"، أي: لا معبود، فإله بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول، وعند المتكلمين، إله بمعنى آله، فهو اسم فاعل، وعليه يكون معنى لا إله، أي: لا قادر على الاختراع، وهذا باطل[2]، ولو قيل بهذا المعنى، لكان المشركون الذين قاتلهم النبي موحدين لأنهم يقرّون به، قال تعالى: **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** [الزخرف: 87]، وقال تعالى: **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله** [الزمر: 38].

فإن قيل: كيف يقال: لا معبود إلا الله، والمشركون يعبدون أصنامهم؟!

أجيب: بأنهم يعبدونها بغير حق، فهم وإن سموها آلهة، فألوهيتها باطلة، وليست معبودات بحق، ولذلك إذا مسهم الضر، لجؤوا إلى الله تعالى، وأخلصوا له الدين، وعلى هذا لا تستحق أن تسمى آلهة.

فهم يعبدونها ويعترفون بأنهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقربهم إلى الله فقط، فجعلوها وسيلة وذريعة، وبهذا التقدير لا يرد علينا إشكال في قول الرسل لقومهم **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** [الإعراف: 59]، لأن هذه المعبودات لا تستحق أن تعبد، بل الإله المعبود حقاً هو الله - سبحانه وتعالى -.

وفى قوله: "**لا إله إلا الله**" نفي الألوهية لغير الله، وإثباته لله، ولهذا جاءت بطريق الحصر.

* * *

ولهما عن سهل بن سعد (رضي الله عنه): أن رسول الله قال يوم خيبر: "**لأعطين غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه والله ورسوله، يفتح الله على يديه**". فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يعطاها، فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ، كلهم يرجو أن يعطاها.

قوله: "**لأعطين**"، هذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطين.

قوله: "**الراية**"، العلم، وسمي راية، لأنه يُرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

---

[1] تقدم تخريجه (ص119).

[1] البخاري: كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن.

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.

[2] أنظر (ص 53).

واللواء، قيل: إنه الراية، وقيل ما لوي أعلاه، أو لوي كله، فيكون الفرق بينهما، أن الراية مفلولة لا تطوى، واللواء يطوى إما أعلاه أو كله، والمقصود منهما الدلالة، ولهذا يسمى علماً.

قوله: "**غداً**"، يراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله.

والأصل أنه يراد بالغد ما يلي يومك، ويراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يراد بالغد ما وراء ذلك، قال تعالى: **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** [الحشر: 18]، أي: يوم القيامة.

وكذلك بالأمس قد يراد به ما وراء ذلك، أي: ما وراء اليوم الذي يليه يومك.

قوله: "**يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**". أثبت المحبة لله من الجانبين، أي أن الله تعالى يحب ويحب، وقد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، ومحبة الله تعالى ثابتة له حقيقة وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات الله يكون له سبب، فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب، فقد يبغض الله إنساناً في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب.

قوله: "**على يديه**"، أي يفتح خيبر على يديه، وفي ذلك بشارة بالنصر.

قوله: "**يدوكون**"، أي: يخوضون، وجملة يدوكون خبر بات.

قوله: "**غدوا على رسول الله**"، أي: ذهبوا إليه في الغدوة مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها لينال محبة الله ورسوله.

* * *

فقال: "**أين علي بن أبي طالب؟**". فقيل هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: "**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم**".

قوله: "**فقال: أين علي؟**"، القائل: الرسول .

قوله: "**يشتكي عينيه**"، أي: يتألم منهما، ولكنه يشتكي إلى الله، لأن عينية مريضة.

وقوله: "**فأرسلوا إليه**": بأمر الرسول .

قوله: "**فأتى به**"، كأنه رضي الله عنه قد عمم على عينيه، لأن قوله: "**أتي به**"، أي: يقاد.

وقوله: "**كأن لم يكن به وجع**"، أي: ليس بهما أثر حمرة ولا غيرها.

قوله: "**فبرأ**"، هذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسوله ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله: لتخصيص النبي له ذلك من بين سائر الصحابة.

قوله: "**انفذ على رسلك**"، أي: مهلك، مأخوذ من رسل الناقة، أي: حليبها يحلب شيئاً فشيئاً، والمعنى: امش هوينا هوينا، لأن المقام خطير، لأنه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

قوله: "**حتى تنزل بساحتهم**"، أي: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبي يقول: "**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**"[1].

وهذا إذا كنا على الوصف الذي عليه الرسول وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا في أحضانهم، فمن الممكن أن يقوموا ونكون في الأسفل.

* * *

ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم" [2]. (يدوكون)، أي: يخوضون.

قوله: "**ثم ادعهم**"، أي: أهل خيبر، "**إلى الإسلام**"، أي: الاستسلام لله.

قوله: "**وأخبرهم بما يجب عليهم**"، أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا، لكن على الترتيب الذي في حديث بعث معاذ.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا، فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع، فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يخبرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيه، لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون.

ويحتمل أن يقال: تترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا.

قوله: "**لأن يهدي الله**"، اللام واقعة في جواب القسم، وأن بفتح الهمزة مصدرية، ويهدي مؤول بالمصدر مبتدأ، "وخير": خبر، ونظيرها قوله تعالى: **وإن تصوموا خير لكم** [البقرة: 184].

قوله: "**حمر النعم**" بتسكين الميم: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد بالأول.

وحمر النعم: هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: "**لأن يهدي الله بك**"، ولم يقل: لأن تهدي، لأن الذي يهدي هو الله.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟

---

[1] البخاري: كتاب الأذان/ باب ما يحقن بالأذان من الدماء، ومسلم: كتاب الحج/ باب فضل المدينة.

[2] البخاري: كتاب الجهاد/ باب دعاء النبي إلى الإسلام، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل علي.

نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام، وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأن من اهتدى على يديه رجل في مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينة المقام، لأن علياً موجه إلى قوم كفار يدعوهم الإسلام، والله أعلم.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ. **الثانية:** التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه.

فيه مسائل:

- **الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ**، وتؤخذ من قوله تعال: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾.

والأشمل من ذلك والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم.

- **الثانية: التنبيه على الإخلاص،** وتؤخذ من قوله: "**أدعو إلى الله**"، ولهذا قال: "لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه"، فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلا أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقاً كان أم باطلاً.

* * *

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض. **الرابعة:** من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهاً لله تعالى عن المسبة. **الخامسة:** أن من قبح الشرك كون مسبة لله. **السادسة:** وهي من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين، لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك.

- **الثالثة: أن البصيرة من الفرائض،** وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**أدعو إلى الله على بصيرة**﴾، ووجه كون البصيرة من الفرائض، لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة. فيكون العلم بذلك فريضة.
- **الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهاً لله عن المسبة،** وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**سبحان الله وما أنا من المشركين**﴾، فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

ومعنى عن المسبة، أي: وعن مماثلة الخالق للمخلوق، إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصاً. قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا؟

- **الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله،** وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾ بعد قوله: ﴿**وسبحان الله**﴾.
- **السادسة - وهي من أهمها - : إبعاد المسلم عن المشركين، لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك.** لقوله تعالى: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾، ولم يقل: "وما أنا مشرك"، لأنه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركاً، فهو في ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿**اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس**﴾ [البقرة: 34]، توجه الخطاب له ولهم.

* * *

السابعة: كون التوحيد أول واجب. **الثامنة:** أنه يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة. **التاسعة:** أن معنى: "**أن يوحدوا الله**": معنى شهادة أن لا إله إلا الله. **العاشرة:** أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

- **السابعة: كون التوحيد أول واجب،** تؤخذ من قوله ﷺ: "**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**"، وفي رواية: "**أن يوحدوا الله**".

وقال بعض العلماء، أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد، لأن معرفة الخالق دلت عليها الفطرة.

- **الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء،** تؤخذ من قوله ﷺ: "**ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**".
- **التاسعة: أن معنى أو يوحدوا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله،** تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبر في رواية بقوله: "شهادة أن لا إله إلا الله"، وفي رواية عبر بقوله: "أن يوحدوا الله".
- **العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها،** ومراده بقوله: "لا يعرفها، أو يعرفها" شهادة أن لا إله إلا الله، وتؤخذ من قوله: "**فليكن أو ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**"، إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا الله ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

* * *

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج. **الثانية عشرة:** البداءة بالأهم فالأهم. **الثالثة عشرة:** مصرف الزكاة. **الرابعة عشرة:** كشف العالم الشبهة عن المتعلم. **الخامسة عشرة:** النهي عن كرائم الأموال. **السادسة عشرة:** اتقاء دعوة المظلوم.

- **الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.** تؤخذ من قوله ﷺ لمعاذ: "**ادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم...**" إلخ الحديث.
- **الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم**. تؤخذ من أمره ﷺ معاذاً بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

- **الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.** تؤخذ من قوله: "**فترد على فقرائهم**".
- **الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم**. المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل.

تؤخذ من قوله: "**إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم"،** فبين أن هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأن مصرفها الفقراء.

- **الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.** تؤخذ من قوله: "**فإياك وكرائم** أموالهم"، إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.
- **السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم**. تؤخذ من قوله: **"واتق دعوة المظلوم".**

* * *

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب. **الثامنة عشرة:** من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء. **التاسعة عشرة:** قوله: "**لأعطين الراية...."** إلخ: علم من أعلام النبوة.

- **السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.** تؤخذ من قوله: "**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**"، فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيباً، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيباً، لقوله: "**اتق دعوة المظلوم**"، فالنفس قد لا تتقي، لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب، خافت ونفرت من ذلك.
- **الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جري على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.** والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصة خيبر، إذ وقع فيها في عهد النبي جوع عظيم، حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم، وأما الوباء، فهو ما وقع في عهد علي رضي الله عنه، وأما المشقة، فظاهرة.

ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أن الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء.

- **التاسعة عشرة:** قوله: **"لأعطين الراية" علم من أعلام النبوة.** لأن هذا حصل، فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

* * *

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً. **الحادية والعشرون:** فضيلة علي رض الله عنه. **الثانية والعشرون:** فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح. **الثالثة والعشرون:** الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى. **الرابعة والعشرون:** الأدب في قوله: "على رسلك". **الخامسة والعشرون:** الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

- **العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً.** لأن بصق في عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع.
- **الحادية والعشرون: فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.** وهذا ظاهر، لأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.
- **الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.** لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.
- **الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى.** لأن الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها ولم يعطوها، وعلى بن أبي طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطي الراية.
- **الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: "على رسله"**. ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.
- **الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.** لقوله: "**انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام"**.

* * *

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا. **السابعة والعشرون:** الدعوة بالحكمة، لقوله: "أخبرهم بما يجب عليهم". **الثامنة والعشرون:** المعرفة بحق الله في الإسلام. **التاسعة والعشرون:** ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد. **الثلاثون:** الحلف على الفتيا.

- **السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.**
- **السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: "أخبرهم بما يجب عليهم"**. لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام، لأنه قد يطبق هذا الإسلام الذي أمرته به وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.
- **الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.** تؤخذ من قوله: "**وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**".
- **التاسعة والعشرون:** ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد. لقوله: "**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"،** أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم، خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

- **الثلاثون: الحلف على الفتيا.** لقوله: "**فوالله لأن يهدي الله....**" إلخ، فأقسم النبي هو لم يستقسم، والفائدة هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلا لمصـــلحة وفائـــدة، لأنه قد يفهم السامع أن المفتي لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمد رحمه الله أحياناً يقول في إجابته: إي والله، وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن:

في قوله تعالى: **ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق** [يونس: 53].

وفي قوله تعالى: **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن**. [التغابن: 7].

وفي قوله تعالى: **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بل وربي لتأتينكم** [سبأ: 3].

فإذا كان في القسم مصلحة ابتداءاً، أو جواباً لسؤال، جاز وربما يكون مطلوباً.

* * *

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

التفسير معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فسرت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فسرت ثوبي، فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم.

والتوحيد تقدم تعريفه[1]، والمراد به هنا اعتقاد أن الله واحد في ألوهيته.

وقوله: "**شهادة أن لا إله إلا الله**"، معطوف على التوحيد، أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله.

والعطف هنا من باب عطف المترادفين، لأن التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذا الباب مهم، لأنه لما سبق الكلام على التوحيد وفضله والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشرأبت إلى بيان ما هو هذا التوحيد الذي بوب له هذه الأبواب (وجوبه، وفضله، والدعوة إليه).

فيجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد، وقد ذكر المؤلف خمس آيات:

* * *

وقول الله تعالى: **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب** الآية [الإسراء: 57].

- **الآية الأولى: قوله تعالى: أولئك. "أولاً": مبتدأ.**

الذين: اسم موصول بدل منه.

يدعون: صلة الموصول.

وجملة **يبتغون**: خبر المبتدأ، أي: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فكيف تدعونهم وهم محتاجون مفتقرون؟! فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق على كل من دعي وهو داع، كعيسى بن مريم، والملائكة، والأولياء، والصالحين، وأما الشجر والحجر، فلا يدخل في الآية.

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من مكان إلى مكان، لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال تعالى مبيناً حال هؤلاء المدعوين: **والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير** [فاطر: 13،14].

قوله: **يدعون**، أي: دعاء مسألة، كمن يدعو علياً عند وقوعهم في الشدائد، وكمن يدعو النبي يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقد يكون دعاء عبادة، كمن يتذلل لهم بالتقرب، والنذر، والركوع، والسجود.

قوله: **يبتغون**: يطلبون.

قوله: **الوسيلة**، أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله، يعني: يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله - سبحانه وتعالى - أيهم اقرب إلى الله، وكذلك أيضاً يرجون رحمته ويخافون عذابه.

* **وجه مناسبة الآية للباب باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله:**

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحـداً، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، وهؤلاء الذين يدعون الأنبيـاء والملائكة لم يتـبرؤا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعالى، فهم غير مسـتغنين عن الله بأنفسـهم، فكيف يغنون غيرهم؟!

- **الآية الثانية والثالثة: قوله تعالى: وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه... الآيتين.**

قولـه: **براء:** على وزن فعـال، وهي صـفة مشـبهة من التـبرؤ، وهو التخلي، أي: إنني متخل غاية التخلي عما تعبـدو إلا الـذي فطـرني، وإبـراهيم عليه الصلاة والسلام قـوي في ذات اللـه، فقـال ذلك معلنـاً به لأبيه وقومـه، وأبوه هو آزر[1].

قوله: **تعبدون**: العبادة هنا التذلل والخضوع، لأن في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر والكواكب.

قوله: **إلا الذي فطرني**: جميع بين النفي والإثبات، فالنفي: **بـراء مما تعبدون**، والإثبات: **إلا الذي فطرنى**، فـدل على أن التوحيد لا يتم

---

[1] أنظر: (ص 1)

[1] أنظر: (ص 83)

إلا بـالكفر بما سـوى الله والإيمـان بالله وحـده، **فمن يكفر بالطـاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى**]البقرة: 256[، وهؤلاء يعبـدون الله ويعبـدون غـيره، لأنه قـال: **إلا الذي فطـرني**، والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

وكـذا يوجد في بعض البلـدان الإسـلامية من يصـلي ويـزكي ويصـوم ويحج، ومع ذلك يذهبون إلى القبور يسـجدون لها ويركعـون، فهم كفـار غـير موحدين، ولا يقبل منهم أي عمـل، وهـذا من أخطر ما يكـون على الشـعوب الإسلامية، لأن الكفر بما سـوى الله عنـدهم ليس بشـيء، وهـذا جهل منهم، وتفريط من علمائهم، لأن العامي لا يأخذ إلا من عالمـه، لكن بعض النـاس - والعياذ بالله - عالم دولة لا عالم ملة.

وفي قول إبراهيم : **إلا الذي فطرني**، ولم يقل إلا الله لفائدتان:

الأولى: الإشـارة إلى علة إفـراد الله بالعبـادة، لأنه كما أنه منفـرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشـارة إلى بطلان عبـادة الأصـنام، لأنها لم تفطـركم حـتى تعبـدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجـامع بين النفي والإثبـات، وهـذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عليه السلام.

يسـتفاد من الآية أن التوحيد لا يحصل بعبـادة الله مع غـيره، بل لا بد من إخلاصه لله، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

قسم يعبد الله وحده.

وقسم يعبد غيره فقط.

وقسم يعبد الله وغيره.

والأول فقط هو الموحد.

* * *

وقوله: **اتخذوا أحبارهم ورهبـانهم أربابـاً من دون الله** الآية [التوبة: 31].

- **الآية الرابعة: قوله تعالى: اتخذوا أحبارهم ورهبـانهم أرباباً من دون الله... الآية.**

قولـه: **أحبـارهم**: والمعطـوف عليها المفعـول الأول لـ(اتخـذوا)، والثاني: "أرباباً" أي: هؤلاء اليهود والنصارى صيروا أحبارهم ورهبانهم أرباباً.

والأحبار: جمع حبر، وهو العالم، ويقال للعالم أيضاً بحر لكثرة علمه.

والحبر، بفتح الحاء، وكسرها يقال: حبر، وحبر.

قوله تعالى: **ورهبانهم**، أي: عبادهم.

وقوله: **أرباباً**: جمع رب، أي يجعلونهم أرباباً من دون الله، فيجعلـوا الأحبـار أربابـاً لأنهم يـأتمرون بـأمرهم في مخافة أمر اللـه، فيطيعـونهم في معصية الله.

وجعلوا الرهبان أرباباً باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله.

قوله: **من دون الله**، أي: من غير الله.

قوله: **والمسيح ابن مريم**: معطـوف على أحبـارهم، أي: اتخـذوا المسيح ابن مريم أيضاً رباً حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

قولـه: **إلا ليعبـدون**، أي: يتـذللوا بالطاعة لله وحـده، الـذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسماوات والأرض.

قوله: **لا إله إلا هو**، أي: لا معبود حق إلا هو.

قوله: ﴿**سبحانه**﴾: تنزيه لله عما يشركون.

وجه كون هذه الآية تفسيراً للتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن الله أنكر عليهم اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، وهذه الآية سيأتي فيها ترجمة كاملة في كلام المؤلف رحمه الله، فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا.

إذاً، فتفسير التوحيد أيضاً بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، ولهذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر، قال: "**إنما الطاعة في المعروف**"[1].

* * *

وقوله: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾ الآية [البقرة: 165].

- **الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله...﴾ الآية.**

قوله: ﴿**من الناس**﴾: من للتبعيض، وعلامتها أن يصح أن يحل محلها بعض، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿**من يتخذ**﴾ مبتدأ مؤخر، أي من يجعل لله أنداداً، ومفعولها الأول "أنداداً" مؤخراً، ومفعولها الثاني "من دون الله" مقدماً.

وقوله: ﴿**يتخذ**﴾: جاءت بالإفراد مراعاة للفظ "من".

وقوله: ﴿**يحبونهم**﴾: بالجمع مراعاة للمعنى.

وقوله: ﴿**أنداداً**﴾: جمع ند، وهو الشبيه والنظير، ولهذا قال النبي ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت: "أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده"[2].

وقوله: ﴿**يحبونهم كحب الله**﴾: هذا وجه المشابهة، أي: الندية في المحبة يحبونهم كحب الله.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿**كحب الله**﴾:

فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون في قلوبهم محبة لله ومحبة للأصنام، ويجعلون محبة الأصنام كمحبة الله، فيكون المصدر مضافاً إلى مفعوله، أي يحبون الأصنام كحبهم لله.

وقيل: يحبون هذه الأصنام محبة شديدة كمحبة المؤمنين لله.

وسياق هذه الآية يؤيد القول الأول.

وقوله: ﴿**والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾.

على الرأي الأول يكون معناها: والذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله، لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة هؤلاء فيها شرك بين الله وبين أصنامهم.

وعلى الرأي الثاني معناها: والذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم، لأن محبة المؤمنين ثابتة في السراء والضراء على برهان صحيح، بخلاف المشركين، فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر.

فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله؟! وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله؟! فهذا أقبح وأعظم، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم، فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا

---

[1] البخاري: كتاب الأحكام/ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

[2] سبق (ص 45)

لو قيل لـه: أحلف باللـه، حلف صـادقاً أو كاذبـاً، أما الـولي، فلا يحلف به إلا صادقاً.

وتجد كثـيراً منهم يـأتون إلى مكة والمدينة ويـرون أن زيـارة قـبر الرسول أعظم من زيارة الـبيت، لأنهم يجـدون في نفوسـهم حباً لرسـول الله كحب الله أو أعظم، وهـذا شـرك، لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسـول الله إلا لحب الله، ولأنه رسول الله، ما أحببناه لأنه محمد بن عبدالله، لكننا أحببناه، لأنه رسول الله ، فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هـؤلاء يجعلـون محبة الله تابعة لمحبة الرسول إنه أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليـوم الـذين يجعلون غـير الله مثل الله في المحبـة، وفيه أنـاس أيضـاً أشـركوا بالله في محبة غيره، لا على وجه العبادة الشـرعية، لكن على وجه العبـادة المـذكورة في الحديث[1]، وهي محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، يوجد أنـاس لو فتشت عن قلوبهم، لوجدت قلوبهم ملأى من محبة متاع الدنيا، وحتى هذا الذي جاء يصلي هو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهـذا نـوع من أنـواع العبـادة في الحقيقـة، لو حاسب الإنسـان نفسه لماذا خلق؟ لعلم أنه خلق لعبادة اللـه، وأيضـاً خلق لـدار أخـرى ليست هـذه الدار، فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التي خلق لها والتي يجب أن يعنى بالعلم لها، يا ليت شعري مـتى يومـاً من الأيـام فكر الإنسـان مـاذا عملت؟ وكم بقي لي في هـذه الـدنيا؟ ومـاذا كسـبت؟ الأيـام تمضي ولا أدري هل ازددت قربـاً من الله أو بعـداً من اللـه؟ هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟

فلا بد لكل إنسان عاقل من غاية، فما هي غايته؟

نحن الآن نطلب العلم للتقرب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسـنا، وإعلام غيرنـا، فهل نحن كلما علمنا مسـألة من المسـائل طبقناهـا؟ نحن على كل حال نجد في أنفسنا قصوراً كثيراً وتقصيراً، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعو عباد الله إليها؟

هذا أمر يحتاج إلى محاسبة، ولذلك، فإن على طـالب العلم مسـؤولية ليست هينة، عليه أكثر من زكاة المال، فيجب أن يعمل ويتحـرك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلا انحرفت عن شرع الله.

قـال ابن القيم رحمه اللـه: كل الأمـور تسـير بالمحبـة، فـأنت مثلاً لا تتحـرك لشـيء إلا وأنت تحبـه، حـتى اللقمة من الطعـام لا تأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهـذا قيـل: إن جميع الحركـات مبناها على المحبـة، فالمحبة أسـاس العمل، فالإشراك في المحبة إشراك بالله.

* **والمحبة أنواع:**

الأول: المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كمالـه، فـأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

والمحبة لله هي أن تحب هـذا الشـيء، لأن الله يحبـه، سـواء كـان شخصاً أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلي:

---

[1] سبق (ص 23).

أقبل ذا الجـــــــدار وذا الجـــــــــــــــــــــــدار   أمر على الـــديار ديـــار ليلى
ولكن حب من ســكن الــديارا   وما حب الـديار شـغفن قلـبي

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله، فهذه لا تنافي محبة الله، كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي : من أحب الناس إليك؟ قال: "**عائشة**". قيل: فمن الرجال؟ قال: "**أبوها**"[1].

ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله الـتي تنـافي محبة اللـه، وهي أن تكـون محبة غـــير الله كمحبة الله أو أكــثر من محبة اللـــه، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدم محبة غير اللـه، وذلك إذا جعل هـذه المحبة نـداً لمحبة الله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها.

الشـاهد من هـذه الآيـة: أن الله جعل هـؤلاء الـذين سـاووا محبة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أنداداً.

* * *

وفي الصـحيح عن النــبي : أنه قــال: "**من قــال: لا إله إلا اللــه، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحســابه على الله عز وجل**"[1]. وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

قولـــه: "**وفي الصـــحيح**". لم يفصح المؤلف رحمه الله بمـــراده بالصــحيح، أهو "صــحيح البخــاري" **أم** "صــحيح مســلم"، أم أن المــراد به الحديث الصحيح، ، سواء كـان في "الصـحيحين" معـاً أم في أحـدهما أم في غيرهمـــا، وليس له اصـــطلاح في ذلك يحمل عليه عند الإطلاق، وعلى هـــذا يبحث عن الحــديث في مضـانه، وقد ورد هــذا التعبــير في ســياق المؤلف للحديث في مواضع أخرى، والمراد به هنا "صحيح مسلم".

قوله : "**من قــال لا إله إلا الله**" أي لا معبــود حق إلا اللــه، فلفظ الجلالة بـدل من الضـمير المســتتر في الخــبر، ومن يـرى أن "**لا**" تعمل في المعرفة يقولون: هو الخبر.

قولـــه: "**وكفر بما يعبد من دون الله**"، أي: بعبـــادة من يعبد من دون الله، قلنا ذلك، لأن عيسى بن مريم كان يعبد من دون الله، ونحن نؤمن به، لكن لا نؤمن بعبادته ولا بأنه مستحق للعبادة، كما قال تعالى: **وإذ قال الله يا عيسى بن مـريم أأنت قلت للنـاس اتخـذوني وأمي إلهين من دون الله قــال ســبحانك ما يكــون لي أن أقــول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيـوب* ما قلت لهم إلا ما أمرتـني به أن أعبدوا الله ربي وربكم** [المائدة: 116].

وفي قولــه: "**وكفر بما يعبد من دون الله**" دليل على أنه لا يكفي مجـرد التلفظ بلا إله إلا اللـه، بل لا بد أن تكفر بعبـادة من يعبد من دون الله بل وتكفر أيضاً بكل كفر فمن يقول لا إله إلا الله ويرى أن النصارى واليهــود

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب قول النبي : "لو كنت متخذاً خليلاً"، ومسلم: كتاب الفضائل/باب فضائل أبي بكر.

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله.

اليوم على دين صحيح، فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكاراً يختار منها ما يريـد، فليس بمسـلم، بل الأديـان عقائد مفروضة من قبل الله - عز وجل ـ، يتمشى الناس عليها، ولهذا ينكر على بعض النـاس في تعبـيره بقولـه: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقـال: الـدين الإسـلامي أو العقيـدة الإسـلامية، ولا بأس بقول المفكر الإسـلامي، لأنه وصف للشـخص نفسه لا للـدين الـذي هو عليه.

قوله: "وشرح هذه الترجمة"، المراد بالشرح هنا: التفصيل، والترجمة: هي التعبـــير بلغة عن لغة أخـــرى، ولكنها تطلق باصـــطلاح المـــؤلفين على العناوين والأبواب، فيقال: ترجم على كذا، أي: بوب له.

* * *

- **فيه مسائل:**

فيه أكـــبر المســـائل وأهمهـــا، وهي **تفســـير التوحيد وتفســـير الشهادة،** وبينها بأمور واضحة.

قوله: "**فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد**".

فتفسير التوحيد أنه لا بد فه من أمرين:

الأول: نفى الألوهية عما سوى الله- عز وجل -.

الثاني: إثبـات الألوهية لله وحـده، فلا بد من النفي والإثبـات لتحقيق التوحيد، لأن التوحيد جعل الشيء واحداً بالعقيدة والعمل، وهذا لا بد فيه من النفي والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم، أثبت له القيام ولم توحده، لكن إذا قلت: لا قـائم إلا زيد، أثبت له القيام ووحدته به.

وإذا قلت: الله إله أثبت له الألوهية، لكن لم تنفها عن غـيره، فالتوحيد لم يتم، وإذا قلت: لا إله إلا الله، أثبت الألوهية لله ونفيتها عما سواه.

قوله: "**تفسير الشهادة**". الشـهادة: هي التعبـير عما تيقنه الإنسـان بقلبه فقول: أشهد أن لا إله إلا الله. أي أنطق بلساني معبراً عما يكنه قلـبي من اليقين وهو أنه لا إله إلا الله.

* * *

منها آية الإسـراء: بين فيها الـرد على المشـركين الـذين يـدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

قولـــه: "**منها آية الإســـراء**. وهو قوله تعـــالى: ﴿**أولئك الـــذين يدعون....**﴾ [الإسراء: 57]، فبين فيها الرد على المشركين الـذين يـدعون الصـالحين، وبين أن هـذا هو الشـرك الأكـبر، لأن الـدعاء من العبـادة، قـال تعـالى: ﴿**ادعـوني أسـتجب لكم إن الـذين يسـتكبرون عن عبـادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ [غافر: 60]، فدل على أن الدعاء عبـادة، لأن آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحداً غير الله حياً أو ميتاً، فهو مشـــرك شركاً أكبر.

ودعاء المخلوق ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تـدعو مخلوقـاً بـأمر من الأمـور الـتي يمكن أن يدركها بأشـياء محسوسة معلومـة، فهـذا ليس من دعـاء العبـادة، بل هو من الأمور الجائزة، قال ﷺ: "**وإذا دعاك فأجبه**"[1].

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/باب الأمر باتباع الجنائز، ومسلم: كتاب السلام/ باب من حق المسلم للمسلم رد السلام.

الثاني: أن تدعو مخلوقاً مطلقاً، سواء كان حياً أو ميتـاً فيما لا يقـدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر لأنك جعلته نـداً لله فيما لا يقـدر عليه إلا اللـه، مثل: يا فلان! اجعل ما في بطن امرأتي ذكراً.

الثالث: أن تدعو مخلوقاً ميتاً لا يجيب بالوسـائل الحسـية المعلومـة، فهـذا شـرك أكـبر أيضـاً لأنه لا يـدعو من كـان هـذه حالة حـتى يعتقد أن له تصرفاً خفياً في الكون.

قولــه: "**ومنها آية بــراءة بين فيها أن أهل الكتــاب اتخــذوا أحبارهم ورهبـانهم أربابـاً من دون الله**". وهـذا شـرك الطاعـة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهيـة، لأن الحكم شـرعياً كـان أو كونيـاً إلى الله تعال، فهو من تمـام ربوبيـه، قـال تعـالى: **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** [الشورى: 10]، وقال تعالى: **له الحكم وإليه ترجعون** [القصص: 70].

والشيخ رحمه الله جعل شـرك الطاعة من الأكـبر، وهـذا فيه تفصـيل، وسيأتي إن شاء الله في باب من أطاع الأمراء والعلمــاء في تحليل ما حــرم الله أو بالعكس.

* * *

ومنها قـول الخليل عليه السـلام للكفـار: إنــني بــراء مما تعبدون إلا الذي فطرني [الزخرف: 26]. فاستثنى من المعبودين ربه.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه المـوالاة هي تفسـير شـهادة أن لا إله إلا اللــه، فقــال: **وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعــون** [الزخرف: 28].

قوله: "**ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: إنــني بــراء مما تعبـدون إلا الـذي فطـرني، فاسـتثنى من المعبـودين ربه**". فدل هذا على أن التوحيد لا بد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سـوى اللــه، وإخلاص العبادة لله وحدة.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه المـوالاة هي تفسـير شـهادة أن لا إله إلا اللــه، فقـال: **وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعـون**، وهي لا إله إلا الله، فكان معنى قوله: **إنني براءة مما تعبدون إلا الذي فطرني** هو معنى قول: لا إله إلا الله.

* * *

ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: وما هم بخارجين من النار [البقرة: 167]. ذكر أنهم يحبون أنـدادهم كحب اللــه، فدل على أنه يحبون الله حبـاً عظيمـاً، لم يـدخلهم في الإسـلام، فكيف بمن أحب الند أكـبر من حب اللــه؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحـده ولم يحب الله؟!

قوله: "**ومنها: آية البقرة في الكفار الـذين قـال الله فيهم: وما هم بخارجين من النار**".

فجعل الله المحبة شركاً إذا أحب شيئاً سوى الله كمحبته لله، فيكـون مشـــركاً مع الله في المحبـــة، ولهـــذا يجب أن تكـــون محبة الله خالصة لا يشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول ﷺ، فلولا أنه رســول ما وجب طاعته ولا محبته إلا كما نحب أي مؤمن، ولا يمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته، كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك محبة الله,

قال المؤلف: "فكيف بمن أحب الند أكبر من حسب الله؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!".

فالأقسام الأربعة:

الأول: أن يحب الله حباً أشد من غيره، فهذا هو التوحيد.

الثاني: أن يحب غير الله كمحبة الله، وهذا شرك.

الثالث: أن يحب غير الله أشد حباً من الله، وهذا أعظم مما قبله.

الرابع: أن يحب غير الله وليس في قلبه محبة لله تعالى، وهذا أعظم وأطم.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقة وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب، فليس هذا كفرحة بذكر الله ونحوه.

حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب الله ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمور الباطنة في المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتي إن شاء الله لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً**﴾.

* * *

ومنها قوله ﷺ: "من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله".

وهذا من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله)، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله.

قوله: "**ومنها: قول النبي ﷺ: "من قال: لا إله إلا الله...." إلخ.**

إذاً، فلا بد من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ [البقرة: 256].

قوله: "**وكفر بما يعبد من دون الله**". أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقاً، فلا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ولا أعبد صنماً، بل لا بد أن يقول: الأصنام التي تعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فمثلاً لا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله ولا أعبد اللات، ولكن لا بد أن يكفر بها ويقول: إن عبادتها ليست بحق، وإلا، كان مقراً بالكفر.

فمن رضي دين النصارى ديناً يدنون الله به، فهو كافر لأنه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام، فقد كذب قوله تعالى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**﴾ [آل عمران: 85].

وبهذا يكون كافراً، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذي أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصارى، والنصارى يدعون إلى دينهم صباحاً ومساءاً، والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينون لهؤلاء، ﴿**ودوا لو تدهن فيدهنون**﴾ [القلم: 9]، وهذا من المحنة التي أصابت المسلمين الآن، وآلت بهم إلى هذا الذل الذي صاروا فيه.

* * *

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

قولـه: "**من الشرك**"، من هنا للتعـبيض، أي: أن هـذا بعض الشـرك، وليس كل الشرك، والشرك: اسم جنس يشمل الأصغر والأكـبر، ولبس هـذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكـون أكـبر بحسب اعتقـاد لابسـها، وكـان لبس هذه الأشياء من الشرك، لأن كل من أثبت سبباً لم يجعله الله سـبباً شـرعياً ولا قدرياً، فقد جعل نفسه شريكاً مع الله.

فمثلاً: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء.

وأكل المســهل ســبب حسي لانطلاق البطن، وهو قــدري، لأنه يعلم بالتجارب والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأســباب، وهم كل من قـــال بنفي حكمة اللـــه، كالجبرية، والأشعرية.

الثـاني: من يغلو في إثبـات الأسـباب حـتى يجعلـوا ما ليس بسـبب سبباً، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالثة: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتـون من الأسـباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سبباً شرعياً أو كونياً.

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيماناً حقيقيـاً، وآمنـوا بحكمتـه، حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة.

ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسـها أنها مـؤثرة بنفسـها دون اللـه، فهو مشـرك شـركاً أكـبر في توحيد الربوبيـة، لأنه اعتقد أن مع الله خالقـاً غيره.

وإن اعتقد أنها سـبب، ولكنه ليس مـؤثراً بنفسـه، فهو مشـرك شـركاً أصــغر لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسب ســبباً فقد شــارك الله تعــالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سبباً.

وطريق العلم بأن الشيء سبب،

إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل ﴿**فيه شفاء للنـاس**﴾ [النحـل: 69]، وكقـراءة القـرآن فيها شـفاء للنـاس، قـال الله تعـالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ [الإسراء: 82].

وإما عن طريق القـدر، كما إذا جربنا هـذا الشـيء فوجـدناه نافعـاً في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهراً مباشراً كما لو اكتــوى بالنار فبرئ بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بين، وإنما قلنا هذا لئلا يقـول قائـل: أن جربت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشراً، كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة، فينتفع لأن للانفعال النفسي للشيء أثراً بيناً، فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعـة، فيقـرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كـذلك الـذين يلبسـون الحلق ويربطـون الخيـوط، قد يحسـون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بنـاءً على اعتقادهم نفعها.

وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسـي، والشـعور النفسي ليس طريقاً شـرعياً لإثبـات الأسـباب، كما أن الإلهـام ليس طريقـاً للتشريع.

قولـه: "**لبس الحلقة والخيط**"، الحلقـة: من حديد أو ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك، والخيط معروف.

قوله: "**ونحوهما**"، كالمرصعات، وكمن يصنع شكلاً معيناً من نحـاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلق على نفسه شيئاً من أجزاء الحيوانـات، والنـاس كانوا يعلقون القرب البالية على السيارات ونحوها لدفع العين، حـتى إذا رآها الشخص نفرت نفسه فلا يعين.

قولـه: "**لرفع البلاء، أو دفعه**"، الفـرق بينهمـا: أن الرفع بعد نـزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لا ينكر السبب الصـحيح للرفع أو الدفع، وإنما ينكر السبب غير الصحيح.

* * *

وقـول الله تعـالى: ﴿**قل أفـرأيتم ما تـدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره**﴾ الآية [الزمر: 38].

وقول الله تعالى: "**أفرأيتم**"، أي: أخبروني، وهذا تفسير بـاللازم، لأن من رأى أخـبر، وإلا، فهي اسـتفهام عن رؤيـة، قـال تعـالى: ﴿**أرأيت الـذي يكذب بالدين**﴾ [الماعون: 1]، أي: أخبرني ما حال من كذب بالـدين؟ وهي تنصب مفعولين، الأول مفرد، والثاني جملة استفهامية.

وقولـه: "**ما**"، المفعـول الأول لـرأيتم، والمفعـول الثـاني جملـة: "إن أرادني الله بضر".

وقوله: ﴿**تدعون**﴾، المراد بالدعاء دعـاء العبـادة ودعـاء المسـألة، فهم يـدعون هـذه الأصـنام دعـاء عبـادة، فيتعبـدون لها بالنـذر والـذبح والركـوع والسجود، ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع.

فالله سبحانه إذا أراد بعبده ضراً لا تسـتطيع الأصـنام أن تكشـفه، وإن أراده برحمة لا تسـتطيع أن تمسك الرحمة عنـه، فهي لا تكشف الضـرر، ولا تمنع النفع، فلماذا تبعد؟

وقوله: ﴿**كاشفات**﴾، يشمل الدفع والرفع، فهي لا تكشف الضر بدفعه وإبعاده، ولا تكشفه برفعه وإزالته.

وقولـه: ﴿**قل حسـبي الله**﴾، أي: كـافيني، والحسـب: الكفايـة، ومنه قوله تعالى: ﴿**جزاء من ربك عطاء حساباً**﴾ [النبأ: 36]، من الحسب، وهو الكفاية، وحسبي، مبتدأ ولفظ الجلالة خبر، وهذا أبلغ.

وقيل العكس، والراجح الأول، لوجهين:

الأول: أن الأصل عدم التقديم والتأخير.

الثاني: أن قولك: حسبي الله فيه حصر الحسب في الله، أي حسبي الله لا غيره، فهو كقولـك: لا حسب لي إلا اللـه، بخلاف قولـك: الله حسـبي، فليس فيه الحصر المذكور، فلا يدل على حصر الحسب في الله.

قولـه: ﴿**عليه يتوكل المتوكلـون**﴾. قـدم الجـار والمجـرور لإفـادة الحصر، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعـنى أن المتوكل حقيقة هو المتوكل على اللـه، أما الـذي يتوكل على الأصنام والأولياء والأضرحة، فليس بمتوكل على الله تعالى.

وهذا لا ينـافي أن يوكل الإنسـان إنسـاناً في شـيء ويعتمد عليـه، لأن هنـاك فرقـاً بين التوكل على الإنسـان الـذي يفعل لك شـيئاً بـأمرك، وبين

توكلك على الله، لأن توكلك على الله اعتقـادك أن بيـده النفع والضـر، وأنك متذلل، معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه.

والشاهد من هذه الآية: أن هـذه الأصـنام لا تنفع أصـحابها لا يجلب نفع ولا بدفع ضر، فليست أسباباً لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدري، فيعتبر اتخاذه سبباً إشراكاً بالله.

وهناك شاهد آخر في قوله: ﴿**حسبي الله**﴾، فـإن فيه تفـويض الكفاية إلى الله دون الأسباب الوهميـة، وأما الأسـباب الحقيقيـة، فلا ينـافي تعاطيها توكل العبد على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، لأنها من عنده.

* * *

عن عمران بن حصـين رضي الله عنـه، أن النـبي ﷺ رأي رجلاً في يـده حلقة من صفر، فقال: "ما هذه"؟ قال: من الواهنة. فقال: "**انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبـداً**". رواه أحمد بسند لا بأس به[1].

قوله في حديث عمران: "**رأى رجلاً**". لم يبين اسمه، لأن المهم بيان القضية وحكمها، لكن ورد ما يدل على أنه عمران نفسه، لكنه أبهم نفسه.

قوله: "**حلقة من صفر، فقال: ما هذه؟ قـال: من الواهنـة**"، والحلقة والصفر معروفان، وأما الواهنة، فوجع في الذراع أو العضد.

"**ما أفلحت**": الفلاح هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

وهذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامـة، لأن هـذا الرجل لبس حلقة من صفر، إما لدفع البلاء أو لرفعه.

والظـاهر أنه لرفعـه، لقولـه: "**لا تزيـدك إلا وهنأ**"، والزيـادة تكـون مبنية على أصل.

ففي هذا الحديث دليل على عدة فوائد:

1- أن ينبغي لمن أراد إنكـــار المنكر أن يســـأل أولاً عن الحــال، لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكــراً، ودليله أن الرســول ﷺ قال: "**ما هذه**".

والاســتفهام هنا للاســتعلام فيما يظهر وليس للإنكــار، وقــول الرجــل: "**من الواهنة**": من للسببية، أي: لبستها بسبب الواهنة، وهي مـرض يـوهن الإنسان ويضعفه، قد يكون في الجسم كله وقد يكون في بعض الأعضاء كما سبق.

2- وجوب إزالة المنكـر، لقولـه: "**انزعها**"، فـأمره بنزعهـا، لأن لبسها منكر، وأيد ذلك بقوله: "**إنها لا تزيدك إلا وهناً**"، أي: وهناً في النفس لا في الجسم، وربما تزيده وهنـاً في الجسـم، أما وهن النفس، فلأن الإنسـان إذا تعلقت نفسه بهـذه الأمـور ضـعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتمـاد على الله - عز وجل ـ، والانفعـال النفسي له أثر كبير في إضعاف الإنسـان، فأحيانـاً يتـوهم الصـحيح أنه مريض فيمرض، وأحياناً يتناسى الإنسـان المـرض وهو مـريض فيصـبح صـحيحاً، فانفعـال النفس بالشـيء له أثر بـالغ، ولهـذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضـعف

---

[1] مسند الإمام أحمد (4/445) - واللفظ له ـ، وابن ماجة (كتاب الطب، باب تعليق التمائم) وليس فيه: "فإنك لو مت..." إلخ. وفي "الزوائد": "إسناده حسن، لأن مبارك هذا هو ابن فضالة". ورواه ابن حبان أيضاً (1410) بلفظ "إنك إن نمت وهي عليك وكلت إليها". ومن طريق أبي عامر الخراز عن الحسن عن عمران بنحوه، رواه ابن حبان (1411) والحاكم (4/216)، وصححه ووافقه الذهبي.

النفس من أول الأمر، حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكـذا، فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة.

فهـذا الـذي لبس الحلقة من الواهنة لا تزيـده إلى وهنـاً، لأنه سـوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شك ضعف في النفس.

3- أن الأسـباب لا أثر لها بمقتضى الشـرع أو العـادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان.

4- أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك، لقولـه: "**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبـداً**"، وانتفـاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران.

ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر؟.

سبق لنا عند الترجمة أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه.

5- أن الأعمـال بـالخواتيم، لقولـه: "**لو مت وهي عليك**"، فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضره لأن الإنسـان إذا تـاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له.

* * *

وله عن عقبة بن عـامر مرفوعـاً: "**من تعلق تميمـة، فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له**"[1]

قولـــه: "**من تعلق تميمة**": أي علق بها قلبه واعتمد عليها في جلب النفع ودفع الضرر، والتميمة: شيء يعلق على الأولاد من خرز أو غيره يتقون به العين.

وقوله: "**فلا أتم الله له**". الجملة خبرية بمعـنى الـدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرمة، سواء نفى الرسول أن يتم الله له أو دعا بأن لا يتم الله له، فـإن كـان الرسـول أراد به الخبر، فإننا نخبر بما أخبر به النبي ، وإلا، فإننا نـدعو بما دعا به الرسـول .

* * *

وفي رواية: "**من تعلق تميمة، فقد أشرك**"[2].

ولابن أبي حاتم عن حذيفـة: "أنه رأى رجلاً في يـده خيط من الحمى، فقطعــه، وتلا قولــه: **وما يــؤمن أكــثرهم بالله إلا وهم مشــركون** [يوسف: 106].

ومثل ذلك قوله : "**ومن يتعلق ودعة، فلا ودع الله له**".

والودعـة: واحـدة الـودع، وهي أحجـار تؤخذ من البحر يعلقونها لـدفع العين، ويزعمــون أن الإنســان إذا علق هــذه الودعة لم تصــبه العين، أو لا يصيبه الجن.

قولـــه: "**لا ودع الله له**"، أي: لا تركه الله في دعة وســـكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم.

وقيل: لا ترك الله له خيراً، فعومل بنقيض قصده.

وقوله: "**فقد أشرك**"، هذا الشرك يكـون أكـبر إن اعتقد أنها ترفع أو تدفع بذاتها دون أمر الله، وإلا، فهو أصغر.

---

[1] مسند الإمام أحمد (4/154)، والحاكم (4/216)، وصححه ووافقه الذهبي.

[2] مسند الإمام أحمد (4/156)، والحاكم (4/219، كتاب الطب).

قوله: "**من الحمى**"، "من" هنا للسببية، أي: في يـده خيط لبسه من أجل الحمى لتبرد عليه، أو يشفى منها.

قوله: "**فقطعه**" أي: قطع الخيط، وفعله هذا من تغيير المنكر باليــد، وهذا يدل على غيرة السلف الصالح وقوتهم في تغيير المنكر باليد وغيرها.

وقولـه: **﴿وما يـؤمن أكـثرهم بالله إلا وهم مشـركون﴾**، أي وتلا حذيفة هـذه الآيـة. والمـراد بها المشـركون الـذين يؤمنـون بتوحيد الربوبية ويكفرون بتوحيد الألوهية.

وقولــه: **﴿وهم مشـــركون﴾** في محل نصب على الحــال، أي: وهم متلبسون بالشـرك، وكلام حذيفة في رجل مسـلم ليس خيطـاً لتبريد الحمى أو الشـفاء منهـا. وفيه دليل على أن الإنسـان قد يجتمع فيه إيمـان وشـرك، ولكن ليس الشـرك الأكـبر، لأن الشـرك الأكـبر لا يجتمع مع الإيمـان، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر، وهذا أمر معلوم.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصـحابي لو مـات وهي عليـه، ما أفلح. فيه شـاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

قوله: "**فيه مسائل**"، أي: في هذا الباب مسائل:

- **الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلــك، لقوله ﷺ: "أنزعها - لا تزيــدك إلا وهنـــاً -، لو مت وهي عليك ما أفلحت أبـــداً"**، وهـــذا تغليظ عظيم في لبس هـــذه الأشياء والتعلق بها.

- **الثانية: أن الصـحابي لو مـات وهي عليه ما أفلح،** هـذا وهو صحابي، فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح.

قال المؤلف: "**فيه شاهد لكلام الصـحابة: أن الشـرك الأصـغر أكبر من الكبائر**".

قوله: "**لكلام الصحابة**"، أي: لقولهم، وهو كـذلك، فالشـرك الأصـغر أكـبر من الكبـائر، قـال ابن مسـعود رضي الله عنـه: "لأن أحلف بالله كاذبـاً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً"[1]، وذلك لأن سيئة الشـرك أعظم من سيئة الكبيرة، لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر، بخلاف الكبـائر، فإنها تحت المشيئة.

* * *

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

- **الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالـة.** هـذا فيه نظـر، لأنه قوله ﷺ: "**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبـداً**" ليس بصـريح أنه لو مـات قبل العلم، بل ظاهره: "**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبـداً**"، أي: بعد أن علمت وأمرت بنزعها.

وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل، فنقول: الجهل نوعان:

جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه، فما كان ناشـئاً عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم، فإنه لا يعـذر فيـه، سـواء في الكفر أو في

---

[1] مصنف عبد الرزاق (8/469)، والهيثمي في "مجمع الزوائد" (4/177)، وقال: أخرجه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح".

المعاصي، وما كـان ناشـئاً عن خلاف ذلـك، أي أنه لم يهمل ولم يفـرط ولم يقم المتضي للتعلم بأن كـان لم يطـرأ على باله أن هـذا الشـيء حـرام فإنه يعـذر فيه فـإن كـان منتسـباً إلى الإسـلام، لم يضـره، وإن كـان منتسـباً إلى الكفـر، فهو كـافر في الـدنيا، لكن في الآخـرة أمـره إلى الله على القـول الراجح، يمتحن، فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

فعلى هـذا من نشأ ببادية بعيد ليس عنـده علمـاء ولم يخطر ببالة أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب، فهذا يعذر، وله أمثلة:

منها: رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنـده عـالم، ولم يسـمع عن العلم شـيئاً، ويظن أن الإنسـان لا تجب عليه العبـادات إلا إذا بلغ خمس عشر سنة، فبقي بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سـنة وهو لا يصـوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابه، فهذا لا نأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعلم ولم يطرأ له على بال، وكذلك لو كـانت أنـثى أتاها الحيض وهي صـغيرة وليس عنـدها من تسـأل ولم يطـرأ على بالها أن هـذا الشـيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشـرة سـنة، فإنها تعـذر إذا كـانت لا تصـوم ولا تصلي.

وأما من كان بـالعكس كالسـاكن في المـدن يسـتطيع أن يسـأل، لكن عنده تهاون وغفلة، فهذا لا يعذر، لأن الغالب في المـدن أن هـذه الأحكـام لا تخفى عليه، ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة، فهو مفـرط، فيلزمه القضاء ولا يعذر بالجهل.

* * *

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضـر، لقولـه: "لا تزيـدك وهنـاً". **الخامسة:** الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

▪ **الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر، لقوله: "لا تزيدك إلا وهناً".** والمؤلف استنبط المسألة وأتى بوجه استنباطها.

▪ **الخامسـة: الإنكـار بالتغليظ على من فعل مثل ذلـك،** أي: ينبغي أن ينكر إنكـاراً مغلظـاً على من فعل مثل هـذا، ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف، وأيضاً قوله: "**من تعلق تميمة، فلا أتم الله له**".

* * *

السادسـة: التصـريح بـأن من تعلق شـيئاً، وكل إليـه. **السـابعة:** التصـريح بـأن من تعلق تميمـة، فقد أشـرك. **الثامنة:** أن تعليق الخيط من الحمى من ذلـك. **التاسـعة:** تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصـحابة يستدلون بالآيات التي في الشـرك الأكـبر على الأصـغر، كما ذكر ابن عبـاس في آية البقرة.

▪ **السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وكل إليه.** تؤخذ من قولـه: "**من تعلق تميمـة، فلا أتم الله لـه**" إذا جعلنا الجملة خبرية، وأن من تعلق تميمة، فإن الله لا يتم له، فيكون موكـولاً إلى هـذه التميمة، ومن وكل إلى مخلوق، فقد خذل، ولكنها في البـاب الـذي بعـده صريحة، "**من تعلق شيئاً وكل إليه**"[1].

▪ **السابعة: التصريح بـأن من تعلق تميمـة، فقد أشـرك.** وهو إحدى الروايتين في حديث عقبة بن عامر.

---

[1] مسند الإمام أحمد (4/310)، والترمذي (أبواب الطب، باب ما جاء في كراهة التعليق (2073).

- **الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.** يؤخذ من فعل حذيفة أنه رأى رجلاً في يـــده خيط من الحمى فقطعـــه، وتلا قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾.
- **التاســـعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصـــحابة يسـتدلون بالآيـات الـتي في الشـرك الأكـبر على الأصـغر كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.**

أي أن قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ في الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الـواردة في الشـرك الأكـبر على الأصغر، لأن الأصغر شـرك في الحقيقة وإن كـان لا يخـرج من الملـة، ولهـذا نقول: الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله: "**كما ذكر ابن عباس في آية البقرة**"، وهي قوله تعـالى: ﴿**ومن النـــاس من يتخذ من دون الله أنـــداداً يحبـــونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله...**﴾ [البقرة: 165]، فجعل المحبة التي تكون كمحبة الله من اتخاذ الند لله- عز وجل -.

* * *

العاشـــرة: أن تعليق الـــودع من العين من ذلـــك. **الحادية عشـــرة:** الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع اللـه، أي: ترك الله له.

- **العاشرة: أن تعليق الـودع من العين من ذلـك،** وقولـه: "من ذلك"، أي: من تعليق التمائم الشركية، لأنه لا أثر لها ثابت شرعاً ولا قدراً.
- **الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم لـه، ومن تعلق ودعـة، فلا ودع الله لـه، أي: تـرك الله لـه.** تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تمـائم وودعـاً، وليس هـذا بغريب أن نؤمر بالدعاء على من خـالف وعصـى، فقد قـال النـبي ﷺ: "**إذا سـمعتم من ينشد الضـالة في المسـجد، فقولـوا: لا ردها الله عليك**"[2]، "**وإذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسـجد، فقولـوا: لا أربح الله تجارتك**"[3].

فهنا أيضاً تقول له: لا أتم الله لك، ولكن الحـديث إنما قاله الرسـول ﷺ على سـبيل العمـوم، فلا نخـاطب هـذا بالتصـريح ونقـول لشـخص رأينا عليه تميمة: لا أتم الله لك، وذلك لأن مخاطبتنا الفاعل بالتصريح والتعـيين سـوف يكون سـبباً لنفـوره، ولكن نقولك دع التمـائم أو الـودع، فـإن النـبي ﷺ يقولك "**من تعلق تميمة، فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعـــة، فلا ودع الله له**".

* * *

---

[2] مسلم: كتاب المساجد/ باب النهي عن نشد الضالة في المسجد.

[3] الترمذي: كتاب البيوع/ باب النهي عن البيع في المسجد، 2/274، وحسنه وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: "حديث صحيح" الإرواء 5/134.

باب ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه، أنه كان مع رسول الله في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: "**أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت**"[1]

قال المؤلف: باب ما جاء في الرقى والتمائم.

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك، لأن الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط، ولهذا جزم المؤلف في الباب الأول أنها من الشرك بدون استثناء، أما هذا الباب، فلم يذكر أنها شرك، لأن من الرقى ما ليس بشرك، ولهذا قال: "**باب ما جاء في الرقى والتمائم**".

قوله: "**شرك**"، جمع رقية، وهي القراءة، فيقال: رقى عليه - بالألف - من القراءة، ورقي عليه - بالياء - من الصعود.

قوله: "**التمائم**"، جمع تميمة، وسميت تميمة، لأنهم يرون أنه يتم بها دفع العين.

قوله: "**أسفاره**"، السفر: مفارقة محل الإقامة، وسمي سفراً، لأمرين:

الأول: حسي، وهو أنه يسفر ويظهر عن بلده لخروجه من البنيان.

الثاني: معنوي، وهي أن يسفر عن أخلاق الرجال، أي: يكشف عنها وكثير من الناس لا تعرف أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم إلا بالأسفار.

قوله: "**قلادة من وتر، أو قلادة**"، شك من الراوي، والأولى أرجح، لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد، لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعي أو حسي شرك، لأنه بتعلقه أثبت للأشياء سبباً لم يثبته الله لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي أن نقطع هذه القلائد.

أما إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنما تستعمل للقيادة كالزمام، فهذا لا بأس به لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيراً من الصوف أو غيره.

قوله: "**في رقبة بعير**"، ذكر البعير، لأن هذا هو الذي كان منتشراً حينذاك، فهذا القيد بناء على الواقع عندهم، فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص.

* **يستفاد من الحديث:**

1- أنه ينبغي لكبير القوم أن يكون مراعياً لأحوالهم، فيتفقدهم وينظر في أحوالهم.

2- أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة، فإذا فعلوا محرماً منعهم منه، وإن تهاونوا في واجب حثهم عليه.

3- أنه لا يجوز أن تعلق في أعناق الإبل أشياء تجعل سبباً في جلب منفعة أو دفع مضرة، وهي ليس كذلك لا شرعاً ولا قدراً، لأنه شرك، ولا يلزم أن تكون القلادة في الرقبة، بل لو جعلت في اليد أو الرجل، فلها حكم الرقبة، لأن العلة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها، فالمكان لا يؤثر.

4- أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيره بيده.

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد/ باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل، ومسلم: كتاب اللباس/ باب كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير.

* * *

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله يقول: "**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**". رواه أحمد وأبو داود[1]

قوله: "**إن الرقى**"، جمع رقبة، وهذه ليست على عمومها، بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقي بغير ما ورد به الشرع، أما ما ورد به الشرع، فليست من الشرك، قال في الفاتحة: "**وما يدريك أنها رقية**"[2].

وهل المراد بالرقي في الحديث ما لم يرد به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ما كان فيه شرك؟

الجواب: الثاني، لأن كلام النبي لا يناقض بعضه بعضاً، فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة.

وكذا الرقي المباحة التي يرقى بها الإنسان المريض بدعاء من عنده ليس فيه شرك جائز أيضاً.

قوله: "**التمائم**"، فسرها المؤلف بقوله: "شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين"، وهي من الشرك، لأن الشارع لم يجعلها سبباً تتقى به العين.

وإذا كان الإنسان يلبس أبناءه ملابس رثة وبالية خوفاً من العين، فهل هذا جائز؟

الظاهر أنه لا بأس به، لأنه لم يفعل شيئاً، وإنما ترك شيئاً، وهو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في "زاد المعاد" أن عثمان رأى صبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته، والنونة: هي التي تخرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقوة، ومعنى دسموا، أي: سودوا.

وأما الخط: وهي أوراق من القرآن تجمع وتوضع في جلد ويخاط عليها، ويلبسها الطفل على يده أو رقبته، ففيها خلاف بين العلماء.

وظاهر الحديث: أنها ممنوعة، ولا تجوز.

ومن ذلك أن بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة في أوراق صغيرة، ويضعها في صندوق صغير، ويعلقها على الصبي، وهذا مع أنه محدث، فهو إهانة للقرآن الكريم، لأن هذا الصبي سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوث بالنجاسة، ويدخل به الحمام والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن.

ومع الأسف أن بعض الناس اتخذوا من العبادات نوعاً من التبرك فقط، مثل ما يشاهد من أن بعض الناس يمسح الركن اليماني، ويمسح به وجه الطفل وصدره، وهذا معناه أنهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل، وقد قال عمر في الحجر: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأي رسول الله يقبلك ما قبلتك"[1].

قوله: "**التولة**"، شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك، لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحب.

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/381) وحسن إسناده احمد شاكر (3615)، وأبو داود (كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، 5/212)، والحاكم في (الرقي والتمائم: 4/418) - وقال: "صحيح الإسناد على شرط الشيخين"، وأقره الذهبي.

[2] سبق (ص 87).

[1] البخاري: كتاب الحج/ باب تقبيل الحجر، ومسلم: كتاب الحج/ باب أصحاب تقبيل الحجر.

ومثل ذلك الدبلــة، والدبلــة: خــاتم يشــترى عند الــزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج، قالت المـرأة: إنه لا يحبهـا، فهم يعتقـدون فيه النفع والضــرر، ويقولــون: إنه ما دام في يد الــزوج، فإنه يعــني أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فـإذا وجـدت هـذه النيـة، فإنه من الشـرك الأصـغر، وإن لم توجد هـذه النية - وهي بعيـدة ألا تصـحبها ـ، ففيه تشـبه بالنصـارى، فإنها مأخوذة منهم.

وإن كـانت من الـذهب، فهي بالنسـبة للرجل فيها محـذور ثـالث، وهو لبس الذهب، فهي إما من الشك، أو مضـاهاة النصـارى، أو تحـريم النـوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك، فهي جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

وقوله: "**شرك**"، هل هي شرك أصغر أو أكبر؟

نقـول: بحسب ما يريد الإنسـان منها إن اتخـذها معتقـداً أن المسـبب للمحبة هو الله، فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها، فهي شــرك أكبر.

* * *

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: "**من تعلق شيئاً، وكل إليه**" رواه احمد والترمذي[2].

قولــه: "**من تعلق**"، أي: اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمــه، وصــار يعلق رجاءه به وزوال خوفه به.

قولـه: "**شـيئاً**" نكـرة في سـياق الشـرط، فتعم جميع الأشـياء، فمن تعلق بالله - سبحانه وتعـالى - ، وجعل رغبته ورجـاءه فيه وخوفه منـه، فـإن الله تعالى يقول: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ [الطلاق: 3]، أي: كافيــه، ولهــذا كــان من دعــاء الرسل وأتبــاعهم عند المصــائب والشــدائد: "**حســبنا الله ونعم الوكيل**"، قالها إبــراهيم حين ألقي في النــار، وقالها محمد واصحابه حين قيل لهم: ﴿**إن الناس قد جمعوا لكم فأخشــوهم**﴾[1] [آل عمران: 173].

قوله: "**وكل إليه**"، أي: أسند إليه، وفوض.

* **أقسام التعلق بغير الله:**

الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشــيء لا يمكن أن يمكن أن يكـون له تـأثير، ويعتمد عليه اعتمـاداً معرضـاً عن اللـه، مثل تعلق عباد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مستهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان! أنقذنا، فهذا لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: ما ينـافي كمـال التوحيـد، وهو أن يعتمد على سـبب شـرعي صـحيح مع الغفلة عن المسـبب، وهو الله - عز وجل - ، وعـدم صـرف قلبه إليه، فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر، لأن هـذا السـبب جعله الله سبباً.

الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقاً مجرداً لكونه سبباً فقط، مع اعتماده الأصلي على الله، فيعتقد أن هـذا السـبب من اللـه، وأن الله لو شـاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله - عز وجل ـ، فهـذا لا ينافي التوحيد لا كمالاً ولا أصلاً، وعلى هذا لا إثم فيه.

ومع وجــود الأســباب الشــرعية الصــحيحة ينبغي للإنســان أن لا يعلق نفسه بالسبب، بل يعلقها بالله.

---

[2] تقدم تخريجه (ص 165).

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿الذي قال لهم الناس.....﴾.

فـــالموظف الـــذي يتعلق قلبه بمرتبه تعلقـــاً كـــاملاً، مع الغفلة عن المسبب، وهو، قد وقع في نوع من الشرك، أما إذا اعتقد ان المرتب سـبب، والمسبب هو الله - سبحانه وتعالى - ، وجعل الاعتماد على اللـه، وهو يشـعر أن المرتب سبب، فهذا لا ينافي التوكل.

وقد كـان الرسـول ﷺ يأخذ بالأسـباب مع اعتمـاده على المسـبب، وهو الله- عز وجل -.

وجـاء في الحـديث: "**من تعلق**"، ولم يقــل: من علــق، لأن المتعلق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجـاءه وأمله بـه، وليس كذلك من علق.

قوله: "**إذا كان المعلق من القرآن...**" **إلخ**.

إذا كان المعلق من القرآن أو الأدعية المباحة والأذكار الـواردة، فهـذه المسألة اختلف فيها السلف رحمهم اللـه، فمنهم من رخص في ذلك لعمـوم قوله: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ [الإسـراء: 82]، ولم يذكر الوسيلة التي نتوصل بها إلى الاستشفاء بهـذا القـرآن، فـدل على أن كل وســيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جــائزة، كما لو كــان القــرآن دواءاً حسياً.

ومنهم من منع ذلك وقال: لا يجـوز تعليق القـرآن للاستشـفاء بـه، لأن الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعـنى أنك تقــرأ على المريض به، فلا نتجاوزها، فلو جعلنا الاستشـفاء بـالقرآن على صـفة لم ترد، فمعـنى ذلك أننا فعلنا سـبباً ليس مشـروعاً[1]، وقد نقله المؤلف رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القـرآن سـبب للشـفاء، لكـان انتفـاء الســببية على هــذه الصــورة أمــراً ظــاهراً، فــإن التعليق ليس له علاقة بالمرضى، بخلاف النفث على مكان الألم، فإنه يتأثر بذلك.

ولهذا نقول: الأقرب أن يقال: إنه لا ينبغي أن تعلق الآيات للاستشــفاء بها، لا سيما وأن هذا المعلق قد يفعل أشـياء تنـافي قدسـية القـرآن، كالغيبة مثلاً، ودخول بيت الخلاء، وأيضاً إذا علق وشـعر أن به شـفاء اسـتغنى به عن القراءة المشـروعة، فمثلاً: علق آية الكرسي على صـدره، وقـال: ما دام أن آية الكرسي على صــــدري فلن أقرأهــــا، فيســـتغني بغـــير المشـــروع عن المشروع، وقد يشعر بالاستغناء عن القراءة المشروعة إذا كان القرآن على صدره.

وإن كان صبياً، فربما بال ووصلت الرطوبة إلى هذا المعلق، وأيضاً لم يرد عن النبي ﷺ فيه شيء.

فـالأقرب أن يقـال: أنه لا يفعـل، أما أن يصل إلى درجة التحـريم، فأنا أتوقف فيه، لكن إذا تضمن محظوراً، فإنه محرماً بسبب ذلك المحظور.

* * *

و"**الرقي**": هي الـتي تسـمى العـزائم، وخص منها الـدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و"التولة": هي شيء يصنعونه يزعمـون أنه يحبب المـرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

---

[1] أنظر: "مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين"، (1/58).

قوله: "**التي تسمى العزائم**". أي: في عرف الناس، وعزم عليه، أي: قرأ عليه، وهذه عزيمة، أي قراءة.

قوله: "**وخص منها الدليل ما خلا من الشرك**"، أي: الأشياء الخالية من الشرك، فهي جائزة، سواء كان مما ورد بلفظه مثل: "**اللهم رب الناس! أذهب الباس، اشف أنت الشافي...**"[2]، أو لم يرد بلفظه مثل: "**اللهم عافه، الله اشفه**"، وإن كان فيها شرك، فإنها غير جائزة، مثل: "يا جني! أنقذه، ويا فلان الميت! اشفه"، ونحو ذلك.

قوله: "**من العين والحمة**"، سبق تعريفهما في باب من حقق التوحيد دخل الجنة. وظاهر كلام المؤلف: أن الدليل لم يرخص بجواز القراءة إلا في هذين الأمرين: "العين، والحمة"، لكن ورد بغيرهما، فقد كان النبي ﷺ ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات، ويمسح بهما ما استطاع من جسده[1]، وهذا من الرقية، وليس عيباً ولا حمة.

ولهذا يرى بعض أهل العلم الترخيص في الرقية من القرآن للعين والحمة وغيرهما عام، ويقول: إن معنى قول النبي ﷺ: "**لا رقية إلا من عين أو حمة**"، أي: لا استرقاء إلا من عين أو حمة، والاسترقاء: طلب الرقية، فالمصيب بالعين - وهو "العائن" - يطلب منه أن يقرأ على المعيون.

وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه، لأنه مفيد كما في حديث أبي سعيد في قصة السرية[2].

*** شروط جواز الرقية:**

الأول: أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنها تنفع بذاتها من دون الله، فهو محرم، بل شرك، بل يعتقد أنها سبب لا تنفع إلا بإذن الله.

الثاني: أن لا تكون مما يخالف الشرع، كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك، فإنها محرمة، بل شرك.

الثالث: أن تكون مفهومة معلومة، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة، فإنها لا تجوز.

أما بالنسبة للتمائم، فإن كانت أمر محرم، أو اعتقد أنها نافعة لذاتها، أو كانت بكتابة لا تفهم، فإنها لا تجوز بكل حال.

وإن تمت فيها الشروط الثلاثة السابقة في الرقية، فإن أهل العلم اختلفوا فيها كما سبق.

* * *

وروى أحمد عن رويفع، قال: قال لي رسول الله ﷺ: "**يا رويفع! لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه**"[3].

قوله: "**من عقد لحيته**"، اللحية عند العرب كانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

منها: الافتخار والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد في قومه.

---

[2] البخاري: كتاب المرضى/ باب دعاء العائد للمريض، ومسلم: كتاب السلام/ باب استحباب رقية المريض.
[1] البخاري: كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات، ومسلم: كتاب السلام/ باب رقية المريض بالمعوذات والنفث.
[2] سبق (ص 87).
[3] مسند الإمام أحمد (4/108،109).

الثاني: الخـوف من العين، لأنها إذا كـانت حسـنة وجميلة ثم عقـدت أصبحت قبيحة، فمن عقدها لذلك، فإن الرسول بريء منه.

وبعض العامة إذا جاءهم طعام من السوق أخذوا شيئاً منه يرمونه في الأرض، دفعـاً للعين، وهـذا اعتقـاد فاسد ومخـالف لقـول النـبي : "**إذا سقطت لقمة أحدكم، فليمط ما بها من الأذى، وليأكلها**"[1].

قولـه: "**أو تقلد وتـراً**"، الـوتر: سـلك من العصب يؤخذ من الشـاة، وتتخذ للقوس وتراً، ويستعملونها في أعناق إبلهم أو خيلهم، أو في أعنـاقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

قوله: "**أو استنجى برجيع دابة**". الاستنجاء: مأخوذ من النجـو، وهو إزالة أثر الخـارج من السـبيلين، لأن الإنسـان الـذي يتمسح بعد الخلاء يزيل أثره.

ورجيع الدابة: هو روثها.

قوله: "**أو عظم**". العظم معـروف وإنما تـبرأ النـبي ممن اسـتنجى بهما، لأ، الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجدونه أو ما يكون لحماً.

وكل ذنب قـرن بـالبراءة من فاعلـة، فهو من كبـائر الـذنوب، كما هو معروف عند أهل العلم.

الشاهد من هذا الحديث قوله: "**من تقلد وتراً**".

* * *

وعن سـعيد ب جبـير، قـال: "**من قطع تميمة من إنسـان، كـان كعدل رقبة**". رواء وكيع[2]

- **قولـــه: وعن ســـعيد بن جبـــير، قـــال: "من قطع تميمــة..."**الحـديث قولـه: "**كعـدل رقبة**" بفتح العين لأنه من غـير الجنس، والمعـادل من الجنس بكسر العين، ووجه المشـابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبـة: أنه إذا قطع التميمة من إنسـان، فكأنه اعتقه من الشرك، ففكه من النار، ولكن يقطعها بالتي هي أحسن، لأن العنف يؤدي إلى المشاحنة والشقاق، إلا إن كان ذا شأن، كـالأمير، والقاضـي، ونحـوه ممن له سلطة، فله أن يقطعها مباشرة.

* * *

وله عن إبراهيم، قال: "**كانوا يكرهون التمائم كلها من القـرآن وغير القرآن**"[1].

قولـه: "**كـانوا يكرهـون التمـائم كلها من القـرآن وغـير القـرآن**"، وقد سـبق أن هـذا رأي ابن مسـعود رضي الله عنـه، فأصـحابه يرون، ما يراه.

قوله: "**وله عن إبراهيم**"**،** وهو إبراهيم النخعي.

قوله: "**كانوا**"، الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسعود، لأنهم هم قرناء إبراهيم النخعي.

قوله: "**التمائم**"، هي ما يعلق على المـريض أو الصـحيح، سـواء من القرآن أو غيره للاستشفاء أو لاتقاء العين، أو ما يعلق على الحيوانات.

---

[1] مسلم: كتاب الأشربة/ باب استحباب لعق الأيادي والقصعة.

[2] مصنف ابن أبي شيبة: كتاب الطب/ باب في تعليق التمائم والرقى.

[1] مصنف ابن أبي شيبة: كتاب الطب/ باب في تعليق التمائم والرقى.

وفي هذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء، بل لمجـرد التـبرك والزينــة، كالقلائد الذهبيــة، أو الحي الــتي يكتب عليها لفظ الجلالــة، أو آية الكرسي، أو القرآن كاملاً، فهذا كله من البدع.

فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجه، إنما يستشــفى به على ما جاء به الشرع.

* * *

- **قوله: الأولى: تفسير الرقى والتمائم،** وقد سبق ذلك.
- **الثانية: تفسير التولة،** وقد سـبق ذلـك، وعنـدي أن منها ما يسمى بالدبلة إن اعتقدوا إنها صلة بين المرء وزوجته.
- **الثالثــة: أنه هــذه الثلاثة كلها من الشــرك من غــير استثناء،** ظاهر كلامه حتى الرقى، وهـذا فيه نظـر، لأن الـرقى ثبت عن النـبي ﷺ أنه يـرقى ويـرقى[2]، ولكنه لا يسـترقي، أي: لا يطلب الرقيـة، فإطلاقها بالنســبة للــرقى فيه نظــر، وقد ســبق للمؤلف رحمه الله أن الــدليل خص منها ما خلا من الشــرك، وبالنســبة للتمــائم، فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضاً.

وأما على رأي ابن مسـعود، فصـحيح، وبالنسـبة للتولـة، فهي شـرك بدون استثناء.

* * *

الرابعــة: أن الرقية بـالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلـك. **الخامسـة:** أن التميمة إذا كـانت من القـرآن، فقد اختلف العلمـاء، هل هي من ذلك أم لا؟ **السادســة:** أن تعليق الأوتــار على الــدواب عن العين من ذلك.

- **الرابعــة: أن الرقية بــالكلام الحق من العين أو الحمة ليس من ذلك.**

قوله: (**الكلام الحق**)، ضده الباطل، وكذا المجهـول الـذي لا يعلم أنه حق أو باطل.

والمؤلف رحمه الله تعالى خصص العين أو الحمة فقط استناداً لقــول الرسول ﷺ: "**لا رقية إلى من عين أو حمة**"[1]، ولكن الصحيح أنه يشمل غيرهما، كالسحر.

- **الخامســـة: أن التميمة إذا كـــانت من القـــرآن، فقد اختلف العلماء: هل هي من ذلك أم لا؟** قوله: "ذلك" المشار إليـه: التمائم المحرمة.

وقد سبق بيان هذا الخلاف[2]، والأحوط مذهب ابن مسعود، لأن الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة.

- **السادســة: أن تعليق الأوتــار على الــدواب عن العين من ذلك،** أي: من الشرك.

*** (تنبيه):**

ظهر في الأسواق في الآونة الأخـيرة حلقة من النحـاس يقولـون: إنها تنفع من الروماتيزم، يزعمون الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيزم

---

[2] (ص 91)

[1] (ص 94).

[2] أنظر: (ص 174).

نفعته من هـذا الرومـاتيزم، ولا نـدري هل هـذا صـحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح، لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا حسي يدل على ذلـك، وهي لا تؤثر على الجسم، فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المـادة وينتفع بهـا، فالأصل أنها ممنوعة حـتى يثبت لنا بـدليل صـحيح صـريح واضح أن لها اتصالاً مباشراً بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها.

* * *

السابعة: الوعيد الشـديد على من تعلق وتـراً. **الثامنة:** فضل ثـواب من قطع تميمة من إنسان.

- **السـابعة: الوعيد الشـديد على من تعلق وتـراً.** وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلق وتراً، بل ظـاهره أنه كفر مخـرج من الملـة، قال: ﴿**وأذان من الله ورسوله إلى النـاس يـوم الحج الأكـبر أن الله بـريء من المشـركين ورسـوله**﴾ [التوبـة: 3]، لكن قـال أهل العلم: إن الـبراءة هنا بـراءة من هـذا الفعـل، كقوله ﷺ: "**من غشـنا، فليس منا**"[3].
- **الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان،** لقـول سعيد بن جبير: "كان كعدل رقبة"، ولكن هل قوله حجة أم لا؟.

إن قيـل: ليس بحجـة، فكيف يقـول المؤلـف: فضل ثـواب من قطع تميمة من إنسان؟!

فيقـال: أنه إنما كـان كـذلك، لأنه إنقـاذ له من رق الشـرك، فهو كمن أعتقه، بل أبلغ.

فهو من باب القيـاس، فمن أنقذ نفسـاً من الشـرك، فهو كمن أنقـذها من الرق لأنه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

* **فائدة:**

إذا قال التـابعي: من السـنة كـذا، فهل يعتـبر موقوفـاً متصـلاً ويكـون المراد من السنة أي سنة الصحابة، أو يكون مرفوعاً مرسلاً؟

اختلف أهل العلم في هذا، فبعضهم قال: إنه يكون موقوفاً.

وبعضهم قال: يكون مرفوعاً مرسلاً.

وتقدم لنا أنه ينبغي أن يفصل في هذا، وإن التابعي إذا قاله محتجاً به، فإنه يكون مرفوعـاً مرسـلاً، أما إذا قاله في سـياق غـير الاحتجـاج، فهـذا قد يقال: إنه من باب الموقوف الذي ينسب إلى الصحابي.

* * *

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبدالله بن مسعود.

- **التاسعة: أن كلام إبراهيم النخعي لا يخـالف ما تقـدم من الاختلاف، لأن مـراده أصـحاب عبدالله بن مسـعود،** وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عموماً.

* * *

---

[3] مسلم: كتاب الإيمان/ باب قول النبيﷺ: "من غشنا فليس منا".

باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

قوله: "**تبرك**"، تفعل من البركـة، والبركـة: هي كـثرة الخـير وثبوتـه، وهي مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع المـاء، ومجمع المـاء يتمـيز عن مجرى الماء بأمرين:

1- الكثرة.

2- الثبوت.

والتبرك طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

1- أن يكون التبرك بأمر شرعي معلـوم، مثل القـرآن، قـال تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مباركـاً**﴾ [ص: 29]، فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بـــذلك أممـــاً كثـــيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسـنات، وهـذا يـوفر للإنسان الوقت والجهد، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

2- أن يكـون بـأمر حسي معلـوم، مثـل: التعليم، والـدعاء، ونحـو، فهـذا الرجل يتـبرك بعمله ودعوته إلى الخـير، فيكـون هـذا بركة لأننا نلنا منه خيراً كثيراً.

وقال أسيد بن حضير: "ما هذه بأول بـركتكم يا آل أبي بكـر"[1]، فـإن الله يجري على بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه على يد الآخر.

وهنـاك بركـات موهومة باطلـة، مثل ما يزعمه الـدجالون: أن فلانـاً الميت الذي يزعمون أنه ولي أنـزل عليكم من بركته وما أشـبه ذلـك، فهـذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنا لا تعدو أن تكون آثاراً حسـية، بحيث أن الشـيطان يخـدم هـذا الشـيخ، فيكـون في ذلك فتنة.

أما كيفية معرفة هل هـذه من البركـات الباطلة أو الصـحيح، فيعـرف ذلك بحـال الشـخص، فـإن كـان من أوليـاء الله المتقين المتبعين للسـنة المبتعدين عن البدعـة، فـإن الله قد يجعل على يديه من الخـير والبركة ما لا يحصل لغيره.

ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته.

أما إن كان مخالفـاً للكتـاب والسـنة، أو يـدعو إلى باطـل، فـإن بركته موهومـة، وقد تضـعها الشـياطين له مسـاعدة على باطلـه، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أن يقف مع الناس في عرفة ثم يـأتي إلى بلـده ويضـحي مع أهل بلده.

قـال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة: إن الشـياطين تحملهم لكي يغـتر بهم النـاس، وهـؤلاء وقع منهم مخالفـات، منهـا: عـدم إتمـام الحج، ومنها أنهم يمرون بالميقات ولا يحرمون منه[1].

قوله: "**شجر**" اسم جنس، فيشـمل أي شـجرة تكـون، ومن حسـنات أمير المؤمـنين عمر بن الخطـاب رضي الله عنه أنه لما رأى النـاس ينتـابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/باب قوله ﷺ: "لو كنت متخذاً خليلاً"، ومسلم: كتاب الحيض/ باب التيمم.

[1] "مجموع الفتاوى" (1/83).

قوله: "**وحجر**"، اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس، فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنما يتعبد الله بمسحه وتقبيله، اتباعاً للرسول ، وبذلك تحصل بركة الثواب.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: "إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك، ما قبلتك"[2].

فتقبيله عبادة محضة خلافاً للعامة، يظنون أن به بركة حسية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبركاً بذلك.

قوله: "**ونحوهما**"، أي: من البيوت، والقباب، والحجر، حتى حجرة قبر النبي ، فلا يتمسح بها تبركاً، لكن لو مسح الحديد لينظر هل هو أملس أو لا، فلا بأس، إلا إن خشي أن يقتدى به، فلا يمسحه.

* * *

وقول الله تعالى **أفرأيتم اللات والعزى** الآيات [النجم: 19]

قوله: **أفرأيتم اللات والعزى**، لما ذكر الله - عز وجل - المعراج بقوله: **والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى..** [النجم: 1،2]، قال: **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** [النجم 18]، أي رأى النبي من آيات الله الكبرى. وقد اختلف العلماء في قوله: **الكبرى**: هل هي مفعول لـ **رأى**، أو صفة لـ **آيات**؟

وقوله: **الكبرى** قيل: أنها مفعول: لـ**رأى**، والتقدير: لقد رأى من آيات الله الكبرى.

فعلى الأول: يكون المعنى: أنه رأى الكبرى من الآيات.

وعلى الثاني: يكون المعنى أنه رأى بعض الآيات الكبرى، وهذا هو الصحيح، أن الكبرى صفة لـ **آيات**، وليست مفعولاً لـ **رأى**، إذا إن ما رآه ليس أكبر آيات الله.

وبعد أن ذكر الله ما رأى النبي من هذه الآيات، قال: **أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى**، أي: أخبروني ما شأنها، وما حالها بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة، إنها ليست بشيء.

والاستفهام: للاستخفاف والاستهجان بهذه الأصنام.

قوله: **اللات**، تقرأ بتشديد التاء وتخفيفها، والتشديد قراءة ابن عباس، فعلى قراءة التشديد تكون اسم فاعل من اللت، وكان هذا الصنم أصله رجل يلت السويق للحجاج، أي: يجعل فيه السمن، ويطعمه الحجاج، فلما مات عكفوا على قبره وجعلوه صنماً.

وأما على قراءة التخفيف، فإن اللات مشتقة من الله، أو من الإله، فهم اشتقوا من أسماء الله اسماً لهذا الصنم، وسموه اللات، وهي لأهل الطائف ومن حولهم من العرب.

وقوله: **العزى**، مؤنث أعز، وهو صنم يعبده قريش وبنو كنانة مشتق من اسم الله العزيز كان بنخلة بين مكة والطائف.

قوله: **ومناة**، قيل: مشتقة من المنان، وقيل: من منى، لكثرة ما يمنى عنده من الدماء بمعنى يراق، ومنه سميت منى، لكثرة ما يراق فيها من الدماء.

وكان هذا الصنم بين مكة والمدينة لهذيل وخزاعة، وكان الأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج.

---

[2] سبق (ص171).

قوله: ﴿**الثالثة الأخـرى**﴾، إشـارة إلى أن الـتي تعظمونهـا، وتـذبحون عنـدها، وتكـثر إراقة الـدماء حولهـا: أنها أخـرى بمعـنى متـأخرة، أي: ذميمة حقيرة، مأخوذة من قولهم: فلا أخر، أي: ذميم، حقير، متأخر.

فهـذه الأصـنام الثلاثة المعبـودة عند العـرب ما حلها بالنسـبة لما رأى النبي ﷺ؟ لا شيء، وإنما ذكر هذه الأصنام الثلاثة لأنها اشهر الأصنام وأعظمها عند العرب.

قوله: "**الآيات**"، أي: أكمل الآيات بعدها.

قوله: "**ألكم الذكر وله الأنثى**"، هـذا أيضـاً اسـتفهام إنكـاري على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا ولد لهم الـذكر فرحـوا واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسوداً، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات اللـه، فيجعلـون البنـات لله - والعيـاذ بالله - ولهم ما يشتهون.

قوله: ﴿**تلك إذا قسمة ضيزى**﴾، ضـيزى: جـائرة، لأنه على الأقل إذا أردتم القسمة، فاجعلوا لكم من البنات نصيباً، واجعلوا لله من البـنين نصـيباً، أما أن تجعلوا ما تختارونه لأنفسكم، وهم البنون، وتجعلون ما تكرهـون للـه، فهذه قسمة جائرة.

قوله: ﴿**إن هي إلا أسماء سميتموها أنت وآباؤكم ما أنزل إله بها من سلطان**﴾، الضمير في ﴿**هي**﴾ يعود إلى الأصنام، أي: هـذه الأصـنام (اللات والعـزى ومنـاة) الـتي سـميتموها آلهة واتخـذتموها آلهة تعبـدونها هي مجرد أسـماء سـميتموها، ولكن ما أنـزل الله بها من سـلطان، أي: من حجة ودليل.

بل أبطلها الله - سـبحانه - ، قـال تعـالى: ﴿**ذلك بـان الله هو الحق وأن ما يـــدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبـــير**﴾ [الحج: 62].

وأصل السلطان في اللغة العربية: ما به سـلطة، فـإن كـان في مقـام العلم، فهو العلم، وإن كان في مقام القدوة، فهو القدوة، وإن كان في مقام الأمر والنهي، فهو من له الأمر والنهي، فمثلاً قوله تعـالى: ﴿**لا تنفـذون إلا بسلطان**﴾ [الرحمن: 33]، أي: بقدرة وقوة ، ومثل قوله تعالى: ﴿**ما أنزل الله بها من سلطان**﴾ [النجم: 23]، أي: من حجة وبرهان.

وفي الحـــديث: "**السـلطان ولي من لا ولي له**"[1]، أي: من له الأمر والنهي.

قوله: ﴿**إن يتبعون إلا الظن**﴾ ،﴿**إن**﴾ هنا بمعنى مـا، وعلامة إن الـتي بمعنى ما أن تأتي بعها إلا، قال تعالى: ﴿**إن هذا إلا ملك كـريم**﴾ [يوسـف: 31]، يعني ما هذا إلا ملك كريم، وقال تعالى: ﴿**إن هـذا إلا قـول البشر**﴾ [المدثر: 25]، أي: ما هـذا إلا قـول البشـر، وقـال تعـالى: ﴿**إن يتبعون إلا الظن**﴾ [النجم: 23]، أي: ما يتبعون إلا الظن.

والظن الذين يتبعونه هو أنها آلهة، وأن لله البنات ولهم البنون، والظن لا يغني من الحق شيئاً، كما قال تعالى في آية أخرى.

قوله: ﴿**وما تهوى الأنفس**﴾، كـذلك أيضـاً يتبعـون ما تهـوى الأنفس، وهـذا أضر شـيء على الإنسـان أن يتبع ما يهـوى، فالإنسـان الـذي يعبد الله بالهوى، فإنه لا يعبد الله حقـاً، إنما يعبد عقله وهـواه، قـال تعـال: ﴿**أفرأيت**

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/47)، وسنن أبي داود: كتاب النكاح/ باب في الولي، 2/568 - وسكت عنه - ، والترمذي: كتاب النكاح/ باب لا نكاح إلا بولي، رقم 1102 - وقال: "حديث حسن" -.

من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم [الجاثية: 23]، لكن الذي يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذي على الحق.

قوله: **ولقد جاءهم من ربهم الهدى**، أي: على يد النبي ، فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

*** مناسبة الآية للترجمة:**

أنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها، يدعونها، ويذبحون لها، ويتقربون إليها، وقد يبتلي الله المرء فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر أو جلب نفع بهذا الشرك، ابتلاءً من الله وامتحاناً، وهذا قد تقدم لنا له نظائر أن الله يبتلي المرء بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه من يخافه بالغيب.

* * *

وعن أبي واقد الليثي، قال: "خرجنا مع رسول الله إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله : "**الله أكبر! إنها السنن! قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون** [الأعراف: 138]. **لتركبن سنن من كان قبلكم**". رواه الترمذي وصححه[1]**.**

قوله: "**خرجنا مع النبي** "، أي: بعد غزوة الفتح، لأن النبي لما فتح مكة تجمعت له ثقيف وهوازن بجمع عظيم كثير جداً.

فقصدهم ومعه اثنا عشر ألفاً: ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة، قالوا: لن نغلب اليوم من قلة. فأعجبوا بكثرتهم، ولكن بين الله أن النصر من عنده سبحانه وليس بالكثرة، قال تعالى: **لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت...** الآيتين [التوبة: 25]، ثم لما انحدروا من وادي حنين وجدوا أن المشركين قد كمنوا في الوادي، فحصل ما حصل، وتفرق المسلمون عن رسول الله ، ولم يبق معه إلا نحو مئة رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنبي ، والحمد لله.

قوله: "**حدثاء**"، جمع حديث، أي: أننا قريبو عهد بكفر، وإنما ذكر ذلك رضي الله عنه للاعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

قوله: "**يعكفون عندها**"، أي: يقيمون عليها، والعكوف: ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالى: **وأنتم عاكفون في المساجد** [البقرة: 187].

قوله: "**ينوطون**"، أي: يعلقون بها أسلحتهم تبركاً.

قوله: "**يقال: لها ذات أنواط**"، أي: أنها تلقب بهذا اللقب لأنه تناط فيها الأسلحة، وتعلق عليها رجاء بركتها، فالصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبي "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط"، أي: سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركاً بها، فقال النبي : "**الله أكبر**" كبر تعظيماً لهذا الطلب، أي:

---

[1] مسند الإمام أحمد (5/218)، والترمذي: أبواب الفتن/ باب ما جاء: "لتركبن سنن من كان قبلكم"، 6/343ـ وقال: "حسن صحيح".

استعظاماً له، وتعجباً لا فرحاً به، كيف يقولون هذا القول وهم آمنوا بأنه لا إله إلا الله؟!

لكن: "**إنها السنن**"، أي: الطرق التي يسلكها العباد.

قوله: "**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**"، أي: إن الرسول قاس ما قاله الصحابة رضي الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قالوا: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "**والذي نفسي بيده**" المراد أن نفسه بيد الله، لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب، بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضاً، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها - سبحانه وتعالى -.

قوله: "**لتركبن سنن من كان قبلكم**"، أي: لتفعلن مثل فعلهم، ولتقولن مثل قولهم، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار، وإنما يراد بها التحذير، لأنه من المعلوم أن سنن من كان قبلنا مما جرى تشبيهه سنن ضالة، حيث طلبوا آلهة مع الله، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحذر أمته أن تركب سنن من كان قبلها من الضلال والغي.

والشاهد من هذا الحديث قولهم: "**اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**"، فأنكر عليهم النبي .

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية النجم. **الثانية:** معرفة صورة الأمر الذي طلبوا. **الثالثة:** كونهم لم يفعلوا. **الرابعة:** كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير آية النجم،** أي: قوله تعالى: **أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى * إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان...** الآية، وسبق تفسيرها، وأن الله تعالى أنكر على هؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى، وأتى بصيغة الاستفهام الدالة على التحقير والتصغير لهذه الأصنام.
- **الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا،** وهو أنهم طلبوا من النبي أن يجعل لهم ذات أنواط كما أن للمشركين ذات أنواط، وهم إنما أرادوا أن يتبركوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها، فدل ذلك على أن التبرك بالأشجار ممنوع، وأن هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.
- **الثالثة: كونهم لم يفعلوا،** أي: لم يعلقوا أنواطاً على الشجرة، ويطلبوا من الرسول أن يقرهم على هذا العمل، بل طلبوا من الرسول أن يجعل لهم ذلك.
- **الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه، "بذلك"،** أي: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول ، ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا المعنى العبادة.

- **الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا، فغيرهم أولى بالجهـل،** لأن الصحابة لا شك أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلـون أن التبرك بهذا نوع من اتخاذها إلهـاً، فغـيرهم من بـاب أولى، وقصد المؤلف رحمه الله بهـذا أن لا نغـتر بعمل النـاس، لأن عمل النـاس قد يكـون عن جهل، فالعبرة بما دل عليه الشرع لا بعمل الناس.
- **السادسة: أن لهم من الحسـنات والوعد بـالمغفرة ما ليس لغيرهم،** وهذا معلوم من الآيـات، مثل قوله تعـالى: **﴿لا يسـتوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى﴾** [الحديـد: 10]، فالصـحابة رضي الله عنهم لهم من الحسـنات والوعد بـالمغفرة وأسـباب المغفـرة ما ليس لغـيرهم، ومع ذلك لم يعـذرهم النـبي ﷺ بهـذا الطلب. بل رد عليهم بقول الله أكـبر (إنها السـنن لتتبعن سـنن من كـان قبلكم).
- **السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقولـه: "الله أكـبر إنها السـنن، لتتبعن سـنن من كـان قبلكم"، فغلظ الأمر بهذه الثلاث،** وهي قولـه: "الله أكـبر"، وقولـه: "**إنها السنن**"، وقولـه: "لـتركبن سـنن من كـان قبلكم"، فغلظ الأمر بهـذا لأن التكبـير استعظاماً للأمر الذي طلبوه، و"**أنها السنن**": تحذير، و"**لتركبن سنن من كان قبلكم**" كذلك أيضاً تحذير.

* * *

الثامنة: الأمر الكبير - وهو المقصود - أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً. **التاسعة:** أن نفي هـذا من معـنى (لا إله إلا الله) مع دقته وخفائه على أولئك. **العاشرة:** أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

- **الثامنــة: الأمر الكبــير وهو المقصــود أنه أخــبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾.** فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها كما يتبرك المشـركون بهـا، وأولئك طلبـوا إلهـاً كما لهم آلهـة، فيكـون في كلا الطلـبين منافـاة للتوحيد، لأن التبرك بالشجر نوع من الشرك، واتخاذه إلهاً شرك واضح.
- **التاسـعة: أن نفي هــذا من معــنى: لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك،** أي: أن نفي التـبرك بالأشـجار ونحوها من معـنى لا إله إلا اللـه، فـإن لا إله إلا الله تنفي كل إله سـوى اللـه، وتنفي الألوهية عما سوى الله - عز وجل -، فكذلك البركة لا تكـون من غـير الله - سبحانه وتعالى -.
- **العاشـــــــرة: أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصـلحة،** أي: أن النـبي ﷺ حلف على الفتيا في قولـه: "**قلتم، والـذي نفسي بيده**"، والنبي ﷺ لا يحلف إلا لمصـلحة، أو دفع مضـرة ومفسـدة، فليس ممن يحلف على أي سبب يكون، كما هي عادة بعض الناس.

* * *

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أصغر وأكبر، لأنهم لم يرتدوا بهذا.

- **الحادية عشرة: أن الشرك فيه أصغر وأكـبر، لأنهم لم يرتدوا بهذا،** حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها، بل للتبرك بهـا، والشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفي وجلي.

فالشرك الأكبر: ما يخرج الإنسان من الله.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

لكن كلمة (ما دون ذلك) ليس ميزانـاً واضـحاً. ولـذلك اختلف العلمـاء في ضابط الشرك الأصغر على قولين:

القول الأول: أن الشرك الأصغر كل شـيء أطلق الشـارع عليه أنه شـرك ودلت النصـوص على أنه ليس من الأكـبر، مثـل: "**من حلف بغـير اللـه، فقد أشـرك**"[1]، فالشـرك هنا اصـغر، لأنه دلت النصـوص على أن مجرد الحلف بغير الله لا يخرج من الملة.

القول الثاني: أن الشـرك الأصـغر: ما كـان وسـيلة للأكـبر، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشـرك، مثـل: أن يعتمد الإنسـان شـيء كاعتمـاده على الله، لكنه لم يتخـذه إلهـاً، فهـذا شـرك أصـغر، لأن هـذا الاعتمـاد الـذي يكـون كاعتمـاده على الله يـؤدي به في النهاية إلى الشـرك الأكـبر، وهـذا التعريف أوسع من الأول، لأن الأول يمنع أن تطلق على شـيء أنه شـرك إلا إذا كان لديك دليـل، والثـاني يجعل كل ما كـان وسـيلة للشـرك فهو شـرك، وربما نقول على هذا التعريـف: إن المعاصي كلها شـرك أصـغر، لأن الحامل عليها الهوى، وقد قال تعالى: **أفرأيت من اتخذ من إلهه هواه وأضـله الله على علم** [الجاثيـة: 23]، ولهـذا أطلق النـبي الشـرك على تـارك الصـلاة، مع أنه لم يشـرك، فقـال: "**بين الرجل وبين الشرك والكفـر: ترك الصلاة**"[2].

فالحاصل أن المؤلف رحمه الله يقولك إن الشـرك فيه أكـبر وأصـغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا، وسبق وجه ذلك.

الجلي والخفي، فبعضهم قـال: إن الجلي والخفي هو الأكـبر والأصـغر، وبعضهم قال: الجلي ما ظهر للناس من أصغر أو أكـبر، كـالحلف بغـير اللـه، والسجود للصنم.

والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر، كالرياء، واعتقـاد أن مع الله إلهاً آخر.

وقد يقــال: إن الجلي ما انجلى أمــره وظهر كونه شــركاً، ولو كــان أصغر، والخفي: ما سوى ذلك.

وأيهما الذي لا يغفر؟

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه اللـه: إن الشـرك لا يغفـره الله لو كان أصغر، لعموم قولـه: إن الله لا يغفر أن يشـرك به [النسـاء: 116]، و **أن يشرك به** مؤول بمصدر تقديره: شركاً به، وهو نكر في سياق النفي، فيفيد العموم.

وقـال بعض العلمـاء: إن الشـرك الأصـغر داخل تحت المشـيئة، وإن المراد بقولـه: **إن يشرك به** الشـرك الأكـبر، وأما الشـرك الأصـغر، فإنه يغفر لأنه لا يخــرج من الملــة، وكل ذنب لا يخــرج من الملــة، فإنه تحت المشيئة، وعلى كل، فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبر من كبـائر

---

[1] مسند الإمام أحمد (2/125)، وسنن أبي داود: كتاب الإيمان/ باب من كراهية الحلف بالآباء - وسكت عنه ـ، والترمذي: النذور/ باب كراهية الحلف بغير الله تعالى - وحسنه -.

[2] مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

الذنوب، قـال ابن مسـعود رضي الله عنـه: "لأن أحلف بالله كاذبـاً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً"[1].

* * *

الثانية عشـرة: قـولهم: "ونحن حـدثاء عهد بكفـر، فيه أن غـيرهم يجهل ذلك. **الثالثة عشرة:** التكبير عند التعجب، خلافاً لمن كرهه.

- **الثانية عشـرة: قـولهم: "ونحن حـدثاء عهد بكفـر.."**، معناه: أنه يعتذر عما طلبـوا، حيث طلبـوا أن يجعل لهم ذات أنـواط، فهم يعتـذرون لجهلهم بكـونهم حـدثاء عهد بكفـر، وأما غـيرهم ممن سـبق إسلامه، فلا يجهل ذلك.

وعلى هذا، فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يقدم العذر عن قوله أو فعله حتى لا يعرض نفسه إلى القول أو الظن بما ليس فيـه، ويـدل لـذلك حـديث صفية حين شـيعها الرسـول ﷺ وهو معتكـف، فمر رجلان من الأنصـار، فقـال: "**إنها صفية بنت حيي**"[2].

- **الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب.. إلخ،** تؤخذ من قوله: "**الله أكـــبر**"، أي: الله أكـــبر وأعظم من أن يشـــرك بـــه، وفي رواية الترمذي أنه قال: "**سبحان الله**"، أي: تنزيهاً لله عما لا يليق به.

* * *

الرابعة عشرة: سد الذرائع. **الخامسة عشـرة:** النهي عن التشـبه بأهل الجاهلية. **السادسة عشرة:** الغضب عند التعليم. **السابعة عشـرة:** القاعدة الكلية لقوله: "إنها السنن".

- **الرابعة عشرة: سد الذرائع،** الذرائع: الطـرق الموصـلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله وطرقه.

والذرائع نوعان:

1- ذرائع إلى أمور مطلوبة، فهذه لا تسد، بل تفتح وتطلب.

2- ذرائع إلى أمور مذمومة، فهـذه تسـد، وهو مـراد المؤلف رحمه الله تعالى.

وذات الأنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر، فـإذا وضـعوا عليها أسـلحتهم وتـبركوا بهـا، يتـدرج بهم الشـيطان إلى عبادتها وسـؤالهم حـوائجهم منها مباشرة، فلهذا سد النبي ﷺ الذرائع.

- **الخامسة عشـرة: النهي عن التشـبه بأهل الجاهليـة،** تؤخذ من قوله: "**قلتم كما قالت بنو إسرائيل**"، فأنكر عليهم، وبهـذا نعـرف أن الجاهلية لا تختص بمن كـان قبل زمن النـبي ﷺ، بل كـان من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين، فهو من أهل الجاهلية.

- **السادسة عشـــرة: الغضب عند التعليم،** والحـــديث ليس بصـــريح في ذلـــك، وربما يؤخذ من قـــرائن قولـــه: "**الله أكـــبر إنها السنن...**"، لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب.

- **السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: "إنها السـنن"**، أي: الطرق، وأن هـذه الأمة سـتتبع طـرق من كـان قبلهـا، وهـذا لا يعـني الحل والإباحـة، ولكنه للتحـذير، كما قـال الرسـول ﷺ: "**ستفترق هـذه**

---

[1] تقدم (ص 163)

[2] البخاري: كتاب الاعتكاف/ باب هل يخرج المعتكف...، ومسلم: كتاب السلام/ باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة.. .

الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقـة، كلها في النـار، إلا واحـدة"[1]، وقال: "**ليكونن من أمـتي أقـوام يسـتحلون الحر والحريـر..**"[2] الحديث، وقال: "**إن الظعينة تذهب من كذا إلى كـذا لا تخشى إلا الله**"[3]، وما أشـبه ذلك من الأمـور الـتي أخـبر النـبي عن وقوعها مع تحريمها.

* * *

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكون وقع كما أخبر.

- **الثامنة عشـرة: أن هـذا علم من أعلام النبـوة لكـون وقع كما أخبر،** يعني اتباع سنن من كان قبلنا.

فإن قال قائـل: إن النـبي قد خطب النـاس بعرفـة، وقـال: "**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**"[4]، فكيف تقع عبادته.

فالجواب: أن إخبار النبي بيأسه لا يدل على عدم الوقوع، بل يجـوز أن يقع، على خلاف ما توقعه الشيطان، لأن الشيطان لما حصلت الفتوحات، وقوي الإسـلام، ودخل النـاس في دين الله أفواجـاً، يئس أن يعبد سـوى الله في هذه الجزيرة، ولكن حكمة الله تأبى إلا أن يكون ذلك، وهذا نقوله ولا بد، لئلا يقال: إن جميع الأفعال الـتي تقع في الجزيـرة العربية لا يمكن أن تكـون شركاً، ومعلوم أن الشيخ محمد بن عبد الوهـاب رحمه الله جـدد التوحيد في الجزيـرة العربيـة، وأن النـاس كـانوا في ذلك الـوقت فيهم المشـرك وغـير المشرك.

فالحديث أخبر عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت، ولكنه لا يـدل على عـدم الوقـوع، وهـذا الرسـول يقـول: "**لـتركبن سـنن من كـان قبلكم**"، وهو يخاطب الصحابة وهم في جزيرة العرب.

* * *

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصـارى في القـرآن أنه لنا.

- **التاسـعة عشـرة: أن ما ذم الله به اليهـود والنصـارى في القرآن أنه لنـا،** هـذا ليس على إطلاقه وظـاهرة بل يحمل قولـه: "**لنا**"، أي: لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع، كما قال العلمـاء في قوله تعـالى: **يا معشر الجن والإنس ألم يـأتكم رسل منكم** [الأنعام: 130]، والرسل كانوا من الإنس فقط.

فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى، فإن الذم الذي يكون لهم يكـون لنـا، وما من أحد من الناس غالباً إلا وفيه شبه باليهود أو النصارى، فالـذي يعصي الله على بصيرة فيه شبه من اليهود، والـذي يعبد الله على ضـلالة فيه شـبه من النصارى، والذي يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود، وهلم جراً.

وإن كـان يقصد رحمه الله أنه لا بد أن يكـون في الأمة خصـلة، فهـذا على إطلاقه وظاهره، لأنه قل من يسلم.

---

[1] تقدم (ص 31).
[2] البخاري تعليقاً: كتاب الأشربة/باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه.
[3] البخاري: كتاب المناقب/ باب علامات النبوة.
[4] مسلم: كتاب صفات المنافقين/ باب تحريش الشيطان.

وإن أراد أن كل ما ذم به اليهود والنصارى، فهو لهذه الأمة على سبيل العموم، فلا.

* * *

العشرون: أنه متقرر عنـدهم أن العبـادات مبناها على الأمـر، فصـار فيه التنبيه على مسائل القـبر: أما (من ربـك؟)، فواضـح، وأما (من نبيـك؟)، فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما (ما دينـك؟)، فمن قـولهم: "اجعل لنا إلهـاً..." إلى آخره.

- **العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبـادات مبناها على الأمر... الخ**"، وهـذا واضـح، فالعبـادات مبناها على الأمـر، فما لم يثبت فيه أمر الشـــارع، فهو بدعـــة، قـــال ﷺ: "**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد**"[1]، وقال: "**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**"[2].

فمن تعبد بعبـادة طـولب بالـدليل، لأن الأصل في العبـادات الحظر والمنع، إلا إذا قام الدليل على مشروعيتها.

وأما الأكل والمعاملات والآداب واللباس وغيرها، فالأصل فيها الإباحـة، إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وقوله: "**مسائل القبر التي يسـأل فيها الإنسـان في قـبره: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟".**

ففي هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أن فيها دليلاً على أن الإنسـان يسـأل في قـبره، بل فيها دليل على إثبـات الربوبية والنبوة والعبادة.

أما "من ربك"، فواضح، يعني أنه لا رب إلا الله تعالى.

وأما "من نبيـك" فمن إخبـاره بـالغيب، قـال ﷺ: "**لتركبن سـنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**"[1]، فوقع كما أخبر.

أما "ما دينـك"، فمن قـولهم: ﴿**اجعل لنا إلهاً**﴾، أي: مألوهـاً معبـوداً، والعبادة هي الدين.

والمؤلف محمد بن عبد الوهـاب رحمه الله فهمه دقيق جـداً لمعـاني النصـوص، فأحيانـاً يصـعب على الإنسـان بيـان وجه اسـتنباط المسـألة من الدليل.

* * *

الحادية والعشـــرون: أن ســـنة أهل الكتـــاب مذمومة كســـنة المشركين. **الثانية والعشرون:** أن المنتقل من الباطل الـذي اعتـاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة، لقوله: "**ونحن حـدثاء عهد بكفر**".

- **الحادية والعشــرون: أن ســنة أهل الكتــاب مذمومة كســنة المشــركين،** تؤخذ من قولــه: "**كما قــالت بنو إســرائيل لموسى**".
- **الثانية والعشـــرون: أن المنتقل من الباطل الـــذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكـون في قلبه بقية من تلك العبـادة،**

---

[1] مسلم: كتاب الأقضية/ باب نقض الأحكام الباطلة.
[2] مسند الإمام أحمد (4/126)، وسنن أبي داود: كتاب السنة/ باب لزوم السنة، 5/13، والترمذي: العلم/ باب الأخذ بالسنة، رقم 2678 - وقال: "حسن صحيح".
[1] تقدم (ص 192).

وهذا صحيح، فالإنسان المنتقل من شيء، سواء كان باطلاً أو لا، لا يؤمن أن يكـون في قلبه بقية منـه، وهـذه البقية لا تـزول إلا بعد مـدة ، لقـول: "ونحن حدثاء عهد بكفر"، فكأنه يقول: ما سـألناه إلا لأن عنـدنا بقية من بقايا الجاهلية، ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلـده عن مكـان الجريمة، لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن مواطن الكفر والشرك والفسـوق، حـتى لا يقع في قلبه شيء منها.

* * *

باب ما جاء في الذبح لغير الله

قوله: "**في الذبح**"، أي: ذبح البهائم.

قوله: "**لغير الله**"، اللام للتعليل، والقصد: أي قاصداً بذبحه غير الله، والذبح لغير الله ينقسم إلى قسمين:

1- أن يذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

2- أن يذبح لغير الله فرحاً وإكراماً، فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التي قد تكون مطلوبة أحياناً وغير مطلوبة أحياناً، فالأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول.

فلو قدم السلطان إلى بلد، فذبحنا له، فإن كان تقرباً وتعظيماً، فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها.

أما لو ذبحنا له إكراماً وضيافة، وطبخت، وأكلت، فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك.

وقوله: "**لغير الله**" يشمل الأنبياء، والملائكة، والأولياء، وغيرهم، فكل من ذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً، فإنه داخل في هذه الكلمة بأي شيء كان.

وقوله في الترجمة: "**باب ما جاء في الذبح لغير الله**"، أشار إلى الدليل دون الحكم، ومثل هذه الترجمة يترجم بها العلماء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيها تفصيل، وأما الأمور التي يجزمون بها، فإنهم يقولونها بالجزم، مثل باب وجوب الصلاة، وباب تحريم الغيبة، ونحو ذلك.

والمؤلف رحمه الله تعالى لا شك أنه يرى تحريم الذبح لغير الله على سبيل التقرب والتعظيم، وأنه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرن الطالب على أخذ الحكم من الدليل، وهذا نوع من التربية العلمية، فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحاً، ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب، فيحكم به على حسب ما سيق له من هذه الأدلة، وقد ذكر المؤلف في هذا الباب ثلاث آيات:

* * *

وقول الله تعالى: ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له**﴾ الآية [الأنعام: 162-163].

الآية الأولى: قوله: ﴿**قل**﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل لهؤلاء المشركين معلناً لهم قيامك بالتوحيد الخالص، لأن هذه السورة مكية.

قوله: ﴿**إن صلاتي**﴾، الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: عبادة الله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿**ونسكي**﴾، النسك لغة: العبادة، وفي الشرع: ذبح القربان.

فهل تحمل هذه الآية على المعنى اللغوي أو على المعنى الشرعي؟

سبق أن ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية، كما أن ما جاء في لسان العرف، فهو محمول على الحقيقة العرفية وفي لسان العرب على الحقيقة اللغوية.

فعندما أقول لشخص: عندك شـاة؟ يفهم الأنـثى من الضـأن، لكن في اللغة العربية الشـاة تطلق على الواحـدة من الضـأن والمعـز، ذكـراً كـان أو أنثى، وعلى هذا، فيحمل النسك في الآية على المعنى الشرعي.

وقيــل: تحمل على المعــنى اللغــوي، لأنه أعم، فالنسك العبــاة، كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله، وهذا عام للدعاء والتعبد.

وإذا حملت على المعـــنى الشـــرعي، صـــارت خاصة في نـــوع من العبـادات، وهي: الصـلاة، والنسـك، ويكـون هـذا كمثـال، فـإن الصـلاة أعلى العبادات البدنية، والذبح أعلى العبـادات الماليـة، لأنه على سـبيل التعظيم لا يقع إلى قربة، هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة.

ويحتــاج إلى مناقشة في مســألة أن القربــان أعلى أنــواع العبــادات المالية، فإن الزكاة لا شك أنها أعظم، وهي عبادة مالية.

وهنــاك رأي ثــالث يقــول: إن الصــلاة هي الصــلاة المعروفة شــرعاً، والنسك: العبادة مطلقاً، ويكون ذلك من عطف العام على الخاص.

قولــه: ﴿**محيــاي وممــاتي**﴾، أي: حيـاتي ومـوتي، أي: التصـرف في وتدبير أمري حياً وميتاً لله.

وفي قوله: ﴿**صلاتي ونسكي**﴾ إثبات توحيد العبادة.

وفي قوله: ﴿**محياي ومماتي**﴾ إثبات توحيد الربوبية.

قوله: ﴿**لله**﴾، خبر إن، والله: علم على الـذات الإلهيـة، وأصـله: الإلـه، فحذفت الهمزة، لكثرة الاستعمال تخفيفاً.

وهو بمعـنى مـألوه، فهو فعـال بمعـنى مفعـول، مثل غـراس بمعـنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، والمألوه: المحبوب المعظم.

قوله: ﴿**رب العالمين**﴾ ، المراد بـ ﴿**العالمين**﴾: ما سوى الله، وسمي بذلك، لأنه علم على خالقه.

قال الشاعر:

فواعجبــاً كيف يعصى الإله أم كيف يجحـــــــده الجاحد
وفى كل شـــــــــيء له آية تـــــــــــــدل على أنه واحد

وهي تطلق على العــالمين بهـذا المعــنى، وتطلق على العــالمين في وقت معين، مثل قوله تعالى: ﴿**وأني فضلتكم على العـالمين**﴾ [البقــرة: 47]، يعني: عالمي زمانهم.

والرب هنا: المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة.

الآية الثانية: قوله: ﴿**لا شريك له**﴾، الجملة حالية من قولـه: ﴿**الله**﴾، أي: حال كونه لا شريك له، والله - سبحانه - لا شــريك له في عبادته ولا في ربوبيته ولا أسمائه وصـفاته، ولهـذا قـال تعـالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورى: 11].

وقد ضل من زعم أن لله شركاء كمن عبد الأصنام أو عيسى بن مريم عليه السـلام، وكـذلك بعض غلاة الشـعراء الـذين جعلـوا المخلـوق بمنزلة الخالق، كقول بعضهم يخاطب ممدوحاً له:

فكن كمن شئت يا من لا شبيه له وكيف شئت فما خلق يدانيك

وكقول البوصيري في قصيدته في مدح الرسول ﷺ:

سـواك عند حلـول الحـادث العمم — يا أكـــرم الخلق ما لي من ألـــــــــــــــــــــوذ به
فضـــــلاً وإلا فقل يا زلة القــــدم — إن لم تكن آخذاً يوم المعـاد يـدي
ومن علومك علم اللــــوح والقلم — فـإن من جـودك الـدنيا وضـرتها

وهذا من أعظم الشرك، لأنه جعل الـدنيا والآخـرة من جـود الرسـول، ومقتضاه أن الله جل ذكره ليس له فيهما شيء.

وقـــال: إن "من علومك علم اللـــوح والقلم"، يعـــنى: وليس ذلك كل علومك، فما بقي لله علم ولا تدبير - والعياذ بالله -.

قوله: ﴿**بذلك**﴾، الجار والمجـرور متعلق بـــ ﴿**أمرت**﴾، فيكـون دالاً على الحصر والتخصـيص، وإنما خص بـذلك، لأنه أعظم المـأمورات، وهو الإخلاص لله تعـالى ونفي الشـرك، فكأنه ما أمر إلا بهـذا، ومعلـوم أن من أخلص لله تعالى، فسيقوم بعبادة الله - سبحانه وتعالى - في جميع الأمور.

قولـه: ﴿**أمـرت**﴾، إبهـام الفاعل هنا من بـاب التعظيم والتفخيم، وإلا، فمن المعلوم أن الآمر هو الله تعالى.

قولـه: ﴿**وأنا أول المسـلمين**﴾، يحتمل أن المـراد الأولية الزمنيـة، فيتعين أن تكـون أولية إضـافية ويكـون المـراد أنا أول المسـلمين من هـذه الأمة، لأنه سبقه في الزمن من أسلموا.

ويحتمل أن المراد الأولية المعنوية، فإن أعظم النـاس إسـلاماً وأتمهم انقياداً هو الرسول ﷺ، فتكون الأولية أولية مطلقة.

ومثل هذا التعبير يقع كثيراً أن تقع الأولية أولية معنوية، مثل أن تقول: أنا أول من يصدق بهذا الشيء، وإن كان غيرك قد صدق قبلك، لكن تريد أن أسـبق النـاس تصـديقاً بـذلك، ولن يكـون عنـدك إنكـاراً أبـداً، ومثل قوله ﷺ: "**نحن أولى بالشك من إبراهيم حينما قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾** [البقرة: 260]"[1]، فليس معناه أن إبراهيم شاك، لكن إن قدر أن يحصل شك، فنحن أولى بالشك منه وإلا، فلسنا نحن شاكين، وكذلك إبراهيم ليس شاكاً.

قوله: ﴿**المسلمين**﴾، الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمـان، لأن المـراد به الاستسلام لله ظاهراً وباطناً، ويدل لذلك قوله تعـالى: ﴿**بلى من أسـلم وجهه لله**﴾ [البقرة: 112]، وهذا إسلام الباطن.

وقوله: ﴿**وهو محسن**﴾، هذا إسلام الظاهر، وكـذا قوله تعـالى: ﴿**ومن يبتغ غــير الإســلام دينــاً فلن يقبل منه**﴾ [آل عمــران: 85] يشــمل الإسلام البـاطن والظـاهر، وإذا ذكر الإيمـان دخل فيه الإسـلام، قـال تعـالى: ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنـات جنـات تجـري من تحتها الأنهـار**﴾ [التوبة: 72].

ومتى وجد الإيمان حقاً لزم من وجوده الإسلام.

وأما إذا قرنا جميعـاً صـار الإسـلام في الظـاهر والإيمـان في البـاطن، مثل حديث جبريل، وفيه: أخبرني عن الإسلام، فـأخبره عن أعمـال ظـاهرة، وأخبرني عن الإيمان، فأخبره عن أعمال باطنة[2].

---

[1] البخاري: كتاب الأنبياء/ باب قوله تعالى ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾، ومسلم: كتاب الفضائل/ باب من فضائل إبراهيم عليه السلام.

[2] البخاري: كتاب الإيمان/ باب سؤال جبريل النبي ﷺ...، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الإيمان والإسلام والإحسان.

وكـذا قوله تعـالى: ﴿**قـالت الأعـرب آمنـاً قل لم تؤمنـوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ [الحجرات: 14].

والشاهد من الآية التي ذكرها المؤلـف: أن الـذبح لابد أن يكن خالصـاً لله.

الآية الثالثة: قوله: ﴿**فصل**﴾، الفاء للسـببية عاطفة على قولـه: ﴿**إنا أعطينـاك الكـوثر**﴾ [الكـوثر: 1]، أي: بسـبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكراً لله تعالى على هذه النعمة.

والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعاً.

وقولـه: ﴿**وانحر**﴾، المـراد بـالنحر: الـذبح، أي اجعل نحـرك لله كما أن صلاتك له، فأفادت هذه الآية الكريمة أن النحر من العبادة ولهـذا أمر الله به وقرنه بالصلاة.

وقولـــه: ﴿**وانحر**﴾، مطلـــق، فيـــدخل فيه كل ما ثبت في الشـــرع مشـروعيته، وهي ثلاثة أشـياء: الأضـاحي، والهـدايا والعقـائق، فهـذه الثلاثة يطلب من الإنسان أن يفعلها.

أما الهـدايا، فمنها واجب، ومنها مسـتحب، فـالواجب كما في التمتـع: ﴿**فمن تمتع بـالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهـدي**﴾ [البقـرة: 196] وكما في حلق الرأس: ففدية من صـيام أو صـدقة أو نسـك، وكما في المحصر: ﴿**فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى**﴾ [البقرة: 196]، هذا إن صح أن نقول: إنها هدي، ولكن الأولى أن نسـميها فدية كما سـماها الله - عز وجل ـ، لأنها بمنزلة الكفارة.

وأما الأضاحي، فاختلف العلماء فيها:

فمنهم من قال: إنها واجبة.

ومنهم من قال: إنها مستحبة.

وأكثر أهل العلم على أنها مستحبة، وأنه يكره للقادر تركها.

ومـذهب أبي حنيفة رحمه الله أنها واجبة على القـادر، واختـاره شـيخ الإسلام ابن تيمية.

والأضحية ليست عن الأموات كما يفهمه العـوام، بل هي للأحيـاء، وأما الأمـوات، فليس من المشـروع أن يضـحى لهم اسـتقلالاً، إلا إن أوصـوا بـه، فعلى ما أوصوا به لأن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ.

وأما العقيقة: وهي التي تذبح عن المولود في يوم سابعه إن كان ذكراً فاثنتان ، وإن كان أنثى فواحدة، وتجزئ الواحدة مع الإعسار في الذكور.

وهي سنة عند أكثر أهل العلم، وقال بعض أهل العلم: إنها واجبـة، لأن النبي ﷺ قال: "﴿**كل غلام مرتهن بعقيقته**"[1].

* * *

عن علي رضي الله عنـه، قـال: "**حـدثني رسـول الله ﷺ بـأربع كلمات:**

قوله: "**كلمات**": جمع كلمـة، والكلمة في اصـطلاح النحـويين: القـول المفرد.

أما في اللغـة، فهي كل قـول مفيـد، قـال الرسـول ﷺ: "**أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شـيء ما خلا الله باطل**"[2]، وقـال تعـالى: ﴿**كلا**

---

[1] مسند الإمام أحمد (5/7)، والترمذي: كتاب الأضحية/ باب في العقيقة - وقال: "حديث حسن صحيح"، وصححه الألباني في الإرواء، 4/385.

[2] البخاري: كتاب الأدب/ باب ما يجوز من الشعر والرجز، ومسلم: في أوائل كتاب الشعر.

إنها كلمة هو قائلها، وهي قوله: **رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت** [المؤمنون: 99-100].

قال شيخ الإسلام: لا تطلق الكلمة في اللغة العربية إلا على الجملة المفيدة.

* * *

لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غير منار الأرض" رواه مسلم[1].

قوله: "**لعن الله**"، اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإذا قيل: لعنه الله، فالمعنى: طرده وأبعده عن رحمته، وإذا قيل: اللهم العن فلاناً، فالمعنى أبعده عن رحمتك واطرده عنها.

قوله: "**من ذبح لغير الله**"، عام يشمل من ذبح بعيراً، أو بقرة، أو دجاجة، أو غيرها.

قوله: "**لغير الله**"، يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جنى، أو غيرهم.

وقوله: "**لعن**" يحتمل أن يكون الجملة خبرية، وأن الرسول يخبر أن الله لعن من ذبح لغير الله، ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر، أي: اللهم العن من ذبح لغير الله، والخبر أبلغ، لأن الدعاء قد يستجاب، وقد لا يستجاب.

قوله: "**والديه**"، يشمل الأب والأم، ومن فوقهما، لأن الجد أب، كما أن أولاد الابن والبنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهم.

والمسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى، لأنه أولى بالبر، ولعنه ينافي البر.

قوله: "**من لعن والديه**"، أي: سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنساناً أو شتمته، فهذا لعنه لأن النبي قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: "**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**"[2].

وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة، وهي: أن السبب بمنزلة المباشرة في الإثم، وإن كان يخالفه في الضمان على تفصيل في ذلك عند أهل العلم.

قوله: "**من آوى محدثاً**"، أي: ضمه إليه وحماه، والإحداث: يشمل الإحداث في الدين، كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة، وغيرهم.

والإحداث في الأمر: أي في شؤون الأمة، كالجرائم وشبهها، فمن آوى محدثاً، فهو ملعون، وكذا من ناصرهم، لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه، فمن ناصره، فهو أشد وأعظم.

والمحدث أشد منه، لأنه إذا كان إيواؤه سبباً للعنة، فإن نفس فعله جرم أعظم.

---

[1] مسلم: كتاب الأضاحي/ باب تحريم الذبح لغير الله.

[2] البخاري: كتاب الأدب/ باب لا يسب الرجل والديه، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر.

ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ: "**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**"[1]، وظاهر الحديث: ولو كان أمراً يسيراً.

قوله: "**منار** الأرض"، أي: علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران، فمن غيرها ظلماً، فهو ملعون، وما أكثر الذين يغيرون منار الأرض، لا سيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أن الرسول ﷺ يقول: "**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً، طوقه من سبع أرضين**"[2] فالأمر عظيم، مع أن هذا الذي يقتطع من الأرض ويغير المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري: قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يسلط عليه آفة تأخذ ما أخذ.

فالحاصل: أن هذا دليل على أن تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه النبي ﷺ بالشرك وبالعقوق وبالإحداث، مما يدل على أن أمره عظيم، وأنه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله - سبحانه وتعالى - حتى لا يقع فيه.

* * *

وعن طارق بن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال: "**دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب**" قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: "**مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء أقربه. قالوا له: قرب ولو ذباباً. فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل. فضربوا عنقه، فدخل الجنة**" رواه أحمد[3].

قوله: "**عن طارق بن شهاب**"

في الحديث علتان:

الأولى: أن طارق بن شهاب اتفقوا على أنه لم يسمع من النبي ﷺ، واختلفوا في صحبته، والأكثرون على أنه صحابي.

لكن إذا قلنا: إنه صحابي، فلا يضر عدم سماعه من النبي ﷺ، لأن مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي، فإنه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف.

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش، وهو من المدلسين، وهذا آفة في الحديث، فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين.

ثم للحديث علة ثالثة، وهي أن الإمام أحمد رواه عن طارق عن سلمان موقوفاً من قوله، وكذا أبو نعيم وابن أبي شيبة، فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل.

قوله: "**في ذباب**"، في: للسببية، وليست للظرفية، أي: بسبب ذباب، ونظيره قول النبي ﷺ: "**دخلت النار امرأة في هرة حبستها**"..." الحديث، أي: بسبب هرة.

---

[1] سبق (ص203).
[2] سبق (ص75).
[3] رواه الإمام أحمد في "الزهد" (ص15 ، 16).

قوله: "**فدخل النار**"، مع أنه ذبح شيئاً حقيراً لا يؤكل، لكن لما نوى التقرب به إلى هذا الصنم، صار مشركاً، فدخل النار.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير ﴿**قل إن صلاتي ونسكي**﴾. **الثانية:** تفسير ﴿**فصل لربك وانحر**﴾. **الثالثة:** البداءة بلعنة من ذبح لغير الله. **الرابعة:** لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

فيه مسائل:

- **الأولى:** تفسير: ﴿**قل إن صلاتي ونسكي**﴾، وقد سبق ذلك في أول الباب.
- **الثانية:** تفسير: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾، وقد سبق ذلك في أول الباب.
- **الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله،** بدأ به، لأنه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد، لأن حق الله أعظم الحقوق، قال تعالى: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً**﴾ [النساء: 36]، وقال تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً**﴾ [الإسراء: 23]، وينبغي أن يبدأ في المناهي والعقوبات بالشرك وعقوبته.
- **الرابعة: لعن من لعن والديه.**

ولعن الرجل للرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبه وشتمه، لأن الرسول ﷺ فسره بقوله: "**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**"[1].

الخامسة: لعن من آوى محدثاً، **السادسة:** لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك من الأرض، فتغيرها بتقديم أو تأخير. **السابعة:** الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

- **الخامسة: لعن من آوى محدثاً،** وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين والجرائم، فمن آوى محدثاً ببدعة، فهو داخل في ذلك، ومن آوى محدثاً بجريمة، فهو داخل في ذلك.
- **السادسة: لعن من غير منار الأرض،** وسواء كانت بينك وبين جارك أو بينك وبين السوق مثلاً، لأن الحديث عام.
- **السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم،** فالأول ممنوع، والثاني جائز، فإذا رأيت من آوى محدثاً، فلا تقل: لعنك الله، بل قل: لعن الله من آوى محدثاً على سبيل العموم، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ لما صار يلعن أناساً من المشركين من أهل الجاهلية بقولك: "**اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً**" نهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون**﴾[1] [آل عمران: 128]، فالمعين ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب

---

[1] سبق (ص 215)

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب قول الله تعالى: ﴿وليس لك من الأمر شيء﴾

الله عليه، إذن يؤخذ هذا من دليل منفصل، وكأن المؤلف رحمه الله قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن، فجاء هـذا الحـديث لاعنـاً للعمـوم، فيبقى الخصوص على أصله، لأن المسلم ليس بالطعان ولا باللعان، والرسـول ليس طعانـــاً ولا لعانـــاً، ولعل هـــذا وجه أخذ الحكم من الحـــديث، وإلا، فالحديث لا تفريق فيه.

* * *

الثامنة: هـذه القصة العظيمـة، وهي قصة الـذباب. **التاسـعة:** كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم.

- **الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الـذباب،** كـأن المؤلف رحمه الله يصـــحح الحـــديث، ولهـــذا بـــنى عليه حكمـــاً، والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.
- **التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الـذباب الـذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم،** هذه المسألة ليست مســلمة، فإن قوله: قـرب ولو ذبابـاً يقتضي أنه فعله قاصـداً التقـرب، أما لو فعله تخلصاً من شرهم، فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب، ولهـذا قـال الفقهـاء: لو أكــره على طلاق امرأته فطلق تبعــاً لقــول المكــره، لم يقع الطلاق، بخلاف ما لو نوى الطلاق، فإن الطلاق يقـع، وإن طلق دفعـاً للإكـراه، لم يقع، وهذا حق لقوله : "**إنما الأعمال بالنيات**"[2].

وظـــــاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقـــــرب، لأن الأصل أن الفعل المبني على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ونحن نــرى خلاف ما يــرى المؤلف رحمه اللــه، أي أنه لو فعله بقصد التخلص ولو ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر، لعمـوم قوله تعـالى: **من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكـــره وقلبه مطمئن بالإيمـــان ولكن من شرح بالكفر صدراً** [النحل: 106]

وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلصاً مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضاً: أنه لا فرق بين القول المكره عليه والفعـل، وإن كـان بعض العلماء يفرق ويقـول: إذا أكـره على القـول لم يكفـر، وإذا أكـره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث صحتها، وفيها نظر من حيث الدلالــة، لما ســبق أن الفعل المبــني على طلب يكــون موافقاً لهذا الطلب.

ولو فرض أن الرجل تقرب بالذباب تخلصاً من شرهم، فإن لدينا: نصاً محكماً في الموضوع، وهو قوله تعالى: **من كفر بالله ...** [النحل: 106] الآيـة، ولم يقـل: بـالقول، فما دام عنـدنا نص قـرآني صـحيح، فإنه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه، فإنها تحمل على النص المحكم.

الخلاصة أن من أكره على الكفر، لم يكن كـافراً ما دام قلبه مطمئنـاً بالإيمان ولم يشرح بالكفر صدراً.

* * *

العاشرة: معرفة قدر الشـرك في قلـوب المؤمـنين، كيف صـبر ذلك على القتل ولم يـــوافقهم على طلبهم مع كـــونهم لم يطلبـــوا إلا العمل الظاهر؟!

---

[2] البخاري: كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب قول النبي : "إنما الأعمال بالنيات".

■ **العاشرة: معرفة قدر الشـرك في قلـوب المؤمـنين.. إلخ،** وقد بينها المؤلف رحمه الله تعالى.

*** مسألة:**

هل الأولى للإنسان إذا أكـره على الكفر أن يصـبر ولو قتـل، أو يوافق ظاهراً ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهراً وباطناً، وهذا لا يجوز لأنه ردة.

ثانيـاً: أن يوافق ظـاهراً لا باطنـاً، ولكن يقصد التخلص من الإكـراه، فهذا جائز.

ثالثـاً: أن لا يوافق لا ظـاهراً ولا باطنـاً ويقتـل، وهـذا جـائز، وهو من الصبر.

لكن أيهما أولى أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهراً؟

فيه تفصيل:

إذا كان موافقة الإكـراه لا يـترتب عليه ضـرر في الـدين للعامـة، فـإن الأولى أن يوافق ظاهراً لا باطناً، لا سيما إذا كان بقاؤه فيه مصـلحة للنـاس، مثل: صاحب المال الباذل فيما نفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حـتى وإن لم يكن فيه مصلحة، ففي بقائه على الإسلام زيادة عمـل، وهو خـير، وهو قد رخص له أن يكفر ظاهراً عند الإكراه، فـالأولى أن يتـأول، ويوافق ظـاهراً لا باطناً.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضـرر على الإسـلام، فإنه يصـبر، وقد يجب الصبر، لأنه من باب الصبر على الجهاد في سبيل اللــه، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شـكى الصـحابة للنـبي ما يجدونه من مضـايقة المشركين، قص عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأن الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد[1] ويصبر، فكأنه يقول لهم: اصبروا على الأذى.

ولو حصل من الصـــحابة رضي الله عنهم في ذلك الـــوقت موافقة للمشركين وهم قلة، لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام.

والإمــام أحمد رحمه الله في المحنة المشــهورة لو وافقهم ظــاهراً، لحصل في ذلك مضرة على الإسلام.

* * *

الحادية عشرة: أن الذي دخل النـار مسـلم، لأنه لو كـان كـافراً، لم يقل: "دخل النار في ذباب". **الثانية عشرة:** فيه شـاهد للحـديث الصـحيح: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك"[2].

■ **الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كـافراً لم يقـل: دخل النـار في ذبـاب،** وهـذا صـحيح، أي أنه كـان مسلماً ثم كفر بتقريبه للصنم، فكان تقريبه هو السبب في دخوله النار.

ولو كان كافراً قبل أن يقرب الذباب، لكان دخوله النار لكفره أولى، لا بتقريبه الذباب.

■ **الثانية عشــرة: فيه شــاهد للحــديث الصــحيح: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنـار مثل ذلـك"**، والغـرض

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب ما لقي النبي وأصحابه.

[2] البخاري: كتاب الرقاق/ باب الجنة اقرب إلى أحدكم من شراك نعله.

من هذا: الـترغيب والـترهيب، فـإذا علم أن الجنة أقـرب إليه من شـراك النعل، فإنه ينشط على السعي، فيقول: ليست بعيـدة، كقوله لما سـئل عما يــدخل الجنة ويباعد من النــار، فقــال: "**لقد سـألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليـه**"[3]**،** والنـار إذا قيل لـه: إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشـية لئلا يـزل فيهلـك، ورب كلمة توصل الإنسـان إلى أعلى علـيين، وكلمة أخـرى توصـله إلى أسـفل سافلين.

- **الثالثة عشـــرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصـــود الأعظم حـتى عند عبـدة الأوثـان،** والحقيقة أن هـذه المسـألة مع التاسعة فيها شبه تناقض، لأنه في هذه المسـألة أحـال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر، فقال: بسبب ذلك الذباب الــذي لم يقصـده بل فعله تخلصـاً من شـرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سـليم، وهنا يقــــول: إن العمل بعمل القلب، ولا شك أن ما قاله المؤلف رحمه الله حق بالنسبة إلى أن المدار على القلب.

والحقيقة أن العمل مركب على القلب، والنـاس يختلفـون في أعمـال القلـوب أكـثر من اختلافهم في أعمـال الأبـدان، والفـرق بينهم قصـداً وذلاً أعظم من الفــرق بين أعمــالهم البدنيــة، لأن من النــاس من يعبد الله لكن عنده من الاستكبار ما لا يذل معه ولا يذعن لكل حق، وبعضـهم يكـون عنـده ذل للحق، لكن عنده نقص في القصد، فتجد عنده نوعاً من الرياء مثلاً.

فأعمـال القلب وأقواله لها أهمية عظيمـة، فعلى الإنسـان أن يخلصـها لله.

وأقوال القلب هي اعتقاداته، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبـه، ورسـله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وأعماله هي تحركاته، كالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل،والاسـتعانة، وما أشبه ذلك.

والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلى سـيرة الرسـول بمعرفة أحواله وأقواله وجهاده ودعوته، هذا مما يعين على جهاد القلب.

ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدنيا.

* * *

---

[3] مسند الإمام أحمد (5/231)، والترمذي: كتاب الإيمان/ باب ما جاء في حرمة الصلاة - وقال: "حسن صحيح".

باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون، ففي الباب السابق ذكر الذبح لغير الله، فنفس الفعل لغير الله.

وفي هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنه في مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحي لله في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه، لأنه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان في قلبك نية سيئة، فتعتقد أن الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر.

* * *

وقول الله تعالى: **لا تقم فيه أبداً** الآية [التوبة: 108].

قوله: **لا تقم فيه**، ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، حيث بني على نية فاسدة، قال تعالى: **والذين اتخذوا مسجداً ضرراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله** [التوبة: 107]، والمتخذون هم المنافقون، وغرضهم من ذلك:

1- مضارة مسجد قباء: ولهذا يسمى مسجد الضرار.

2- الكفر بالله: لأنه يقرر فيه الكفر - والعياذ بالله ـ، لأن الذين اتخذوه هم المنافقون.

3- التفريق بين المؤمنين: فبدلاً من أن يصلي في مسجد قباء صف أو صفان يصلي فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر، والشرع له نظر في اجتماع المؤمنين.

4- الإرصاد لمن حارب الله ورسوله يقال: إن رجلاً ذهب إلى الشام، وهو أبو عامر الفاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات، فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول وأصحابه، قال الله تعالى: **وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى** [التوبة: 107]، فهذه سنة المنافقين: الأيمان الكاذبة.

إن: نافية، بدليل وقوع الاستثناء بعدها، أي: ما أردنا إلا الحسنى، والجواب على هذا اليمين الكاذب: **والله يشهد إنهم لكاذبون** [التوبة: 107].

فشهد الله تعالى على كذبهم، لأن ما يسرونه في قلوبهم ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، فكأن هذا المضمر في قلوبهم بالنسبة إلى الله أمر مشهود يرى بالعين كما قال الله تعالى في سورة المنافقين: **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** [المنافقون: 1].

وقوله: **لا تقم فيه**، لا: ناهية وتقم: مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه السكون، وحذفت الواو، لأنه سكن آخره، والواو ساكنة، فحذفت تخلصاً من التقاء الساكنين.

قوله: **أبداً** إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

قوله: **لمسجد أسس على التقوى**، اللام: للابتداء، ومسجد: مبتدأ، وخبره: قول الله **أحق أن تقوم** فيه، وفي هذا التنكير تعظيم للمسجد، بدليل قوله: **أسس على** التقوى، اللام: للابتداء، ومسجد: مبتدأ،

بدليل قوله: ﴿**أسس على التقوى**﴾ [التوبة: 109]، أي: جعلت التقوى أساساً له، فقام عليه.

وهذه الأحقية ليست على بابها، وهو أن اسم التفضيل يدل على مفضل ومفضل عليه اشتركا في أصل الوصف، لأنه هنا لا حق لمسجد الضرار أن يقام فيه، وهذا (أعني: كون الطرف المفضل عليه ليس فيه شيء من الأصل الذي وقع فيه التفضيل) موجود في القرآن كثيراً، كقوله تعالى: ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً**﴾ [الفرقان: 24].

قوله: ﴿**فيه**﴾، أي: في هذا المسجد المؤسس على التقوى.

قوله: ﴿**يحبون أن يتطهروا**﴾، بخلاف من كان في مسجد الضرار، فإنهم رجس، كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿**سيحلقون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس**﴾ [التوبة: 95].

قوله: ﴿**يتطهروا**﴾، يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل وغير ذلك، وطهارة البدن من الأقذار والنجاسات والأحداث.

قوله: ﴿**والله يحب المطهرين**﴾، هذه محبة حقيقية ثابته لله - عز وجل - تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين، وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته، فيفسرونها إما بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

وقوله: ﴿**المطهرين**﴾ أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعلة تصريفية معروفة.

* **وجه المناسبة من الآية:**

أنه لما كان مسج الضرار مما اتخذ للمعاصي ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، نهى الله ورسوله أن يقوم فيه، مع أن صلاته فيه لله، فدل على أن كل مكان يعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، مع أن صلاته فيه لله، فدل على أن كل مكان يعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، فهذا المسجد متخذ للصلاة، لكنه محل معصية، فلا تقام فيه الصلاة.

وكذا لو أراد إنسان أن يذبح في مكان يذبح فيه لغير الله كان حراماً، لأنه يشبه الصلاة في مسجد الضرار.

وقريب من ذلك النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لأنهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس، فهذا باعتبار الزمن والوقت والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان.

* * *

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ؟ فقال: "**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**". قالوا: لا. قال: "**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**". قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: "**أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**". رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما[1].

قوله: "نذر"، النذر في اللغة: الإلزام والعهد.

واصطلاحاً: إلزام المكلف نفسه لله شيئاً غير واجب.

[1] مسند الإمام أحمد (3/419)، وسنن أبي داود: كتاب الإيمان والنذور/ باب ما يؤمن به من الوفاء بالنذر.

وقال بعضهم: لا نحتاج أن نقيد بغـير واجب، وأنه إذا نـذر الـواجب صح النـذر وصـار المنـذور واجباً من وجهين: من جهة النـذر، ومن جهة الشـرع، ويترتب على ذلك وجوب الكفارة إذا لم يحصل الوفاء.

والنـذر في الأصل مكـروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمـه، لأن النـبي نهى عنـه، وقـال: "**لا يـأتي بخـير، وإنما يسـتخرج به من البخيل**"[2]، ولأنه إلزام لنفس الإنسان لما جعله الله في حل منه، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه.

ولأن الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسـأل العلمـاء يميناً وشـمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها، تجـده ينـذر كأنه يقـول: إن الله لا ينعم عليه بجلب خير أو دفع الضرر إلا بهذا النذر.

قوله: "**إبلاً**" اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قولـه: "**ببوانه**"، البـاء بمعـنى في، وهي للظرفيـة، والمعـنى: بمكـان يسمى بوانه.

قوله: "**هل كـان فيها وثن**"، الـوثن: كل ما عبد من دون اللـه، من شجر، أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت.

والصنم يختص بما صنعه الآدمي.

قوله: "**الجاهلية**"، نسبة إلى ما كـان قبل الرسـالة، وسـميت بـذلك، لأنهم كانوا على جهل عظيم.

قوله: "**يعبد**"، صفة لقوله: "**وثن**"، وهو بيان للواقع، لأن الأوثـان هي التي تعبد من دون الله.

قوله: "**قالوا: لا**"، السـائل واحـد، لكنه لما كـان عنـده نـاس أجـابوا النبي ، ولا مانع أن يكون المجيب غير المسؤول.

قوله: "**عيد**"، العيد: اسم لما يعود أو يتكـرر، والعـود بمعـنى الرجـوع، أي: هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيـداً وإن لم يكن فيه وثن؟ قـالوا: لا. فسـأل النـبي عن أمـرين: عن الشـرك، ووسائله.

فالشـــرك: هل كـــان فيها وثن؟ ووســـائله: هل كـــان فيها عيد من أعيادهم؟

قوله: "**أوف بنذرك**"، فعل أمر مبني على حـذف حـرف العلة اليـاء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنى الحقيقي أو المراد به الإباحة؟

الجـواب: يحتمل أن يــراد به الإباحــة، ويحتمل أن يــراد به المعــنى الحقيقي، فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقي.

وبالنسـبة للمكـان المـراد به الإباحـة، لأنه لا يتعين أن يـذبحها في ذلك المكـان، إذ إنه لا يتعين أي مكـان في الأرض إلا ما تمـيز بفضـل، والمتمـيز بفضل المســاجد الثلاثــة، فــالأمر هنا بالنســبة لنحر الإبل من حيث هو نحر اجب.

---

[2] البخاري: كتاب القدر/ باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، ومسلم: كتاب النذر/ باب النهي عن النذر.

وبالنسبة للمكان، فالأمر للإباحة، بدليل أنه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم، لقال: لا توف، فإذا كان المقام يحتمل النهي والترخيص، فالأمر للإباحة.

وقوله: "**أوف بنذرك**" علل ﷺ ذلك بانتفاء المانع، فقال: "**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**".

قوله: "**لا وفاء**"، لا: نافية للجنس، وفاء: اسمها، لنذر: خبرها.

قوله: "**في معصية الله**"، صفة لنذر، أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله، لأنه لا يتقرب إلى الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال افعلها.

* **أقسام النذر:**

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة، لقوله ﷺ: "**من نذر أن يطيع الله، فليطعه**"[1].

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية، لقوله ﷺ: "**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**"[2]، وقوله: "**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**"[3].

الثالث: ما يجري مجر اليمين، وهو نذر المباح، فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب، فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسمي بهذا الاسم، لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالباً، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلاً، فعلي لله نذر أن أصوم سنة، فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل، فالناذر مخير بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين، لأنه إن صام فقد وفى بنذره، وإن لم يصف حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذي ذكر فيه صيغة النذر، مثل أن يقول: لله علي نذر، فهذا كفارته كفارة يمين كما قال النبي ﷺ: "**كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين**"[1].

- **مسألة: هل ينعقد نذر المعصية؟**

الجواب: نعم، ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: "**من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**"[2]، ولو قال: من نذر أن يعصي الله فلا نذر له، لكان لا ينعقد، ففي قوله: "**فلا يعصه**" دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

وإذا انعقد: هل تلزمه كفارة أو لا؟

اختلف في ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبي ﷺ: "**لا وفاء لنذر في معصية الله**"[3].

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان والنذور/ باب النذر في الطاعة.
[2] البخاري: كتاب الإيمان والنذور/ باب النذر في الطاعة.
[3] مسلم: كتاب النذر/ باب لا وفاء لنذر في معصية الله.
[1] رواه ابن ماجة والترمذي وصححه، وأصله في مسلم.
[2] تقدم (ص 232).
[3] تقدم (ص 232).

وبقوله : "**ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**"، ولم يذكر النبي كفارة، ولو كانت واجبة، لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفارة، وهو المشهور من المذهب، لأن الرسول ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفارته كفارة يمين[4] وكون الأمر لا يذكر في حديث لا يقتضي عدمه، فعدم الذكر ليس ذكراً للعدم، نعم، لو قال الرسول: لا كفارة، صار في الحديثين تعارض، وحينئذ نطلب الترجيح، لكن الرسول لم ينف الكفارة، بل سكت، والسكوت لا ينافي المنطوق، فالسكوت وعدم الذكر يكون اعتماداً على ما تقدم، فإن كان الرسول قاله قبل أن ينهى هذا الرجل، فاعتماداً عليه لم يقله، لأنه ليس بلازم أن كل مسألة فيها قيد أو تخصيص يذكرها الرسول عند كل عموم، فلو كان يلزم هذا، لكانت تطول السنة، لكن الرسول إذا ذكر حديثاً عاماً وله ما يخصصه في مكان آخر حمل عليه، وإن لم يذكره حين تكلم بالعموم.

وأيضاً من حيث القياس لو أن الإنسان اقسم ليفعلن محرماً، وقال: والله، لأفعلن هذا الشيء وهو محرم، فلا يفعله، ويكفر كفارة يمين، مع أنه أقسم على فعل محرم، والنذر شبيه بالقسم، وعلى هذا، فكفارته كفارة يمين، وهذا القول أصح.

وقوله: "**ولا فيما لا يملك ابن آدم**" الذي لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين:

الأول: ما لا يملك فعله شرعاً، كما لو قال: لله على أن أعتق عبد فلان، فلا يصح لأنه لا يملك إعتاقه.

الثاني: ما لا يملك فعله قدراً كما لو قال: لله عليّ نذر أن أطير بيدي فهذا لا يصح لأنه لا يملكه والفقهاء رحمهم الله يمثلون بمثل هذا للمستحيل

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير قوله: **لا تقم فيه أبداً**. **الثانية:** أن المعصية تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة. **الثالثة:** رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة، ليزول الأشكال.

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير قوله تعالى: لا تقم فيه أبداً**، وقد سبق ذلك في أول الباب.
- **الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة**، أي: لما كانت هذه الأرض مكان شرك، حرم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين.

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة، فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، لا يكون الإنسان متشبهاً بهذا العمل، بخلاف الذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك، لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان.

وكذا الطاعة تؤثر في الأرض، ولهذا ، فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد.

---

[4] تقدم (ص 232).

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال، فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل لكن الرسول بين ذلك بالاستفصال.

* * *

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك. **الخامسة:** أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع. **السادسة:** المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله.

* * *

- **الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك،** لأن النبي استفصل، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الجواب: لا يجب إلا إذا وجد الاحتمال، لأننا لو استفصلنا في كل مسألة، لطال الأمر.

فمثلاً: لو سألنا سائل عن عقد بيع لم يلزم أن نستفصل عن الثمن: هل هو معلوم؟ وعن المثمن: هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلقاً أو غير معلق؟ وهل كان ملكاً للبائع؟ وكيف ملكه؟ وهل انتفت موانعه أو لا؟.

أما إذا وجد الاحتمال، فيجب الاستفصال، مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت وأخ وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ: هل هو شقيق أو لأم؟ فإن كان لأم، سقط، وأخذ الباقي العم، وإلا، سقط العم، وأخذ الباقي الأخ.

- **الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع،** لقوله: "**أوف بنذرك**"، وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة.

فالواقعة: أن يكون فيها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية.

والمتوقعة: أن يخشى من الذبح في هذا المكان تعظيمه، فإذا خشي، كان ممنوعاً، مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز، لكن لو خشي أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزية، كان ممنوعاً.

- **السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله،** لقوله: "**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟**"**،** لأن "كان" فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باقٍ، لأنه ربما يعاد.

* * *

السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله. **الثامنة:** أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية. **التاسعة:** الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم، ولو لم يقصده. **العاشرة:** لا نذر في معصية.

- **السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله،** لقوله: "**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**"**.**
- **الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية،** لقوله: "**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**".
- **التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده،** وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول

التشــبه لا يشــترط فيه القصــد، فإنه يمنع منه ولو لم يقصــده، لكن مع القصد يكون أشد إثماً، ولهذا قال شـيخ الإسـلام محمد عبد الوهـاب: ولو لم يقصده.

- **العاشرة: لا نـذر في معصـية اللـه،** هكـذا قـال المؤلـف، ولفظ الحديث المذكور: "**لا وفاء لنذر**"، وبينهما فرق.

فإذا قيل لا نذر في معصية، فـالمعنى أن النـذر لا ينعقـد، وإذا قيـل: لا وفاء، فالمعنى أن النذر ينعقد، لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا وبهذا.

لكن: "**لا نـــذر**" يحمل على أن المـــراد لا وفـــاء لنـــذر، لقوله في الحديث الصحيح: "**ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**"[1]

* * *

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

- **الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك**، يقــال فيه ما قيل في: لا نذر في معصية.

والمعــنى: لا وفــاء لنــذر فيما لا يملك ابن آدم، ويشــتمل ما لا يملكه شرعاً، وما لا يملكه قدراً.

* * *

[1] تقدم (ص 232)

باب من الشرك النذر لغير الله

النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علي نذر، أو لهذا القبر علي نذر، أو لجبريل علي نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك.

والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية ، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله على نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله، فيكون النذر والمنذور معصية، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرم، والحلف بغير الله، فالحلف بغير الله مثل: والنبي، لأفعلن كذا وكذا، ونظيره النذر لغير الله، والحلف بالله على محرم، مثل: والله، لأسرقن، ونظيره نذر المعصية، وحكم النذر لغير الله شرك، لأنه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة، فقد صرفها لغير الله، فيكون مشركاً.

وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقاً، ولا تجب فيه كفارة، بل هو شرك تجب التوبة منه، كالحلف بغير الله فلا ينعقد وليس فيه كفارة.

وأما نذر المعصية، فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين، كالحلف بالله على المحرم ينعقد، وفيه كفارة.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

* * *

وقول الله تعالى: **يوفون بالنذر** [الإنسان: 7]

- **الأولى: قوله: يوفون بالنذر**، هذه الآية سيقت لمدح الأبرار، **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً** [الإنسان: 5].

ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبادة، لأن الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عباده.

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى: **وليوفوا نذورهم** [الحج: 29]، لكان أوضح، لأن قوله: **وليوفوا نذورهم** أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة، لأن العبادة ما أمر به شرعاً.

وجه استدلال المؤلف بالآية على أن النذر لغير الله من الشرك: أن الله تعالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سبباً يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك.

* * *

وقوله: **وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه** [البقرة: 270].

- **الآية الثانية قوله: وما أنفقتم.**

ما: شرطية، و**أنفقتم**: فعل الشرط، وجوابه: **فإن الله يعلمه**.

قوله: **من نفقة**، بيان لـ **ما** في قوله: **ما أنفقتم**، **والنفقة:** بذل المال، وقد يكون في الخير، وقد يكون في غيره.

قوله: **أو نذرتم**، معطوف على قوله: **وما أنفقتم**.

قوله **فإن الله يعلمه**، تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء، إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه، وترتب

الجزاء عليه يدل على أنه من العبادة التي يجازى الإنسـان عليهـا، وهـذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية.

* * *

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنهـا، أن رسـول الله قال: "من نذر أن يطيع الله، فليطعه، ومن نـذر أن يعصي اللـه، فلا يعصه"[1].

قوله: "**وفي الصحيح**"، سبق الكلام على مثل هـذا التعبـير في بـاب تفسير التوحيد (ص 146).

قوله: "**من نذر**"، جملة شرطية تفيد العموم، وهل تشمل الصغير؟

قال بعض العلماء: تشمله، فينعقد النذر منه.

وقيل: لا تشمله، لأن الصغير ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام، وبنـاء على هذا يخرج الصغير من هذا العموم، لأنه ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام.

قولـه: "**أن يطيع الله**"، الطاعـة: هي موافقة الأمـر، أي: توافق الله فيما يريد منك إن أمرك، فالطاعة فعل المأمور به، وإن نهاك، فالطاعة ترك المنهي عنه، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة.

أما إذا قيـل: **طاعة ومعصـية،** فالطاعة لفعل الأوامـر، والمعصـية لفعل النواهي.

قوله: "**فليطعه**"، الفاء واقعة في جواب الشرط، لأن الجملة إنشائية طلبية، واللام لام الأمر.

وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كـانت الطاعة المنـذورة جنسـها واجب، كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب، كتعليم العلم وغيره.

وقال بعض أهل العلم: لا يجب الوفاء بالنـذر إلا إذا كـان جنس الطاعة واجباً، وعموم الحديث يرد عليهم.

وظاهر الحديث أيضاً يشمل من نذر طاعة نذراً مطلقاً ليس له سبب، مثل: "لله علي أن أصوم ثلاثة أيام".

ومن نذر نذراً معلقاً، مثل: إن نجحت، فلله علي أن صوم ثلاثة أيام.

ومن فرق بينهما، فليس يجيد لأن الحديث عام.

وأعلم أن النذر لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنما يسـتخرج به من البخيل[1]، ولهذا نهى عنه النـبي ، وبعض العلمـاء يحرمـه، وإليه يميل شـيخ الإسلام ابن تيمية للنهي عنـه، ولأنك تلـزم نفسك بـأمر أنت في عافية منـه، وكم من إنسان نذر وأخيراً ندم، وربما لم يفعل.

ويدل لقوة القول بتحريم النـذر قوله تعـالى: **وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن** [النور: 53]، فهـذا الـتزام مؤكد بالقسم فيشبه النذر.

قـال الله تعـالى: **قل لا تقسـموا طاعة معروفة** [النـور: 53]، أي: عليكم طاعة معروفة بـدون يمين، والإنسـان الـذي لا يفعل الطاعة إلا بالنذر، أو حلف على نفسه يعني أن الطاعة ثقيلة عليه.

ومما يدل على قوة القول بالتحريم أيضاً خصوصاً النـذر المعلـق: أن النادر كأنه غير واثق بالله - عز وجل ـ، فكأنه يعتقد أن الله لا يعطيه الشـفاء إلا إذا أعطاه مقابلة، ولهذا إذا أيسوا من البرء ذهبوا ينذرون، وفي هذا سـوء ظن بالله- عز وجل -.

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان والنذور/ باب النذر في الطاعة.

[1] تقدم (ص 229).

والقول بالتحريم قول وجيه.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به؟

فالجواب: أننا لا نقول: إن الوفاء هو المحرم حتى يقال: إننا هدمنا النص، إنما نقول: المحرم أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه، فالعقد ابتدائي، والوفاء في ثاني الحال تنفيذ لما نذر.

قوله: "**ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**"، لا: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حراماً، فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه، لأن المعصية الوقوع فيما نهي عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلى قسمين: منهي عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تنزيه.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر. **الثانية:** إذا ثبت كونه عبادة لله، فصرفه إلى غير الله شرك. **الثالثة:** أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

فيه مسائل:

- **الأولى: وجوب الوفاء بالنذر،** يعني: نذر الطاعة فقط، لقوله: "**من نذر أن يطيع الله، فليطعه**"، ولقول المؤلف في المسألة الثالثة: إن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.
- **الثانية: إذا ثبت كونه عبادة، فصرفه إلى غير الله شرك،** وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأي فعل كان عبادة، فصرفه لغير الله شرك.
- **الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به،** لقوله ﷺ: "**من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**".

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

قولـــه: "**من الشـــرك**"، من: للتبعيض، وهـــذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه، فإنه جائز، كالإستعانة.

* * *

وقول الله تعالى: **وأنه كان رجـال من الإنس يعـوذون برجـال من الجن فزادوهم رهقاً** [الجن: 6].

قوله تعالى: **وأنه كان رجال من الإنس**، الواو: حـرف عطـف، و أن: فتحت همزتها بسبب عطفها على قوله: **أنه استمع نفر من الجن** .

قال ابن مالك:

وهمز إن افتح لسد مصدر مسدها وفي سوى ذاك اكسر

فيؤول بمصدر، أي: قل أوحي إلى استماع نفر وكون رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن.

قوله: **من الإنس**، صـفة لرجـال، لأن رجـال نكـرة، وما بعد النكـرة صفة لها.

قوله: **يعوذون**، الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به ولاذ به، فالعياذ مما يخاف، واللياذ فيما يؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحة، ولا يصلح ما قاله إلا لله:

يا من ألوذ بـه فيمـــا أأملـــه ومن أعـوذ بـه ممـا أحاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

قولــــه: **يعـــوذون برجـــال من الجن**، أي: يلتجئـــون إليهم مما يحاذرونه، يظنون أنهم يعيذونهم، ولكن زادوهم رهقاً، أي: خوفاً وذعراً، وكان العرب في الجاهلية إذا نزلوا في واد نادوا بأعلى أصواتهم: أعـوذ بسـيد هـذا الوادي من سفهاء قومه.

قولـه: **رهقاً**، أي: ذعـراً وخوفـاً، بل الرهق أشد من مجـرد الـذعر والخـوف، فكـأنهم مع ذعـرهم وخـوفهم أرهقهم وأضـعفهم شـيء، فالـذعر والخوف في القلوب والرهق في الأبدان.

وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام، لأنها لا تفيد المستعيذ، بل تزيده رهقاً، فعقب بنقيض قصده، وهذا ظاهر، فتكون الـواو ضـمير الجن والهاء ضمير الإنس.

وقيل: إن الإنس زادوا الجن رهقاً، أي: استكباراً وعتواً، ولكن الصـحيح الأول.

قوله: **برجال من الجن**، يسـتفاد منه أن للجن رجـالاً، ولهم إنـاث، وربما يجامع الرجل من الجن الأنثى من بني آدم، وكـذلك العكس الرجل من بـني آدم قد يجـامع الأنـثى من الجن، وقد ذكر الفقهـاء الخلاف في وجـوب الغسل بهذا الإجماع.

والفقهاء يقولون في باب الغسل، لو قالت، أن بها جنياً يجامعها كالرجل، وجب عليها الغسل، وأما أن الرجل يجامع الأنثى من الجن، فقد قيل ذلك، لكن لم أره في كلام أهل العلم، وإنما أساطير تقال، والله أعلم.

لكن علينا أن نصدق بوجودهم، وأنهم مكلفون، وبأن منهم الصالحين ومنهم دون ذلك، وبأن منهم المسلمين والقاسطين، وبأن منهم رجالاً ونساء.

وجه الاستشهاد بالآية: ذم المستعيذين بغير الله، والمستعيذ بالشيء لا شك أنه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهذا نوع من الشرك.

* * *

وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله يقول:

"من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك" رواه مسلم[1]

قوله: "**كلمات**"، من جموع القلة، لأنه جمع مؤنث سالم، وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، والكثرة ما فوق ذلك.

وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلى ما لا نهاية له، فيكون جمع القلة والكثرة يتفقان في الابتداء، ويختلفان في الانتهاء.

قال ابن مالك:

أفعلة أفعل ثم فعله ثمت أفعال جموع قله

وبعض ذي بكثرة وضعاً يفي كأرجل والعكس جاء كالصفي

والراجح: أن جموع القلة تدل على الكثرة بالدليل.

و"**كلمات**": جمع قلة دال على الكثرة لوجود الدليل، قال تعالى: **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً** [الكهف: 109].

وأبلغ من هذا قوله تعالى: **ولو أن ما في الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** [لقمان: 27].

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

وقوله: "**من نزل منزلاً**" يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: "**أعوذ**" بمعنى: ألتجئ وأعتصم.

قوله: "**التامات**"، تمام الكلام بأمرين:

1- الصدق في الأخبار.

2- العدل في الأحكام.

قال الله تعالى: **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** [الأنعام: 115].

قوله: "**من شر ما خلق**"، أي: من شر الذي خلق، لأن الله خلق كل شيء: الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه، لأنه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيراً، فكان خيراً.

وعلى هذا تكون "ما" موصولة لا غير، أي: من شر الذي خلق، لأنك لو أولتها إلى المصدرية وقلت: من شر خلقك، لكان الخلق هنا مصدراً يجوز أن

---

[1] مسلم: كتاب الذكر والدعاء/ باب في التعوذ من سوء القضاء.

يراد به الفعل، ويجوز أيضاً المفعول، لكن لو جعلتها اسماً موصلاً تعين أن يكون المراد بها المفعول، وهو المخلوق.

وليس كل ما خلق الله فيه شر، لكن تستعيذ من شره إن كان فيه شر، لأن مخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

1- شر محض، كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهما الله من أجلها، فهي خير.

2- خير محض، كالجنة، والرسل، والملائكة.

3- فيه شر وخير، كالإنس، والجن، والحيوان.

وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر.

قوله: "**لم يضره شيء**"، نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم من شر كل ذي شر من الجن والإنس وغيرهم والظاهر الخفي حتى يرتحل من منزله، لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره، لأنه كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف، فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر.

ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب، فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود مانع، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاء، ويقرأها بعض الناس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصوراً في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه: التسمية عند الجماع، فإنها تمنع ضرر الشيطان للولد، وقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب.

قال القرطبي: وقد جربت ذلك، حتى إني نسيت ذات يوم، فدخلت منزلي ولم أقل ذلك، فلدغتني عقرب.

والشاهد من الحديث: قوله: "**أعوذ بكلمات الله**".

والمؤلف يقول في الترجمة: الاستعاذة بغير الله، وهنا استعاذة بالكلمات، ولم يستعذ بالله، فلماذا؟

أجيب: أن كلمات الله صفة من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على أن كلام الله من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على أن كلام الله من صفاته غير مخلوق، لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي إلى الاستعاذة بها.

ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير الله، أي: أو صفة من صفاته.

وفي الحديث: "**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**"[1]، وهنا استعاذ بعزة الله وقدرته، ولم يستعذ بالله، والعزة والقدرة من صفات الله، وهي ليست مخلوقة.

ولهذا يجوز القسم بالله وبصفاته، لأنها غير مخلوقة.

أما القسم بالآيات، فإن أراد الآيات الشرعية، فجائز، وإن أراد الآيات الكونية، فغير جائز.

أما الاستعاذة بالمخلوق، ففيها تفصيل، فإن كان المخلوق لا يقدر عليه، فهي من الشرك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "**لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة**"، وهذا ليس على إطلاقه، بل مرادهم

---

[1] مسلم: كتاب السلام/ باب استحباب وضع يده على موضع الألم.

مما لا يقدر عليه إلا الله، لأنه لا يعصمك من الشرك الذي لا يقدر عليه إلا الله، سوى الله.

ومن ذلك أيضاً الاستعاذة بأصحاب القبور، فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، فالاستعاذة بهم شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أم بعيداً عنهم.

أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه، فهي جائزة، وقد أشار إلى ذلك الشارح الشيخ سليمان في "تيسير العزيز الحميد"، وهو مقتضى الأحاديث الواردة في "صحيح مسلم" لما ذكر النبي الفتن، قال: "**فمن وجد من ذلك ملجأ، فليعذ به**"[2].

وكذلك قصة المرأة التي عاذت بأم سلمة[3]، والغلام الذي عاذ بالنبي [4]، وكذلك في قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة[5]، وما أشبه ذلك.

وهذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطاع طريق، فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم، فلا شيء فيه.

لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه في الشرك، فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين، وجعلته ملجأ، فهذا شرك، لأن هذا لا يكون إلا الله.

وعلى هذا، فكلام الشيخ رحمه الله في قوله: "إن الأئمة لا يجوزون الاستعاذة بمخلوق" مقيد بما لا يقدر عليه إلا الله، ولولا أن النصوص وردت بالتفصيل لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا: لا يجوز الاستعاذة بغير الله مطلقاً.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية الجن. **الثانية:** كونه من الشرك. **الثالثة:** الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. **الرابعة:** فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره. **الخامسة:** أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية، من كف شر أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك.

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير آية الجن،** وقد سبق ذلك في أول الباب.
- **الثانية: كونه من الشرك،** أي: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل في ذلك.
- **الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك،** وجه الاستشهاد: أن الاستعاذة بكلمات الله لا تخرج عن كونها استعاذة بالله، لأنها صفة من صفاته.
- **الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره،** أي: فائدته، وهي أنه لا يضرك شيء ما دمت في هذا المنزل.
- **الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك،** ومعنى

---

[2] البخاري: كتاب الفتن/ باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، ومسلم: كتاب الفتن/ باب نزول الفتن.

[3] مسلم: كتاب الحدود/ باب حد قطع السارق الشريف وغيره....

[4] مسلم: كتاب الإيمان/ باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده.

[5] مسلم: كتاب الفتن/ باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت.

كلامـه: أنه قد يكـون الشـيء من الشـرك، ولو حصل لك فيه منفعـة، فلا يلـــزم من حصـــول النفع أن ينتفي الشـــرك، فالإنســـان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن، فقد يعيذونك، وهذا شرك مع أن فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً وقصـوراً، وهـذا شـرك مع أن فيه منفعـــة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المـــداحين لملـــوكهم لأجل العطاء، فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين.

قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لا نظير له وكيف شئت فما خلق يدانيك

وفي الحديث فائدة، وهي: أن الشرع لا يبطل أمراً من أمـور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه، ففي الجاهلية كـانوا يسـتعيذون بـالجن، فأبـدل بهـذه الكلمات، وهي: أن يستعيذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

وهـــذه الطريقة هي الطريقة الســـليمة الـــتي ينبغي أن يكـــون عليها الداعية، أنه إذا سد الناس باب الشر، وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول: حرام، ويسكت، بل يقول: هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بـدلاً عنه، وهذا له أمثلة في القرآن والسنة.

فمن القــرآن قوله تعـالى: ﴿**يا أيها الذين آمنـوا لا تقولـوا راعنا وقولوا انظرنا**﴾ [البقرة: 104]، فلما نهاهم عن قول ﴿**راعنا**﴾ ذكر لهم ما يقوم مقامه وهو ﴿**انظرنا**﴾.

ومن الســـــنة قوله ﷺ لمن نهـــــاه عن بيع الصـــــاع من التمر الطيب بالصاعين، والصاعين بالثلاثـة: "**بع الجمع بالدراهم، واشـتر بالـدراهم جنيباً**"[1].

فلما منعه من المحذور، فتح له الباب السليم الذي لا محذور فيه.

* * *

[1] البخاري: كتاب البيوع/ باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل.

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

قولـه: "**من الشـرك**"، من: للتبعيض، فيـدل على أن الشـرك ليس مختصاً بهذا الأمر.

والاستغاثة: طلب الغوث، وهو إزالة الشدة.

وكلام المؤلف رحمه الله ليس على إطلاقـه، بل يقيد بما لا يقـدر عليه المستغاث بـه، إما لكونه ميتـاً، أو غائبـاً، أو يكـون الشـيء مما لا يقـدر على إزالته إلا الله تعالى، فلو استغاث بميت ليـدافع عنه أو بغـائب أو بحي حاضر ليـنزل المطر فهـذا كله من الشـرك ولو اسـتغاث أو بحي حاضر فيما يقـدر عليه كـان جـائزاً، قـال الله تعـالى: ﴿**فاسـتغاثه الـذي من شـيعته على الذي من عدوه**﴾ [القصص: 15].

وإذا طلبت من أحد الغوث وهو قـادر عليـه، فإنه يجب عليك تصـحيحاً لتوحيدك أن تعتقد أنه مجـرد سـبب، وأنه لا تـأثير له بذاته في إزالة الشـدة، لأنك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب، وهذا قادح في كمال التوحيد.

قولـه: "**أو يـدعو غـيره**"، معطـوف على قولـه: "**أن يسـتغيث**"، فيكون المعنى: من الشرك أن يدعو غير الله، وذلك لأن الدعاء من العبـادة، قـال الله تعـالى: ﴿**وقـال ربكم ادعـوني أسـتجب لكم إن الـذين يسـتكبرون عن عبـادتي سـيدخلون جهنم داخـرين**﴾ [غـافر: 60]، ﴿**عبادتي**﴾، أي: دعائي، فسمى الله الدعاء عبادة.

وقال ﷺ: "**إن الدعاء هو العبادة**"[1].

والدعاء ينقسم إلى قسمين:

1- ما يقع عبادة، وهذا صرفه لغير الله شرك، وهو المقرون بالرهبة والرغبة، والحب، والتضرع.

2- ما لا يقع عبـادة، فهـذا لا يجـوز أن يوجه إلى المخلـوق، قـال النـبي ﷺ: "**من دعـاكم فـأجيبوه**"[2]، وقـال: "**إذا دعـاك فأجبه**"[3]، وعلى هـذا، فمـراد المؤلف بقوله "**أو يدعو غـيره**" دعاء العبادة أو دعاء المسألة فيما لا يمكن للمسؤول إجابته.

قولـه: "**أن يسـتغيث**"، أن وما دخلت عليه في تأويل مصـدر مبتـدأ مـؤخر، وخبرها مقـدم، وهو قولـه: من الشـرك، والتقـدير: من الشـرك الاستغاثة بغير الله، والمبتدأ يكون صريحاً ومؤولاً.

فالمبتدأ الصريح مثل: زيد قائم، والمؤول مثل: ﴿**وأن تصـوموا خـير لكم**﴾ [البقرة: 184]، أي: وصومكم خير لكم.

وقولـه: "**أو يـدعو**" هـذا من بـاب عطف العـام على الخـاص، لأن الاستغاثة دعاء بإزالة الشدة فقط، والدعاء عام لكونه لجلب منفعة، أو لدفع مضرة.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدة آيات.

* * *

---

[1] مسند الإمام أحمد (4/267)، والترمذي: الدعوات/ باب الدعاء مخ العبادة، وقال: "حديث حسن صحيح"، والحاكم (1/490) - وصححه ووافقه الذهبي -.

[2] تقدم (ص 110).

[3] تقدم (ص 149)

وقـــول الله تعـــالى: **ولا تـــدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين** [يونس: 106].

- **الآية الأولى قوله: ولا تدع من دون الله.**

ظـاهر سـياق الآية أن الخطـاب للرسـول ، وسـواء كـان خاصـاً به أو عاماً له ولغـيره، فـإن بعض العلمـاء قـال: لا يصح أن يكـون للرسـول ، لأن الرسول يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير قل، وهذا ضعيف جداً، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنه إما خاص بالرسول والحكم له ولغـيره، وإما عـام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول .

وكونه يوجه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكناً منه، قال تعـــالى: **ولقد أوحى إليك وإلى الـــذين من قبلك لئن أشـــركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** [الزمـر: 65]، فالخطـاب له ولجميع الرســل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبــار حاله لا باعتبــار كونه إنســاناً وبشراً.

إذاً، فالحكمة من النهي أن يكـون غـيره متأسـياً بـه، فـإذا كـان النهي موجهـاً إلى من لا يمكن منه باعتبـار حالـه، فهو إلى من يمكن منه من بـاب أولى.

وقولـه: **ولا تـدع من دون الله**، الـدعاء: طلب ما ينفـع، أو طلب دفع ما يضر، وهو نوعان كما قال أهل العلم:

الأول: دعاء عبادة وهو أن يكون قائماً بأمر الله، لأن القائم بأمر الله - كالمصلي، والصـائم، والمـزكي - يريد بـذلك الثـواب والنجـاة من العقـاب، ففعله متضـمن للـدعاء بلسـان الحـال، وقد يصـحب فعله هـذا دعـاء بلسـان المقال.

الثاني: دعاء مسألة، وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضره.

فالأول لا يجوز صرفه لغير الله، والثاني فيه تفصيل سبق.

قوله: **من دون الله**، أي: سوى الله.

قوله: **ما لا ينفعك**، أي: ما لا يجلب لك النفع لو عبدته.

ولا يضـرك: قيـل: لا يـدفع عنك الضـر، وقيـل: لو تـركت عبادته لا يضرك؛ لأنه لا يستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

وقولــه: **ولا تــدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضــرك**، أي: لأنه لا ينفعك ولا يضـرك، وهـذا القيد ليس شـرطاً بحيث يكـون له مفهـوم، فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرك؛ بل هو لبيان الواقع، لأن المـدعو من دون الله لا يحصل منه نفع ولا ضــرر، قــال الله تعـالى: **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يسـتجيب له إلى يـوم القيامة وهم عن دعــائهم غــافلون * وإذا حشر النــاس كــانوا لهم أعــداء وكــانوا بعبادتهم كافرين** [الأحقاف: 5 ، 6].

ومن القيد الــذي ليس بشــرط، بل هو لبيــان الواقع قوله تعــالى: **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والـذين من قبلكم** [البقـرة: 21].

فـإن قولـه: **الـذي خلقكم والـذين من قبلكم** لبيـان الواقـع، إذ ليس هناك رب ثان لم يخلقنا والذين من قبلنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وربائبكم اللاتي في حجوركم**﴾ [النساء: 23]، فهذا بيان للواقع الأغلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ [الأنفال: 24]، فهذا بيان للواقع، إذ دعاء الرسول ﷺ إيانا كله لما يحيينا.

وكل قيد يراد به بيان الواقع، فإنه كالتعليل للحكم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم**﴾ [البقرة: 21]، أي اعبدوه لأنه خلقكم.

وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾، أي: لأنه لا يدعوكم إلا لما يحيكم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك**﴾، أي: لأنه لا ينفعك ولا يضرك، فعلى هذا لا يكون هذا القيد شرطاً، وهذه يسميها بعض الناس صفة كاشفة.

قوله: ﴿**فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين**﴾، أي: إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، والخطاب للرسول ﷺ.

و﴿**إن**﴾: شرطية، وجواب الشرط جملة: ﴿**فإنك إذاً**﴾.

و﴿**إذاً**﴾: أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد، لأن ﴿**إذاً**﴾ للظرف الحاضر، أي: فإنك حال فعله من الظالمين، لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم، فالإنسان قبل الفعل ليس بظالم، وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فع المعصية يكون ظالماً كما قال ﷺ: "**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**"[1]، فنى الإيمان عنه حال الفعل.

ونوع الظلم هنا ظلم شرك، قال الله تعالى: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ [لقمان: 13]، وعبر الله بقوله: ﴿**من الظالمين**﴾، ولم يقل: من المشركين، لأجل أن يبين أن الشرك ظلم، لأن كون الداعي لغير الله مشركاً أمر بين، لكن كونه ظالماً قد لا يكون بيناً من الآية.

* * *

﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو**﴾ الآية [يونس: 107].

- **الآية الثانية قوله: ﴿وإن يمسسك﴾**، أي: يصيبك بضر، كالمرض، والفقر، ونحوه.

قوله: ﴿**فلا كاشف له إلا هو**﴾. ﴿**لا**﴾: نافية للجنس، واسمها: ﴿**كاشف**﴾، وخبرها: ﴿**له**﴾، و﴿**إلا هو**﴾ بدل، وإن قلنا بجواز كون خبرها معرفة صار ﴿**هو**﴾ الخبر.

أي: ما أحد يكشفه أبداً إذا مسك الله بضر إلا الله، وهذا كقول النبي ﷺ: "**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**"[1].

قوله: ﴿**وإن يردك بخير**﴾، هنا قال: ﴿**يردك**﴾، وفي الضر قال: ﴿**يمسسك**﴾ فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟.

الجواب: هناك فرق معنوي، وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة الله، بل تنسب إلى فعله، أي: مفعوله.

---

[1] سبق (ص 66).

[1] مسند الإمام أحمد (1/293) - وصححه أحمد شاكر (2669) ـ، والترمذي: أبواب صفة القيامة/ باب "ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، 7/203 - وقال: "حديث حسن صحيح"ـ.

فالمس من فعل الله، والضر من مفعولاته، فالله لا يريد الضر لذاته، بل يريد لغيره، لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة، وفي الحديث القدسي: "**إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى**"[2].

أما الخير، فهو مارد لله لذاته، ومفعول له، ويقرب من هذا ما في سورة الجن: ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ [الجن: 10].

فإذا أصيب الإنسان بمرض، فالله لم يرد به الضرر لذاته، بل أراد المرض، وهو يضره، لكن لم يرد ضرره، بل أراد خيراً من وراء ذلك، وقد تكون الحكمة ظاهرة في نفس المصاب، وقد تكون ظاهرة في غيره، كما قال تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ [الأنفال: 25].

فالمهم أنه ليس لنا أن نتحجر حكمة الله، لأنها أوسع من عقولنا، لكننا نعلم علم اليقين أن الله لا يريد الضرر لأنه ضرر، فالضرر عند الله ليس مراداً لذاته، بل لغيره، ولا يترتب عليه إلا الخير، أما الخير، فهو مراد لذاته، ومفعول له، والله أعلم بما أراد بكلامه، لكن هذا الذي يتبين لي.

قوله: ﴿**فلا راد لفضله**﴾، أي: لا يستطيع أن يرد فضل الله أبداً، ولو اجتمعت الأمة على ذلك ، وفي الحديث: "**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**" [1].

وعليه، فنعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أن الأمة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل الله، فإنها لا تستطيع.

قوله: ﴿**يصيب به من يشاء**﴾، الضمير إما أن يعود إلى الفضل، لأنه أقرب، أو إلى الخير، لأنه هو الذي يتحدث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

قوله: ﴿**من يشاء**﴾، كل فعل مقيد بالمشيئة، فإنه مقيد بالحكمة، لأن مشيئة الله ليس مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط، لأن من صفات الله الحكمة، ومن أسمائه الحكيم، قال الله تعالى: ﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ [الإنسان: 30].

قوله: ﴿**من عباده**﴾، العبودية هنا عامة، لأن قوله: ﴿**بخير**﴾ يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفار.

قوله: ﴿**وهو الغفور الرحيم**﴾، أي: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يتقى به السهام، والمغفرة فيه ستر ووقاية.

والرحيم، أي: ذو الرحمة، وهي صفة تليق بالله - عز وجل -، تقتضي الإحسان والإنعام.

الشاهد قوله: ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك**﴾ في الآية الأولى، فقد نبه الله نبيه أن من يدعو أحداً من دون الله (أي: من سواه) لا ينفعه ولا يضره.

وقوله في الآية الثاني: ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو**﴾.

---

[2] من حديث أنس، رواه: الطبراني.

[1] البخاري: كتاب صفة الصلاة/باب الذكر بعد الصلاة، ومسلم: كتاب المساجد/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة.

* * *

وقوله: ﴿**فابتغوا عند الله الرزق**﴾ [العنكبوت: 17].

- **الآية الثالثة قوله: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾.**

لو أتى المؤلف بـأول الآيـة: ﴿**إن الـذين تعبـدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً**﴾ لكان أولى، فهم يعبدون هذه الأوثان من شـجر وحجر وغيرها، وهي لا تملك لهم رزقاً أبـداً، لو دعوها إلى يـوم القيامة ما أحضـرت لهم ولا حبة بـر، ولا دفعت عنهم أدنى مـرض أو فقـر، فـإذا كـانت لا تملك الرزق، فالذي يملكه هو الله، ولهذا قال: ﴿**فـابتغوا عند الله الـرزق**﴾، أي: اطلبوا عند الله الرزق، لأنه سبحانه هو الذي لا ينقضي ما عنده، ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾ [النحل: 96]، والرزق هو العطاء كما قال تعالى: ﴿**فارزقوهم منه**﴾.

وقولـه: ﴿**عند الله**﴾: عند اللـه: حـال من الـرزق، وقـدم الحـال مع أن موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصـر، إ إن تقـديم ما حقه التـأخير يفيد الحصر، أي: فابتغوا الرزق حال كونه عند الله لا عند غيره.

قولـه: ﴿**واعبـدوه**﴾، أي: تـذللوا بالطاعـة، لأن العبـادة مـأخوذة من التعبيـد، وهو التـذليل، ومنه قـولهم: طريق معبـد، أي: مـذلل للسـالكين، قد أزيل عنه الأحجار والأشـجار المؤذيـة، لأنكم إذا تـذللتم له بالطاعـة، فهو من أسـباب الـرزق، قـال تعـالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ [الطلاق: 3،4]، فـأمر أن نطلب الـرزق عنـده، ثم أعقبه بقوله: ﴿**واعبدوه**﴾ إشارة إلى أن تحقيق العبادة من طلب الرزق، لأن العابد ما دام يـــؤمن أن من يتق الله يجعل له مخرجـــاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، فعبادته تتضمن طلب الرزق بلسان الحال.

قوله: ﴿**واشكروا له**﴾، إذا أضـاف الله الشـرك له متعـدياً بـاللام، فهو إشارة إلى الإخلاص، أي: واشكروا نعمة الله لله، فاللام هنا لإفـادة الإخلاص، لأن الشاكر قد يشكر الله لبقاء النعم، وهذا لا بأس به، ولكن كونه شــكر لله وتأتي إرادة بقاء النعمة تبعاً هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسروه بأنه: القيام بطاعة المنعم، وقالوا: إنه يكون في ثلاثة مواضع:

1- في القلب، وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من الله، فيرى لله فضلاً عليه بها، قال تعـالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾ [النحل: 53]، وأعظم نعمة هي نعمة الإسـلام، قـال تعـالى: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنـوا على إسـلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان**﴾ [الحجـرات: 17]، وقـال تعالى: ﴿**لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رســولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته.....**﴾ الآية [آل عمران: 164].

2- اللســان، وهو أن يتحــدث بها على وجه الثنــاء على الله والاعـتراف وعـدم الجحـود، لا على سـبيل الفخر والخيلاء والـترفع على عباد الله، فيتحـدث بـالغنى لا ليكسر خـاطر الفقـير، بل لأجل الثناء على الله، وهذا جائز كما في قصة الأعمى من بني إســرائيل لما ذكرهم الملك بنعمة الله، قال "نعم، كنت أعمى فـرد الله علي بصري، وكنت فقيراً فأعطاني الله المال"، فهذا من بـاب التحـدث بنعمة الله.

والنبي تحدث بنعمة الله عليه بالسيادة المطلقـة، فقـال: "**أنا سـيد ولد آدم يوم القيامة**"[1]

3- الجوارح، وهو أن يسـتعملها بطاعة المنعم، وعلى حسب ما يختص بهذه النعمة.

فمثلاً: شكر الله على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلمه الناس.

وشكر الله على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله، وتنفع الناس به.

وشكر الله على نعمة الطعـام: أن تسـتعمله فيما خلق لـه، وهو تغذية البدن، فلا تبني من العجين قصراً مثلاً، فهو لم يخلق لهذا الشيء.

قولــه: **إليه ترجعــون**، الجــار والمجــرور متعلق بـــ**ترجعــون**، وتقديمه دل على الحصــر، أي أن رجوعنا إلى الله - سـبحانه - ، وهو الــذي سيحاســبنا على ما حملنا إيــاه من الأمر بالعبــادة، والأمر بالشــكر، وطلب الرزق منه.

والشــاهد من هــذه الآيــة: **إن الــذين تعبــدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق** [العنكبوت: 17]، فالفقير يسـتغيث بالله لكي ينجيه من الفقـر، والله هو الـذي يسـتحق الشـكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق، فكيف تستغيث بها؟!

* * *

وقولـه: **ومن أضل ممن يـدعو من دون الله من لا يسـتجيب له إلى يوم القيامة** الآية [الأحقاف: 5].

- **الآية الرابعة قوله تعــالى: ومن أضل ، من:** اسم استفهام مبتدأ، و **أضل**: خبره، والاستفهام يراد به هنا النفي، أي لا أحد أضل.

و**أضل**: اسم تفضيل، أي: لا أحد أضل من هذا.

والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح.

وإذا كـان الاسـتفهام مـراد به النفي كـان أبلغ من النفي المجـرد، لأنه يحوله من نفي إلى تحـــد، أي: بين لي عن أحد أضل ممن يــــدعو من دون الله؟ فهو متضمن للتحدي، وهو أبلغ من قولـه: لا اضل ممن يـدعو، لأن هـذا نفي مجرد، وذاك نفي مشرب معنى التحدي.

قوله: **ممن يدعو**، متعلق بأضل، ويـراد بالـدعاء هنا دعـاء المسـألة ودعاء العبادة.

قوله: **من دون الله**، أي: سواه.

قولــه: **من لا يسـتجيب له إلى يــوم القيامة** ،**من**: مفعــول يدعو، أي لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب لـه، قـال الله تعـالى: **إن تدعوهم لا يسمعوا دعـاءكم ولو سـمعوا ما اسـتجابوا لكم ويـوم القيامة يكفرون بشرككم** [فاطر: 14]، والخبر هنا عن الله تعالى، قال تعالى: **ولا ينبئك مثل خبير** [فاطر: 14]، يعني: نفسه سبحانه وتعالى.

وقولـــه: **من لا يســتجيب** أتى بـــ **من**، وهي للعاقـــل، مع أنهم يعبـدون الأصـنام والأحجـار والأشـجار، وهي غـير عاقلـة، لأنهم لما عبـدوها نزلوها منزلة العاقـــل، فخوطبـــوا بمقتضى ما يـــدعون، لأنه أبلغ في إقامة الحجة عليهم في أنهم يـدعو من يـرونهم عقلاء، ومع ذلك لا يسـتجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن، لأنه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقيم الحجة عليـه، إذ

---

[1] مسلم: كتاب الفضائل/ باب تفضيل النبي على جميع الخلائق.

لو قيل: ما لا يستجيب له، لقالوا: هناك عـذر في عـدم الاسـتجابة لأنهم غـير عقلاء.

قوله: **وهم عن دعائهم**، الضمير في قوله: **هم** يعود على **من** باعتبـار المعـنى، لأنهم جماعـة، وضـمير يسـتجيب يعـود على **من** باعتبـار اللفظ، لأنه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ **من**، وجمعه باعتبار المعـنى، لأن **من** تعود على الأصنام، وهي جماعة، و**من** قد يراعى لفظها ومعناها في كلام واحد.

ومنه قوله تعالى: **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً** [الطلاق: 11]، فهنا راعي اللفظ، ثم المعنى، ثم اللفظ.

قوله: **عن دعائهم**، الضمير في دعائهم يعـود إلى المـدعوين، وهل المعـنى: **وهم**، أي: الأصـنام، **عن دعائهم**، أي: دعـاء الـداعين إيـاهم، فيكون من باب إضـافة المصـدر إلى مفعولـه، أو المعـنى: و**هم** عن دعـاء العابدين لهم، فيكون "**دعاء**" مضافاً إلى فاعله، والمفعول محذوف؟

الأول أبلغ، أي عن دعـاء العابـدين إيـاهم أبلغ من دعـاء العابـدين على سـبيل الإطلاق، فـإذا قلت: **عن دعائهم**، أي: عن دعـاء العابـدين إيـاهم، وجعلت الضمير هنا يعود على المدعوين، صار المعنى أن هذه الأصنام غافلة دعوة هـؤلاء إيـاهم، ويكـون هـذا أبلغ في أن هـذه الأصـنام لا تفيد شـيئاً في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: **وإذا حشر الناس**، أي: يوم القيامـة، **كـانوا لهم أعـداء**، هل المعنى: كـان العابـدون للمعبـودين أعـداء، أو كـان المعبـودون للعابـدين أعداء؟

الجواب: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

الشاهد: قوله: **من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**، فـإذا كـان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامـة، فكيف يليق بك أن تسـتغيث به دون الله؟! فبطل تعلق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم.

فالذي يأتي للبدوي أو للدسوقي في مصر، فيقول: المـدد! المـدد! أو: أغثـني، لا يغـني عنه شـيئاً، ولكن قد يبتلي فيأتيه المـدد عند حصـول هـذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين ما يأتي بالشيء وما يأتي عند الشيء.

مثال ذلك: امرأة دعت البـدوي أن تحمـل، فلما جامعها زوجها حملت، وكانت سابقاً لا تحمل، فنقول هنا: إن الحمل لم يحصل بدعاء البـدوي، وإنما حصل عنده لقوله تعالى: **من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**.

أو يأتي للجيلاني في العراق، أو ابن عربي في سـوريا، فيسـتغيث بـه، فإنه لا ينتفع، ولو بقي الواحد منهم إلى يوم القيامة يدعو ما أجابه أحد.

والعجب أنهم في العـراق يقولـون: عنـدنا الحسـين، فيطوفـون قـبره ويسـألونه، وفي مصر كـذلك، وفي سـوريا كـذلك، وهـذا سـفه في العقـول، وضلال في الـدين، والعامة لا يلامـون في الواقـع، لكن الـذي يلام من عنـده علم من العلماء ومن غير العلماء.

* * *

وقوله: **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء** [النمـل: 62].

- **الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿أمن﴾**، أم: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتصلة ما يلي:

1- المنقطعة بمعنى بل، والمتصلة بمعنى أو.

2- المتصلة لا بد فيها من ذكر المعادل، والمتصلة لا يشترط فيها ذكر المعادل.

مثال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالى ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾ متصلة وقوله تعالى: ﴿**أمن يجيب المضطر إذا دعاه**﴾ منقطعة، لأنه لم يذكر لها معادل، فهي بمعنى بل والهمزة.

قوله: ﴿**المضطر**﴾، أصلها: المضتر، أي: الذي أصابه الضرر، قال تعالى: ﴿**وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له**﴾ [الأنبياء: 84]، فلا يجيب المضطر إلا الله، لكن قيده بقوله: ﴿**إذا دعاه**﴾، أما إذا لم يدعه، فقد يكشف الله ضره، وقد لا يكشفه.

قوله: ﴿**ويكشف السوء**﴾، أي: يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة، لأن الإنسان قد يساء بما لا يضره، لكن كل ضرورة سوء.

وقوله: ﴿**ويكشف السوء**﴾ هل هي متعلقة بما قبلها في المعنى، وإنه إذا أجابه كشف سوءه، أو هي مستقلة يجيب المضطر إذا دعاه ثم أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنى الأخير أعم، لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، ومن دعا الله ومن لم يدعه، وعلى التقدير الأول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أعم كان أولى، ويؤيد العموم قوله: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾.

قوله: ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾، الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ [الأنبياء: 105]، وقال تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً**﴾ [النور: 55].

قوله: ﴿**أإله مع الله**﴾، الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي، وهما متقاربان، أي: هل أحد مع الله يفعل ذلك؟!

الجواب: لا، وإذا كان ذلك، فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، وكذلك الدعاء، فالواجب على العبد أن يوجه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل ضرورته ويكشف سوءه وهو لا يستطيع.

* **إشكال وجوابه:**

وهو أن الإنسان المضطر يسأل غير الله ويستجاب له، كمن اضطر إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه، فهل يجوز أم لا؟

الجواب: أن هذا جائز، لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرد سبب لا أنه مستقل، فالله يجعل لكل شيء سبباً، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا

يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يسخره الله ويعطيك.

* * *

روى الطبراني بإسناده[1]: أنه كان في زمن النبي منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق.

قوله: "**بإسناده**"، يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه، فيجب أن يراجع هذا الإسناد فليس كان إسناد محدث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيثمي في "مجمع الزوائد": "إن رجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلط في آخر عمره لاحتراق كتبه"، ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوله: "**في زمن النبي**"، أي: عهده، وكانا لكافر أولاً يعلن كفره ولا يبالي، ولما قوي المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفار، فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قوله: "**منافق**"، المنافق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر.

ولم يسم المنافق في هذا الحديث، فيحتمل أنه عبدالله بن أبي، لأنه مشهور بإيذاء المسلمين، ويحتمل غيره.

واعلم أن أذية المنافقين للمسلمين ليست بالضرب أو القتل، لأنهم يتظاهرون بمحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعريض كما صنعوا في قصة الإفك.

قوله: "**فقال بعضهم**"، أي: الصحابة.

قوله: "**نستغيث**"، أي: نطلب الغوث وهو إزالة الشدة.

قوله: "**من هذا المنافق**"، إما بزجره، أو تعزيره، أو بما يناسب المقام.

وفي الحديث إيجاز حذف دل عليه السياق، أي: فقاموا إلى رسول الله، فقالوا: يا رسول الله! إنها نستغيث بك من هذا المنافق.

* * *

فقال النبي : **إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**

قوله: "**إنه لا يستغاث بي**"، ظاهر هذه الجملة النفي مطلقاً، ويحتمل أن المراد: لا يستغاث به في هذه القضية المعينة.

فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب سد الذرائع والتأدب في اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم، لأن نفي الاستغاثة بالرسول ليس على إطلاقه، بل تجوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه.

أما إذا قلنا: إن النفي عائد إلى القضية المعينة التي استغاثوا بالنبي منها، فإنه يكون على الحقيقة، أي: على النفي الحقيقي، أي: لا يستغاث بي في مثل هذه القضية، لأن النبي كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقاماً ظاهراً، إذ إن المنافقين يستترون، وعلى هذا، فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله.

---

[1] الطبراني في "المعجم الكبير"، كما في "معجم الزوائد" (10/159).

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: أن عطف الــدعاء على الاســتغاثة من عطف العــام على الخاص. **الثانية**: تفسير قولــه: **ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك**. **الثالثة:** أن هذا هو الشرك الأكبر.

فيه مسائل:

- **الأولى: أن عطف الــدعاء على الاســتغاثة من عطف العام على الخاص،** يعني: حيث قال في الترجمة بـاب من الشـرك أن يسـتغيث بغـير الله أو يـدعو غـير، ووجه ذلك في الاسـتغاثة طلب إزالة الشدة والدعاء طلب ذلك وغيره، إذاً الاستغاثة نوع من الـدعاء، والـدعاء أعم، فهو من بــاب عطف العــام على الخــاص، وهــذا ســائغ في اللغة العربية، فهو كقوله تعـالى: **يا أيها الذين آمنـوا اركعـوا واسـجدوا واعبدوا ربكم** [الحج: 77].

- **الثانيــة: تفســير قولــه: ولا تــدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك،** الخطاب في هذه الآية للنبي خاصة، بدليل الآيات التي قبلها، قال تعـالى: **وأن أقم وجهك للدين حنيفـاً ولا تكـونن من المشركين** [يونس: 105].

فإن قيل: كيف ينهاه الله عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعاً؟

أجيب: إن الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك، كأنه يقول: لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهل الضلال، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعاً.

- **الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكـبر،** يؤخذ من قوله تعـالى: **فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين**، مضـافاً إلى قوله تعـالى: **إن الشرك لظلم عظيم** [لقمان: 13].

* * *

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغـيره، صـار من الظـالمين. **الخامسة:** تفسير الآية التي بعدها. **السادسة:** كون ذلك لا ينفع في الــدنيا مع كونه كفراً. **السـابعة:** تفسـير الآية الثالثـة. **الثامنة**: أن طلب الـرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

- **الرابعة: أن أصلح النـاس لو فعله إرضـاء لغـيره، صـار من الظالمين،** تؤخذ من كون الخطاب للرسـول ، وهو أصـلح النـاس، فلو فعل ذلك إرضاء لغـيره، صـار من الظـالمين، حـتى ولو فعله مجاملة لإنسان مشـرك، فـدعا صـاحب قـبر إرضـاء لـذلك المشـرك، فإنه يكـون مشركاً، إذا لا تجوز المحاباة في دين الله.

- **الخامسة تفســير الآية الــتي بعــدها،** وهي قوله تعــالى: **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو......** الآية [الأنعام: 17]، فإن كان لا يكشف الضر إلا الله، وجب أن تكـون العبـادة له وحـده والاستغاثة به وحده.

- **السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفـراً،** تؤخذ من قوله تعـــالى: **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو**، فلا ينتفع من دعائه هذا، فخسر الدنيا بذلك، والآخرة بكفر".

- **السابعة: تفسير الآية الثالثة،** هي قوله تعـالى: ﴿**فـابتغوا عند الله الرزق**﴾. وقوله

وقوله: ﴿**عند الله**﴾ حال من الرزق، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند الله وحده.

- **الثامنة: أن طلب الـرزق لا ينبغي إلا من اللـه، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه، ﴿واعبـدوه واشـكروا له إليه ترجعـون﴾**، لأن العبـادة سـبب لـدخول الجنـة، وقد أشـار الله إلى ذلك بقولـه: ﴿**إليه ترجعون**﴾.

* * ***التاسعة:** تفسير الآية الرابعة. **العاشرة:** أنه لا اضل ممن دعا غير الله. **الحادية عشرة:** أنه غافل عن دعاء لا يدري عنه. **الثانية عشرة:** أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له. **الثالثة عشرة:** تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

- **التاسعة: تفسـير الآية الرابعـة،** وهي قوله تعـالى: ﴿**ومن أضل ممن يـــدعو من دون الله من لا يســـتجيب له إلى يـــوم القيامة**﴾ [الأحقاف: 5].
- **العاشرة: أنه لا اضل ممن دعا غير اللـــه،** تؤخذ من قوله تعـالى: ﴿**ومن أضل ممن يـدعو من دون الله من لا يسـتجيب له إلى يوم القيامة**﴾ [الأحقاف: 5]، لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي.
- **الحادية عشـرة: أنه غافل عن دعـاء الـداعي لا يـدري عنـــه،** لقوله تعـــالى: ﴿**وهم عن دعـــائهم غـــافلون**﴾، ﴿**وهم**﴾، أي: المـدعوون، ﴿**عن دعـائهم**﴾، أي: دعـاء الـداعين، أو عن دعـاء الـداعين إيـاهم، فالاحتمـال في الضـمير الثـاني وهو قولـه: ﴿**عن دعـائهم**﴾، أما الضمير الأول، فإنه يعود إلى المدعوين لا ريب، وقد سبق بيانه بالتفصيل.
- **الثانية عشـرة: أن تلك الــدعوة ســبب لبغض المــدعو للــداعي وعداوته لـه،** تؤخذ من قوله تعــالى: ﴿**وإذا حشر النــاس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾.
- **الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمـدعو،** تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾.

* * *

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبـادة. **الخامسة عشـرة:** هي سـبب كونه أصل النــاس. **السادسة عشــرة:** تفســير الآية الخامســة. **الســابعة عشــرة:** الأمر العجيب، وهو إقــرار عبــدة الأوثــان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

- **الرابعة عشـرة: كفر المـدعو بتلك العبـادة،** معـنى كفر المدعو: رده وإنكاره، فـإذا كـان يـوم القيامة تـبرأ منه وأنكـره. تؤخذ من قوله: ﴿**وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾.
- **الخامسة عشـرة: هي سـبب كونه أضل النـاس،** وذلك لأمور، هي:

1- أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له.
2- أن المدعوين غافلون عن دعائهم.
3- أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء.

4- أنه كافر بعبادتهم.

- **السادسة عشــرة: تفســير الآية الخامســة،** وهي قوله تعالى: ﴿**أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء**﴾، وقد سـبق ذلك.

- **الســابعة عشــرة: الأمر العجيب، وهو إقــرار عبــدة الأوثان أنه لا يجيب المضـطر إلا اللـه... إلخ،** وهو كما قـال رحمه الله: وهـذا موجـود الآن، فمن النـاس من يسـجد للأصـنام الـتي صـنعوها بأنفسهم تعظيماً، فإذا وقعوا في الشدة دعو الله مخلص له الدين، وكـان عليهم أن يلجئوا للأصـنام لو كـانت عبادتها حقـاً، إلا أن المشـركين اليـوم من هو أشد شركاً من المشركين السابقين، فإذا وقعـوا في الشـدة دعو أولياءهم، كعلي والحسـين، وإذا كـان الأمر سـهلاً دعـوا اللـه، وإذا حلفـوا حلفاً هم فيه صادقون حلفوا بعلي أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفـاً هم فيه كاذبون حلفوا بالله ولم يبالوا.

* * *

الثامنة عشرة: حماية المصطفى حمى التوحيد والتأدب مع الله.

- **الثامنة عشــرة: حماية المصــطفى حمى التوحيــد، والتأدب مع الله.** اختار المؤلف أن قوله: "**لا يستغاث بي**" من بـاب التأدب بالألفـاظ، والبعد عن التعلق بغـير اللـه، وأن يكـون تعلق الإنسـان دائمـاً بالله وحـده، فهو يعلم الأمة أن تلجأ إلى الله وحـده إذا وقعت في الشدائد، ولا تستغيث إلا به وحده.

* * *

باب قول الله تعالى:

﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ الآية [الأعراف: 191،192]

*** مناسبة الباب لما قبله:**

لما ذكر رحمه الله الاستعاذة والاستغاثة بغير الله - عز وجل - ، ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل، وذكر رحمه الله ثلاث آيات:

* * *

- **الآية الأولى والثانية قوله: ﴿أيشركون﴾**، الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: يشركونه مع الله.

قوله: ﴿**ما لا يخلق**﴾، هنا عبر بـ ﴿**ما**﴾ دون "من"، وفي قوله: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له**﴾ [الأحقاف: 5] عبر بـ ﴿**من**﴾.

والمناسبة ظاهرة، لأن الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أما هنا، فالمدعو جماد، لأن الذي لا يخلق شيئاً ولا يصنعه جماد لا يفيد.

قوله: ﴿**شيئاً**﴾، نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.

قوله: ﴿**وهم يخلقون**﴾، وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

والرب المعبود لا يمكن أن يكون مخلوقاً، بل هو الخالق، فلا يجوز عليه الحدوث ولا الفناء.

والمخلوق: حادث، والحادث يجوز عليه العدم، لأن ما جاز انعدامه أولاً، جاز عقلاً انعدامه آخراً.

فكيف يعبد هؤلاء من دون الله، إذ المخلوق هو بنفسه مفتقر إلى خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن، فهو ناقص في إيجاده وبقائه؟!

*** إشكال وجوابه:**

قوله: ﴿**ما لا يخلق**﴾ الضمير بالإفراد، وقوله: ﴿**وهم يخلقون**﴾ الضمير بالجمع، فما الجواب؟

أجيب: بأن قوله: ﴿**ما لا يخلق**﴾ عاد الضمير على ﴿**ما**﴾ باعتبار اللفظ، لأن ﴿**ما**﴾ اسم موصول، لفظها مفرد، لكن معناها الجمع، فهي صالحة بلفظها للمفرد، وبمعناها للجمع، كقوله: ﴿**من لا يستجيب له**﴾.

وقوله: ﴿**وهم يخلقون**﴾ عاد الضمير على ﴿**ما**﴾ باعتبار المعنى، كقوله: ﴿**وهم عن دعائهم غافلون**﴾.

قوله: ﴿**ولا يستطيعون لهم نصراً**﴾، أي: لا يقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو، لأن هؤلاء المعبودين قاصرون.

والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

قوله: ﴿**ولا أنفسهم ينصرون**﴾، بنصب أنفسهم على أنه مفعول مقدم، وليس من باب الاشتغال، لان العامل لم يشتغل بضمير السابق.

أي: زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟!

فبين الله عجز هذه الأصنام، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، هي:

1- أنها لا تخلق، ومن لا يخلق لا يستحق أن يعبد.

2- أنهم مخلوقون من العدم، فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودواماً.

3- أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: **لا يستطيعون** أبلغ من قوله: "لا ينصرونهم"، لأنه لو قال: "لا ينصرونهم"، فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: **لا يستطيعون لهم نصراً** كان أبلغ لظهور عجزهم.

4- أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

* * *

وقوله: **والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير** الآية [فاطر: 13].

- **الآية الثالثة قوله: والذين تدعو من دونه.**

يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، و**من دونه**، أي: سوى الله.

قوله: **ما يملكون من قطمير**، **ما**: نافية، **من** حرف جر زائد لفظاً، وقيل: لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن، بل يقال: من: حرف صلة، وهذا فيه نظر، لأن الحروف الزائدة لها معنى، وهو التوكيد، وإنما يقال: زائد من حيث الإعراب، وجملة **ما يملكون** خبر المبتدأ الذي هو **الذين**.

وقوله: **من قطمير**، القطمير: سلب نواة التمرة.

وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن لبيان حقارة الشيء.

القطمير: وهو اللفافة الرقيقة التي على النواة.

الفتيل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة.

فهؤلاء لا يملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟

أجيب: إنه يملكه، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقياً، فلا يتصرف فيه إلا على حسب ما جاء به الشرع، فلا يملك مثلاً إحراقه للنهي عن إضاعة المال.

قوله: **إن تدعوهم**، جملة شرطية، تدعو: فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وأصلها: تدعونهم.

قوله: **لا يسمعوا دعاءكم** جواب الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل.

قوله: **ولو سمعوا ما استجابوا لكم**، أي: إن هذه الأصنام لو دعوتموها ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت، لأنها لا تقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً** [مريم: 42]

فإذا كانت كذلك، فأي شيء يدعو إلى أن تدعى من دون الله؟! بل هذا سفه، قال تعالى: **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه** [البقرة: 130].

قوله: **ويوم القيامة يكفرون بشرككم** هو كقوله تعالى: **وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** [الأحقاف: 6].

فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون، فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيزاً والمسيح.

وإن كانوا أحجاراً وأشجاراً ونحوهـا، فيحتمل أن يشـملها ظـاهر الآيـة، وهو أن الله يأتي بهذه الأحجار ونحوها، فتكفر بشرك من يشرك بها، ويؤيـده قوله تعـالى: **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** [الأنبيـاء: 98]، وما ثبت في "الصحيحين" عن النبي : "**أنه عند بعث الناس يقال لكل أمــة: لتتبع كل أمة ما كــانت تعبد من دون الله**"[1]، فــالحجر يكون أمامهم يوم القيامـة، ويكـون له كلام ينطق بـه، ويكفر بشـركهم، فـإذا كـانت المعبـودات تحضر وتحصب في النـار إهانة لعابـديها وتحضر لتتبع إلى النار، فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت.

قوله: **ولا ينبئك مثل خبير** [فاطر: 14]، هـذا مثـال يضـرب لمن أخــبر بخــبر ورأى شــكاً عند من خاطبه بــه، فيقــول: ولا ينبئك مثل خبــير، ومعناه: إنه لا يخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله، لأنه لا يعلم أحد ما يكون في يـوم القيامة إلا اللـه، وخـبره خـبر صـدق، لأن الله تعـالى يقـول: **ومن أصدق من الله قيلاً** [النساء: 122].

والخبير: العالم ببواطن الأمور.

*** مسألة:**

هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلم عليهم؟

اختلف في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الأمـوات لا يسـمعون السـلام، وأن قـول النـبي حين زيارة القبـور: "**السلام عليكم**" دعـاء لا يقصد به المخاطبـة، ثم على فرض أنهم يسمعون كما جاء الحديث الذي صـححه ابن عبد الـبر وأقـره ابن القيم: "**بأن الإنسان إذا سلم على شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فرد السلام**"[1]، وعلى تقـدير صـحة هـذا الحـديث إذا كـانوا يسمعون السلام ويردونه، فلا يلزم أن يسمعوا كل شـيء، ثم لو فـرض أنهم يسمعون غير السلام، فإن الله صرح بأن المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعونهم، فلا يمكن أن نقول: إنهم يسمعون دعـاء من يـدعون، لأن هذا كفر بالقرآن، فتبين هذا أنه لا تعارض بين قوله : "**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**"[2]، وبين هذه الآية.

وأما قوله: **ولو سمعوا**، فمعناه، لو سمعوا فرضاً ما استجابوا لكم، لأنهم لا يستطيعون.

القول الثاني: أن الأموات يسمعون.

واستدلوا على ذلك بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت في "الصحيح" من أن المشيعين إذا انصرفوا سمع المشيع قرع نعالهم[3].

---

[1] البخاري: كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية.

[1] ذكره السيوطي في "الجامع الصغير"، 2/151، وابن عبد البر في "الاستذكار"، 2/164، وانظر "الروح" لابن القيم (1/167)، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (24/331)

[2] مسلم: كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند دخول القبور.

[3] البخاري/ كتاب الجنائز/باب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم: كتاب الجنة ونعيمها/باب عرض مقعد الميت... .

والجواب عن هذين الدليلين: أما الأول، فإنه لا يلزم من السلام عليهم أن يســمعوا، ولهــذا كــان المســلمون يســلمون على النــبي في حياته في التشهد[4]، وهو لا يسمعهم قطعاً.

أما الثــاني، فهو وارد في وقت خــاص، وهو انصــراف المشــيعين بعد الدفن، وعلى كل، فالقولان متكافئان، والله أعلم بالحال.

* * *

---

[4] البخاري/ كتاب الاستئذان/ باب السلام اسم من أسماء الله تعالى، ومسلم: كتاب الصلاة/ باب التشهد في الصلاة.

وفي الصحيح، عن أنسٍ قال: شج النبي يوم أحد، وكسرت رباعيته، فقال: "**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**"، فنزلت: ليس لك من الأمر شيء [آل عمران: 128][1].

قوله: "**وفي الصحيح**"، سبق الكلام على مثل هذا التعبير.

قوله: "**أحد**"، جبل معروف شمالي المدينة، ولا يقال: المنورة، لأن كل بلد دخله الإسلام فهو منور بالإسلام، ولأن ذلك لم يكن معروفاً عند السلف، وكذلك جاء اسمها في القرآن بالمدينة فقط، لكن لو قيل: المدنية النبوية لحاجة تمييزها، فلا بأس، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة في السنة الثالثة من الهجرة في شوال هزم فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النبي ، كما أشار الله إلى ذلك بقوله: **حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون** [آل عمران: 152]، وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكرهون.

وقد حصلت هزيمة المسلمين لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصي كثيرة عندنا، ولهذا لا يمكن أن نفرح بنصرٍ ما دمنا على هذه الحال، إلا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعاً.

قوله: "**شج**"، الشجة: الجرح في الرأس والوجه خاصة.

قوله: "**وكسرت رباعيته**"، السنان المتوسطان يسميان ثنايا، وما يليهما يسميان رباعيتين. قوله فقال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم صلى الله عليه وسلم قوله (يُفلح) من الفلاح وهو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

قوله: "**فنزلت: ليس لك من الأمر شيء**"، أي: نزلت هذه الآية، والخطاب فيها للرسول .

و**شيء**: نكرة في سياق النفي، فتعم.

قوله: **الأمر**، أي: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبي ليس له فيهم شيء.

ففي الآية خطاب للرسول وقد شج وجهه، وكسرت رباعيته، ومع ذلك ما عذره الله - سبحانه - في كلمة واحدة: "**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**"، فإذا كان الأمر كذلك، فما بالك بمن سواه؟ فليس لهم من الأمر شيء، كالأصنام، والأوثان، والأولياء، والأنبياء، فالأمر كله لله وحده، كما أنه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه، لأن المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يملك لغيره؟

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان فيما إذا رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي، فلا نستبعد رحمة الله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه.

فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي فلاحهم، قيل له: **ليس لك من الأمر شيء**.

والرجل المطيع الذي يمر بالعاصي من بني إسرائيل ويقول: "**والله، لا يغفر الله لفلان. قال الله له: من ذا الذي يتألى علي على أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك**"[1]، فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قوماً

---

[1] البخاري تعلقاً (الفتح، 7/365)، ومسلم موصولاً: كتاب الجهاد/ باب غزوة أحد.

[1] مسلم: كتاب البر والصلة/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله.

كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك، فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة؟!

وما دام الإنسان لم يمت، فكل شيء ممكن، كما أن المسلم - نسأل الله الحماية - قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة.

فالمهم أن هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر في أنك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصياً.

قوله: "**فنزلت**"، الفاء للسببية، وعليه، فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: "**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟**".

* * *

وفيه: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر - : "اللهم العن فلاناً وفلاناً" بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، "ربنا ولك الحمد"، فأنزل الله: **ليس لك من الأمر شيء**[2].

* * *

وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث ابن هشام، فنزلت: **ليس لك من الأمر شيء**[1]

قوله: "**وفيه**"، أي الصحيح.

قوله: "**إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر**"، قيد مكان الدعاء من الصلوات بالفجر، ومكانه من الركعات بالأخيرة، ومكانه من الركعة بما بعد الرفع من الركوع.

قوله: "**يقول: اللهم العن فلاناً وفلاناً**" اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، أي: أبعدهم عن رحمتك، واطردهم منها.

و"**فلاناً وفلاناً**": بينه من الرواية الثانية أنهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

قوله: "**بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد**"، أي: يقول ذلك إذا رفع رأسه وقال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد.

قوله: "**فأنزل الله: ليس لك من الأمر شيء**"، هنا قال: "**فأنزل**"، وفي الحديث السابق قال: "**فنزلت**"، وكلها بالفاء، وعلى هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي على هؤلاء، وقوله: "**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**"، ولا مانع أن يكون لنزول الآية سببان.

وقد أسلم هؤلاء الثلاثة وحسن إسلامهم رضي الله عنهم، فتأمل الآن أن العداوة قد تنقلب ولاية، لان القلوب بيد الله – سبحانه وتعالى - ، ولو أن الأمر كان على ظن النبي ، لبقي هؤلاء على الكفر حتى الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة، لم يبق إلا العذاب.

ولكن النبي ليس له من الأمر شيء، فالأمر كله لله، ولهذا هدى الله هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء الله الذابين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء الله القائمين ضده، ولله - سبحانه - يمن على من يشاء من عباده.

وليس بعيداً من ذلك قصة أصيرم بن عبد الأشهل الأنصاري، حيث كان معروفاً بالعداوة لما جاء به الرسول ، فلما جاءت وقعة أحد ألقى الله الإسلام في قلبه دون أن يعلم به النبي أو أحد من قومه، وخرج للجهاد

---

[2] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/باب ليس لك من الأمر شيء.

[1] البخاري: كتاب المغازي/ باب ليس لك من الأمر شيء مرسلاً، ووصله الإمام أحمد في "المسند" 2/93.

وقتل شهيداً، فلما انتهت المعركة جعل الناس يتفقدون قتلاهم، فـإذا هو في آخر رمـق، فقـالوا: ما جـاء بك يا فلان؟ أحـدب على قومـك، أم رغبة في الإسـلام؟ قـال: بل رغبة في الإسـلام، وإني أشـهد أن لا إله إلا اللـه، وأن محمداً رسول الله، فأخبروا عني رسـول الله . فـأخبروه، فقـال: "**هو من أهل الجنة**"، فهذا الرجل لم يصل لله ركعة واحدة، ومع هـذا جعله الله من أهل الجنـة، فالله حكيم يهـدي من يشـاء لحكمـة، ويضل من يشـاء لحكمـة، فالمهم أننا لا نستبعد رحمة الله - عز وجل - من أي إنسان.

* * *

وفيه: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام فينا رسـول الله حين أنـزل عليـه: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقـربين**﴾ [الشـعراء: 214]، فقـال: "**يا معشر قريش (أو كلمة نحوها) اشـتروا أنفسـكم، لا أغـني عنكم من الله شـيئاً**. يا عبـاس بن عبـدالمطلب لا أغـني عنك من الله شـيئاً يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغني عنك من الله شـيئاً. ويا فاطمة بنت محمد إسليني من مالي ما شئت لا أغني عنكِ من الله شيئاً.

قوله: "**قام**"، أي: خطيباً.

قولـه: "**أنـزل عليه**"، أي: أنـزل عليه بواسـطة جبريـل: ﴿**وأنـذر عشيرتك**﴾ [الشعراء: 214].

قوله: ﴿**أنذر**﴾، أي: حذر وخوف، والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

قوله: ﴿**عشيرتك**﴾، العشيرة: قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: ﴿**الأقربين**﴾، أي: الأقرب فالأقرب، فأول من يدخل في عشيرة الرجل أولاده، ثم آباؤه، ثم إخواته، ثم أعمامه، وهكذا.

ويؤخذ من هذا أن الأقـرب فـالأقرب أولى بالإنـذار، لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة هذا الوصـف، وذلك أن الوصف المـوجب للحكم كلما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين.

وقوله: "**حين أنزل عليه**" يفيد أنه لم يتـأخر ، بل قـام، فقـال: "**يا معشر قريش!**"، أي: يا جماعة قريش.

وقريش: هو فهر بن النضر بن مالك، أحد أجداد الرسول .

قوله: "**أو كلمة نحوها**"، أي: أو قال كلمة نحوهـا، أي شـبهها، وهـذا من احـتراز الـرواة أنهم إذا شـكوا أدنى شك قـالوا: أو كما قـال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك! وعليه فـ"**أو**": للشك والتردد.

قوله: "**اشتروا أنفسـكم**"، أي: أنقـذوها، لأن المشـتري نفسه كأنه أنقذها من هلاك، والمشتري راغب، ولهذا عبر بالاشتراء كأنه يقـول: اشـتروا أنفسكم راغبين.

وفي قولـه: "**اشـتروا أنفسـكم**" من الحض على هـذا الأمر ما هو ظاهر، لأن المشتري يكون راغباً.

قوله: "**لا أغني عنكم من الله شيئاً**"، هذا هو الشاهد، أي: لا أدفع أو لا أنفع، أي: لا أنفعكم بدفع شـيء عنكم دون اللـه، ولا أمنعكم من شـيء أراده الله لكم، لأن الأمر بيد اللـه، ولهـذا أمر الله نبيه بـذلك، فقـال: ﴿**قل إني لا أملك لكم ضـراً ولا رشـداً * قل إني لن يجـيرني من الله أحد ولن أجد من دون ملتحداً**﴾ [الجن: 21،22].

قوله: "**شيئاً**"، نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء.

قوله: "**يا عباس بن عبد المطلب**"، هو عم النبي ، وعبد المطلب جد النبي ، وعباس، بالضم، لأن المنادى إذا كان معرفة يبنى على الضم، ونعته إذا كان مضافاً ينصب، وهنا ابن عبد المطلب مضاف، ولهذا نصب.

فإن قيل: كيف يقول النبي : عبد المطلب مع أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلى الله - عز وجل ـ؟

فالجواب: إن هذا ليس إنشاء، بل هو خبر، فاسمه عبد المطلب، ولم يسمه النبي ، لكن اشتهر بعبد المطلب ، ولهذا انتمى إليه الرسول ، فقال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب[1]

فلو فرض أن لك أباً يسمى عبد المطلب، أو عبد العزى، فإنك تنتسب إليه، ولا يعد هذا إقراراً، ولكنه خبر عن أمر واقع، كما لو قلت: كفر فلان، نافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه إذا كان لا يجوز.

قوله: "**لا أغني عنك من الله شيئاً**"، أي: لا أنفعك بشيء دون الله، ولا أمنعك من شيء أراده الله لك، فالنبي لا يغني عن أحد شيئاً حتى عن أبيه وأمه.

قوله: "**يا صفية عمة رسول الله!**"، يقال في إعرابها كما قيل في عباس بن عبد المطلب.

قوله: "**يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت**"، أي: اطلبي من مالي ما شئت، فلن أمنعك لأنه مالك لماله، ولكن بالنسبة لحق الله قال: "**لا أغني عنك من الله شيئاً**".

فهذا كلام النبي لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته، فما بالك بمن هم أبعد؟! فعدم إغنائه عنهم شيئاً من باب أولى، فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول ويلوذون به ويستجيرون به الموجودون في هذا الزمن وقبله قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق، لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق، إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول هو الإيمان به واتباعه.

أما دعاؤه والتعلق به ورجاؤه فيما يؤمل، وخشيته فيما يخاف منه، فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسول ، وعن النجاة من عذاب الله.

ففي الحديث امتثال النبي لأمر ربه في قوله تعالى: **وأنذر عشيرتك الأقربين** [الشعراء: 214]، فإنه قام بهذا الأمر أتم القيام، فدعا وعم وخصص، وبيَّن أنه لا ينجي أحداً من عذاب الله بأي وسيلة، بل الذي ينجي هو الإيمان به واتباع ما جاء به.

وإذا كان القرب من النبي لا يغني عن القريب شيئاً، دل ذلك على منع التوسل بجاه النبي ، لأن جاه النبي لا ينتفع به إلا النبي ، ولهذا كان أصح قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي .

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير الآيتين. **الثانية:** قصة أحد. **الثالثة:** قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة.

فيه مسائل:

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد/ باب من صف أصحابه عند الهزيمة، ومسلم: كتاب الجهاد/ باب غزوة حنين.

- **الأولى: تفسير الآيتين،** وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.
- **الثانية: قصة أحد،** يعني: حيث شج النبي ﷺ... الحديث.
- **الثالثة: قنوت سيد المرسلين... إلخ**، أراد المؤلف بهذه المسألة أن النبي ﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادت الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم، فكيف ينقذون غيرهم؟ وليس مراده رحمه الله مجرد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيد وسادات، فلا أحد من هذه الأمة أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجئون إلى الله - سبحانه - في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله، فكيف يمكن أن يلجأ إليه في كشف الكربات؟ فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

* * *

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

- **الرابعة: أن المدعو عليهم كفار،** تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**أو يتوب عليهم**﴾، فهذا دليل على أنهم الآن ليسوا على حال مرضية، ومن المعلوم أن صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفاراً.

وهذه المسألة - أي أن المدعو عليهم كفار - ترمي إلى أن الرسول ﷺ وإن كان يرى أنه دعا عليهم بحق، فقد قطع الله - سبحانه وتعالى - أن يكون له من الأمر شيء لأنه قد يقول قائل: إذا كانوا كفاراً، أليس يملك الرسول ﷺ أن يدعو عليهم؟.

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئاً، هذا وجه قول المؤلف أن المدعو عليهم كفار، وليس مراده الإعلام بكفرهم، لأن هذا معلوم لا يستحق أن يعنون له، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفاراً لم يملك النبي ﷺ شيئاً بالنسبة إليهم.

* * *

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجهم نبيهم، وحرصهم على قتله، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.
السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾.
السابعة: قوله: ﴿**أو يتوب عليهم أو يعذبهم**﴾، فتاب عليهم، فآمنوا.

- **الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار،** أي: إنهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له في حقهم: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾، وإلا، فهم شجوا النبي ﷺ، ومثلوا بالقتلى مثل حمزة بن عبد المطلب، وكذلك أيضاً حرصوا على قتل النبي ﷺ، مع أن كل هؤلاء فيهم من بني عمهم، وفيهم من الأنصار.
- **السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾**، أي: مع ما تقدم من الأمور التي تقتضي أن يكون للنبي ﷺ حق بأن يدعو عليهم أنزل الله: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾، فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسول ﷺ قد قطع عنه هذا الشيء، فغيره من باب أولى.

▪ **السابعة: قوله: ﴿أو يتوب عليهم﴾، فتاب عليهم، فآمنوا**، وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته، فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا، لأن الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذي يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر رضي الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى، فرسول الله ﷺ ومن دونه لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً من أمر الله.

* * *

الثامنة: القنوت في النوازل.

▪ **الثامنة: القنوت في النوازل**، وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة، فإنه ينبغي أن يدعى لهم حتى تنكشف.

وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغيره[1]، إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر[2] رضي الله عنه ولم يقنت، ولأنه شهادة، فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أما ما كان من فعل الله، فإنه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف، فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجدب يشرع له الاستسقاء، وهكذا.

وما علمت لساعتي هذه أن القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضيق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك، فإنه يقنت اتباعاً للسنة في هذا الأمر.

ثم من الذي يقنت، الإمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصل؟

المذهب: أن الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل: يقنت كل مصل، وهو الصحيح، لعموم قول النبي ﷺ: "**صلوا كما رأيتموني أصلي**"[3]، وهذا يتناول قنوته ﷺ عند النوازل.

* * *

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

▪ **التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم**، وهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فسماهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هل هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز، وعليه، فإذا كان في تسمية المدعو عليهم مصلحة، كانت التسمية أولى، ولو دعا إنسان لأناس معينين في الصلاة جاز، لأنه لا يعد من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى، ولا

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/301)، والحاكم (1/255)، وصححه ووافقه الذهبي.

[2] البخاري: كتاب الحيل/ باب ما يكره من الاحتيال في القرار من الطاعون.....، ومسلم: كتاب السلام/ باب الطاعون والطيرة.

[3] البخاري: كتاب الآذان/ باب الآذان للمسافرين.

يـدخل في عمـوم قوله : "**إن هـذه الصـلاة لا يصـلح فيها شـيء من كلام الناس**"[(1)].

مسألة: هل الذي نهي عنه الرسول الدعاء أو لعن المعينين؟

الجـواب: المنهي عنه هو لعن الكفـار في الـدعاء على وجه التعـيين، أما لعنهم عموماً، فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنه كـان يقنت ويلعن الكفـرة عمومـاً، ولفظ ما ورد عن أبي هريـرة رضي الله عنــه، أنه قــال: "لأقربن صلاة النبي ، فكان أبو هريـرة يقنت في الركعة الأخـرى من صـلاة الظهر وصـلاة العشـاء وصـلاة الصـبح بعـدما يقـول: سـمع الله لمن حمـده، فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار"[(2)]، ولا بأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم! أرح المسلمين منه، واكفهم شره، واجعل شره في نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار، فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبي على قـــريش بـــالهلاك، بل قـــال: "**اللهم! عليك بهم، اللهم! اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**"[(3)]، وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضـييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله عن ظلمه.

فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: "**اللهم أحصهم عدداً، ولا تبق منهم أحداً**"[(4)] على جواز ذلك، لأنه وقع في عهد الرسول .

ولن الأمر وقع كما دعا، فإنه ما بقي منهم أحد على رأس الحول، ولم ينكر الله تعالى ذلـك، ولا أنكـره النـبي ، بل إن إجابة الله دعـاءه يـدل على رضاه به وإقراره عليه.

فهذا قد يستدل به على جواز الدعاء على الكفار بـالهلاك، لكن يحتـاج أن ينظر في القصة، فقد يكون لها أسباب خاصة لا تتأتى في كل شيء.

ثم إن خبيباً دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لا لجميع الكفار.

وفيه أيضـاً إن صح الحـديث: دعـاؤه على عتبة بن أبي لهب: "**اللهم! سلط عليه كلباً من كلابك**"[(1)]، فيه دليل على الدعاء بـالهلاك، لكن هـذا على شخص معين لا على جميع الكفار.

* * *

العاشـرة: لعن المعين في القنـوت. **الحادية عشـرة:** قصـته لما أنزل عليه: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾. **الثانية عشرة**: جـده في هـذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

- **العاشرة: لعن المعين في القنوت،** هذا غـريب، فـإن أراد المؤلف رحمه الله أن هـذا أمر وقـع، ثم نهي عنــه، فلا إشـكال، وإن أراد أنه يستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت أبداً، فهــذا فيه نظر لأن النبي نهي عن ذلك.

---

(1) مسلم: كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته.

(2) البخاري: كتاب صفة الصلاة/ باب فضل اللهم ربنا ولك الحمد، ومسلم: كتاب المساجد/ باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.

(3) البخاري: كتاب الاستسقاء/ باب دعاء النبي : "اجعلها عليهم سنين كسني يوسف"، ومسلم: كتاب المساجد/ باب استحباب القنوت... .

(4) البخاري: كتاب المغازي/ باب فضل من شهد بدراً.

(1) الحاكم في "المستدرك" (كتاب التفسير، تفسير سورة أبي لهب، 2/539)، وقال: "صحيح الإسناد"، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

- **الحادية عشـرة: قصـته لما أنـزل: وأنـذر عشـيرتك الأقربين،** وهي أنه لما نزلت عليه الآية نادى قريشاً، فعم، ثم خصـص، فامتثل أمر الله في هذه الآية.
- **الثانية عشـرة: جـده في هـذا الأمـر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون،** أي: اجتهاده في هذا الأمـر، بحيث قـالوا: إن محمداً جن، كيف يجمعنا وينادينا هذا النداء؟

وقولـه: "**وكـذلك لو يفعله مسـلم الآن**"، أي: لو أن إنسـاناً جمع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبي ، لقـالوا: مجنـون، إلا إذا كـان معتـاداً عند الناس، قال تعالى: **وتلك الأيام نداولها بين النـاس** [آل عمـران: 140]، وقال تعالى: **يقلب الله الليل والنهار** [النور: 44]، فهذا يختلف باختلاف البلاد والزمان، ثم أنه يجب على الإنسان أن يبـذل جهـده واجتهـاده في الـدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسـنة، والنـبي قـام بهـذا الأمر ولم يبال بما رمي به من الجنون.

* * *

الثالثة عشــرة: قوله للأبعد والأقــرب: "**لا أغــني عنك من الله شـيئاً**"، حـتى قـال: "**يا فاطمة بنت محمـد لا أغـني عنك من الله شيئاً**". فإذا صرح وهو سيد المرسـلين بأنه لا يغـني شـيئاً عن سـيدة نسـاء العالمين، وآمن الإنسان بأنه لا يقـول إلا الحـق، ثم نظر فيما وقع في قلـوب خواص الناس اليوم، تبين له ترك التوحيد وغربة الدين.

- **الثالثة عشــرة: قوله للأبعد والأقــرب: "**لا **أغــنى عنك من الله شـيئاً**"، صـدق رحمه الله فيما قـال، فإنه إذا كـان هـذا القائل سيد المرسلين، وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أن الرسول لا يقول إلا الحـق، وأنه لا يغـني عن ابنته شـيئاً، تـبين لنا الآن أن ما يفعله خواص الناس ترك للتوحيد، لأنه يوجد أناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم من حولهم علماء وأهلاً للتقليـد، يـدعون الرسـول لكشف الضر وجلب النفع دعوة صريحة، ويرددون:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وغــير ذلك من الشــرك، وإذا أنكر عليهم ذلك ردوا على المنكر بأنه لا يعـرف حق الرسـول ومقامه عند اللـه،وأنه سـيد الكـون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنه خلق من نور العرش، ويلبسون بذلك على العامـة، فيصدقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يـدعوهم إلى التوحيد لم يسـتجيبوا له، لأن سيدهم وعـالمهم على خلاف التوحيـد، **ولئن أتيت الـذين أوتـوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك** [البقرة: 145]، ثم إن المؤمن عاطفته وميله للرسول أمر لا ينكر، لكن الإنسان لا ينبغي له أن يحكم العاطفة، بل يجب عليه أن يتبع ما دل عليه الكتاب والسـنة وأيـده العقل الصـريح السـلام من الشبهات والشهوات.

ولهـذا نعى الله - سـبحانه - على الكفـار الـذين اتبعـوا ما ألفـوا عليه آباءهم بـأنهم لا يعقلـون، وكلام المؤلف حـق، فـإن من تأمل ما عليه النـاس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبين له ترك التوحيد وغربة الدين.

* * *

باب قول الله تعالى:

حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير [سبأ: 23]

*** مناسبة الترجمة:**

أن هذا من البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكاً مع الله، لأن الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله - عز وجل ـ، ما عدا خواص بني آدم يحصل منهم عند كلام الله - سبحانه - الفزع.

* * *

قوله تعالى: **حتى إذ فزع عن قلوبهم**، قال ذلك ولم يقل: "فزعت قلوبهم"، إذ "عن" تفيد المجاوزة، والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم، أي: أزيل الفزع عن قلوبهم.

والفزع: الخوف المفاجئ، لأن الخوف المستمر لا يسمى فزعاً.

وأصله: النهوض من الخوف.

وقوله تعالى: **عن قلوبهم**، أي: قلوب الملائكة، لأن الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة، ولا أحد من الخلق أعلم بتفسير القرآن من رسول الله .

قوله تعالى: **قالوا ماذا قال ربكم** جواب الشرط، والمعنى: قال بعضهم لبعض: وإنما قلنا ذلك لأن في الكلام قائلاً ومقولاً له، فلو جعلنا الضمير في قالوا عائداً على الجميع، فأين المقول له؟ والمعنى: أي شيء قال ربكم؟

وإعراب ماذا على أوجه:

1- ما: اسم استفهام مبتدأ، وذا: اسم موصول خبر، أي: ما الذي.

2- ماذا: اسم استفهام مركب من ما و ذا.

3- ما اسم استفهام، وذا زائدة، قال ابن مالك:

ومثل ماذا بعدما استفهام ... أو من إذا لم تلغ في الكلام

وقوله: **قالوا الحق**، أي: قال المسؤولون.

والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله، والتقدير قال القول الحق.

والمعنى: أن الله - سبحانه - قال القول الحق لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، كما قال الله تعالى: **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** [الأنعام: 115].

ولا يفهم من قوله: **قالوا الحق** أنه قد يكون قوله باطلاً، بل هو بيان للواقع، فإن قيل: ما دام بياناً للواقع ومعروفاً عند الملائكة أنه لا يقول إلا الحق، فلماذا الاستفهام؟!

أجيب: أن هذا من باب الثناء على الله بما قال، وأنه سبحانه لا يقول إلا الحق.

قوله تعالى: ﴿**وهو العلي الكبير**﴾، أي: العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء وهي العظمة التي لا يدانيها شيء، أي العظيم الذي لا أعظم منه.

مناسبة الآية للتوحيد: أنه إذا كان منفرداً في العظمة والكبرياء، فيجب أن يكون منفرداً في العبادة.

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من ينتسب للإسلام حتى الجهمية ونحوهم.

الثانية: علو الذات، وقد أنكره كثير من المنتسبين للإسلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم، فإن المحققين منهم أثبتوا علو الذات.

وعلوه لا ينافي كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم، لأنه ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وفي الآية فوائد:

1- أن الملائكة يخافون الله، كما قال تعالى: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾ [النحل: 50]

2- إثبات القلوب للملائكة، لقوله: ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم**﴾.

3- إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحاً مجردة من الجسمية، وهو أمر معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿**جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة**﴾ [فاطر: 1]، وقد رأى النبي ﷺ جبريل له ست مئة جناح قد سد الأفق[1]، فالقول بأنهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع، وهو قول باطل.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أكلهم وشربهم التسبيح بدليل قوله تعالى: ﴿**يسبحون الليل والنهار لا يفترون**﴾ [الأنبياء: 20]، ففي هذا دليل على أن ليلهم ونهارهم مملوءان بذلك، ولهذا جاء: ﴿**يسبحون الليل**﴾، ولم يقل: يسبحون في الليل، أي: أن تسبيحهم دائم، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

4- أن لهم عقولاً، إذا إن القلوب هي محل العقول خلافاً لمن قال: إنهم لا يعقلون، ولأنهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

5- إثبات القول لله - سبحانه وتعالى - ، وأنه متعلق بمشيئته، لأنه جاء بالشرط: ﴿**إذا فزع**﴾، وإذا الشرطية تدل على حدوث الشرط والمشروط، خلافاً للأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بمشيته، وإنما كلامه هو المعنى القائم بنفسه، فهو قائم بالله أزلي أبدي، كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر.

ولا ريب أن هذا باطل، وأن حقيقته إنكار كلام الله، ولهذا يقولون: إن الله يتكلم بكلام نفسي أزلي أبدي، كما يقولون: هذا الكلام الذي سمعه موسى، وسمعه النبي ﷺ، ونزل به جبريل على الرسول ﷺ شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب قول الله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب في ذكر سدرة المنتهى.

وهـــذا في الحقيقة قـــول الجهميـــة، كما قـــال بعض المحققين من الأشاعرة: ليس بيننا وبين الجهمية فـرق، فإننا اتفقنا على أن هـذا الـذي بين دفتي المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبـارة عن كلام اللـه، وهم قـالوا: هو كلام الله.

6- إثبات أن قول الله حـق، وهـذا جـاء في القـرآن: **والله يقـول الحق وهو يهـدي السـبيل** [الأحـزاب: 4]، وقـال: **فالحق والحق أقول** [ص 84]، فالله تعالى لا يقـول إلا حقـاً، لأنه هو الحق، ولا يصدر عن الحق إلا الحق.

* * *

وفي الصـحيح عن أبي هريـرة رضي الله عنه عن النـبي ، قـال: "**إذا قضى الله الأمر في السـماء، ضـربت الملائكة بأجنحتها خضـعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، ينفـذهم ذلـك، حـتى إذا فـزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قـالوا الحق وهو العلي الكبـير** [سبأ: 23].

قوله: "**وفي الصحيح**"، سبق الكلام عليها.

قولــه: **"قضي الله الأمر في السـماء"**، المـراد بـالأمر الشـأن، ويكـون القضـاء بـالقول، لقوله تعـالى: **إذا قضى أمراً فإنما يقـول له كن فيكون** [آل عمران: 47].

قوله: "**خضعاناً**"، أي: خضوعاً، لقوله: "**كأنه**"، أي: صوت القــول في وقعه على قلوبهم.

قوله: "**صفوان**" هو الحجر الأملس الصـلب، والسلسـلة عليه يكـون لها صوت عظيم.

وليس المـراد تشـبيه صـوت الله تعـالى بهـذا، لأن الله **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** [الشورى: 11]، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع من يسمع سلسلة على صفوان.

قوله: **"ينفذهم ذلك"**، النفـوذ: هو الـدخول في الشـيء، ومنـه، نفذ السهم في الرمية، أي: دخل فيهـا، والمعـنى: إن هـذا الصـوت يبلغ منهم كل مبلغ.

قوله: **حتى إذا فزع عن قلوبهم**، أي: أزيل عنها الفزع.

قوله: **قالوا**، أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: **ماذا قال ربكم قـالوا الحق**، أي: قـالوا: قـال الحــق، أي: قال القول الحق، فـالحق صـفة لمصـدر محـذوف مع عاملـه، تقـديره: قـال القول الحـق، وهـذا الجـواب الـذي يقولونه هل هم يقولونه لأنهم سـمعوا ما قال وعلموا أنه حق، أو أنهم كانوا يعلمون أنه لا يقول إلا الحق؟

يحتمل أن يكونـوا قد علمـوا ما قـال، وقـالوا: إنه الحـق، فيكـون هـذا عائداً إلى الوحي الذي تكلم الله به.

ويحتمل أنهم قالوا ذلك لعلمهم أن الله - سبحانه - لا يقـول إلا الحــق، فلذلك قالوا هذا لأن ذلك صفته سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث مطابق للآية تماماً، وعلى هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآيــة، ولا يقبل أي قائل أن يفسـرها بغـيره، لأن تفسـير القــرآن إذا كــان بالقرآن أو السنة، فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه.

وأما تفسير الصحابي، فإنه حجة عند أكثر المفسرين، وأما التابعين، فإن أكثر العلماء يقول: إنه ليس بحجة إلا من اختص منهم بشيء، كمجاهد، فإنه عرض المصحف على ابن عباس عشرين مرة أو أكثر، يقف عند كل آية ويسأله عن معناها، وأما من بعد التابعين، فليس تفسيره حجة على غيره، لكن إن أيده سياق القرآن كان العمدة سياق القرآن.

فلا يقبل أن يقال: إذا فزع عن قلوب الناس يوم القيامة بل نقول: الرسول فسر الآية بتفسير غيبي لا مجال للاجتهاد فيه، وما كان غيبياً وجاء به النص، فالواجب علينا قبوله، ولها نقول في مسألة ما يعذر فيه بالاجتهاد وما لا يعذر: أنه ليس عائداً على أن هذا من الأصول وهذا من الفروع، كما قال بعض العلماء: الأصول لا مجال للاجتهاد فيها، ويخطئ المخالف مطلقاً بخلاف الفروع.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية أنكر تقسيم الدين إلى أصول وفروع، ويدل على بطلان هذا التقسيم: أن الصلاة عند الذين يقسمون من الفروع، مع أنها من أجل الأصول.

والصواب: أن مدار الإنكار على ما للاجتهاد فيه مجال وما لا مجال فيه، فالأمور الغيبية ينكر على المخالف فيها ولا يعذر، سواء كانت تتعلق بصفات الله أو اليوم الآخر أو غير ذلك، لأنه لا مجال للاجتهاد فيها.

أما الأمور العملية التي للاجتهاد فيها مجال، فلا ينكر على المخالف فيها إلا إذا خالف نصاً صريحاً، وإن كان يصح تضليله بهذه المخالفة، كقول ابن مسعود في بنت وبنت ابن وأخت: "للبنت النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي، فللأخت"، وذكر له قسمة أبي موسى: "للابنة النصف، وللأخت النصف"، وقوله: "ائت ابن مسعود، فسيتابعني"، فأخبر ابن مسعود بذلك، فقال: "قد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين"[1].

* * *

فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفه، فحرفها وبدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه،

قوله: "**فيسمعها مسترق السمع**"، أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة.

و"**مسترق**": مفرد مضاف، فيعم جميع المسترقين.

وتأمل كلمة "مسترق"، ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاساً بسرعة، ويؤيده قوله: **إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب** [الصافات: 10].

قوله: "**ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض"،** يحتمل أن يكون هذا من كلامه ، أو من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: "**وصفه سفيان بكفه**"، أي: أنها واحد فوق الثاني، أي الأصابع: فالجن يتراكبون واحداً فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: **وأنا كنَّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً** [الجن: 9].

---

[1] البخاري: كتاب الفرائض/ باب ميراث ابنة ابن مع ابنة.

قوله: "**فيسمع الكلمة، فيلقيها إلي من تحته**" أي: سمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، أي: يخبره بها، و"من": اسم موصول، وقوله: "**تحته**" شبه جملة صلة الموصول لأنه ظرف.

قوله: "**ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها**"، أي: يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض على لسان الساحر أو الكاهن.

والسحر: عزائم ورقى وتعوذات تؤثر في بدن المسحور وقلبه وعقله وتفكيره.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقد التبس على بعض طلبة العلم، فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضى، فهو كاهن، لكن ما مضى مما يقع في الأرض ليس غيباً مطلقاً، بل هو غيب نسبي، مثل ما يقع في المسجد يعد غيباً بالنسبة لمن في الشارع، وليس غيباً بالنسبة لمن في المسجد.

وقد يتصل الإنسان بجني، فيخبره عما حدث في الأرض ولو كان بعيداً، فيستخدم الجن، لكن ليس على وجه محرم، فلا يسمى كاهناً، لأن الكاهن من خيبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وهو نوع من الكهانة في الواقع، إذا لم يستند إلى فراسة ثاقبة، أما إذا كان يخبر عما في الضمير استناداً إلى فراسة، فإنه ليس من الكهانة في شيء، لأن بعض الناس قد يفهم ما في الإنسان اعتماداً على أسارير وجهه ولمحاته، وإن كان لا يعلمه على وجه التفصيل، لكن يعلمه على سبيل الإجمال.

فمن يخبر عما وقع في الأرض ليس من الكهان، ولكن ينظر في حاله، فإذا كان غير موثوق في دينه، فإننا لا نصدقه، لأن الله تعالى يقول: **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** [الحجرات: 6].

وإن كان موثوقاً في دينه، ونعلم أنه لا يتوصل إلى ذلك بمحرم من شرك أو غيره، فإننا لا ندخله في الكهان الذين يحرم الرجوع إلى قولهم، ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان ولم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجوداً فيه، فلا يسمى كاهناً، لأنه لم يخبر عن مغيب مستقبل يمكن أن يكون عنده جني يخبره، والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم، إما محبة لله - عز وجل ـ، أو لعلم يحصله منه، أو لغير ذلك من الأغراض المباحة.

والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السمع.

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلا إلى السماء الدنيا، لقوله تعالى: **وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً** [الأنبياء: 32]، فلا يمكن نفوذه إلى ما فوقه.

* * *

فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كَذْبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء"[1].

قوله: "**فربما أدركه الشهاب.... إلخ**"، الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب حتى إذا فزع عن قلوبهم.

قـال العلمـاء في تفسـير قوله تعـالى: ﴿**ولقد زينا السـماء الـدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾ [الملـك: 5]، أي: جعلنا شـهابها الذي ينطلق منها، فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل.

فالشهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلـك: تـنزل إلى الأرض، وقد تحـدث تصـدعاً فيها أما النجم، فلو وصل إلى الأرض، لأحرقها.

واختلف العلمــاء: هل المســترقون انقطعــوا عن الاســتراق بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأبد أو انقطعوا في وقته فقط؟ والثـاني هو الأقرب: أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حـتى لا يلتبس كلام الكهـان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

قوله: "**فيكـذب معها مئة كذبة**"، هل هـذا على سـبيل التحديـد، أو المراد المبالغة، أي أنه يكذب معها كذبات كثيرة؟

الثاني هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟

والناس في هذه الأمور الغريبة على حسب ما أخبر به المخبر يأخذون كل ما يقوله صدقاً، فإذا أخبر بشيء فوقع، ثم أخبر بشيء ثان، قالوا: إذن لا بد أن يصدق.

*** فوائد الحديث:**

1- إثبات القول لله- عز وجل -.

2- عظمة الله - سبحانه وتعالى -.

3- إثبات الأجنحة للملائكة.

4- خوف الملائكة من الله - عز وجل - وخضوعهم له.

5- أن الملائكة يتكلمون ويعقلون.

6- أنه لا يصدر عن الله إلا الحق.

7- أن الله - سـبحانه - يمكن هـؤلاء الجن من الوصـول إلى السـماء فتنة للنـاس، وهي ما يلقونه على الكهـان، فيحصل بـذلك فتنة، والله - عز وجل - حكيم.

وقد يوجد الله أشياء تكون ضـلالاً لبعض النـاس، لكنها لبعضـهم هـدى امتحاناً وابتلاءً.

8- كثرة الجن، لأنه يترادفون إلى السماء، ومعـنى ذلك أنهم كثيرون جداً، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيراناً.

وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير بهم: أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفــة، وهــذا ممكن الآن في الطـائرات، لكن في ذلك الــوقت ليس هنــاك طـائرات، فتحملهم الشـياطين، ويجعلـون للنـاس المكـانس الـتي تكنس بها البيوت، ويقول: أن أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة، فيفعلون هذا، وشـيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومسـتخدمون للشـياطين، ويسـيئون حـتى من الناحية العملية، لأنهم يمرون الميقات ولا يحرمون منه.

9- أن الكهــان من أكــذب النــاس، ولهــذا يضــيفون إلى ما سمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس، ويتوصلون بها إلى باطلهم تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجري عليك كذا من موت أو سرقة مال ونحو ذلك.

10- أن الساحر يصر للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتلبيس، وأنهم إن صدقوا في شيء، فيجب الحذر منهم بكل حال.

* * *

وعن النواس بن سمعان (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله ﷺ: "**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة (أو قال: رعدة شديدة) خوفاً من الله عز وجل.**

▪ قوله: "**وعن النواس....**"، هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علة، وهي أن في سنده الوليد بن مسلم، وهو مدلس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة، فيكون في الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم[1] وأحمد من حديث ابن عباس حديثاً قد يكون شاهداً له، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش، فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين.

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود، لكن يدل على أن له أصلاً.

قوله: "**إذا أراد أن يوحي بالأمر**"، أي: بالشأن.

قوله: "**تكلم بالوحي**"، جملة شرطية تقتضي تأخر المشروط عن الشرط، فالإرادة سابقة، والكلام لاحق، فيكون فيه رد على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلي، كالسمع والبصر، ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا: إنه يتكلم بما شاء، كيف شاء، متى شاء، بل هذا صفة كمال، لكن النقص أن يقال: إنه لا يتلكم بحرف وصوت، إنما الكلام معنى قائم بنفسه.

قوله: "**أخذت السماوات من رجفة**"، السماوات: مفعول به جمع مؤنث سالم، أو ملحق به، فيكون منصوباً بالكسرة، ورجفة: فاعل.

قوله: "**أو قال: رعدة شديدة**"، شك من الراوي، وإنما تأخذ السماوات الرجفة أو الرعدة، لأنه سبحانه عظيم يخافه كل شيء، حتى السماوات التي ليس فيها روح.

* * *

فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء، سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟

قوله: "**فإذا سمع ذلك أهل السماوات، صعقوا وخروا لله سجداً**".

فإن قيل: كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجداً؟

فالجواب: أن الصعق هنا - والله أعلم - يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

---

[1] (كتاب السلام/ باب تحريم الكهانة).

قوله: "**فيكـون أول من يرفع رأسه جبريل**"، أول: بالنصب على أنها خبر مقدم، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخراً.

قوله: "**بما أراد**"، أي: بما شاء، لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

قولـه: "**ثم يمر جبريل على الملائكة**"، لأنه يريد الـنزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي.

* * *

فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير. فيقولـون كلهم مثل ما قـال جبريـل، فينتهي جبريل بـالوحي إلى حيث أمـره الله عز وجل"[1].

قوله: "**قال الحق وهو العلي الكبير**"، سـبق في تفسـير ذلك أنه يحتمل قـال الحق في هـذه القضـية المعينـة، أو قـال الحـق، لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق، وأياً كـان، فـإن جبريل لا يخـبر الملائكة بما أوحى الله إليـه، بل يقـول: قـال الحق مبهمـاً، ولهـذا سـمي عليه السـلام بـالأمين، والأمين: هو الذي لا يبوح بالسر.

قوله: "**وهو العلي الكبير**"، تقدم الكلام عليه.

قولـه: "**فيقولون كلهم مثل ما قـال جبريل**"، أي: قـال الحـق، وهو العلي الكبير.

قولـــه: "**فينتهي جبريل بـــالوحي إلى حيث أمـــره الله - عز وجل ـ**"، أي: يصل بالوحي إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل.

* **من فوائد الحديث:**

1- إثبــات الإرادة لقولــه: "**إذا أراد الله**"، وهي قســمان: شرعية، وكونية.

والفرق بينهما أولاً: من حيث المتعلـق، فـالإرادة الشـرعية تتعلق بما يحبه الله - عز وجل ـ، سـواء وقع أو لم يقــع، وأما الكونيــة، فتتعلق بما يقع، سواء كان مما يحبه الله أو مما لا يحبه.

ثانياً: الفرق بينهما من حيث الحكم، أي حصول المـراد، فالشـرعية لا يلزم منها وقوع المراد، أما الكونية، فيلزم منها وقوع المراد.

فقوله تعـالى: ﴿**والله يريد أن يتــوب عليكم**﴾ [النسـاء: 27] هــذه إرادة شرعية، لأنها لو كانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضـاً متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة.

وقوله: ﴿**إن كان الله يريد أن يغويكم**﴾ [هود: 34] هذه كونيــة، لأن الله لا يريد الإغواء شرعاً، أما كوناً وقدراً، فقد يريده.

وقوله: ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الــذين من قبلكم ويتــوب عليكم**﴾ [النسـاء: 26] هـذه كونيـة، لكنها في الأصل شـرعية، لأنه قال: ﴿**ويتوب عليكم**﴾ [النساء: 26].

وقوله تعـــــــالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ [البقرة: 185] هذه شرعية، لأن قولـه: ﴿**ولا يريد بكم العسر**﴾ لا يمكن أن تكون كونية، إذ إن العسر يقع ولو كان الله لا يريده قدراً وكوناً؛ لم يقع.

2- أن المخلوقات وإن كـانت جمـاداً تحس بعظمة الخـالق، قـال تعـالى: ﴿**تسـبح له السـماوات السـبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ [الإسراء: 44].

---

[1] تفسير ابن جرير الطبري (22/91)، وابن كثير في تفسير (6/504).

3- إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿**ماذا قال ربكم**﴾؟ ويجابون: قال ﴿**الحق**﴾، خلافاً لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك، فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

4- إثبات تعدد السماوات، لقوله: "**كلما مر بسماء**".

5- أن لكل سماء ملائكة مخصصين، لقوله: "**سأله ملائكتها**".

6- فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة بن نوفل: "هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى"[1]، والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السر.

7- أمانة جبريل عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله - عز وجل ـ، فيكون فيه رد على الرافضة الكفرة الذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحي إلى علي فأوحى إلى محمد ﷺ، ويقولون: خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب، لأنه كان يقول في غزوة خيبر، أنا الذي سمتني أمي حيدرة[2].

وفي هذا تناقض منهم، لأن وصفه بالأمانة يقتضي عدم الخيانة.

8- إثبات العزة والجلال لله - عز وجل ـ، لقوله: "**عز وجل**"، والعزة بمعنى الغلبة والقوة، وللعزيز ثلاثة معان:

1- عزيز: بمعنى ممتنع أن يناله أحد بسوء.

2- عزيز: بمعنى ذي قدر لا يشاركه فيه أحد.

3- عزيز: بمعنى غالب قاهر.

قال ابن القيم في النونية:

وهو العزيز فلن يرام جنابه	أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذ ثلاث معان

وأما جل: فالجلال بمعنى العظمة التي ليس فوقها عظمة.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير الآية. **الثانية:** ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

فيها مسائل:

- **الأولى: تفسير الآية،** أي قوله تعالى: ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم...**﴾ الآية، وقد سبق تفسيرها.
- **الثانية: ما فيه من الحجة على إبطال الشرك،** وذلك أن الملائكة وهم من هم في القوة والعظمة يصعقون ويفزعون من

---

[1] البخاري: كتاب بدء الوحي/ باب بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي.
[2] مسلم: كتاب الجهاد/ باب غزوة ذي قرد.

تعظيم الله، فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله وهي أقل منهم بكثير، فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

ولذلك قيل: إن هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب، لأن الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي، فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئاً مخلوقاً ربما يصنعه بيده حتى كان جهال العرب يصنعون آلهة من التمر إذا جاع أحدهم أكلها؟!

وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار: ثلاثة يجعله تحت القدر، والرابع - وهو أحسنها - يجعلها إلهاً له.

* * *

الثالثة: تفسير قوله: ﴿**قالوا الحق وهو العلي الكبير**﴾. **الرابعة:** سبب سؤالهم عن ذلك. **الخامسة:** أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: "قال كذا وكذا". **السادسة:** ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل. **السابعة:** أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه. **الثامنة:** أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

- **الثالثة: تفسير قوله: ﴿قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾،** وسبق تفسيرها.
- **الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.** فالسؤال: ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفاً من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب.
- **الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا،** أي: يقول: قال الحق.
- **السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل،** لحديث النواس بن سمعان، وفيه فضيلة جبريل.
- **السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه،** وفي هذا دليل على عظمته بينهم.
- **الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم،** تؤخذ من قوله: "**فإذا سمع ذلك أهل السماوات، صعقوا وخروا لله سجداً**".

* * *

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله. **العاشرة:** أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله. **الحادية عشرة:** ذكر استراق الشياطين. **الثانية عشرة:** صفة ركوب بعضهم بعضاً. **الثالثة عشرة:** إرسال الشهب. **الرابعة عشرة:** أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

- **التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله،** لقوله: "**أخذت السماوات منه رجفة**"، أي: لأجله تعظيماً لله.
- **العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره،** أي: لا أحد يتولى إيصال الوحي غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به، لأنه الأمين على الوحي.

■ **الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين،** أي: الذين يسترقون ما يسمع في السماوات، فيلقونه على الكهان، فيزيد فيه الكهان وينقصون.

■ **الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً،** وصفها سفيان رحمه الله بأن حرف يده وبدد بين أصابعه.

■ **الثالثة عشرة: إرسال الشهب،** يعني: التي تحرق مسترقي السمع، قال تعالى: **إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين** [الحجر، 18].

■ **الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.**

* * *

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان. **السادسة عشرة:** كونه يكذب معها مئة كذبة. **السابعة عشرة:** أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

■ **الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان،** لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء، صار صادقاً.

*** اعتراض وجوابه:**

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟

والجواب: إن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي .

أما الأمور القدرية التي يتكلم الله بها، فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقو السمع.

■ **السادسة عشرة: كونه يكذب معها مئة كذبة،** أي: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق.

وقوله: "**مئة كذبة**" هذا على سبيل المبالغة كما سبق وليس على سبيل التحديد.

■ **السابعة عشرة: أنه لم يصدق إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء،** وأما ما قاله من عنده، فهو تخرص، فالكلمة التي تسمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب يموه به على الناس.

* * *

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل! كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة؟! **التاسعة عشرة:** كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها. **العشرون:** إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

■ **الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة؟!** وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسفه، فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة، وأما مئة كذبة، فلا يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغتر به أهل العقل

والإيمان، ولهذا لما نزل قوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾ [البقرة: 219]، تركهما كثير من الصحابة اعتباراً بالموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة، فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع.

- **التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها... إلخ،** الكلمة: هي الصدق، لأن هي التي تروج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذباً ما راجت بين الناس.
- **العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة،** الأشعرية: هم الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري وسموا معطلة لأنهم يعطلون النصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه. والمراد تعطيل أكثر ذلك فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة، فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عامتهم، وإلا، فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأما الأشاعرة، فهم معطلة اعتباراً بالأكثر، لأنهم لا يثبتون من الصفات إلى سبعاً، وصفاته وتعالى لا تحصى، وإثباتهم لهذه السبع ليس كإثبات السلف، فمثلاً: الكلام عند أهل السنة أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف.

والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزومه الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئته، وهذا الذي يسمع عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، بل هو مخلوق، فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنه لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله، لأننا أجمعنا على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، وحجتهم في إثبات الصفات السبع: أن العقل دل عليها.

وشبهتهم في إنكار البقية: زعموا أن العقل لا يدل عليها.

والرد عليهم بما يلي:

1- أن كون العقل يدل على الصفات السبع لا يدل على انتفاء ما سواها، فإن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول، فهب أن العقل لا يدل على بقية الصفات، لكن السمع دل عليها، فتثبتها بالدليل السمعي.

2- أنها ثابتة بالدليل العقلي بنظير ما أثبتم هذه السبع، فمثلاً: الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن الله جعل الشمس شمساً والقمر قمراً والسماء سماءً والأرض أرضاً، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سبحانه وتعالى يريد، إذ لولا الإرادة، لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لا تمضي لحظة على الخلق إلا وهم في نعمة من الله، فهذه النعم العظيمة من الله تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس، فالمؤلف رحمه الله لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات على خلاف في إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا، فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق.

* * *

الحادية والعشرون: التصـريح بـأن تلك الرجفة والغشي خوفـاً من الله عز وجل. **الثانية والعشرون:** أنهم يخرون الله سجداً.

- **الحادية والعشـــرون: التصـــريح بـــأن تلك الرجفة والغشي خوفــاً من الله - عز وجل - ،** فيـدل على عظمة الخـالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.
- **الثانية والعشـــرون: أنهم يخـــرون لله ســـجداً،** أي: تعظيمــاً لله واتقــاء لما يخشــونه، فتفيد تعظيم الله - عز وجل - كـالتي قبلها.

* * *

باب الشفاعة

ذكر المؤلف رحمه الله الشفاعة في كتاب التوحيد، لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنها شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله - سبحانه وتعالى - فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك.

وهم بذلك يظنون أنهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون لـه، لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء.

ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند اللـه، فيقربونا إلى اللـه، وهم ضالون في ذلـك، فهو سبحانه عليم وقدير وذو سلطان، ومن كان كذلك، فإنه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم، فيتجرأ عليهم الشفعاء، فيشفعون بدون استئذان، ولكن الله - عز وجل - كامل العلم والقدرة والسلطان ، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يراد بها معونة الله - سبحانه - في شيء مما شفع فيه، فهذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]، ولكن يقصد بها أمران، هما:

1- إكرام الشافع. 2- نفع المشفوع له.

والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر، قال تعالى: ﴿**والشفع والوتر**﴾ [الفجر: 3].

واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها.

مثال دفعة المضرة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.

* * *

وقوله الله عز وجل: ﴿**وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع**﴾ [الأنعام: 51].

وذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدة آيات:

- **الآية الأولى قوله تعالى:** ﴿وأنذر به﴾، الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، أما مجرد الخبر، فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ.

والضمير في ﴿**به**﴾ يعود للقرآن، كما قال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها**﴾ [الشورى: 7]، وقال تعالى: ﴿**لتنذر به وذكرى للمؤمنين**﴾ [الأعراف: 2].

وقوله: ﴿**يخافون أن يحشروا**﴾، أي: يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر.

والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء، فمعنى يحشرون، أي: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله ﴿**ليس لهم من دونه ولي لا شفيع**﴾، ﴿**ولي**﴾، أي: ناصر ينصرهم.

﴿**ولا شفيع**﴾، أي: شافع يتوسط لهم، وهذا محل الشاهد.

---

[1] يأتي (ص332).

ففي هــذه الآية نفي الشــفاعة من دون اللــه، أي من دون إذنــه، ومفهومها: أنها ثابتة بإذنه، وهذا هو المقصود، الشـفاعة من دونه مسـتحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة.

أما عند الملوك، فجائزة بـإذنهم وبغـير إذنهم، فيمكن لمن كـان قريبـاً من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن.

ويفيد قوله: ﴿**من دونه**﴾ أن لهم بإذنه وليـاً وشـفيعاً، كما قـال تعـالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله**﴾ [المائدة: 55].

* * *

وقوله: ﴿**قل لله الشفاعة جميعاً**﴾ [الزمر: 44]

- **الآية الثانية قوله تعـالى: ﴿لله الشـفاعة﴾**، مبتـدأ وخـبر، وقدم الخبر للحصـر، والمعـنى: لله وحـده الشـفاعة كلهـا، لا يوجد شـيء منها خـارج عن إذن الله وإرادتـه، فأفـادت الآية في قولـه: ﴿**جميعـاً**﴾ أن هناك أنواعاً للشفاعة.

وقد قسم أهل العلم رحمه الله الشفاعة إلى قسمين رئيسيين، هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ، وهي أنواع:

النـوع الأول: الشـفاعة العظمى، وهي من المقـام المحمـود الـذي وعـده اللـه، فـإن النـاس يلحقهم يـوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض: اطلبوا من يشــفع لنا عند الله، فيذهبون إلى آدم أبي البشر، فيذكرون من أوصافه التي ميزه الله بهـا: أن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكتـه، وعلمه أسـماء كل شـيء، فيقولـون: اشفع لنا عند ربـك، ألا تـرى إلى ما نحن فيـه؟! فيعتـذر لأنه عصى الله بأكله من الشجرة، ومعلـوم أن الشـافع إذا كـان عنـده شـيء يخـدش كرامته عند المشفوع إليه، فإنه لا يشفع لخجله من ذلك، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتبــاه وهــداه، قــال تعــالى: ﴿**وعصى آدم ربه فغـوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾ [طـه: 121،122]، لكن لقـوة حيائه من الله اعتذر.

ثم يـذهبون إلى نـوح، ويـذكرون من أوصـافه الـتي امتـاز بها بأنه أول رسول أرسله الله إلى الأرض، فيعتذر بأنه سأل الله ما ليس له به علم حين قـــال: ﴿**رب إن ابــــني من أهلي وإن وعــــدك الحق وأنت أحكم الحاكمين**﴾ [هود: 45].

ثم يذهبون إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من أوصـافه ما يقتضي أن يشــفع، فلا يعتــذر بشــيء، لكن يحيل إلى من هو أعلى مقامــاً، فيقول: اذهبوا إلى محمـد، عبد غفر له ما تقـدم من ذنبه وما تـأخر، فيحيلهم إلى محمد ﷺ دون أن يذكر عذراً يحول بينه وبين الشفاعة[1]، فيأتون محمـداً ﷺ، فيشفع إلى الله ليريح أهل الموقف.

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها، لأنهم إذا عبروا الصــراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع له، فيشفع النبي ﷺ إلى الله في فتح أبــواب الجنة لأهلهــا، ويشــير إلى ذلك قوله تعــالى: ﴿**حــتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها**﴾ [الزمر: 73]، فقال: ﴿**وفتحت**﴾، فهنـاك شـيء

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة.

محــذوف، أي: وحصل ما حصل من الشــفاعة، وفتحت الأبــواب، أما النــار، فقال فيها: ﴿**حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها...**﴾ الآية.

الثــالث: شــفاعته ﷺ في عمه أبي طــالب أن يخفف عنه العــذاب[2]، وهــذه مســتثناة من قوله تعــالى: ﴿**فما تنفعهم شــفاعة الشــافعين**﴾ [المــدثر: 48]، وقوله تعــالى: ﴿**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً**﴾ [طــه: 109]، وذلك لما كــان لأبي طــالب من نصرة للنبي ﷺ ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار، لكن خفف عنه حتى صار - والعياذ بالله - في ضحضـاح من نـار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغـه، وهـذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ لا أحد يشفع في كافر أبـداً إلا النـبي ﷺ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة، وإنما هي تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين.

وهي أنواع:

النوع الأول: الشـفاعة فيمن اسـتحق النـار أن لا يـدخلها، وهـذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: "**ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً، إلا شفعهم الله فيه**"[3]، فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم الله في ذلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تــواترت بها الأحاديث وأجمع عليها الصحابة، واتفق عليها أهل الملة ما عدا طــائفتين، وهما: المعتزلة والخوارج، فإنهم ينكرون الشفاعة في أهل المعاصي مطلقــاً لأنهم يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النـار، ومن اسـتحق الخلـود، فلا تنفع فيه الشفاعة، فهم ينكرون أن النبي ﷺ أو غـيره يشـفع في أهل الكبـائر أن لا يدخلوا النـار، أو إذا دخولها أن يخرجـوا منهـا، لكن قـولهم هـذا باطل بـالنص والإجماع.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجـات المؤمـنين، وهـذه تؤخذ من دعــاء المؤمــنين بعضــهم لبعض كما قــال ﷺ في أبي ســلمة: "**اللهم اغفر لأبي ســلمة، وارفع درجته في المهــديين، وأفسح له في قــبره، ونور له فيه، واخلفه في عقبه**"[1]، والـدعاء شـفاعة، كما قـال ﷺ: "**ما من مسلم يموت، فيقـوم على جنازته أربعـون رجلاً لا يشــركون بالله شيئاً، إلا شفعهم الله فيه**".

*** إشكال وجوابه:**

فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذن وزيادة.

وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصـنام من معبـوديهم، فهي شـفاعة باطلة لأن الله لا يـأذن لأحد بالشـفاعة إلا من ارتضـاه من الشـفعاء والمشفوع لهم.

إذا قولــه: ﴿**لله الشــفاعة جميعــاً**﴾ تفيد أن الشــفاعة متعــددة كما سبق[2].

---

[2] البخاري: كتاب الفضائل/ باب قصة أبي طالب، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب.
[3] مسلم: كتاب الجنائز/ باب من صلى عليه أربعون.
[1] مسلم: كتاب الجنائز/ باب في إغماض الميت.
[2] تقدم (ص 325).

* * *

وقوله: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة: 255]

- **الآية الثالثة قوله تعـــالى: ﴿من ذا الـــذي﴾** ،﴿**من**﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.

﴿**ذا**﴾: هل تجعل ذا اسماً موصولاً كما قـال ابن مالك في "**الألفية**"، أو لا تصح أن تكون اسماً موصولاً هنا لوجود الاسم الموصول ﴿**الذي**﴾؟

الثـاني هو الأقـرب، وإن كـان بعض المعـربين قـال: يجـوز أن تكـون ﴿**الذي**﴾ توكيداً لها.

والصحيح أن ﴿**ذا**﴾ هنا إما مركبة مع ﴿**من**﴾، أو زائدة للتوكيد، وأيـاً كـان الإعراب، فالمعنى: إنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله.

وسـبق أن النفي إذا جـاء في سـياق الاسـتفهام، فإنه يكـون مضـمناً معنى التحدي، أي إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله فأت به.

قوله: ﴿**عنده**﴾، ظـرف مكـان، وهو سـبحانه في العلـو، فلا يشـفع أحد عنده ولو كان مقرباً، كالملائكة المقـربين، إلا بإذنه الكـوني، والإذن لا يكـون إلا بعد الرضا.

وأفادت الآية: أنه يشترط للشفاعة إذن الله فيها لكمـال سـلطانه جل وعلا، فإنه كلما كمل سلطان الملك، فإنه لا أحد يتكلم عنده ولو كان بخير إلا بعد إذنه، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانة له ودليلاً على أنه ليس كبيراً في نفوس من عنده، كان الصحابة مع الرسـول ﷺ كأنما على رؤوسـهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلا إذا فتح الكلام، فإنهم يتكلمون.

* * *

وقولـه: ﴿**وكم من ملك في السـماوات لا تغـني شـفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى**﴾ [النجم: 26].

- **الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وكم من ملك﴾**.

﴿**كم**﴾ خبرية للتكثـير، والمعـنى: ما أكـثر الملائكة الـذين في السـماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا بعد إذن الله ورضاه.

قوله: ﴿**إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى**﴾، فللشفاعة شرطان، هما:

1- الإذن من الله، لقوله: ﴿**أن يأذن الله**﴾.

2- رضـاه عن الشـافع والمشـفوع لـه، لقولـه: ﴿**ويرضى**﴾، وكما قـال تعـالى: ﴿**ولا يشـفعون إلا لمن ارتضى**﴾ [الأنبيـاء: 28]، فلا بد من إذنه تعالى ورضاه عن الشافع والمشـفوع لـه، إلا في التخفيف عن أبي طالب، وقد سبق ذلك[1].

وهذه الآية في سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى بعد ذكر المعـراج وما حصل للنـبي ﷺ فيـه: ﴿**لقد رأى من آيات ربه الكـبرى**﴾ [النجم: 18]، أي: العلامـات الدالة عليه عز وجـل، فكيف به سـبحانه؟! فهو أكبر وأعظم.

ثم قـال: ﴿**أفـرأيتم اللات والعـزى * ومنـاة الثالثة الأخـرى**﴾ [النجم: 19، 20]، وهذا اسـتفهام للتحقـير، فبعد أن ذكر الله هـذه العظمة قال: أخبروني عن هذه اللات والعزى ما عظمتها؟ وهذا غاية في التحقير، ثم قال: ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسـمة ضـيزى * إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنـزل الله بها من سـلطان إنه**

---

[1] (ص 325)

يتبعــون إلى الظن وما تهــوى الأنفس ولقد جــاءهم من ربهم الهـدى * أم للإنسـان ما تمـنى * فلله الآخـرة والأولى* وكم من ملك....﴾ الآية [النجم: 21-26].

فإذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه، فكيف باللات والعزى وهي في الأرض؟!

ولهذا قال: ﴿**وكم من ملك في السماوات**﴾، مع أن الملائكة تكـون في السماوات وفي الأرض، ولكن أراد الملائكة الـتي في السـماوات العلى، وهي عند الله - سبحانه - ، فحتى الملائكة المقربـون حملة العـرش لا تغـني شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

* * *

- **الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿قل ادعوا﴾.**

الأمر في قوله: ﴿**ادعوا**﴾ للتحـدي والتعجـيز، وقولـه: ﴿**ادعـوا**﴾ يحتمل معنيين، هما:

1- أحضروهم.
2- أدعوهم دعاء مسألة.

فلو دعــوهم دعــاء مســألة لا يســتجيبون لهم، كما قــال تعــالى: ﴿**إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سـمعوا ما اسـتجابوا لكم ويـوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير**﴾ [فاطر: 14].

يكفرون: يتبرؤون، ومع هذه الآيات العظيمة يذهب بعض الناس يشرك بالله ويستنجد بغـير اللـه، وكـذلك لو دعـوهم دعـاء حضـور لم يحضـروا، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم.

قوله: ﴿**لا يملكون مثقـال ذرة**﴾، واحـدة الـذر: وهي صـغار النمـل، ويضرب بما المثل في القلة.

قولـه: ﴿**مثقال ذرة**﴾، وكـذلك ما دون الـذرة لا يملكونـه، والمقصـود بذكر الذرة المبالغة، وإذا قصد المبالغة بالشيء قله أو كثرة، فلا مفهوم لــه، فالمراد الحكم العام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿**إن تستغفر لهم سـبعين مـرة فلن يغفر الله لهم**﴾ [التوبة: 80]، أي: مهما بالغت في الاستغفار.

ولا يرد على هذا أن الله أثبت ملكاً للإنســان، لأن ملك الإنســان قاصر وغير شامل ومتجدد وزائل، وليس كملك الله.

قوله: ﴿**ما لهم فيهما من شرك**﴾، أي: ما لهؤلاء الـذين تـدعون من دون الله.

﴿**فيهما**﴾، أي: في السماوات والأرض.

﴿**من شــرك**﴾، أي: مشــاركة، أي لا يملكونه انفــراداً ولا مشــاركة. وقولـه: ﴿**من شرك**﴾: مبتـدأ مـؤخر دخلت عليه ﴿**من**﴾ الزائـدة لفظـاً، لكنها للتوكيد معنى.

وكل زيادة لفظية في القرآن فهي زيادة في المعنى.

وأتت ﴿**من**﴾ للمبالغة في النفي، وأنه ليس هنـــاك شـــرك لا قليل ولا كثير.

قولـه: ﴿**وما له منهم من ظهـير**﴾، الضـمير في ﴿**ما له**﴾ يعـود إلى الله تعــالى. وفي ﴿**منهم**﴾ يعــود إلى الأصــنام، أي: ما لله تعــالى من هــذه الأصنام ظهير.

و﴿**من**﴾: حرف جر زائد، و﴿**ظهير**﴾: مبتدأ مؤخر بمعنى معين، كما قال تعـالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يـأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضـهم لبعض ظهـيراً**﴾ [الإسـراء: 88]، أي: معيناً، وقال تعالى: ﴿**والملائكة بعد ذلك ظهير**﴾ [التحـريم: 4]، أي: معين. أي: ليس لله معين في أفعاله، وبذلك ينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلق به العابدون، فهي لا تملك شيئاً على سـبيل الانفـراد ولا المشـاركة ولا الإعانة، لأن من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منه عليك، فربما تحابيه في إعطائه ما يريد.

فـإذا انتفت هـذه الأمـور الثلاثـة، لم يبق إلا الشـفاعة، وقد أبطلها الله بقوله: ﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾ [سـبأ: 23]، فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء، لأن هـذه الأصـنام لا يـأذن الله لهـا، فـانقطعت كل الوسـائل والأسـباب للمشـركين، وهـذا من أكـبر الآيـات الدالة على بطلان عبادة الأصنام، لأنها لا تنفع عابديها لا اسـتقلالاً ولا مشـاركة ولا مسـاعدة ولا شفاعة، فتكون عبادتها باطلـة، قـال تعـالى: ﴿**ومن أضل ممن يـدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾ [الأحقـاف: 5]، حـتى ولو كان المدعو عاقلاً، لقوله: ﴿**من**﴾، ولم يقل: "**ما**"، ثم قال تعـالى: ﴿**وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كـانوا لهم أعـداء وكـانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الأحقاف: 5،6]، وكل هذه الآيـات تـدل على أنه يجب على الإنسـان قطع جميع تعلقاته إلا بالله عبـادة وخوفـاً ورجـاء واسـتعانة ومحبة وتعظيمـاً، حـتى يكـون عبـداً لله حقيقـة، يكـون هـواه وإرادته وحبه وبغضه وولاؤه ومعاداته لله وفي الله، لأنه مخلوق للعبادة فقط، قال تعـالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثـاً وأنكم إلينا لا ترجعـون**﴾ [المؤمنـون: 115]، أي: لا نـأمركم ولا ننهـاكم، إذ لو خلقنـاكم فقط للأكل والشـرب والنكاح، لكان ذلك عين العبث، ولكن هناك شيء وراء ذلك، وهو عبـادة الله سبحانه في هذه الدنيا.

وقولـه: ﴿**إلينا ترجعـون**﴾، أي: وحسـبتم أنكم إلينا لا ترجعـون، فنجازيكم إذا كان هذا هو حسبانكم، فهو حسبان باطل.

* * *

قـال أبو العبـاس: "نفى الله عما سـواه كل ما يتعلق به المشـركون، فنفى أن يكـون لغـيره ملك أو قسط منـه، أو يكـون عونـاً للـه، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قـال: ﴿**ولا يشـفعون إلا لمن ارتضى**﴾ [الأنبياء: 28].

قوله: "**قال أبو عباس**"، هو شيخ الإسـلام تقي الـدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله يكنى بذلك، ولم يـتزوج، لأنه كـان مشغولاً بالعلم والجهاد، وليس زاهداً في السنة، مات سـنة 728هـ، وله 67 سنة و 10 أشهر.

قوله: "**لغيره ملك**"، أي: لغير الله في قولـه: ﴿**لا يملكـون مثقـال ذرة في السماوات ولا في الأرض**﴾.

قوله: "**أو قسط منه**" في قوله: ﴿**وما لهم فيهما من شرك**﴾.

قولـه: "**أو يكـون عونـاً لله**" في قوله تعـالى: ﴿**وما له منهم من ظهير**﴾ بدون استثناء.

قولــه: "**ولم يبق إلا الشــفاعة**"، فــبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب، كما قال تعـالى: **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**، وقـال: **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه** [البقـرة: 255]، ومعلـوم أنه لا يرضى هـذه الأصنام لأنها باطلة، وحينئذ فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أن شرك المشركين في السـابق كـان في عبـادة الأصـنام، أما الآن، فهو في طاعة المخلوق في المعصية، فـإن هـؤلاء يقدسـون زعمـاءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقـال لهم: إنهم بشر مثلكم، خرجـوا من مخرج البـول والحيض، وليس لهم شـرك في السـماوات ولا في الأرض، ولا يملكون الشـفاعة لكم عند اللـه، إذاً، فكيف تتعلقـون بهم؟! حـتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين.

والـواجب علينا نحو ولاة الأمـور طـاعتهم، وطـاعتهم من طاعة اللـه، وليس استقلالاً، أما عبادتهم كعبادة الله، فهذه جاهلية وكفر.

* * *

فهذه الشـفاعة الـتي يظنها المشـركون هي منتفية يـوم القيامـة، كما نفاها القرآن وأخبر النبي : "**أنه يأتي فيسـجد لربه ويحمـده - لا يبـدأ بالشـفاعة أولاً - ثم يقـال لـه: ارفع رأسـك، وقل يسـمع، وسل تعط، واشفع تشفع**"[1].

فهذه الشـفاعة الـتي يظنها المشـركون هي منتفية يـوم القيامـة، كما نفاها القـرآن، فالله - سـبحانه وتعـالى - نفى أن تنفعهم أصـنامهم، بل قـال: **إنكم وما تعبــدون من دون الله حصب جهنم أنت لها واردون لو كـان هـؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالـدون** [الأنبيـاء: 98/99]، حتى الأصنام لا تنفع نفسها ولا يشفع لها، فكيف تكون شـافعة؟! بل هي في النار وعابدوها.

قوله: "**وأخبر النبي أنه يـأتي فيسـجد لربه**"، أي: وكما أخــبر، فالواو عاطفة، ويجوز أن تكـون اسـتئنافية، فـإذا كـان الرسـول وهو أعظم الناس جاهاً عند الله لا يشـفع إلا بعد أن يحمد الله ويثـني عليـه، فيحمد الله بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه لم يكن يعلمها من قبـل، ويطـول سـجوده، فكيف بهذه الأصنام هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: "**ارفع رأسك**"، أي: من السجود.

قولــه: "**وقل يســمع**"، الســامع هو اللــه، و"يســمع": جــواب الأمر مجزوم.

قولـه: "**وسل تعط**"، أي: سل ما بـدا لك تعط إيـاه، وتعـط: مجـزوم بحذف حرف العلة جواباً لسل.

قوله: "**واشفع تشفع**"، وحينئذ يشفع النبي في الخلائق أن يقضى بينهم.

* * *

قوله: "**وقال أبو هريرة له : من اسـعد النـاس بشـفاعتك؟**" هذا السؤال من أبي هريرة للنبي ، فقال له النــبي : "**لقد كنت أظن أن لا يســألني أحد غــيرك عنه لما أرى من حرصك على العلم**"، وفي هذا دليل على أن من وسائل تحصيل العلم السؤال.

---

[1] البخاري: كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

قولـــه: "**من قـــال: لا إله إلا الله خالصـــاً من قلبه**"، وعليـــه، فالمشركون ليس لهم حظ من الشفاعة لأنهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعـــالى: "**إنهم كـــانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يســـتكبرون * ويقولـون أئنا لتـاركوا آلهتنا لشـاعر مجنـون**" [الصـافات: 35،36]، وقـال تعـالى حكاية عنهم: "**اجعل الآلهة إلهـاً واحـداً إن هـذا لشـيء عجاب**" [ص: 5].

الحقيقة أن صنيعهم هو العجاب، قال تعالى: "**بل عجبت ويسخرون** " [الصـافات: 12]، وقـال تعـالى: "**وإن تعجب فعجب قـولهم أإذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد**" [الرعد: 5].

وقوله: "**خالصاً من قلبه**" خرج بذلك من قالها نفاقاً، فإنه لا حظ له في الشفاعة، فإن المنافق يقـول: لا إله إلا اللـه، ويقـول: أشـهد أن محمـداً رسول الله، لكن الله - عز وجل - قابل شهادتهم هذه بشهادته على كـذبهم، قـال تعـالى: "**والله يعلم إنك لرسـوله والله يشـهد إن المنـافقين لكاذبون**" [المنافقون: 1]، أي: في شهادتهم، في قولهم: إنك لرسول الله، فهم كاذبون في شهادتهم وفي قولهم: لا إله إلا اللـه، لأنهم لو شـهدوا بـذلك حقاً ما نافقوا ولا أبطنوا الكفر.

قولـه: "**خالصـاً**"، أي: سـالماً من كل شـوب، فلا يشـوبها ريـاء ولا سمعة، بل هي شهادة يقين.

قولـــه: "**من قبله**"، لأن المـــدار على القلب، وهو ليس معـــنى من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس، قال الله تعـالى: "**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصـدور**" [الحج: 46]، وقـال تعالى: "**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلـوب يعقلـون بها**"، وقـــال : "**ألا وإن في الجسد مضـــغة، إذا صـــلحت صـــلح الجسد كله**"[1].

وبهذا يبطل قول من قـال: إن العقل في الـدماغ، ولا ينكر أن للـدماغ تـأثيراً في الفهم والعقـل، لكن العقل في القلب، ولهـذا قـال الإمـام أحمـد: "العقل في القلب، وله اتصال في الدماغ".

ومن قال كلمة الإخلاص خالصاً من قلبه، فلا بد أن يطلب هذا المعبود بسلوك الطرق الموصلة إليه، فيقوم بأمر الله ويدع نهيه.

قوله: "**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص**"، لأن من أشرك بالله قـال الله فيه: "**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**".

قولـه: "**وحقيقته أن الله - سـبحانه - هو الـذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع**".

وحقيقتـه، أي: حقيقة أمر الشـفاعة، أي الفائـدة منهـا: أن الله - عز وجل - أراد أن يغفر للمشفوع له، ولكن بواسطة هذه الشفاعة.

والحكمة من هـــذه الواســـطة بينها بقولـــه: "ليكرمه وينـــال المقـــام المحمـود"، ولو شـاء الله لغفر لهم بلا شـفاعة، ولكنه أراد بيـان فضل هـذا الشافع وإكرامه أمـام النـاس، ومن المعلـوم أن من قبل الله شـفاعته، فهو عنده بمنزلة عالية، فيكون في هذا إكرام للشافع من وجهين:

الأول: إكرام الشافع بقبول شفاعته.

الثاني: ظهور جاهه وشرفه عند الله تعالى.

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم: كتاب المساقاة/ باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

قولـه: "**المقـام المحمـود**"، أي: المقـام الـذي يحمد عليه وأعظم الناس في ذلك رسول الله ﷺ، فإن الله وعده أن يبعثه مقامـاً محمـوداً، ومن المقـام المحمـود: أن الله يقبل شـفاعته بعد أن يـتراجع الأنبيـاء أولو العـزم عنها.

ومن يشفع من المؤمنين يوم القيامة، فله مقـام يحمد عليه على قـدر شفاعته..

قوله "**فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك**"، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

"ما"، اسم موصول، أي: التي كان فيها شرك.

قولـه: "**وقد أثبت الشـفاعة بإذنه في مواضع**"، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾ [سـبأ: 23]، وقولـه: ﴿**وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شـيئاً إلا من بعد أن يـأذن الله لمن يشاء ويرضى**﴾ [النجم: 26].

قولـــه: "**وقد بين النـــبي ﷺ أنها لا تكـــون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد**".

أما أهل الشــرك، فــإن الشــفاعة لا تكــون لهم، لأن شــفعاءهم هي الأصنام، وهي باطلة.

وجه إدخال باب الشـفاعة في كتـاب التوحيـد، أن الشـفاعة الشـركية تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير الآيـات: **الثانية:** صـفة الشـفاعة المنفيـة. **الثالثـة:** صــفة الشــفاعة المثبتــة. **الرابعــة:** ذكر الشــفاعة الكــبرى وهي المقــام المحمود. **الخامسة:** صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسـجد، فـإذا أذن له، شفع.

- **فيه مسائل:**
- **الأولى: تفسير الآيـات،** وهي خمس، وســبق تفســيرها في محالها.
- **الثانية: صفة الشفاعة المنفية،** وهي ما كـان فيها شـرك، فكل شفاعة فيها شرك، فإنها منفية.
- **الثالثة: صفة الشفاعة، المثبتة** وهي شــفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له.
- **الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود،** وهي الشــفاعة في أهل الموقف أن يقضى بينهم، وقــول الشــيخ: "وهي المقام المحمود"، أي: منه[1].
- **الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشـفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له، شفع،** كما قـال شـيخ الإسـلام رحمه اللـه، وهو ظاهر، وهذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي ﷺ.

* * *

[1] تقدم (ص 336).

السادسة: من أسعد الناس بها؟ **السابعة:** أنها لا تكون لمن أشـرك بالله. **الثامنة:** بيان حقيقتها.

- **السادســـة: من أســـعد النـــاس بهـــا؟** هم أهم التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه.

ولا إله إلا الله معناها: لا معبود حق إلا الله، وليس المعنى: لا معبود إلا الله، لأنه لو كان كذلك، لكـان الواقع يكـذب هـذا، إذ إن هنـاك معبـودات من دون الله تعبد وتسمى آلهة، ولكنها باطلـة، وحينئذ يتعين أن يكـون المـراد لا إله حق إلا الله.

ولا إله إلا الله تتضمن نفياً وإثباتاً، هذا هو التوحيد، لأن الإثبات المجـرد لا يمنع المشـــاركة، والنفي المجـــرد تعطيل محض ، فلو قلت: لا إله معنـــاه عطلت كل إلـه، ولو قلت: الله إله ما وحـدت، لأن مثل هـذه الصـيغة لا تمنع المشاركة، ولهذا قـال الله تعـالى: **وإلهكم إله واحد** [البقـرة: 163] لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

- **السابعة: أنها لا تكـون لمن أشـرك باللـه،** لقوله تعـالى: **فما تنفعهم شفاعة الشافعين** [المدثر: 48]، وغير ذلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله : "**خالصاً من قلبه**".
- **الثامنـة: بيـان حقيقتهـا،** وحقيقتهـا: أن الله تعـالى يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواســـطة من أذن له أن يشـــفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

* * *

باب قول الله تعالى:
إنك لا تهدي من أحببت الآية.

*** مناسبة هذا الباب لما قبله:**

مناسبته أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحداً بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحداً، فيقوم بما أمر الله به.

* * *

قوله تعالى: **إنك لا تهدي من أحببت** [القصص: 56]، الخطاب للنبي ، وكان يحب هداية عمه أبي طالب أو من هو أعم.

فأنت يا محمد المخاطب بكاف الخطاب، وله المنزلة الرفيعة عند الله لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنه إذا أحب هدايته، فسوق يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكن من هذا الأمر، لأن الأمر كله بيد الله، قال تعالى: **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم** [آل عمران: 128]، وقال تعالى: **ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله** [هود: 123]، فأتى بـ "أل" الدالة على الاستغراق، لأن "أل" في قوله: "الأمر" للاستغراق، فهي نائبة مناب كل، أي: وإليه يرجع كل الأمر، ثم جاءت مؤكدة بكل، وذلك توكيدان.

والهداية التي نفاها الله عن رسوله هداية التوفيق، والتي أثبتها له هداية الدلالة والإرشاد، ولهذا أتت مطلقة لبيان أن الذي بيده هو هداية الدلالة فقط، لا أن يجعله مهتدياً، قال تعالى: **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** [الشورى: 52]، فلم يخصص سبحانه فلاناً وفلاناً ليبين أن المراد: أنك تهدي هداية دلالة، فأنت تفتح الطريق أمام الناس فقط وتبين لهم وترشدهم، وأما إدخال الناس في الهداية، فهذا أمر ليس إلى الرسول ، إنما هو مما تفرد الله به سبحانه، فنحن علينا أن نبين وندعو، وأما هداية التوفيق أي أن الإنسان يهتدي، فهذا إلى الله - سبحانه وتعالى ـ، وهذا هو الجمع بين الآيتين.

وقوله: **إنك لا تهدي من أحببت** ظاهره أن النبي يحب أبا طالب، فكيف يؤول ذلك؟

والجواب: إما أن يقال: إنه على تقدير أن المفعول محذوف، والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو.

أو يقال: إنه أحب عمه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافراً.

أو يقال: إن ذلك قبل النهي عن محبة المشركين.

والأول أقرب، أي: من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره.

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، لا ينافي هذه المحبة الشرعية، وقد أحب أن يهتدي هذا الإنسان، وإن كنت أبغضه شخصياً لكفره، ولكن لأني أحب أن الناس يسلكون دين الله.

* * *

وفي "الصحيح" عن ابن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبدالله بن أبي أمية وأبو جهلٍ، فقال له: "**يا عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**".

قوله: "**في الصحيح**"، سبق الكلام على مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: "**أبا**"، بالألف: مفعول به منصوب بالألف، لأنه من الأسماء الخمسة، و"**الوفاة**" يعني: الموت، فاعل حضرت.

قوله: "**فقال: يا عم! قل لا إله إلا الله**"، أتى ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف، لأن العم صنو الأب، أي: كالغصن معه.

والصنو: الغصن الذي أصله واحد، فكأنه معه كالغصن.

قوله: "**يا عم**" فيها وجهان:

يا عم، بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء.

ويا عم، بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله: "**قل: لا إله إلا الله**" يجوز أنه قال على سبيل الأمر والإلزام، لأنه يجب أن يأمر كل أحد أن يقول: لا إله إلا الله.

ويجوز أنه قاله على سبيل الترجي والتلطف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهذا بادر بالإنكار.

قوله: "**كلمة**"، منصوبة، لأنها بدل لا إله إلا الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنصب أن تكون بالرفع، أي: هي كلمة، ولكن النصب أوضح.

قوله: "**أحاج**"، بضم الجيم وفتحها، فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح فهي مجزومة جواباً للأمر: "قل"، أي: قل أحاج.

وقال بعض المعربين: إنها جواب لشرط مقدر، أي: إن تقل أحاج، وبعضهم يرى أنها جواب للأمر مباشرة، وهذا والأول أسهل، لأن الأصل عدم التقدير.

والمعنى: أذكرها حجة لك عند الله، وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله، وإن كان بعض أهل العلم قال: إن معناها أجادل الله بها، ولكن الذي يظهر لي أن المعنى: أحاج لك بها عند الله، أي: أذكرها حجة لك كما جاء في بعض الروايات: "**أشهد لك بها عند الله**"[1].

قوله: "**فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟**"، القائلان هما: عبدالله بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه، لأنهما عرفا أنه إذا قالها - أي كلمة الإخلاص - وحد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملة آبائه.

وقد مات أبو جهل على ملة عبد المطلب، أما عبدالله بن أبي أمية والمسيب الذي روى الحديث، فأسلما، فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضي الله عنهما.

قوله: "**ملة عبد المطلب**"، أي: دين عبد المطلب.

قوله: "**فأعاد عليه النبي ﷺ**"، أي: قوله قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

قوله: "**فأعادا عليه**"، أي قولهما: أترغب عن ملة عبد المطلب.

* * *

فقال النبي ﷺ: "**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**".

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.

فأنزل الله عز وجل: ﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى**﴾ [التوبة: 113].

قوله: "**فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك.... إلخ**" جملة "**لأستغفرن لك**" مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، والسلام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة، وكأن النبي ﷺ في نفسه شيء من القلق، حيث قال: "**ما لم أنه عنك**"، فوقع الأمر كما توقع ونهى عنه.

قوله: "**ما لم أنه عنك**"، فعل مضارع مبني للمجهول، والناهي عنه هو الله.

قوله: "**ما كان**"، ما: نافية، وكان: فعل ماض وناقص.

قوله: ﴿**أن يستغفروا**﴾، أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿**للنبي**﴾، خبر مقدم، أي: ما كان استغفاره.

واعلم أن ما كان أو ما ينبغي أو لا ينبغي ونحوها إذا جاءت في القرآن والحديث، فالمراد أن ذلك ممتنع غاية الامتناع، كقوله تعالى: ﴿**ما كان لله أن يتخذ من ولد**﴾ [مريم: 35]، وقوله: ﴿**وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً**﴾ [مريم: 92]، وقوله: ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر**﴾ [يس: 40]، وقوله ﷺ: "**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**"[(1)].

وقوله: ﴿**أن يستغفروا**﴾، أي: يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿**ول كانوا أولي قربى**﴾، أي: حتى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبي ﷺ، ومر بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له، فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة[(2)].

فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين، لأن هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً للمغفرة لأنك إذا دعوت الله أن يفعل ما لا يليق، فهو اعتداء في الدعاء.

* * *

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**[(3)] ﴾

قوله: "**وأنزل الله في أبي طالب**"، أي: في شأنه.

قوله: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت**﴾، الخطاب للرسول ﷺ، أي لا توفق من أحببت للهداية.

قوله: ﴿**ويهدي من يشاء**﴾، أي يهدي هداية التوفيق من يشاء. واعلم أن كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى، فهو مقرون بالحكمة، أي: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنه يهتدي، ومن اقتضت حكمته أن يضله أضله.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره، فالذين يلجئون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنه قد قام معه قياماً عظيماً، ناصره وآزره في دعوته، فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!

---

(1) مسلم: كتاب الإيمان/ باب في قوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينام".

(2) مسلم: كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل زيارة أمه.

(3) البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿وإنك لا تهدي من أحببت﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.

- **الإشكالات الواردة في الحديث:**

الإشكال الأول: الإثبات والنفي في الهداية، وقد سبق بيان ذلك[4].

الإشكال الثاني: قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكل مع قوله تعالى: **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن** [النساء: 18]، وظاهر الحديث قبول توبته.

والجواب عن ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا، فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أن هذا خاص بأبي طالب مع النبي ، ويستدل لذلك بوجهين:

1. أنه قال: "**كلمة أحاج لك بها عند الله**"، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.
2. أنه سبحانه أذن للنبي بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليخفف عنه العذاب.

ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت: بأن قوله: "**لما حضرت أبا طالب الوفاة**" مطابقاً تماماً لقوله تعالى: **حتى إذا حضر أحدهم الموت**، وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب أن هذا خاص بالنبي مع أبي طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أن قوله تعالى: **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** [التوبة: 113] في سورة التوبة، وهي متأخرة مدنية، وقصة أبي طالب مكية، وهذا يدل على تأخر النهي عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبي للاستغفار لأمه[1] وهو ذاهب للعمرة.

ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهي، فدل على تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها في قوله تعالى: **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين**، وليس المعنى أنها نزلت في ذلك الوقت.

وقيل: إن سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

الإشكال الرابع: أن أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول قل، لأنه ربما مع الضجر يقول: لا، لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: "قل".

والجواب: إن أبا طالب كان كافراً، فإذا قيل له: قل وأبي، فهو باق على كفره، لم يضره التلقين بهذا، فإما أن يبقى على كفره ولا ضرر عليه بهذا التلقين، وإما أن يهديه الله، بخلاف المسلم، فهو على خطر لأنه ربما يضره التلقين على هذا الوجه.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير قوله: **إنك لا تهدي من أحببت** الآية. **الثانية:** تفسير قوله: **ما كان للنبي...** الآية. **الثالثة:** وهي المسألة الكبيرة، تفسير قوله: "**قل لا إله إلا الله**"، بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

---

[4] (ص 340).

[1] تقدم (ص 345).

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير قوله تعـالى: ﴿إنك لا تهـدي من أحببت﴾**، أي: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبينا أن الرسـول ﷺ إذا كـان لا يسـتطيع أن يهـدي أحـداً وهو حي، فكيف يسـتطيع أن يهـدي أحـداً وهو ميت؟! وأنه كما قال الله تعالى في حقه: ﴿**قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً**﴾ [الجن: 21].
- **الثانية: تفسـير قولـه: ﴿ما كـان للنـبي .....﴾ الآية**، وقد سبق تفسـيرها وبيـان تحـريم اسـتغفار المسـلمين للمشـركين ولو كـانوا أولي قربى.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: المرحـوم، فإنه حرام لأن هذا مضادة لله - سبحانه وتعالى ـ، وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره، لأن المؤمنين يفرحـون بمـوتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتى يكون الدين كله لله.

- **الثالثة: وهي المسألة الكبيرة،** أي: الكبير من هـذا البـاب، وقوله (أي قول النبي ﷺ) لعمه: "قل: لا إله إلا الله"، وعمه عرف المعـنى أنه التبرؤ من كل إله سوى اللـه، ولهـذا أبى أن يقولها لأنه يعـرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: "**بخلاف ما عليه من يدعي العلم**" كأنه يشـير إلى تفسـير المتكلمين لمعـــنى لا إله إلا اللـــه، حيث يقولـــون: إن الإله هو القـــادر على الاختراع، وإنه لا قادر على الاختراع والإيجـاد والإبـداع إلا اللـه، وهـذا تفسـير باطل.

نعم، هو حق لا قادر على الاختراع إلا الله، لكن ليس هـذا معـنى لا إله إلا الله، ولكن المعنى: لا معبود حق إلا الله، لأننا لو قلنـا: إن معـنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، صار المشركون الذين قـاتلهم الرسـول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين، فالظـاهر من كلامه رحمه الله أنه أراد أهل الكلام الـذين يفسـرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبيـة، وكـذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إله إلا الله.

* * *

الرابعـة: أن أبا جهل ومن معه يعرفـون مـراد النـبي ﷺ إذا دخل قـال للرجـــل: قـــل: "**لا إله إلا الله**"، فقبح الله أبا جهـــل! من أعلم منه بأصل الإسلام.

الرابعـة: أن أبا جهل ومن معه يعرفـون مـراد النـبي ﷺ، أبو جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ بقول: لا إله إلا الله، ولـذا ثـاروا وقـالوا لـه: "أتـرغب عن ملة عبد المطلب؟"، وهو أيضـاً أبى أن يقولها لأنه يعـرف مراد النبي ﷺ بهذه الكلمـة، قـال تعـالى: ﴿**إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولـون أئنا لتـاركوا آلهتنا لشـاعر مجنـون**﴾ [الصافات: 36].

فالحاصل أن الذين يـدعون أن معـنى لا إله إلا اللـه، أي: لا قـادر على الاخـتراع إلا هـو، أو يقولونها وهم يعبـدون غـيره كالأوليـاء هم أجهل من أبي جهل.

واحترز المؤلف في عـدم ذكر من مع أبي جهل لأنهم أسـلموا، وبـذلك صــاروا أعلم ممن بعــدهم، خاصة من هم في العصــور المتــأخرة في زمن المؤلف رحمه الله.

* * *

الخامسة: جـده ومبالغته في إسـلام عمـه. **السادسة:** الـرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

- **الخامسة: جده ومبالغته في إسلام عمه،** حرصه وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث، لسببين هما:

1- القرابة.

2- لما أسـدى للرسـول والإسـلام من المعـروف، فهو على هذا مشكور، وإن كان على كفره مأزوراً وفي النار، ومن مناصــرة أبي طـالب أنه هجر قومه من أجل معاضـدة النـبي ومناصــرته، وكــان يعلن على الملأ صــدقه ويقــول قصــائد في ذلك ويمدحــه، ويصبر على الأذى من أجله، وهذا جـدير بـأن يحـرص على هدايتـه، لكن الأمر بيد مقلب القلوب كما في الحـديث: "**إن قلـوب بـني آدم كلها بين أصـبعين من أصـابع الـرحمن كقلب واحـد، يصـرفه حيث يشـاء**"، ثم قـال في نفس الحـديث: "**اللهم! مصرف القلوب! صرف قلوبنا على طاعتك**"[1].

- **السادســة: الــرد على من زعم إســلام عبد المطلب، بدليل قولهما:** "أترغب عن ملة عبد المطلب؟" حين أمـره النـبي أن يقول لا إله إلا الله، فدل على أن ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

وفي الحديث رد على من قال بإسـلام أبي طـالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قبحهم اللـه، لأن آخر ما قـال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

* * *

السابعة: كونه استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك. **الثامنة:** مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

- **السـابعة: كونه اسـتغفر له فلم يغفر لـه،** الرسـول أقــرب النــاس أن يجيب الله دعــاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يجيب دعاءه لعمه أبي طالب، لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غـيره، قال تعالى: **قل إن الأمر كله لله** [آل عمران: 154]، وقـال تعـالى: **وإليه يرجع الأمر كله** [هود: 123] ليس لأحد تصرف في هذا الكون إلا رب الكون.

وكـذا أمه لم يـؤذن له في الاسـتغفار لهـا، فـدل على أن أهل الكفر ليســوا أهلاً للمغفــرة بــأي حــال، ولا يجــاب لنا فيهم، ولا يحل الــدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنما يدعى لهم بالهداية وهم أحياء.

- **الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان،** المعنى أنه لولا هذان الرجلان، لربما وفق أبو طالب القبـول ما عرضه النـبي ، لكن هؤلاء - والعياذ بالله - ذكراه نعـرة الجاهلية ومضـرة رفقـاء السـوء، ليس خاصاً بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شـبه الـني جليس

---

[1] مسلم: كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى للقلوب كيف يشاء.

السوء بنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة[1]، وقال ﷺ: "**فـأبواه يهوادنه أو ينصـرانه أو يمجسـانه**"[2]، وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روي عن النبي ﷺ بسند لا بأس به: "**المرء على دين خليله، فلينظر أحـدكم من يخالل**"[3]، فـالمهم أنه يجب على الإنسان أن يفكر في أصـحابه: هل هم أصـحاب سـوء؟ فليبعد عنهم لأنهم أشد عـداء من الجـرب، أو هم أصـحاب خـير: يأمرونه بـالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير ، فعليه بهم.

* * *

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

- **التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر،** لأن أبا طـالب اختـار أن يكـون على ملة عبد المطلب حين ذكـروه بأسـلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقـه، فتعظيمهم إن كـانوا أهلاً لـذلك فلا يضـر، بل هو خير، فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منــازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كــان تعظيم الأكــابر لما هم عليه من العلم والســن، فليس فيه مضرة، وإن كـان تعظيمهم لما هم عليه من الباطـل، فهو ضـرر عظيم على دين المــرء، فمثلاً: من يعظم أبا جهل لأنه ســيد أهل الــوادي، وكــذلك عبد المطلب وغيره فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسـان في نفسه لهـؤلاء أي قـدر، لأنهم أعـداء الله - عز وجل ـ، وكـذلك لا يظم الرؤسـاء من الكفـار في زمانه، فإن فيه مضره لأنه قد يورث ما يضـاد الإسـلام، فيجب أن يكـون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلة من الكتاب والسنة.

* * *

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

- **العاشـرة: الشـبهة للمبطلين في ذلك لاسـتدلال أبي جهل بذلك،** شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف هي اســتدلال أبي جهل بذلك في قولـه: "أتـرغب عن ملة عبد المطلب**؟"،** وهـذه الشـبهة ذكرها الله في القـرآن في قوله تعـالى: ﴿**وكذلك ما أرسـلنا من قبلك في قرية من نـذير إلا قـال مترفوها إنا وجـدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ [الزخرف: 23].

فالمبطلون يقولون في شـبهتهم: إن أسـلافهم على الحق وسـيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفه أحلامهم، ونضلل ما هم عليه؟

وهـذا يوجد في المتعصـبين لمشـايخهم وكـبرائهم ومـذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآناً ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام، حـتى إن بعضـهم يجعلن معصــومين، كالرافضــة، والتيجانيــة، والقاديانية ، وغــيرهم، فهم يــرون أن إماماهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا.

فالواجب على المـرء أن يكـون تابعـاً لما جـاء به الرسـول ﷺ، وأما من خالفه من الكـبراء والأئمـة، فـإنهم لا يحتج بهم على الكتـاب والسـنة، لكن

---

[1] البخاري: كتاب البيوع/ باب في العطار وبيع المسك، ومسلم: كتاب البر/ باب استحباب مجالسة الصالحين.

[2] تقدم (ص 52).

[3] مسند الإمام أحمد (2/303)، والترمذي: كتاب الزهد/ باب الرجل على دين خليله). - وقال: "حسن غريب" ـ، والحاكم (4/188) - وقال: "صحيح ووافقه الذهبي" -.

يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنة إن كانوا أهلاً للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصــوص، فيعتــذر لهم بما ذكــره أهل العلم، ومن أحسن ما ألف كتاب شيخ الإسـلام ابن تيميــة: "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له.

* * *

الحادية عشــرة: الشــاهد لكــون الأعمــال بــالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته. **الثانية عشرة:** التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجــادلوه إلا بهــا، مع مبالغته وتكريــره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.

- **الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم**، وهــذا مبني على القول بأن معنى حضرته الوفاة، أي: ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.
- **الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلـوب الضالين.... إلخ،** وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.

* * *

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قوله: "**سبب كفر بني آدم**"، السـبب في اللغـة: ما يتوصل به إلى غـيره، ومنه قوله تعـالى: **فليمـدد بسـبب إلى السـماء ثم ليقطع** [الحج: 15]، أي: بشيء يوصله إلى السماء.

ومنه أيضاً سمي الحبل سـبباً، لأنه يتوصل به إلى استسـقاء المـاء من البئر.

وأما في الاصطلاح عند أهل الأصول، فهو الذي يلزم من جوده الوجود ومن عدمه العدم.

أي: إذا وجد السـبب وجد المسـبب، وإذا عـدم عُـدِمَ المسـبب، إلا أن يكون هناك سبب آخر يثبت به المسبب.

قوله: "**بـني آدم**"، يشـمل الرجـال والنسـاء، لأنه إذا قيـل: بنو فلان، وهم قبيلـة، شـمل ذكـورهم وإنـاثهم، أما إذا قيـل: بنو فلان، أي رجل معين، فالمراد بهم الذكور.

قوله: "**وتركهم**"، يعني: وسبب تركهم.

قوله: "**دينهم**"، مفعـول تـرك، لأن تـرك مصـدر مضـاف إلى فاعلـه، و"دينهم" يكون مفعولاً به.

قوله: "**هو الغلو**"، هذا الضمير يسمى ضمير الفصل، وهو من أدوات التوكيد، والغلو: خبر لأن ضمير الفصل على القول الـراجح ليس له محل من الإعراب.

والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحاً أو قدحاً.

والقدح: يسمى ثناء، ومنه الجنازة التي مرت فأثنوا عليها شراً[1]

والغلو هنا: مجاوزة الحد في الثناء مدحاً.

قوله: "**الصالحين**"، الصالح: هو الذي قام بحق الله وحق العباد، وفي هذه الترجمة إضافة الشيء إلى سببه بـدون أن ينسب إلى الله بقولـه: "**أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**"، وهـذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحاً، وذلك إذا كان السـبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسـول ﷺ: "**لـولا أنـا: لكـان في الـدرك الأسـفل من النار**"[2]، يعني: عمه أبا طالب.

* * *

وقـــول الله عز وجـــل: **يا أهل الكتـــاب لا تغلـــوا في دينكم** [النساء: 171]

قوله: "**وقول الله - عز وجل ـ"،** يعني: وبـاب قـول الله- عز وجل -.

قولـه: **يا أهل الكتـاب**، نـداء، وهم اليهـود والنصـارى، والكتـاب: التوراة لليهود والإنجيل للنصارى.

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب ثناء الناس على الميت، ومسلم: كتاب الجنائز/ باب فيمن يثنى عليه خير أو شر.

[2] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب قصة أبي طالب، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب.

قولـه: ﴿**لا تغلو في دينكم**﴾، أي: لا تتجـاوزوا الحد مـدحاً أو قـدحاً، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتـاب عمومـاً، فـإنهم غلـوا في عيسى بن مريم عليه السلام مدحاً وقدحاً، حيث قـال النصـارى: إنه ابن اللـه، وجعلـوه ثالث ثلاثة.

واليهـود غلـوا فيه قـدحاً، وقـالوا: إنه أمه زانيـة، وإنه ولد زنـا، قـاتلهم الله؟ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط وتفريط.

قولـــه: ﴿**ولا تقولـــوا على الله إلا الحق**﴾، وهو ما قاله ســـبحانه وتعالى عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

قوله: ﴿**إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله**﴾، هـذه صـيغة حصــر، وطريقه ﴿**إنما**﴾، فيكـون المعـنى: ما المســيح عيسى بن مــريم إلا رسول الله، وأضافه إلى أمه ليقطع قول النصارى الذي يضيفونه إلى الله.

وفي قولـه: ﴿**رسول الله**﴾ إبطـال لقـول اليهـود: إنه كـذاب، ولقـول النصارى: إنه إله.

وفي قوله: ﴿**وكلمته**﴾ إبطال لقول اليهود: إنه ابن زنا.

﴿**وكلمته ألقاها إلى مريم**﴾: أن قال له كن فكان.

قولـــــه: ﴿**وروح منه**﴾، أي: إنه عز وجل جعل عيسى عليه الصـــــلاة والســلام كغــيره من بين آدم من جسد وروح، وأضــاف روحه إلى تشــريفاً وتكريمـــاً، كما في قوله تعــالى في آدم: ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ [ص: 72]، فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿**فآمنوا بالله ورسـله**﴾، الخطـاب لأهل الكتـاب، ومن رسـله محمد ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿**ولا تقولوا ثلاثة**﴾، أي: إن الله ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿**انتهوا خيراً لكم**﴾ ،﴿خيراً﴾: خـبر ليكن المحذوفـة، أي: انتهـوا يكن خيراً لكم.

قوله: ﴿**إنما الله إله واحد سـبحانه أن يكـون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض**﴾، أي: تنزيهـاً له أن يكـون له ولـد، لأنه مالك لما في الســـــماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مـــــريم عليه الصلاة والسلام، فهو من جملة المملوكين المربـوبين، فكيف يكـون إلهـاً مع الله أو ولداً لله؟

* (**تنبيه**):

لم يشر المؤلف رحمه الله تعـالى إلى إكمـال الآيـة، ونرجو أن يكـون في إكمالنا لها فائدة.

قولـه: ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾، أي: كفى الله تعـالى أن يكـون حفيظـاً على عباده، مدبراً لأحوالهم، عالماً بأعمالهم.

والشاهد من هـذه الآية قولـه: ﴿**لا تغلو في دينكم**﴾، فنهى عن الغلو في الدين، لأنه يتضمن مفاسد كثيرة، منها:

1- أنه تنزيل للمغلو فيه فـوق منزلته إن كـان مـدحاً، وتحتها إن كان قدحاً.

2- أنه يـؤدي إلى عبـادة هـذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

3- أنه يصد عن تعظيم الله - سبحانه وتعـالى - ، لأن النفس إما أن تنشــغل بالباطل أو بــالحق، فــإذا انشــغلت بــالغلو بهــذا

المخلوق وإطرائه وتعظيمه، تعلقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

4- أن المغلو فيه إن كان موجوداً، فإنه يزهو بنفسه، ويتعاظم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحاً، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحاً.

قوله: **في دينكم**، الدين يطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل.

والمعنى: لا تجعلوا عبادتكم غلواً في المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها، فإن النبي نهى عن ذلك[1]، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات تكميلاً للوارد أو غير هذا، فالنهي عن الغلو في الدين يعم الغلو من كل وجه.

* * *

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق نسراً** [نوح: 23].

قوله: "**وفي الصحيح**"، أي: في "صحيح البخاري"، وهذا الأثر اختصره المصنف، وقد سبق الكلام على مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: **وقالوا**، أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: **لا تذرن**، أي: لا تدعن وتتركن، وهذا نهي مؤكد بالنون.

قوله: **آلهتكم**، هل المراد: لا تذروا عبادتها أو تمكنوا أحداً من إهانتها؟

الجواب: المعنيان، أي: انتصروا لألهتكم، ولا تمكنوا أحداً من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضاً، بل احرصوا عليها، وهذا من التواصي بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

قوله: **ولا سواعاً**، لا: زائدة للتوكيد، مثلها في قوله تعالى: **ولا الضالين** [الفاتحة: 7]، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر، فهما دون مرتبة من سبقهما.

قوله تعالى: **وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً**، هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها، لأن قوله: **آلهتكم** عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنها كبار آلهتهم، فخصوها بالذكر.

والآلهة: جمع إله، وهو كل ما عبد، سواء بحق أو بباطل، لكن إذا كان المعبود هو الله، فهو حق، وإن كان غير الله، فهو باطل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح".

* * *

---

[1] البخاري: كتاب التهجد/ باب ما يكره من التشديد في العبادة، ومسلم: كتاب صلاة المسافر/ باب أمر من نعس في صلاته... .

قال: "**هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد،** حتى **إذا هلك أولئك، ونسي العلم، عبدت**"[1].

وفي هذا التفسير إشكال، حيث قال: "**هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح**"، وظاهر القرآن أنها قبل نوح، قال تعالى: **قال نوح رب إنهم عصوني** [نوح: 21-23]، ظاهر الآية الكريمة: أن قوم نوح كانوا يعبدونها ثم نهاهم نوح عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله وحده، ولكنهم أبوا وقالوا: **لا تذرن آلهتكم**، وهذا (أعني: القول بأنهم قبل نوح) قول محمد بن كعب ومحمد بن قيس، وهو الراجح لموافقته ظاهر القرآن.

ويحتمل - وهو بعيد - أن هذا في أول رسالة نوح، وأنه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم، لكن هذا بعيد حتى من سياق الأثر عن ابن عباس.

فالمهم أن تفسير الآية أن يقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين، فطال على قومهم الأمد، فعبدوهم.

قوله "**أوحى الشيطان**"، أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

قوله: "**أن انصبوا إلى مجالسهم"،** الأنصاب: جمع نصب، وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: "**سموها بأسمائهم**"، أي: ضعوا أنصاباً في مجالسهم، وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر، لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم فتنشطوا عليها، هكذا زين لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم: **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** [طه: 120].

وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله إلا برؤية أشباح هؤلاء، فهذه عبادة قاصرة أو معدومة.

قوله: "**ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت من دون الله**"، ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مئة سنة، حتى إذا طال عليهم الآمد حصل النزاع والتفرق، فبعث الله النبيين، كما قال تعالى: **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين....** الآية [البقرة: 213].

هذا هو تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية، وهل تفسيره حجة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولاً إلى القرآن، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، مثل قوله تعالى: **وما أدراك ما هيه** تفسيرها: **نار حامية** [القارعة: 10، 11]، فإن لم نجد في القرآن، فإلى سنة الرسول ، فإن لم نجد، فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجة بلا شك، لأنهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في حكم المرفوع، وهذا ليسس بصحيح، لكنه لا شك أنه حجة على من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بما يرجحه سياق الآية، والآية تدل على ما ذكره ابن عباس،

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب ودا ولا سواعاً ولا يغوث.

إلا أن ظاهر السياق أن هؤلاء القوم الصالحين كانوا قبل نـوح ، وقد عـرفت القول الراجح.

قوله: " **الأمد**"، الزمن.

وهـذا كتفسـير ابن عبـاس، إلا أن ابن عبـاس يقـول: "**إنهم جعلـوا الأنصاب في مجالسـهم**"، وهنا يقـول: "عكفـوا على قبـورهم"، ولا يبعد أنهم فعلوا هذا وهذا، أو أنهم قبروا في مجالسهم، فتكون هي محل القبور.

والشـاهد قولـه: "**ثم طـال عليهم الأمـد، فعبـدوهم**"، فسـبب العبادة إذاً الغلو في هؤلاء الصالحين حتى عبدوهم.

* * *

وعن عمـــر، أن رســـول الله قـــال "**لا تطـــروني كما أطـــرت النصـــارى ابن مـــريم، إنما أنا عبد فقولـــوا: عبدالله ورســـوله**". أخرجاه[1].

قوله: "**لا تطروني**"، الإطراء: المبالغة في المدح.

وهـذا النهي يحتمل أنه منصب على هـذا التشـبيه، وهو قولـه: "**كما أطرت النصارى ابن مريم**"، حيث جعلوه إلهاً أو ابنـاً للـه، وبهـذا يـوحي قول البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم ما شئت مدحاً فيه واحتكم

أي: دع ما قاله النصـارى أن عيسى عليه الصـلاة والسـلام ابن الله أو ثالث ثلاثة، والباقي املأ فمك في مدحه ولو بما لا يرضيه.

ويحتمل أن النهي عام، فيشمل ما يشابه غلو النصـارى في عيسى بن مـريم وما دونـه، ويكـون قولـه: "**كما أطرت**" لمطلق التشـبيه لا للتشـبيه المطلق، لأن إطراء النصارى عيسى بن مريم سـببه الغلو في هـذا الرسـول الكريم ، حيث جعوله ابناً لله وثالث ثلاثة، والدليل على أن المراد هذا قوله: "**إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**".

قوله: "**إنما أنا عبد**"، أي: ليس لي حق في الربوبيـة، ولا مما يختص به الله - عز وجل - أبداً.

قوله: " **فقولوا عبدالله ورسوله**"، هـذان الوصـفان أصـدق وصف وأشرفه في الرسول ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونـاً** [الفرقـان: 63]، وقال تعالى: **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** [الصافات: 171]، فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسـالة شـرف عظيم، لكن كونهم عباداً لله - عز وجل - أشـرف وأعظم، وأشـرف وصف له وأحق وصف به، ولهذا يقول الشاعر في محبوبته:

لا تدعني إلا بيا عبادها   فإنه أشرف أسمائي

أي: أنت إذا أردت أن تكلمني قل: يا عبد فلانـة، لأنه أشـرف أسـمائي وأبلغ في الذل.

فمحمد عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول في صـلاتنا عنـدما نسـلم عليه ونشـهد له بالرسـالة: وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسـوله، فهـذا أفضل وصف اختاره النبي عليه الصلاة والسلام لنفسه.

[1] البخاري: كتاب الأنبياء/ باب واذكر في الكتاب مريم.

واعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام، وهي:

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره: لا ملك مقـرب، ولا نـبي مرسـل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثـاني: حق خـاص للرسـل، وهو إعـانتهم وتوقـيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثـالث: حق مشـترك، وهو الإيمـان بالله ورسـله، وهـذه الحقـوق موجودة في الآية الكريمـة، وهي قوله تعـالى: **لتؤمنوا بالله ورسـوله**، فهـذا حق مشـترك، **وتعـزروه وتـوقروه** هـذا خـاص بالرسـول ، **وتسبحوه بكرة وأصيلاً** [الفتح: 9] هذا خاص بالله - سبحانه وتعالى -.

والـذين يغلـون في الرسـول يجعلـون حق الله لـه، فيقولـون: **وتسبحوه**، أي: الرسول، فيسبحون الرسول كما يسـبحون اللـه، ولا شك أنه شرك، لأن التسبيح من حقـوق الله الخاصة بـه، بخلاف الإيمـان، فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله.

ونهى عن الإطـراء في قوله عليه الصـلاة والسـلام: "**كما أطـرت النصارى عيسى بن مريم**"، لأن الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته كما هو الواقع الآن، فيوجد عند قبره في المدينة من يسأله، فيقول: يا رسـول اللـه! المـدد، المـدد، يا رسـول اللـه! أغثنـا، يا رسـول اللـه! بلادنا يابسـة، وهكـذا، ورأيت بعيني رجلاً يدعو الله تحت ميزاب الكعبة مولياً ظهره البيت مستقبلاً المدينة، لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله.

ويقول بعض المغالين: الكعبة أفضل من الحجرة، فأما والنـبي فيهـا، فلا والله، ولا الكعبة، ولا العرش وحملته، ولا الجنة.

فهو يريد أن يفضل الحجـرة على الكعبة وعلى العـرش وحملته وعلى الجنة، وهذه مبالغة ولا يرضاها النبي لنا ولا لنفسه.

وصحيح أن جسده أفضل، ولكن كونه يقـول: إن الحجـرة أفضل من الكعبة والعـرش والجنـة، لأن الرسـول فيها هـذا خطأ عظيم، نسـأل الله السلامة من ذلك.

قوله: "**إياكم**"، للتحذير.

* * *

وقـال رسـول الله قـال: "**إياكم والغلـو، فإنما أهلك من كـان قبلكم الغلو**"[1]

قولـه: "**والغلو**"، معطـوف على إيـاكم، وقد اضـطرب فيه المعربـون اضطراباً كثـيراً، وأقـرب ما قيل للصـواب وأقله تكلفـاً: أن إيا منصـوبة بفعل أمر مقدر تقـديره إيـاك أحـذر، أي: أحـذر نفسك أن تغـرك، والغلو معطـوف على إياك، أي: وأحذر الغلو.

والغلو كما سـبق: هو مجـاوزة الحد مـدحاً أو ذمـاً، وقد يشـمل ما هو أكثر من ذلك، أيضاً، فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمـل، لأن هذا الحديث ورد في رمي الجمـرات، حيث روى ابن عبـاس، قـال: قـال رسول الله غداة العقبة وهو على ناقته: "**القط لي حصى. فلقطت له سـبع حصـيات هن حصى الخـذف، فجعل ينفضـهن في كفـه، ويقـول: أمثـال هـؤلاء فـارموا، وإيـاكم والغلو في الـدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**". هذا لفظ ابن ماجه.

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/215، 347)، وابن ماجه: كتاب المناسك/ باب قدر الحصى، 2/1008، والحاكم (1/466) - وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي - .

والغلو: فاعل أهلك.

قوله: "**من كان قبلكم**"، مفعول مقدم.

قوله: "**فإنما**"، أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمـذكور ونفيه عما عداه.

قوله: "**أهلك**"، يحتمل معنيين:

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعاً مباشــرة من الغلو، لأن مجرد الغلو هلاك.

الثـاني: أنه هلاك الأجسـام، وعليه يكـون الغلو سـبباً للهلاك، أي: إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر في قولـــه: "**فإنما أهلك من كـــان قبلكم الغلـــو**" حقيقي أو إضافي؟

الجواب: إن قيل: إنه حقيقي، حصل إشـكال، وهو أن هنـاك أحـاديث أضاف النبي الهلاك فيها إلى أعمـال غـير الغلـو، مثل قوله : "**إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركـوه، وإذا سـرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**"[2]، فهنا حصران متقابلان، فـإذا قلنـا: إنه حقيقي بمعنى أنه لا هلاك إلا بهذا حقيقة، صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيـل: إن الحصر إضـافي، أي: باعتبـار عمل معين، فإنه لا يحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما على جهة لا تعـارض الحـديث الآخر لئلا يكـون في حديثه تنـاقض، وحينئذ يكـون الحصر إضـافياً، فيقـال: أهلك من كـان قبلكم الغلو هـذا الحصر باعتبـار الغلو في التعبد في الحـديث الأول، وفي الآخر يقال من كان قبلكم باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقـاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفي هـذا الحـديث يحـذر الرسـول أمته من الغلـو، ويـبرهن على أن الغلو سبب للهلاك لأنه مخالف للشرع ولإهلاكه للأمم السابقة، فيسـتفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره ، والتحذير نهي وزيادة.

الوجه الثاني: أنه سـبب لإهلاك الأمم كما أهلك من قبلنـا، وما كـان سبباً للهلاك كان محرماً.

* **أقسام الناس في العبادة:**

والناس في العبادة طرفان ووسط، فمنهم المفـرط، ومنهم المفـرط، ومنهم المتوسط.

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكون الإنسان معتدلاً لا يميل إلى هذا ولا إلى هذا هذا هو الواجب، فلا يجوز التشـدد في الـدين والمبالغـة، ولا التهاون وعدم المبالاة، بل كن وسطاً بين هذا وهذا.

والغلو له أقسـام كثـيرة، منهـا: الغلو في العقيـدة، ومنهـا: الغلو في العبادة، ومنها: الغلو في المعاملة، ومنها: الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي: أما الغلو في العقيـــدة، فمثل ما تشـــدق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإن أهل الكلام تشـدقوا وتعمقـوا حـتى وصلوا إلى الهلاك قطعاً، حتى أدى بهم هذا التعمق إلى واحد من أمرين:

إما التمثيل، أو التعطيل.

---

[2] البخاري: كتاب الأنبياء/ باب قول الله تعالى: أم حسب أن أصحاب الكهف، ومسلم: كتاب الحدود/ باب قط السارق الشريف وغيره.

إما أنهم مثلوا الله بخلقه، فقالوا: هذا معنى إثبات الصفات، فغلوا في الإثبـات حـتى أثبتـوا ما نفى الله عن نفسـه، أو عطلـوه وقـالوا: هـذا معـنى تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، وزعموا أن إثبات الصـفات تشـبيه، فنفـوا ما أثبته الله لنفسه.

لكن الأمة الوسط اقتصـدت في ذلـك، فلم تتعمق في الإثبـات ولا في النفي والتنزيه، فأخذوا بظواهر اللفـظ، وقـالوا: ليس لنا أن نزيد على ذلـك، فلم يهلكـوا، بل كـانوا على الصـراط المسـتقيم، ولما دخل هـؤلاء الفـرس والـروم وغـيرهم في الـدين، صـاروا يتعمقـون في هـذه الأمـور ويجـادلون مجادلات ومناظرات لا تنتهي أبداً، حتى ضاعوا، نسأل الله السلامة.

وكل الإيرادات التي أوردها المتـأخرون من هـذه الأمة على النصـوص، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمة الوسط.

أما الغلو في العبادات، فهو التشدد فيها، بحيث يرى أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام، كغلو الخوارج والمعتزلـة، حيث قـالوا: إن من فعل كبـيرة من الكبـائر، فهو خـارج عن الإسـلام وحل دمه ومالـه، وأبـاحوا الخـروج على الأئمة وسـفك الـدماء، وكـذا المعتزلـة، حيث قـالوا: من فعل كبـيرة، فهو بمنزلة بين المنزلـتين: الإيمـان والكفـر، فهـذا تشـدد أدى إلى الهلاك، وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة، فقالوا: إن القتل والزنا والسرقة وشـــرب الخمر ونحوها من الكبـــائر، لا تخـــرج من الإيمـــان، ولا تنقص من الإيمان شيئاً، وإنه يكفي في الإيمان الإقرار، وإن إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله لأنه لا يختلف النـاس في الإيمـان حـتى إنهم ليقولـون: إن إبليس مؤمن لأنه مقر، وإذا قيل: إن الله كفره، قـالوا: إذن إقـراره ليس بصادق، بل هو كاذب.

وهـؤلاء في الحقيقة يصـلحون لكثـير من النـاس في هـذا الزمـان، ولا شك أن هذا تطرف بالتساهل، والأول تطرف بالتشـدد، ومـذهب أهل السـنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصـية نـاقص الإيمـان بقـدر معصـيته، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص على أنه كفر.

وأما الغلو في المعـاملات، فهو التشـدد في الأمـور بتحـريم كل شـيء حـتى ولو كـان وسـيلة، وأنه لا يجـوز للإنسـان أن يزيد عن واجبـات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفية، حيث قالوا: من اشتغل بالـدنيا، فهو غير مريد للآخرة، وقالوا: لا يجوز أن تشـتري ما زاد على حاجتك الضـرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدد تساهل من قال: يحل كل شيء ينمي المال ويقوي الاقتصاد، حتى الربا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء - والعياذ بالله - متطرفون بالتسـاهل، فتجـده يكـذب في ثمنها وفي وصفها وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلسـاً أو فلسـين، وهـذا لا شك أنه تطرف.

والتوسط أن يقـــال: تحل المعـــاملات وفق ما جاست به النصـــوص، **وأحل الله البيع وحرم الربا** [البقرة: 275]، فليس كل شيء حرامـاً، فالنبي باع واشترى، والصحابة رضي الله عنهم يبيعون ويشترون، والنـبي يقرهم.

وأما الغلو في العادات، فإذا كانت هـذه العـادة يخشى أن الإنسـان إذا تحـول عنها انتقل من التحـول في العـادة إلى التحـول في العبـادة، فهـذا لا

حرج أن الإنسان يتمسك بها، ولا يتحول إلى عـادة جديـدة، أما إذا كـان الغلو في العادة يمنعك من التحول إلى عادة جديدة مفيـدة أفيد من الأولى، فهـذا من الغلو المنهي عنه، فلو أن أحـداً تمسك بعادته في أمر حـدث أحسن من عادته التي هو عليها نقول: هذا في الحقيقة غال ومفرط في هذه العادة.

وأما إن كانت العادات متساوية المصالح، لكنه يخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسع في العادة الـتي قد تخل بالشـرف أو الـدين، فلا يتحول إلى العادة الجديدة.

* * *

ولمسـلم عن ابن مسـعود، أن رسـول الله قـال: "**هلك المتنطعون**". قالها ثلاثاً[1]

قوله: "**المتنطعون**"، المتنطع: هو المتعمق المتقعر المتشدق، سواء كان في الكلام أو في الأفعـال، فهو هالـك، حـتى ولو كـان ذلك في الأقـوال المعتـادة، فبعض النـاس يكـون بهـذه الحـال، حـتى إنه ربما يقـترن بتعمقه وتنطعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترن به الكبر، فتجـده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلم عليه فتسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال.

والتنطع بالأفعـال كـذلك أيضـاً قد يـؤدي إلى الإعجـاب أو إلى الكـبر، ولهذا قال: "**هلك المتنطعون**".

والتنطع أيضـاً في المسـائل الدينية يشـبه الغلو فيهـا، فهو أيضـاً من أسـباب الهلاك، ومن ذلك ما يفعله بعض النـاس من التنطع في صـفات الله تعـالى والتقعر فيهـا، حيث يسـألون عما لم يسـأل عنه الصـحابة رضي الله عنهم، وهم يعلمـون أن الصـحابة خـير منهم وأشد حرصـاً على العلم، وفيهم رسول الله الذي عنده من الإجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلها تدل على تحريم الغلـو، وأنه سـبب للهلاك، وأن الواجب أن يسير العبد إلى الله بين طرفي نقيض بالدين الوسـط، فكما أن هـذه الأمة هي الوسط ودينها هو الوسـط، فينبغي أن يكـون سـيرها في دينها على الطريق الوسط.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبـابين بعـده، تـبين له غربة الإسـلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

فيه مسائل:

- **الأولى: أن من فهم هـذا البـاب -** أي: بما مر من تفسـير الآية الكريمـة: **وقـال لا تـذرن آلهتكم** - **وبـابين بعـده، تـبين له غربة الإسلام.**

وهذا حق، فإن الإسلام المبني على التوحيد خالص غـريب، فكثـير من البلـدان الإسـلامية تجد فيها الغلو في الصـالحين في قبـورهم، فلا تجد بلـداً مسلماً إلا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون ليس قبر رجل صالح، قد يكـون وهمـاً، مثل قـبر الحسـين بن علي رضي الله عنهمـا، فأهل العـراق يقولون: هو عندنا، وأهل الشام يقولون: عنـدنا، وأهل مصر يقولـون: عنـدنا، وبعضـهم يقـول: هو في المغـرب، فصـار الحسـين إما أنه أربعة رجـال، أو

---

[1] مسلم: كتاب العلم/ باب هلك المتنطعون.

مقطع أوصالاً، وهذا كله ليس بصحيح، فالمهم أنه كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: تبين لك غربة الإسلام أي في المسلمين.

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها قبور وقباب تعبد من دون الله ويحج إليها وتقصد، ولكن بتوفيق الله - سبحانه وتعالى - أنه أعان هذا الرجل مع الإمام محمد بن سعود حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد ولله الحمد على التوحيد الخالص.

* * *

الثانية: معرفة أو لشرك حدث في الأرض، كان بشبهة الصالحين. **الثالثة:** معرفة أو شيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم. **الرابعة:** قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

- **الثانية: معرفة أو لشرك حدث في الأرض،** وجه ذلك: أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقواماً صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون الله، ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.
- **الثالثة: معرفة أو لشيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم،** أول شيء غير به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: "مع معرفة أن الله أرسلهم"، قال الله تعالى: **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** [البقرة: 213]، أي: كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فهذا أول ما حدث من الشرك في بني آدم.
- **الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.**

قوله: "**قبول البدع**"، أي: أن النفوس تقبلها لا لأنها مشروعة، بل إن الشرائع تردها، وكذلك الفطر السليمة تردها، لأنها الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها** [الروم: 30]، فالفطر السليمة لا تقبل تشريعاً إلا ممن يملك ذلك.

* * *

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل: فالأول محبة الصالحين، والثاني فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

- **الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل،** أراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبة لهم، ورغبة في مشاهدة أشباحهم.

الثاني: أن أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيراً، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أن من أراد تقوية دينه ببدعة، فإن ضررها أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون في الرسول ﷺ ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيراً، لكن أرادوا خيراً بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها، لأنها تعطي الإنسان نشاطاً غير مشروع في وقت معين، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام.

ولهـذا تجد هـؤلاء الـذين يغـالون في هـذه البـدع فـاترين في الأمـور المشروعة الواضحة ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا مما يـدل على تـأثير البـدع في القلوب وأنها مهما زينها أصحابها، فلا تزيد الإنسان إلا ضلالاً، لأن النـبي يقول: "**كل بدعة ضلالة**"[1].

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده أصلاً من السنة، وهو أن النبي سئل عن صوم يـوم الاثـنين، فقـال: "**ذاك يوم ولـدت فيـه، وبعثت فيـه، أو أنزل على فيه**"[2]، وكان يصـومه مع الخميس ويقـول: "**إنهما يومـان تعـرض فيهما الأعمـال على اللـه، فـأحب أن يعـرض عملي وأنا صائم**"[3]

فالجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنما هو صوم وإمساك، أما هؤلاء الـذين يجعلـون له الموالـد، فاحتفـالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أن هذا اليوم إذا صامه الإنسان، فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أننا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنه على فرض أن يكون هذا أصـلاً، فإنه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد، لأن العبادات توقيفيـة، ولو كـان الاحتفـال المعهـود عند النـاس اليوم مشروعاً لبينه النبي ، إما بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثـالث: أن هـؤلاء الـذين يحتفلـون بمولد النـبي لا يقيدونه بيـوم الاثنين، بل في اليوم الـذي زعمـوا مولـده فيـه، وهو اليـوم الثـاني عشر من شـهر ربيع الأول، مع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخيـة، وقد حقق بعض الفلكيين المتأخرين ذلك، فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر.

الرابع: أن الاحتفال بمولده على الوجه المعـروف بدعة ظـاهرة، لأنه لم يكن معروفـاً على عهد النـبي وأصـحابه، مع قيـام المقتضي له وعـدم المانع منه.

*** مسألة حكم الاحتفال بعيد ميلاد الأطفال:**

فائـدة: كل شـيء يتخذ عيـداً يتكـرر كل أسـبوع، أو كل عـام وليس مشـروعاً، فهو من البـدع، والـدليل على ذلـك: أن الشـارع جعل للمولـود العقيقة، ولم يجعل شيئاً بعد ذلك، واتخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنهم شبهوها بالأعيـاد الإسـلامية، وهـذا حـرام لا يجـوز، وليس في الإسلام شيء من الأعياد إلا الأعيـاد الشـرعية الثلاثـة: عيد الفطـر، وعيد الأضحى، وعيد الأسبوع، وهو يوم الجمعة.

وليس هذا من باب العادات لأنه يتكـرر، ولهـذا لما قـدم النـبي فوجد للأنصار عيدين يحتفلون بهما، قال: "**إن الله أبـدلكما بخـير منهمـا: عيد الأضحى وعيد الفطر**"[1]، مع أن هذا من الأمور العادية عندهم.

- **السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح**، وقد سـبق ذلك وبيان أنهم يتواصـون بالباطـل، وهـذا خلاف طريق المؤمـنين الـذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الـذين يتواصون بما هم عليـه، سـواء كـانوا رؤسـاء سياسـيين أو رؤسـاء دينـيين

---

[1] مسلم: كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة.
[2] مسلم: كتاب الصيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر.
[3] الترمذي: كتاب الصوم/ باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس، 3/94، وقال: "حديث حسن غريب".
[1] مسند الإمام أحمد (3/103)، وسنن أبي داود: كتاب الصلاة/ باب صلاة العيدين.

ينتسبون إلى الدين، فتجد الواحد منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمي هذا الأمر الذي هو عليه.

* * *

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد.

- **السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد،** هذه العبارة تقيد من حيث كون آدمياً بقطع النظر على من يمن الله عليه من تزكية النفس، فإن الله يقول: **﴿قد أفلح من زكها * وقد خاب من دساها﴾** [الشمس: 9،10].

قوله: "**جبلة**" على وزن فعلة، وهو ما يجبل المرء عليه، أي: يخلق عليه ويطبع ويبدع، بمعنى الطبيعة التي عليها الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكى نفسه أو دساها.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين، فقال تعالى: **﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾** [إبراهيم: 34]، وقال تعالى: **﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾** [الأحزاب: 72].

أما من حيث ما يمن الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح، فإنه يرتقي عن هذا، قال تعالى: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾** [التين: 4-6]، فالإنسان الذي يمن الله عليه بالهدى، فإن الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكلية، كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

وكذلك أهل العلم، كأبي الحسن الأشعري، كان معتزلياً، ثم كلابياً، ثم سنياً، وابن القيم كان صوفياً، ثم من الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية، فهداه الله على يده حتى كان ربانياً.

* * *

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر.

- **الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر،** قال أهل العلم: إن الكفر له أسباب متعددة، ولا مانع أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة، ومن ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إن البدعة لا تزال في القلب، يظلم منها شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى الكفر، واستدلوا بقوله ﷺ: "**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**"[1].

وقالوا أيضاً: "إن المعاصي بريد الكفر، وبريد الشيء ما يوصل إلى الغاية".

والمعاصي كما أخبر النبي ﷺ تتراكم على القلب، فتنكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب، صقل قلبه وبيض[2]، وإلا، فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلماً.

وكذلك حذر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضاً، فأرادوا أن يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود، فجمعوها، فأضرموا ناراً كبيرة، وهكذا المعاصي[3]، فالمعاصي لها تأثير

---

[1] تقدم (ص203).

[2] مسند الإمام أحمد (2/297) وصححه أحمد شاكر، والترمذي: كتاب التفسير/ باب ﴿ويل للمطففين﴾، 6/69ـ وقال: "حسن صحيح" ـ، والحاكم (2/517) - وصححه ووافقه الذهبي ـ

[3] مسند الإمام أحمد (5/331). وصححه الألباني في "الصحيحة" (1/389).

قوي على القلب، وأشدها تأثيراً الشهوة فهي أشد من الشـبهة، لأن الشـبهة أيسر زوالاً على من يسـرها الله عليـه، إذ إن مصـدرها الجهـل، وهو يـزول بالتعلم.

أما الشـهوة، وهي إرادة الإنســان الباطــل، فهي البلاء الــذي يقتل به العالم والجاهل، ولذا كـانت معصـية اليهـود أكـبر من معصـية النصـارى، لأن معصـية اليهـود سـببها الشـهوة وإرادة السـوء والباطـل، والنصـارى سـببها الشبهة، ولهـذا كـانت البـدع غالبها شـبهة، ولكن كثـيراً منها سـببه الشـهوة، ولهذا يبين الحق لأهل الشهود من أهل البدع، فيصرون عليها، وغالبهم يقصد بـذلك بقـاء جاهه ورئاسـته بين النـاس دون صـلاح الخلـق، ويظن في نفسه ويملي عليه الشــــيطان أنه لو رجع عن بدعته لنقصت منزلته بين النــــاس، وقــالوا: هــذا رجل متقلب وليس عنــده علم، لكن الأمر ليس كــذلك، فــأبو الحسن الأشعري مضرب المثل في هذا الباب، فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إماماً، ولما رجع إلى مذهب أهل السـنة صـار إمامـاً، فكل من رجع إلى الحق ازدادت منزلته عند الله - سبحانه - ، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أن البدعة سبب للكفـر، ولا يـرد على هـذا قـول بعض أهل العلم، إن المعاصي بريد الكفر، لأنه لا مانع من تعدد الأسباب.

* * *

التاسـعة: معرفة الشـيطان بما تـؤول إليه البدعـة، ولو حسن قصد الفاعل.

- **التاسـعة: معرفة الشـيطان بما تـؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل،** لأن الشيطان هو الذي سـول لهـؤلاء المشـركين أن يصوروا هذه التماثيل والتصاوير، لأنه يعرف أن هذه البدعة تـؤول إلى الشرك.

وقولـــه: "**ولو حسن قصد الفاعل**"، أي: إن البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالماً أنها بدعة ولو حسن قصده، لأنه أقدم على المعصية كم يجيز الكذب والغش ويدعي أنه مصلحة، أما لو كان جـاهلاً فإنه لا يـأثم، لأن جميع المعاصي لا يـأثم بها إلا مع العلم، وقد يثـاب على حسن قصده، وقد نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "اقتضاء الصـراط المستقيم"، فيثاب على نيته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند الله ولا مرضــي، لكن لحسن نيته مع الجهل يكــون له أجـر، ولهــذا قــال ﷺ للرجل الذي صلى وأعاد الوضوء بعدما وجد المـاء وصـلى ثانيـة: "**لك الأجر مرتين**"[1]، لحسن قصده، ولأن عمله عمل صـالح في الأصـل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمل مــرتين مع علمه أنه غــير مشــروع، لم يكن له أجر لأن عمله غـير مشـروع لكونه خلاف السـنة، فقد قـال النـبي ﷺ للـذي لم يعـد، "**أصبت السنة**"[2].

فإن قـال: إني أريد بهـذه البدعة إحيـاء الهمم والتنشـيط وما أشـبه ذلك.

أجيب: بـأن هـذه الإرادة طعن في رسـالة الرسـول ﷺ، لأنه اتهـام له بالتقصــير أو القصــور، أي مقصر في الإخبــار عن ذلك أو قاصر في العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم، ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفــاؤه

---

[1] سنن أبي داود: كتاب الطهارة/ باب في المتيمم يجد الماء بعد ما صلى، والحاكم (1/179)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، صحيح أبي داود (1/69).

[2] الحديث السابق (رقم 1).

الراشدون، أما إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أن هذا بدعة، فإنه يثاب على نيته ولا يثاب على عمله، لأن عمله شر حابط كما قـال النـبي ﷺ: "**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد**"[1].

وأما العامة الـذين لا يعلمـون، وقد لبس عليهم هـذه البدعة وغيرهـا، نقول: ما داموا قاصدين للحق ولا علمـوا بـه، فـإثمهم على من أفتـاهم ومن أضلهم.

ولهذا يوجد في مجاهل أفريقيا وغير من لا يعرفون عن الإسلام شـيئاً، فلو ماتوا لا نقول: إنهم مسـلمون ونصـلي عليهم ونـترحم عليهم مع أنهم لم تقم عليهم الحجة، لكننا نعاملهم في الدنيا بالظاهر، أما في الآخرة، فـأمرهم إلى الله.

* * *

العاشرة: معرفة القاعـدة الكليـة، وهي النهي عن الغلـو، ومعرفة ما يؤول إليه. **الحادية عشرة:** مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

- **العاشـــرة: معرفة القاعـــدة الكليـــة، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يـؤول إليـه،** هـذا ما حـذر منه النـبي ﷺ، لأن الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبادات يكون في غيرهـا، قـال تعـالى: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**﴾ [الأعراف: 31]، وقـال: ﴿**والـذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقـتروا**﴾ [الفرقـان: 67]، وقد سـبق بيـان ذلك.

- **الحادية عشرة: مضرة العكوف على القـبر لأجل عمل صالح،** المضرة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قرئ القرآن عند قبر رجل صالح، أو تصدق عند هـذا القبر يعتقد أن لذلك مزية على غيره، فـإن هـذا من البـدع، وهـذه البدعة قد تؤدي بصاحبها إلى عبادة هذا القبر.

* * *

الثانية عشـــرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتهـــا. **الثالثة عشــرة:** معرفة عظم شــأن هــذه القصة وشــدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها. **الرابعة عشـرة:** وهي أعجب العجب: قـراءتهم إياها في كتب التفسـير والحـديث، ومعـرفتهم بمعـنى الكلام، وكـون الله حـال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نـوح هو أفضل العبـادات، واعتقـدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

- **الثانية عشــرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها،** التماثيل: هي الصور على مثال رجـل، أو حيـوان، أو حجـر، والغالب أنها تطلق على ما صنع ليعبد من دون اللــه، والحكمة في إزالتها سد ذرائع الشرك.

- **الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة،** أي: قصة هـؤلاء الـذين غلـوا في الصـالحين وغـير الصـالحين، لكن اعتقـدوا فيهم الصلاح، حـتى تـدرج بهم الأمر إلى عبـادتهم من دون اللـه، فتجب معرفة هذه القصـة، وأن أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمـة، فالحاجة شـديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثـيرة، والنـاس لو تـدبرت أحـوالهم وسـبرت قلـوبهم وجدت أنهم في غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود في البلاد الإسلامية.

---

[1] تقدم (ص 203).

▪ **الرابعة عشرة - وهي أعجب العجب ـ: قـراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث.**

قوله: "**وأعجب**"، أي: أكثر عجباً وأشد، والعجب نوعان:

الأول: بمعنى الاستحسـان، وهو ما إذا تعلق بمحمـود، كقـول عائشة في الحـــديث: "**كـــان النـــبي ﷺ يعجبه الـــتيمن في تنعله وترجله وطهوره، وفي شأنه كله**"[1].

الثـاني: بمعـنى الإنكـار، وذلك فيما إذا تعلق بمـذموم، قـال تعـالى: ﴿**وإن تعجب فعجب قــــولهم أئـــذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد**﴾ [الرعد: 5].

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عما كان في زمنه، حيث غفلـوا عن هـذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقـدوا أن فعل قـوم نـوح أفضل العبادات، وهذا من أضر ما يكون على المـرء أن يعتقد السـيء حسـناً، قـال تعـالى: ﴿**أفمن زين له سوء عمله فـرآه حسـناً فـإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشـاء**﴾ [فـاطر: 8]، وقـال تعـالى: ﴿**قل هل ننـبئكم بالأخسـرين أعمـالاً الـذين ضل سـعيهم في الحيـاة الـدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾ [الكهف: 103،104].

قولــه: "**واعتقــدوا أن ما نهى الله ورســوله عنه فهو الكفر المــبيح للــدم والمــال**"، أي: من اعتقد أن الشـــرك والكفر من أفضل العبـادات، وأنه مقـرب إلى اللـه، فهـذا كفر مـبيح لدمه ومالـه، هـذا ما أراد المؤلف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لي ما لعله المـارد أن هـؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهي عنه هو الكفر المـبيح للـدم والمـال، وأما ما دونه من الغلو، فلا نهي فيه، والله أعلم.

* * *

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشــفاعة. **السادسة عشــرة:** ظنهم أن العلمـاء الـذين صـوروا الصـور أرادوا ذلـك. **السـابعة عشرة:** البيـان العظيم في قولـه: "**لا تطـروني كما أطـرت النصـارى ابن مريم**"، فصلوات الله وسلامه عليه، بلغ البلاغ المبين.

▪ **الخامسة عشــــرة: التصــــريح بــــأنهم لم يريـــــدوا إلا الشفاعة،** أي: ما أرادوا إلا الشفاعة، ومع ذلك وقعوا في الشرك.

▪ **السادسة عشــرة: ظنهم أن العلمــاء الــذين صــوروا الصور أرادوا ذلـك،** أي: أرادوا أن تشـفع لهم، بل ظنـوا أنها تنشـطهم على العبادة، وهذا ظن فاسد كما سبق[1].

▪ **الســـابعة عشـــرة: البيـــان العظيم في قوله ﷺ: "لا تطروني..." الحديث،** معنى الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه.

وهذا الذي نهى عنه ﷺ وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشـد، حـتى جعلـوا النبي ﷺ المرجع في كل شيء، وهذا أعظم من قـول النصـارى: المسـيح ابن الله، وثالث ثلاثة.

ومعنى: "**بلغ**"، أي: أوصل وبين.

---

[1] البخاري: كتاب الوضوء/ باب التيمن في الوضوء والغسل، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب التيمن في الطهور وغيره.

[1] أنظر: (ص 374).

* * *

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين. **التاسعة عشرة:** التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده. **العشرون:** أن سبب فقد العلم موت العلماء.

- **الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين،** وذلك بقوله ﷺ: "**هلك المتنطعون**"، فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنطع.
- **التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم،** أي: لم تعبد هذه التماثيل إلا بعد أن نسي العلم واضمحل، ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أي العلم، وأن وجوه أمر ضروري للأمة، لأنه إذا فقد العلم، حل الجهل محله، وإذا حل الجهل، فلا تسأل عن حال الناس، فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقربون إليه.
- **العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء،** فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء، لم يبق إلى جهال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقده أيضاً: الغفلة والإغراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به.

ثم إن العلم قد يكون موجوداً وهو معدوم، وذلك فيما إذا كثر القراء الذين يقرؤون العلم ولا يعملون به، وقل الفقهاء الذين يعملون به، فبهذا يصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إن في جوده ضرراً على الأمة، لأن العامة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتاً غير عامل بما علم، ظنوا أن ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لا ينفع أشد من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل، فإن الناس قد يطلبون العلم ويتلمسونه.

* **الخلاصة للباب:**

بيان أن الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر.

وأن خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة، فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم، فلا يستوي الصالح والفاسد، بل ينزل كل منزلته، ولكن لا نتجاوز به المنزلة فنغلو فيه، فدين الله وسط لا يعطي الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س1: ما الفرق بين التنطع والغلو والاجتهاد؟

الجواب: الغلو مجاوزة الحد.

والتنطع معناه: التشدق بالشيء والتعمق فيه، وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد، فإنه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلا إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة غير المشروعة، فقد تؤدي إلى الغلو، فلو أن الإنسان مثلاً أراد أن يقوم ولا ينام، وأن يصوم النهار ولا يفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلها، فلا يتزوج ولا يأكل اللحم ولا الفاكهة وما أشبه ذلك، فإن هذا من الغلو، وإن كان الحامل على ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدي النبي ﷺ.

س2: ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟

الجواب: هذا من البدع، وسواء قلنا يصل الثـواب أو لا يصـل، فكونك تتخذ القراءة عند القبر خاصة هذا من البدع.

وإنما اختلف الســـلف فيما إذا قـــرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن.

والصـحيح أيضـاً أنها ليس بسـنة، والسـنة أن تسـتغفر له وتسـأل له التثبيت.

* * *

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبدالله
عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

قوله: "**التغليظ**"، التشديد.

قولـه: "**من عبد الله عند قبر رجل صـالح**"، أي: عمل عملاً تعبد الله به من قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك.

قولـــه: "**فكيف إذا عبـــده؟**"، أي: يكـــون أشد وأعظم، وذلك لأن المقــابر والقبــور للصــالحين أو من دونهم من المســلمين أهلها بحاجة إلى الدعاء، فهم يزارون لينفعوا لا لينتفع بهم إلا باتباع السنة في زيـارة المقـابر، والثواب الحاصل بذلك، لكن هذا ليس انتفاعـاً بأشخاصـهم، بل انتفـاع بعمل الإنسان نفسه بما أتى به من السنة.

فالزيارة التي يقصد منها الانتفاع بالأموات زيارة بدعية.

والزيارة التي يقصد بها نفع الأموات والاعتبار بحالهم زيارة شرعية.

* * *

في الصـحيح عن عائشـة، أن أم سـلمة ذكـرت لرسـول الله كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال:

قوله: "**في الصحيح**"، أي: "الصحيحين"، وقد سـبق الكلام على مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قولـه: "**أم سلمة**"، كـانت ممن هـاجر مع زوجها إلى أرض الحبشـة، ولما توفي زوجها أبو سلمة تزوجها النبي ، وأخبرته وهو في مرض موته بما رأتِ، كما في "الصحيح".

قولها "**من الصور**" الظاهر أن هذه الصور مجسمة وتماثيل منصوبة.

* * *

"أولئك إذا مات فيهم الرجل الصـالح أو العبد الصـالح، بنـوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصـور، أولئك شـرار الخلق عند الله"[1]

قوله: "**أولئك**"، المشار إليهم نصـارى الحبشـة، ويحتمل أن يـراد من فعلوا هذه الأفعال أياً كانوا.

وقوله: "**أولئك**" يجوز في الكاف إذا كان الخطاب لأم سلمة ، والفتح إذا كان الخطاب باعتبار الجنس.

وقد ذكر العلمـاء أن في كـاف الخطـاب المتصل باسم الإشـارة ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون مطابقاً للمخـاطب المفـرد للمفـرد والمثـنى للمثنى والجمع للجمع، مذكراً كان أم مؤنثاً.

الوجه الثاني: الفتح مطلقاً.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنث مطلقاً، والفتح للمذكر مطلقاً.

وأشـهرها: أن يكـون مطابقـاً للمخـاطب، ثم الفتح مطلقـاً، ثم الفتح للمذكر، والكسر للمؤنث.

قوله: "**الرجل الصالح أو العبد الصالح**"، أو: شك من الراوي.

---

[1] البخاري: كتاب الصلاة/ باب بناء المساجد على القبر، ومسلم: كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

قوله: "**بنوا على قبره**"، أي: قبر ذلك الرجل الصالح.

قولــه: "**صــوروا فيه تلك الصــور**"، أي: الــتي رأت، والأقــرب أنها صــورة ذلك الرجل الصــالح، وربما أنهم يضــيفون إلى صــورته صــورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع منها صور كثيرة.

قوله: "**أولئك شرار الخلق عند الله**"، لأن عملهم هـذا وسـيلة إلى الكفر والشرك، وهذا أعظم الظلم وأشده، فما كان وسيلة إليه، فإن صاحبه جدير بأن يكون من شرار الخلق عند الله - سبحانه وتعالى -.

* * *

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين[1]: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

قولــه: "**فهــؤلاء جمعــوا بين الفتنــتين: فتنة القبــور، وفتنة التماثيل**"، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قوله: "**فتنة القبور**"، لأنهم بنوا المساجد عليها.

قولــه: "**فتنة التماثيل**"، لأنهم صــوروا فجمعــوا بين فتنــتين، وإنما سمي ذلك فتنة، لأنها سبب لصد الناس عن دينهم، وكل ما كـان كـذلك، فإنه من الفتنـة، قـال تعـالى: **ألم * أحسب الناس أن يـتركوا أن يقولـوا آمنا وهم لا يفتنون** [العنكبوت: 1،2]، وقال تعالى: **إن الذين فتنـوا المؤمنين والمؤمنات** [البروج: 10]، أي: صدوهم، أو فعلوا ما يصدونهم به عن دين الله.

* * *

ولهما عنهـا، قـالت: لما نـزل برسـول الله ، طفق يطـرح خميصة له على وجـه، فـإذا اغتم بهـا، كشــفها، فقــال وهو كـذلك: "**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**".

قوله: "**ولهما**"، الضمير يعـود على البخـاري ومسـلم، وإن لم يسـبق لهما ذكر، لكنه لما كان ذلك مصطلحاً معروفاً، صح أن يعود الضمير عليهمـا، وهما لم يذكرا اعتماداً على المعروف المعهود.

وقوله: "**عنها**"، أي: عن عائشة.

قـالت: "**لما نـزل برسـول الله**"، أي: نـزل به ملك المـوت لقبض روحه.

قوله: "**طفق**"، من أفعال المشروع، واسمها مستتر، وجملة "يطرح" خبرها.

قوله: "**خميصة**"، هي كساء مربع له أعلام كـان يطرحه النـبي على وجهه.

قوله: "**فإذا اغتم بها**"، أي أصابه الغم بسببها، وقد احتضر .

قوله: "**وهو كذلك**"، أي: وهو في هذه الحال عند الاحتضار.

قوله: "**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**"، يقول هذا في سياق المـوت، و"**لعنة الله**"، أي: طـرده وإبعـاده، وهذه الجملة يحتمل أنه يراد بها ظاهر اللفظ، أي: أن النبي يخـبر بـأن الله لعنهم.

ويحتمل أن يــراد بها الــدعاء، فتكــون خبرية لفظــاً إنشــائية معــنى، والمعـنى على هـذا الاحتمـال أن النـبي دعا عليهم وهو في سـياق المـوت بسبب هذا الفعل.

---

[1] نسخة: "فتنتين".

قوله: "**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**"، الجملة هـذه تعليل لقولـه: "**لعنة الله على اليهود والنصارى**"، كأن قائلاً يقول: لمـاذا لعنهم النـبي ﷺ، فكـان الجـواب: أنهم اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مسـاجد، أي: أمكنة للسـجود، سواء بنوا مساجد أم لا، يصلون ويعبـدون الله تعـالى فيها مع أنها مبينة على القبور.

* * *

يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك، أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. أخرجاه[1].

قولـه: "**يحـذر ما صـنعوا**"، أي: إنه ﷺ قـال ذلك في سـياق المـوت تحذيراً لأمته مما صنع هؤلاء، لأنه علم أنه سيموت وأنه ربما يحصل هـذا ولو في المستقبل البعيد.

قوله: "**ولولا ذلك أبرز قبره**"، أبرز، أي: أخرج من بيته، لأن الـبروز معناه الظهور، أي لولاً التحذير وخوف أن يتخذ قـبره مسـجداً، لأخـرج ودفن في البقيع مثلاً، لكنه في بيته أصون له، وأبعد عن اتخاذه مسـجداً، فلهـذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره ﷺ.

ومن أسباب ذلك: إخباره ﷺ أنه ما قبض نبيي إلا دفن حيث قبض[1]، ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السـبب الواحد قد يـترتب عليه حكمان أو أكـثر، كغـروب الشـمس يـترتب عليه جـواز إفطـار الصـائم، وصلاة المغرب.

قولـه: "**غـير أنه خشي أن يتخذ مسـجداً**"، خشي فيها روايتـان: خشي، وخشي[2].

فعلى رواية خشي يكـون الـذي وقعت منهم الخشـية الصـحابة رضى الله عنهم.

وعلى رواية خشي يكون الذي وقعت منه الخشية النبي ﷺ.

والحقيقة أن الأمر كله حاصل، فالرسـول ﷺ أخـبر بأنه ما قبض نـبي إلا دفن حيث قبض، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبـور أنبيـائهم مسـاجد خوفاً من اتخاذ قبره مسجداً، والصحابة رضي أي عنهم اتفقوا على أن يدفن ﷺ في بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك.

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بـأن بـدفن في بيتـه، وليس في ذهنه إلا هذه الخشية، وبعضهم أشـار أن يـدفن في بيته وعنـده علم بأنه ﷺ قـال: "**ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض**"، وخوفاً من اتخاذه مسجداً.

في هذا الحـديث والحـديث السـابق: التحـذير من اتخـاذ قبـور الأنبيـاء مســاجد، وهم أفضل الصــالحين، لأن مرتبة النبــيين هي المرتبة الأولى من المـراتب الأربع الـتي قـال الله تعـالى عنهـا: ﴿**ومن يطع الله والرسـول فأولئك مع الـــذين أنعم الله عليهم من النبـــيين والصـــديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾ [النساء: 69].

* **اعتراض وجوابه:**

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرســول ﷺ الآن، فإنه في وسط المسجد، فما هو الجواب؟

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، ومسلم: كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

مسند الإمام أحمد (1/7)، والترمذي: كتاب الجنائز/ باب حدثنا أبو كريب، 3/394 - وضعفه -.

[2] البخاري : كتاب الجنائز/ باب ما جاء في قبر النبي ﷺ.

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المسجد لم يبن على القبر، بل بني المسجد في حياة النبي .

الوجه الثاني: أن النبي لم يدفن في المسجد حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد، بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أن إدخال بيوت الرسول ، ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل، وذلك عام 94هـ تقريباً، فليس مما أجازة الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أن بعضهم خالف في ذلك، وممن خالف أيضاً سعيد بن المسيب من التابعين، فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع: أن القبر ليس في المسجد، حتى بعد إدخاله، لأ،ه في حجرة مستقلة عن المسجد، فليس المسجد مبنياً عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظاً ومحوطاً بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة، أي مثلث، والركن في الزاوية الشمالية، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف.

فبهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه، فنقول: إن الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين، وليس محل إجماع، وعلى فرض أنه إجماع، فقد تبين الفرق من الوجوه الأربعة التي ذكرناها.

* * *

ولمسلم عن جندب بن عبد الله، قال: "سمعت النبي قبل أن يموت بخمس وهو يقول: "**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذي خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**"[1].

قوله: "**بخمس**"، أي: خمس ليال، لكن العرب تطلقها على الأيام والليالي.

قوله: "**أبرأ**"، البراءة: هي التخلي، أي: أتخلى أن يكون لي منكم خليل.

قوله: "**خليل**"، هو الذي يبلغ في الحب غايته، لأنه حبه يكون قد تخلل الجسم كله، قال الشاعر يخاطب محبوبته:

قد تخللت مسلك الروح مني وبهذا سمي الخليل خليلاً

والخلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يثبتها الله - عز وجل - فيما نعلم إلا لاثنين من خلقه، وهما: إبراهيم في قوله تعالى: **واتخذ الله إبراهيم خليلاً** [النساء: 125]، ومحمد لقوله : "**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**".

وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إن إبراهيم خليل الله، ومحمداً حبيب الله، وهذا تنقص في حق الرسول ، لأنهم بهذه المقالة جعلوا مرتبة النبي دون مرتبة إبراهيم، ولأنهم إذا جعلوه حبيب الله لم

---

[1] مسلم: كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

يفرقـوا بينه وبين غـيره من النـاس، فـإن الله يحب المحسـنين والصـابرين، وغيرهم ممن علق الله بفعلهم المحبـة، فعلى رأيهم لا فـرق بين الرسـول وغـيره، لكن الخلة ما ذكرها الله إلا لإبـراهيم، والنـبي أخـبر أن الله اتخـذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

فالمهم: أن العامة مشكل أمرهم، دائماً يصفون الرسول بأنه حـبيب اللـه، فنقـول: أخطـأتم وتنقصـتم نـبيكم، فالرسـول خليل اللـه، لأنكم إذا وصفتموه بالمحبة أنزلتموه عن بلوغ غايتها.

قوله: "**فـإن الله قد اتخـذني خليلاً كما اتخذ إبـراهيم خليلاً**"، هــذا تعليل لقولــه: "**إني أبــرأ إلى الله أن يكــون لي منكم خليل**"، فالنبي ليس في قلبه خلة لأحد إلا الله - عز وجل - .

قولــه: "**ولو كنت متخـــذاً من أمــتي خليلاً، لاتخــذت أبا بكر خليلاً**".

وهـذا نص صـريح على أن أبا بكر أفضل من علي، رضي الله عنهمـا، وفي هذا رد على الرافضة الذين يزعمون أن علياً أفضل من أبي بكر.

وقوله: "**لو**"، حرف امتنـاع لامتنـاع، فيمتنع الجـواب لامتنـاع الشـرط، وعلى هذا امتنع من اتخاذ أبي بكر خليلاً لأنه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلاً.

قولـه: "**ألا وإن من كان قبلكم**"، للتنبيـه، وهـذه الجملة في أثنـاء الحديث لكنه ابتدأها بالتنبيه لأهمية المقام.

قولــه: "**ألا فلا تتخــذوا**"، هــذا تنبيه آخر للنهي عن اتخــاذ القبــور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

قوله: "**فإني أنهاكم عن ذلك**"، هـذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيـداً لهذا النهي لأهمية المقام.

* **من فوائد الحديث:**

1- أن النبي تبرأ من أن يتخذ أحـداً خليلاً، لأن قلبه مملـوء بمحبة الله تعالى.

2- أن الله تعالى اتخـذه خليلاً كما اتخذ إبـراهيم خليلاً، ففيه فضيلة لرسول الله .

3- فضيلة إبراهيم باتخاذه خليلاً.

4- فضيلة أبي بكـر، وأنه أفضل الصـحابة لأن الحـديث يـدل على أنه أحب الصحابة إلى الرسول .

5- التحـذير من اتخـاذ القبـور مسـاجد في قولـه: "**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**"، وقوله: "**فإني أنهاكم عن ذلك**".

6- أن من دفن شخصاً في مسجد وجب عليه نبشه إخراجه من المسجد.

7- حـــرص النـــبي على أمته في إبعـــادهم عن الشـــرك وأسبابه، لأن اتخـاذ القبـور مسـاجد من وسـائل الشـرك وذرائعـه، ولهـذا حـرص النـبي على تحـذير أمته منـه، وهـذا من كما رأفته ورحمته بالأمة.

8- أن من بنى مسجداً على قبر وجب عليه هدمه.

* * *

فقد نهى عنه في آخر حياتـــه، ثم إنه لعن - وهو في الســـياق - من فعله.

والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد

قولــه: "**فقد نهي عنه في آخر حياتــه...**" هــذا من كلام شــيخ الإسلام ابن تيمية.

وقوله: "**فقد نهي عنه في آخر حياته**" الضمير يعود إلى النـبي ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قولـه: "**ثم إنه لعن وهو في السـياق من فعله**"، فـالنبي وهو عند فراق الدنيا لعن من اتخذ القبور مساجد.

قوله: "**والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد**".

"**عنـــدها**"، أي: عند القبـــور، وقولـــه: "**من ذلك**"، أي: من اتخاذها مساجد، وعلى هذا، فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولهذا نهي النـبي ، كما في "صحيح مسلم" من حديث أبي مرثد الغنوي أن يصلى إلى القبور، فقال: "**لا تصلوا إلى القبور**"[1].

* * *

وهو معــنى قولهــا: "**خشي أن يتخذ مســجداً**"، فـإن الصـحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصـدت الصـلاة فيـه، فقد اتخذ مسجداً، بل كل مواضع يصلى فيه، يسمى مسجداً، كما قـال : "**جعلت لي أرض مسجداً وطهوراً**"[2].

قوله: "**وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً**" الضـمير في "**قولها**" يرجع إلى عائشة رضي الله عنها.

قوله: "**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً**" هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

قد يقال: "**خشي أن يتخذ مسجداً**"، أي: مكاناً يصلى فيــه، وإن لم يبن المسجد.

ولا ريب أن أصل تحريم بناء المساجد على القبور أن المسـاجد مكـان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فـإذا صـلى النـاس في مسـجد بـني على قبر، فكأنهم صلوا عند القبر، والمحـذور الـذي يوجد في بنـاء المسـاجد على القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة، وإن لم يبن مسجد.

فتبين بهذا أن اتخاذ القبور مساجد له معنيان:

الأول: أن تبنى عليها مساجد.

الثاني: أن تتخذ مكاناً للصلاة عندها وإن لم يبن المسـجد، فـإذا كـان هؤلاء القوم مثلاً يذهبون إلى هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلى، فإن هذا بمعنى بناء المساجد عليها، وهو أيضاً من اتخاذها مساجد.

قوله: "**وكل موضع قصدت الصلاة فيه، فقد اتخذ مسجداً**".

وهـذا يشـهد له العـرف، فـإن النـاس الـذين لهم مسـاجد في مكـان أعمالهم، كالوزارات والإدارات لو سـألت واحـداً منهم أين المسـجد؟ لأشـار إلى المكان الذي اتخذوه مصلى يصلون فيــه، مع أنه لم يبن، لكن لما كـانت الصلاة تقصد فيه، صار يسمى مسجداً.

قولـه: "**بل كل موضع يصلى...**"، فقولـه: "**مسـجداً**"، أي: مكانـاً للسـجود، وهـذا معـنى ثـالث زائد على المعنـيين الأولين، وهو أن يقـال: كل

---

[1] البخاري: كتاب المساجد/ باب قول النبي : "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"، ومسلم: أوائل كتاب المساجد.

[2] مسلم: كتاب الجنائز/ باب النهي عن الجلوس على القبر.

شيء تصلي فيه، فإنه مسجد ما دمت تصلي فيه، كما قال للسجادة التي تصلي عليها مسجد أو مصلى وإن كان الغالب عليها اسم مصلى.

* **الخلاصة:**

إنه لا يجوز بناء المساجد على القبور، لأنها وسيلة إلى الشرك، وهو عبادة صاحب القبر.

ولا يجوز أيضاً أن تقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد، لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها، فلو فرض أن رجلاً يذهب إلى المقبرة ويصلي عند قبر ولي من الأولياء على زعمه، قلنا: إنك اتخذت هذا القبر مسجداً، وإنك مستحق لما استحقه اليهود والنصارى من اللعنة، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية دليل على صحة تسمية كل شيء يصلى فيه مسجداً بالمعنى العام.

* * *

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود (رضي الله عنه) مرفوعاً: "**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**". ورواه أبو حاتم في "صحيحه"[1].

قوله: "**مرفوعاً**"، المرفوع: ما أسند إلى النبي ﷺ.

قوله: "**إن من شرار الناس**"، من: للتبعيض، وشرار: جمع شر، مثل صحاب جمع صحب، والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر، وأن بعضهم أشد من بعض.

قوله: "**من تدركهم الساعة**"، من: اسم موصول اسم إن، والساعة، أي: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يسمى ساعة، كما يقال: هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

قوله: "**وهم أحياء**"، الجملة حال من الهاء في "تدركهم".

وفي قوله: "**تدركهم الساعة وهم أحياء**" إشكال، وهو أنه ثبت عن النبي ﷺ قوله: "**لا تزل طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله**"[1]، وفي رواية: "**حتى تقوم الساعة**"[2]، فكيف نوفق بين الحديثين لأن ظاهر الحديث الذي ساقه المؤلف إن كل من تدركهم الساعة وهم أحياء، فهم من شرار الخلق؟!

والجمع بينهما أن يقال: إن المراد بقوله: "**حتى تقوم الساعة**"، أي: إلى قرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل، لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق، فالله يرسل ريحاً تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقى إلى شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

قوله: "**الذين يتخذون القبور مساجد**"، فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا، لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرم، فهي محرمة.

فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/435)، وابن خزيمة في "الصحيح" (789) - وقال شيخ الإسلام: "إسناده جيد" - ، "الاقتضاء"، (2/568).

[1] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي".

[2] مسلم: كتاب الإمارة/ باب قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي".

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد.

وفي قوله ﷺ: "**إن من شرار الناس**" دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر، لأن بعضهم أشد من بعض فيه، كما أنهم يتفاوتون في الخير أيضاً، لقوله تعالى: ﴿**هم درجات عن الله والله بصير بما يعملون**﴾ [آل عمران: 163]، وذلك من حيث الكمية، فمن صلى ركعتين، فليس كمن صلى أربعاً.

ومن حيث الكيفية، فمن صلى وهو قانت خاشع حاضر القلب، ليس كمن صلى وهو غافل.

ومن حيث النوعية، فالفرض أفضل من النفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة، لأن الصلاة أفضل الأعمال البدنية.

وهذا الذي تدل عليه الأدلة مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل في الأعمال، حتى في الإيمان الذي هو في القلب يتفاضل الناس فيه، بل إن الإنسان يحس في نفسه أنه في بعض الأحيان يجد في قلبه من الإيمان ما لا يجده في بعض الأحيان، فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر.

* **وخلاصة الباب:**

أنه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلظ على من عبد الله عند قبر رجل صالح.

وكلام المؤلف رحمه الله في قوله: "**فيمن عبدالله**" يشمل الصلاة وغيرها والأحاديث التي ساقها في الصلاة، لكنه رحمه الله كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره، فهو شبيه بمن اتخذه مسجداً لأنه يرى أن لهذه البقعة أو لمن فيها شأناً يفضل به على غيره، فالشيخ عمم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدل بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: إن الشيخ أراد بذلك أن العلة هي تعظيم هذا المكان، لكونه قبراً، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات، فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النص له لفظاً.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

فيه مسائل:

- **الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل،** تؤخذ من لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: "**ولو صحت نية**"، لأن الحكم علق على مجرد صورته، فهذا العمل لا يحتاج إلى نية لأنه معلق مجرد الفعل.

فالنية تؤثر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطي أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما علق على فعل مجرد، فلا حاجة فيه إلى النية.

أي: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتباراً بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتب على ذلك،

وهــذه النقطة نتــدرج منها إلى نقطة أخــرى، وهي التحــذير من مشـــابهة المشــركين وإن لم يقصد الإنســان المشــابهة، وهــذه قد تخفى على بعض الناس، حيث يظن أن التشبه إنما يحـرم إذا قصـدت المشـابه، والشـرع إنما علق الحكم بالتشبه، أي: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء في مسألة التشـبه: وإن لم ينو ذلـك، فـإن التشـبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة "**إنما الأعمال بالنيات**" هل تعارض ما ذكرنا؟

الجــواب: لا تعارضـــه، لأن ما علق بالعمل ثبت له حكمه وإن لم ينو الفعل، كالأشياء المحرمة، كالظهار، والزنا، وما أشبهها.

- **الثانية: النهي عن التماثيل وغلط الأمر في ذلك،** تؤخذ من قوله: "**وصوروا فيه تلك الصور"،** ولا سيما إذا كانت هذه الصـور معظمة عادة، كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم

أو شرعاً، مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك.

- **الثالثة: العـبرة في مبالغته في ذلـك، كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قـال؟! ثم لما كـان في السياق لم يكتف بما تقدم.**

وهـذا مما يـدل على حـرص النـبي على حماية جـانب التوحيـد، لأنه خلاصة دعـوة الرسـل، ولأن التوحيد أعظم الطاعـات، فالمعاصي ولو كـبرت أهون من الشـرك، حـتى قـال بن مسـعود: "لأن أحلف بالله كاذبـاً أحب إلي من أن أحلف بغيره صـادقاً"[1]، لأن الحلف بغـيره نـوع من الشـرك، والحلف بالله كاذباً معصية، وهي أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جداً، ونحن نحذر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الانكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خلقوا له، واشـتغلوا بما خلق لهم، فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالـدنيا، ليس في أفكـارهم إلا الـدنيا قـائمين وقاعـدين ونـائمين ومسـتيقظين، وهـذا في الحقيقة نـوع من الشرك، لأنه يـوجب الغفلة عن الله - عز وجل - ، ولهـذا سـمى النـبي من فعل ذلك عبـــداً لما تعبد لـــه، فقـــال: "**تعس عبد الـــدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصــة، تعس عبد الخميلة**"[2]، ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قدر له من الدنيا، فالدنيا وسـيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غاية وأنت لا تـدري مقامك فيهـا؟! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان، كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويم نساء ويوم نسر

فالحاصل: أن النبي بعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصـاً على سد كل الأبواب التي تؤدي إلى الشرك، فالرسـول حـذر من اتخـاذ القبـور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: في سائر حياته.

والثانية: قبل موته بخمس.

والثالثة: وهو في السياق.

- **الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القـبر،** تؤخذ من قوله: "**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**"، فإن قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه.
- **الخامسـة: أنه من سـنن اليهـود والنصـارى في قبـور أنبيائهم،** تؤخذ من قوله : "**اتخذوا قبور أنبيائهم مسـاجد**"، وبئس رجلاً جعل إمامه اليهود والنصارى وتشبه بهم في قبيح أعمالهم.
- **السادسة: لعنه إيـاهم على ذلـك،** تؤخذ من قولـه: "**لعنة الله على اليهود والنصارى**".
- **السـابعة: أن مـراده تحـذيره إيانـاً عن قـبره،** تؤخذ من قول عائشة: "**يحذر ما صنعوا**" أي: ما صنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

---

[1] تقدم (ص 199).
[2] تقدم (ص 23).

* * *

الثامنـة: العلة في عـدم إبـراز قـبره. **التاسـعة:** في معـنى اتخاذها مسجداً. **العاشرة:** أنه قرن بين من اتخـذها مسـجداً وبين من تقـوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

- **الثامنــة: العلة في عــدم إبــراز قــبره،** تؤخذ من قــول عائشة: "ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً**"**.

هنــاك علة أخــرى، وهي: إخبــاره بأنه من نــبي يمــوت إلا دفن حيث يمــوت[1]، ولا يمتنع أن يكــون للحكم علتــان، كما لا يمتنع أن يكــون للعلة حكمان.

- **التاسعة: في معـنى اتخاذها مسـجداً،** سـبق أن ذكرنا أن لها معنيين:

1- بناء المساجد عليها.

2- اتخاذها مكانــاً للصــلاة تقصد فيصــلى عنـدها، بل إن من صـلى عنـدها ولم يتخـذها للصـلاة، فقد اتخـذها مسـجداً بـالمعنى العام.

- **العاشرة: أنه قـرن بين من اتخـذها مسـجداً وبين من تقوم عليه الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.**

ومعنى هذا أن الرسول ﷺ ذكر التحذير من الشرك قبل أن يموت.

وقوله: "**مع خاتمته**"، وهي: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والـذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء، هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مسـاجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

* * *

الحادية عشـــرة: ذكـــره في خطبته قبل موته بخمس الـــرد على الطائفين اللتين هما أشر هما البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقـة، وهم الرافضة والجهميـة، وبسـبب الرافضة حـدث الشـرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

- **الحادية عشـــرة: ذكـــره في خطبته قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع.**

قوله: "**قبل أن يموت بخمس**"، أي: خمس ليال، والعـرب يعـبرون عن الأيام بالليالي وبالعكس.

قوله: "**أشر أهل البدع**"، يقال: أشر، ، ويقال: شر، بحـذف الهمـزة، وهو الأكثر استعمالاً.

وإنما تكلم المؤلف رحمه الله عن حـــال الرافضة والجهمية وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس على معرفتهما والاطلاع عليهما، لأن الإنســان إذا ذكر له الحكم والوصف قبل ذكر الموصــوف والمحكــوم عليــه، صـارت نفسه تتطلع وتتشـوق إلى هـذا، فلو قـال من أول الكلام: الـرد على الرافضة والجهميـة، فلا يكـون للإنسـان التشـوق مثل ما لو تكلم عن حالهما وحكمهما أولاً.

وحالهما: أنها أشر أهل البدع.

وحكمهم: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

---

[1] تقدم (ص 392).

والرافضـة: اسم فاعل من رفض الشـيء إذا اسـتبعده، وسـموا بـذلك لأنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقـال: هما وزيـراً جـدي. فرفضـوه وتركـوه، وكـانوا في السـابق معـه، لكن لما قـال الحق المخـالف لأهـوائهم، نفروا منه والعياذ بالله، فسموا رافضة.

وأصل مـــذهبهم من عبدالله بن ســبأ، وهو يهــودي تلبس بالإســلام، فــأظهر التشــيع لآل الــبيت والغلو فيهم ليشـغل النــاس عن دين الإســلام ويفسده كما أفسد بولص دين النصارى عندما تلبس بالنصرانية.

وأول ما أظهر ابن سـبأ بدعته في عهد علي بن أبي طـالب، حـتى إنه جـاءه وقـال: أنت الله حقـاً - والعيـاذ بالله -. فـأمر علي بالأخـدود فحفـرت، وأمر بـالحطب فجمـع، وبالنـار فأوقـدت، ثم أحـرقهم بهـا، إلا أنه يقـال: إن عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته، فالله أعلم.

فالمهم أن علياً رضي الله عنه رأى أمـراً لم يحتملـه، حيث ادعـوا فيه الألوهية فأحرقهم بالنـار إحراقـاً ، ثم بـدأت هـذه الفرقة الخبيثة تتكـاثر، لأن شعارها في الحقيقة النفاق الذي يسـمونه التقيـة، ولهـذا كـانت هـذه الفرقة أخطر ما يكـون على الإسـلام، لأنها تتظـاهر بالإسـلام والـدعوة إليـه، وتقيم شعائره الظاهرة، كتحريم الخمور وما أشبه ذلـك، لكنها تناقضه في البـاطن، فهم يـــرون أئمتهم آلهة تـــدير الكـــون، وأنهم أفضل من الأنبيـــاء والملائكة والأولياء، وأنهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرب ولا نبي مرسـل، وهـؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوى الإسلام، وذلك يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كثير من كتبه قولاً إذا أطلع عليه الإنسان عرف حالهم: "إنهم أشد الناس ضرراً على الإسلام، وأنهم هجروا المسـاجد وعمـروا المشـاهد"، فهم يقولون: لا نصلي جماعة إلا خلف إمـام معصـوم ولا معصـوم الآن، وهم أول من بنى المشاهد على القبور كما قـال الشـيخ هنـا، ورمـوا أفضل أتبـاع الرسول على الإطلاق - وهما أبو بكر وعمر - بالنفاق، وإنهما ماتا على ذلـك، كعبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه والعيـاذ باللـه، فـأنظر بمـاذا تحكم على هؤلاء بعد معرفة معتقدهم ومنهجهم؟

وأما الجهميـــة، فهم أتبـــاع الجهم بن صـــفوان، وأول بدعته أنه أنكر صفات الله، وقـال: إن الله لم يتخذ إبـراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمـاً، فأنكر المحبة والكلام، ثم بدأت هـذه البدعة تنتشر وتتسـع، فاعتنقها طوائف غــير الجهميــة، كالمعتزلة ومتــأخري الرافضــة، لأن الرافضة كـانوا بــالأول مشـبهة، ولهـذا قـال أهل العلم: أول من عـرف بالتشـبيه هشـام بن الحكم الرافضي، ثم تحولوا من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صـفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبـان بن سـمعان، وأبـان أخـذها عن طـالوت الـذي أخـذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إن الجهم بن صفوان نشأ في بلاد خراسان، وفيها كثير من الصائبة وعباد الكواكب والفلاسـفة، فأخذ منهم أيضـاً ما أخـذ، فصـارت هـذه البدعة مركبة من اليهودية والصائبة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة في الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهمية معطلة في الصــفات ينكــرون الصــفات، ومنهم من أنكر الأســماء مع الصــفات، وهــذه الأســماء الــتي يضـيفها الله - سـبحانه - إلى نفسه جعلوها إضـافات وليست

حقيقـة، أو أنها أسـماء لبعض مخلوقاتـه، فالسـميع عنـدهم بمعـنى من خلق السمع في غيره والبصير كذلك، وهكذا.

ومنهم من أنكر أن يكـون الله متصـفاً بالإثبـات أو العـدم، فقـالوا: لا يجوز أن نثبت لله صفة أو ننفي عنه صفة، حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنه موجود ولا إنه معدوم، لأننا إن قلنا موجود شبهناه بـالموجودات، وإن قلنا بأنه معـدوم شـبهناه بالمعـدومات، فنقـول: لا موجـود ولا معـدوم، فكـابروا المعقـول، وكـذبوا المنقـول، وهـذا لا يمكن، لأن تقابل الوجـود والعـدم من تقابل النقيضـين اللـذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهمـا، بل لابد أن يوجد أحدهما، فوصف الله بذلك تشبيه له بالممتنعات على قاعدتهم.

ومذهبهم في القضاء والقدر: الجبر، فيقولون: إن الإنسان مجــبر على عمله يعمل بدون اختياره إنه صلى، فهو مجبر، وإن قتل، فهو مجبر، وهكـذا، فعطلـوا بـذلك حكمة الله لأنه إذا كـان كل عامل مجـبراً على عمله لم يكن هناك حكمة في الثواب والعقاب بل بمجرد المشيئة يعاقب هذا ويـثيب هـذا، وبذلك عطلوا عن الفاعلين أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنساناً أو تذمه، لأن العاصي مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنكم إذا قلتم ذلك أثبتم أن الله أظلم الظالمين، لأنه كيف يعـاقب العاصي وهو مجـبر على المعصـية؟ ويـثيب الطـائع وهو مجـبر على طاعته؟ فيكون أعطى من لا يستحق، وعاقب من لا يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم، لأن الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنه باطل، لأن المالك إذا كـان متصـفاً بصـفات الكمـال لن يخلف وعــده، وقد قــال الله تعــالى: ﴿**ومن يعمل من الصــالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً**﴾ [طه: 112]، فلو أخلف هذا الوعـد، لكان نقصاً في حقه وظلماً لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومـذهبهم في أسـماء الإيمـان والـدين الإرجـاء، فيقولـون: إن الإيمـان مجرد اعـتراف الإنسـان بالخـالق على الوصف المعطل عن الصـفات حسب طـريقتهم، وأن الأقـوال والأعمـال لا مـدخل لها في الإيمـان، وأن الإيمـان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إن أفسق وأعدل عبـاد الله في الإيمـان سـواء، بل قــالوا إن فرعــون مــؤمن كامل الإيمــان، وجبريل مــؤمن كامل الإيمــان، لكن فرعــون كفــر، لأنه ادعى الربوبية لنفسه فقــط، فصــار ذلك كافراً.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان

فمـــذهبهم من أخبث المـــذاهب إن لم نقل أخبثهـــا، لكن أخبث منه مذهب الرافضـة، حـتى قـال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه اللـه، "إن جميع البدع أصلها من الرافضة، حتى قال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه اللـه: "إن جميع البدع أصـلها من الرافضـة"، فهم أصل البلية في الإسـلام، ولهـذا قـال المؤلف: "**أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسـبعين فرقة**"، ولعل الصــواب من الثلاث والســبعين فرقــة، أو أن الصــواب أخــرجهم إلى الثنــتين والســبعين، أي: أخــرجهم من الثالثة الــتي كــان عليها الرســول ﷺ

وأصحابه، لأن المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقــة، كلها في النار إلى واحده، وهي من كانت على ما كان عليه النبي وأصحابه.

وصدق رحمه الله في قوله عن هـاتين الطـائفتين الرافضة والجهميـة: "**شر أهل البدع**".

وقد قتل الجهم بن صـفوان سـلمة بن أحـوز صـاحب شـرطة نصر بن سيار لأن أظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: "**وبسبب الرافضة حدث الشك، وعبادة القبور، وهم أول من بـني عليها المسـاجد**"، ولهـذا يجب الحـذر من بـدعتهم وبدعة الجهمية وغيرهـا، ولا شك أن البـدع دركـات بعضـها أسـفل من بعض، فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعاً لمنهج السلف الصالح في هـذا الباب وفي غيره.

* * *

الثانية عشــرة: ما بلى به من شــدة الــنزع. **الثالثة عشــرة:** ما أكرم به من الخلة.

- **الثانية عشــرة: ما بلي به من شــده الــنزع،** تؤخذ من قولهــا: "**طفق بطــرح خميصة له على وجهــه، فــإذا اغتم بها كشفها**"، وفي هذا دليل على شدة نزعه، وهكذا كاد الرسـول يمـرض ويوعك كما يوعك الرجلان[1] من النـاس، وهـذا من حكمة الله - عز وجل ـ، فهو شـدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأوذي إيـذاء عظيمـاً، وكـذلك أيضاً فيما يصيبه من الأمراض يضـاعف عليـه، والحكمة من ذلك لأجل أن ينال أعلى درجـات الصـبر، لأن الإنسـان إذا ابتلي بالشر وصـبر كـان ذلك أرفع لدرجته.

والصـبر درجة عالية لا تنـال إلا بوجـود أسـبابها، ومنها الابتلاء، فيصـبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

- **الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة،** ويـدل عليها قوله : "**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**"، ولا شك أن هـذه الكرامة عظيمــة، لأننا لا نعلم أحــداً نـال هــذه المرتبة إلا رســول الله وإبراهيم .

* * *

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة. **الخامسة عشرة:** التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

- **الرابعة عشرة: التصــريح بأنها على من المحبــة،** ودليل ذلك أنه كان يحب أبا بكر، وكـان أحب النـاس إليـه، فـأثبت له المحبـة، ونفى عنه الخلـة، فـدل هـذا على أنها أعلى من المحبـة، والتصـريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضـمه إلى غـيره، فقد ورد من حـديث آخر أنه صــرح: "**بــأن أبا بكر أحب الرجــال إليه**"[2]، ثم قــال هنا "**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً**" فـدل على أن الخلة أعلى من المحبة.

---

[1] البخاري: كتاب المرضى/ باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ومسلم: كتاب البر والصلة/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن.

[2] البخاري: كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر، ومسلم: كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر.

- **الخامسة عشـــرة: التصـــريح بـــأن الصـــديق أفضل الصــحابة،** تؤخذ من قوله : "**ولو كنت متخــذاً من أمــتى خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً**"، فلو كـان غـيره أفضل منه عند النـبي ، لكـان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضاً:

أن الأفضلية في الإيمان والعمل الصالح فـوق الأفضـلية بالنسـب، لأننا لو راعينا الأفضلية بالنسب، لكان حمزة بن عبد المطلب والعباس رضي الله عنهما أحق من أبي بكر في ذلـك، ومن ثم قـدم أبو بكر رضي الله عنه على علي بن أبي طالب وغيره من آل النبي .

* * *

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

- **السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته،** لم يقل التصـريح، وإنما قال: الإشارة، لأن النبي لم يقـل: إن أبا بكر هو الخليفة من بعـده، لكن لما قـال: "**لو كنت متخـذاً من أمـتي خليلاً، لاتخـذت أبا بكر خليلاً**" علم أنه رضي الله عنه أولى النـاس برسـول الله ، فيكـون أحق الناس بخلافته.

* * *

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

هذا الباب له صلة بما قبله، وهو أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله.

أي: يؤول الأمر بالغالين إلى أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها.

والغلو: مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً، والمراد هنا مدحاً.

والقبور لها حق علينا من وجهين:

1- أن لا نفرط فيما يجب لها من الاحترام، فلا تجوز إهانتها ولا الجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

2- أن لا نغلو فيها فتتجاوز الحد.

وفي "صحيح مسلم" قال علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي: "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته"[1]، وفي رواية: "ولا صورة إلا طمستها".

والقبر المشرف: هو الذي يتميز عن سائر القبور، فلا بد أن يسوى ليساويها لئلا يظن أن لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن، إذ هو وسيلة إلى الغلو فيه.

قوله: "**الصالحين**"، يشمل الأنبياء والأولياء، بل ومن دونهم.

قوله: "**أوثاناً**"، جمع وثن، وهو كل ما نصب للعبادة، وقد يقال له: صنم، والصنم: تمثال ممثل، فيكون الوثن أعم.

ولكن ظاهر كلام المؤلف أن كل ما يعبد من دون الله يسمى وثناً، وإن لم يكن على تمثال نصب، لأن القبور قد لا يكون لها تمثال ينصب على القبر فيعبد.

قوله: "**تعبد من دون الله**"، أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله، لأن الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإن قرن بها غيره صارت عبادة لغير الله، وقد ثبت في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: "**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**"[2]

* * *

روى مالك في "الموطأ"، أن رسول الله ﷺ قال: "**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**"[1].

قوله: "في "**الموطأ**""، كتاب مشهور من اصح الكتب، لأنه رحمه الله تحرى فيه صحة السند، وسنده أعلى من سند البخاري لقربه من الرسول ﷺ، وكلما كان السند أعلى كان إلى الصحة أقرب، وفيه مع الأحاديث آثار عن الصحابة، وفيه أيضاً كلام وبحث للإمام مالك نفسه.

وقد شرحه كثير من أهل العلم، ومن أوسع شروحه وأحسنها في الرواية والدراية: "التمهيد" لابن عبد البر، وهذا - أعني: "التمهيد" - فيه علم كثير.

---

[1] مسلم: كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر.

[2] تقدم (ص 37).

[1] تقدم (ص105).

قوله: "**اللهم**"، أصلها: يا الله! فحـذفت يا النـداء لأجل البـداءة باسم اللـه، وعـوض عنها الميم الدالة على الجمـع، فكـأن الـداعي جمع قلبه على الله، وكانت الميم في الآخر لأجل البداءة باسم الله.

قوله: "**لا تجعل قبري وثناً بعيداً**"، لا: للدعاء، لأنها طلب من الله، وتجعل: تصير، والمفعول الأول لها: "قبري"، والثاني: "وثناً".

وقوله: "**يعبد**"، صفة لـوثن، وهي صـفة كاشـفة، لأنه الـوثن هو الـذي يعبد من دون الله.

وإنما سأل النبي ذلك لأن من كان قبلنا جعلوا قبور أنبيـائهم مسـاجد وعبدوا صالحيهم، فسأل النبي ربه أن لا يجعل قـبره وثنـاً يعبـد، لأن دعوته كلها بالتوحيد ومحاربة الشرك.

قوله: "**اشتد**"، أي: عظم.

قولـــه: "**غضب الله**"، صـــفة حقيقية ثابتة لله - عز وجل - لا تماثل غضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الأثر. وقال أهل التأويل: غضب الله هو الانتقام ممن عصاه، وبعضهم يقول: إرادة الانتقام ممن عصاه.

وهـذا تحريف للكلام عن مواضـعه، لأن النـبي لم يقـل: انتقم اللــه، وإنما قـال: اشـتد غضب اللـه، وهو يعـرف كيف يعـبر، ويعـرف الفـرق بين غضب الله وبين الانتقـام، وهو أنصح الخلق وأعلم الخلق بربـه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافه، لأنه لو أتى بذلك لكان ملبساً، وحاشاه أن يكــون كذلك، فالغضب غير الانتقام وغير إرادة الانتقام، فالغضب صفة حقيقية ثابتة لله تليق بجلاله لا تماثل غضب المخلوق، لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق، منها:

1- غضب المخلـوق حقيقته هـو: غليـان دم القلب، وجمـرة ويلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى يفـور، أما غضب الخـالق، فإنه صـفة لا تماثل هـذا، قـال تعـالى: **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** [الشورى: 11].

2- أن غضب الآدمي يؤثر آثـاراً غـير محمـودة، فـالآدمي إذا غضب قد يحصل منه ما لا يحمــد، فيقتل المغضــوب عليــه، وربما يطلق زوجتــه، أو يكسر الإنــاء، ونحو ذلــك، أما غضب اللــه، فلا يــترتب عليه إلا آثـار حميـدة لأنه حكيم، فلا يمكن أن يــترتب على غضبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع في محله.

فغضب الله ليس كغضب المخلـــوقين، لا في الحقيقة ولا في الآثـــار، وإذا قلنا ذلك، فلا نكون وصفنا الله بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصـفة تـدل على القـوة وتمـام السـلطان، لأن الغضب يـدل على القـدرة الغاضب على الانتقـام وتمـام سـلطانه، فهو بالنسـبة للخـالق صـفة كمـال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدل على بطلان تأويل الغضب بالانتقام قوله تعالى: **فلما آسفونا انتقمنا منهم** [الزخرف: 55].

فإن معنى **آسفونا**: أغضبونا، فجعل الانتقام غـير الغضـب، بل أثـراً مترتباً عليه، فدل هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام.

واعلم أن كل من حـرف نصـوص الصـفات عن حقيقتها وعما أراد الله بها ورسوله، فلا بد أن يقع في زلة ومهلكة، فالواجب علينا أن نسلم لما جاء

به الكتاب والسنة من صفات الله تعالى على ما ورد إثباتــاً بلا تمثيل وتنزيهــاً بلا تعطيل.

قوله: "**اتخذوا قبور أنبيـائهم مسـاجد**"، أي: جعلوها مسـاجد، إما بالبنـاء عليهـا، أو بالصـلاة عنـدها، فالصـلاة عند القبـور من اتخاذها مسـاجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

وهنا نسأل: هل اسـتجاب الله دعـوة نبيه بـأن لا يجعل قـبره وثنـاً يعبد، أم اقتضت حكمته غير ذلك؟

الجواب: يقول ابن القيم: إن الله استجاب لـه، فلم يـذكر أن قـبره جعل وثناً، بل إنه حمي بثلاثة جدران، فلا أحد يصل إليه حتى يجعله وثنـاً يعبد من دون الله، ولم يسمع في التاريخ أنه جعل وثناً.

قال ابن القيم في "النونية":

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

صحيح أنه يوجد أناس يغلون فيه، ولكن لم يصلوا إلى جعل قبره وثنـاً، ولكن قد يعبـدون الرسـول ولو في مكـان بعيـد، فـإن وجد من يتوجه له بدعائه عند قبره، فيكون قد اتخذه وثناً، لكن القبر نفسه لم يجعل وثناً.

* * *

ولابن جرير بسنده، عن سـفيان، عن منصـورٍ، عن مجاهـد: **أفرأيتم اللات والعزى** [النجم: 19].

قولــه: "**ولابن جرير**"، هو محمد بن جرير بن يزيد الطــبري، الإمــام المشهور في التفسير، توفي سنة 310هـ.

وتفسيره: هو أصل التفسير بالأثر، ومرجع لجميع المفسرين بالأثر، ولا يخلو من بعض الآثار الضـعيفة، وكأنه يريد أن يجمع ما روي عن السـلف من الآثـار في تفسـير القـرآن، ويـدع للقـارئ الحكم عليها بالصـحة أو الضـعف بحسب تتبع رجـال السـند، وهي طريقة جيـدة من وجـه، وليست جيـدة من وجه آخر.

فجيـدة من جهة أنها تجمع الآثـار الـواردة حـتى لا تضـيع، وربما تكـون طرقها ضعيفة ويشهد بعضها لبعض.

وليس جيــدة من جهة أن القاصر بــالعلم ربما يخلط الغث بالســمين ويأخذ بهذا وهذا، لكن من عـرف طريقة السـند، وراجع رجـال السـند، ونظر إلى أحوالهم وكلام العلماء فيهم، علم ذلك.

وقد أضاف إلى تفسيره بالأثر: التفسير بالنظر، ولا سيما ما يعــود إلى اللغة العربية، ولهـذا دائمـاً يـرجح الـرأي ويسـتدل له بالشـواهد الـواردة في القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية، فالطبري مجتهد، لكنه سلك طريقة خالف غــيره فيها بالنسبة للإجماع، فلا يعتـبر خلاف الرجل والـرجلين، وينقل الإجمـاع ولو خالف في ذلك رجل أو رجلان، وهذه الطريقة تؤخذ عليـه، لأن الإجمـاع لا بد أن يكـون من جميع أهل العلم المعتـبرين في الإجمـاع، وقد يكـون الحق مع هذا الواحد المخالف.

والعجيب أني رأيت بعض المتأخرين يحذرون الطلبة من تفسـيره، لأنه مملـوء على زعمهم بالإسـرائيليات، ويقولـون: عليكم بــ"تفسـير الكشـاف" للزمخشري وما أشبه ذلك، وهـؤلاء مخطئـون، لأنهم لجهلهم بفضل التفسـير بالآثار عن السلف واعتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بآرائهم صاروا يقولون هذا.

قوله: "**عن سفيان**"، إما سفيان الثـوري، أو ابن عيينـة، وهـذا مبهم، والمبهم يمكن معرفته بمعرفة شيوخه وتلاميذه، وفي الشرح - أعني "تيسير العزيز الحميد" يقول: الظاهر أنه الثوري.

قوله: "**عن مجاهد**"، هو مجاهد بن جبر المكي، إمام المفسـرين من التابعين، ذكر عنه أنه قال: "عرضت المصحف على عبدالله بن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلى خاتمتـه، فما تجـاوزت آية إلا وقفت عنـدها أسـأله عن تفسيرها".

قوله: **أفرأيتم**، الهمزة: للاستفهام، والمراد به التحقـير، والخطـاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزى... إلخ.

لما ذكر الله تعـالى قصة المعـراج وما حصل فيه من الآيـات العظيمة التي قال عنها: **لقد رأى من آيات ربه الكبرى**، قال: **أفرأيتم اللات والعزى**، أي: ما نسبة هذه الأصنام للآيـات الكبـيرة الـتي رآها النـبي ليلة المعراج.

* * *

قال: "كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا على قبره".

قوله: **اللات**، "**كـان يلت لهم...**" **إلخ،** على قـراءة التشـديد: من لت يلت، فهو لات.

أما على قـــراءة التخفيـــف، فوجهها أنها خففت لتســـهيل الكلام، أي: حذف منها التضعيف تخفيفاً.

وقد سبق أنهم قالوا: إن اللات من الإله.

وأصله: رجل كان يلت السويق للحجاج، فلما مات، عظمـوه، وعكفـوا على قبره، ثم جعلوه إلهاً، وجعلوا التسمية الأولى مقترنة بالتسمية الأخـيرة، فيكــون أصــله من لت الســويق، ثم جعلــوه من الإلــه، وهــذا على قــراءة التخفيف أظهر من التشديد، فالتخفيف يرجح أنه من الإلـه، والتشـديد يـرجح أن أصله رجل يلت السويق.

وغلــوا في قــبره، وقــالوا: هــذا الرجل المحسن الــذي يلت الســويق للحجاج ويطعمهم إياه، ثم بعد ذلك عبـدوه، فصـار الغلو في القبـور يصـيرها أوثاناً تعبد من دون الله.

وفي هــذا التحــذير من الغلو في القبــور، ولهــذا نهي عن تجصيصــها والبناء عليها والكتابة عليها خوفاً من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تعبد من دون الله، وكان الرسول يأمر إذا بعث بعثاً: بأن لا يـدعو قـبراً مشـرفاً إلا سووه[1]، لعلمه أنه مع طول الزمـان سـيقال: لـولا أن له مزية ما اختلف عن القبور، فالذي ينبغي أن تكـون القبـور متسـاوية لا مـيزة لواحد منها عن البقية.

قوله: "**السويق**"، هو عبارة عن الشعير يحمص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل.

* * *

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباسٍ: "كان يلت السويق للحاج"[2]

وقوله: "**كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفـوا على قـبره**"، يعني: ثم عبدوه وجعلوه إلهاً مع الله.

---

[1] مسلم: كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر.

[2] البخاري: كتاب التفسير/ باب أفرأيتم اللات والعزى.

قولـه: "**وكـذا قـال أبو الجـوزاء عن ابن عبـاس: كـان يلت السويق للحاج"،** والغـريب أن النـاس في جـاهليتهم يكرمـون حجـاج بيت الله، ويلتون لهم السـويق، وان العبـاس أيضـاً يسـقي لهم من زمـزم، وربما يجعل في زمزم نبيذاً يحليه زبيباً أو نحوه، وفي الوقت الحاضر صـار النـاس بـالعكس يسـتغلون الحجـاج غاية الاسـتغلال - والعيـاذ بالله - ، حـتى يـبيعوا عليهم ما يساوي ريالاً بريالين وأكثر حسب ما يتيسر لهم، وهـذا في الحقيقة خطأ عظيم، لأن الله تعـالى يقـول: ﴿**ومن يــرد فيه بإلحـاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾ [الحج: 25]، فكيف بمن يفعل الإلحاد؟!

* * *

وعن ابن عبـــاس رضي الله عنهمـــا، قـــال: "**لعن رســـول الله ﷺ زائـرات القبـور، والمتخـذين عليها المسـاجد والسـرج**". رواه أهل السنن[1].

قوله: "**لعن**"، اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعـنى "**لعن رسول الله ﷺ"،** أي: دعا عليهم باللعنة.

قوله: "**زائرت القبـور**"، زائـرت: جمع زائـرة، والزيـارة هنا معناهـا: الخروج إلى المقابر، وهي أنواع:

منها ما هو سنة، وهي زيارة الرجال للاتعاظ والدعاء للموتى.

ومنها ما هو بدعة، وهي زيارتهم للدعاء عنـدهم وقـراءة القـرآن ونحو ذلك.

ومنها ما هو شـرك، وهي زيـارتهم لـدعاء الأمـوات والاسـتنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.

وزائـر: اسم فاعل يصـدق بـالمرة الواحـدة، وفي حـديث أبي هريـرة: "**لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور**"[2]، بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة أي كثرة الزيارة.

قوله: "**والمتخذين عليها المساجد**"، هذا الشاهد من الحديث، أي: الــذين يضـعون عليها المســاجد، وقد ســبق أن اتخــاذ القبــور مســاجد له صورتان:

1- أن يتخذها مصلى يصلى عندها.

2- بناء المساجد عليها.

قوله: "**والسرج**"، جمع سراج، توقد عليها السرج ليلاً ونهاراً تعظيمـاً وغلواً فيها.

وهذا الحديث يدل على تحـريم زيـارة النسـاء للقبـور، بل على أنه من كبـائر الـذنوب، لأن اللعن لا يكـون إلا على كبـيرة، ويـدل على تحـريم اتخـاذ المساجد والسرج عليها، وهو كبيرة من كبائر الذنوب للعن فاعله.

* **المناسبة للباب:**

إن اتخــاذ المســاجد عليها وإســراجها غلو فيهــا، فيــؤدي بعد ذلك إلى عبادتها.

مســألة: ما هي الصـــلة بين الجملة الأولى: "**زائــرات القبــور**"، والجملة الثانية "**المتخذين عليها المساجد والسرج**"؟

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/229)، وسنن أبو داود: كتاب الجنائز/ باب في زيارة النساء القبور، 4/95، والترمذي: الصلاة/ باب كراهة أن يتخذ على القبر مسجداً، 320- وقال: "حديث حسن" -.

[2] مسند الإمام أحمد (2/337)، والترمذي: الجنائز/ باب ما جاء في كراهة زيارة القبور للنساء، 4/12 - وقال: "حسن صحيح" - .

الصـــلة بينهما ظـــاهرة: هي أن المـــرأة لرقة عاطفتها وقلة تمييزها وضعف صبرها ربما تعبد أصحاب القبـور تعطفـاً على صـاحب القـبر، فلهـذا قرنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج.

وهل يـدخل في اتخـاذ السـرج على المقـابر ما لو وضع فيها مصـابيح كهرباء لإنارتها؟.

الجواب: أما في المواطن الـتي لا يحتـاج النـاس إليهـا، كما لو كـانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهى النـاس من الـدفن فيـه، فلا حاجة إلى إسراجه، فلا يسرج، أما الموضع الذي يقبر فيه فيسـرج ما حولـه، فقد يقـال بجوازه، لأنها لا تسرج إلا بالليـل، فليس في ذلك ما يـدل على تعظيم القـبر، بل اتخذ الإسراج للحاجة.

ولكن الذي نرى أنه ينبغي المنع مطلقاً للأسباب الآتية:

1- أنه ليس هناك ضرورة.

2- أن النـاس إذا وجـدوا ضـرورة لـذلك، فعنـدهم سـيارات يمكن أن يوقدوا الأنـوار الـتي فيها ويتـبين لهم الأمـر، ويمكنهم أن يحملوا سراجاً معهم.

3- أنه إذا فتح هــذا البــاب، فــإن الشر سيتسع في قلــوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضـنا أنهم جعلـوا الإضـاءة بعد صــلاة الفجر ودفنــوا الميت، فمن الــذي يتــولى قفل هــذه الإضاءة؟

الجواب: قد تترك، ثم يبقى كأنه متخذ عليها السرج، فالـذي نـرى أنه يمنع نهائياً.

أما إذا كــان في المقــبرة حجــرة يوضع فيها اللبن ونحــوه، فلا بــأس بإضاءتها لأنها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلة لا تشاهد، فهـذا نرجـوا أن لا يكون به بأس.

والمهم أن وسـائل الشـرك يجب على الإنسـان أن يبتعد عنها ابتعـاداً عظيمـاً، ولا يقـدر للـزمن الـذين هو فيه الآن، بل يقـدر للأزمـان البعيـدة، فالمسألة ليست هينة.

وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبـور، وأنها من كبـائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب، لهذا الحديث.

القـول الثـاني: كراهة زيــارة النســاء للقبــور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه، لحديث أم عطيـة: "**نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا**"[1]

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور، لحديث المـرأة: الـتي مر النــبي ﷺ بها وهي تبكي عند قــبر، فقــال لهــا: "**اتقي الله واصــبري**". فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمثل مصيبتي. فانصرف الرسـول ﷺ عنهـا، فقيل لهـا: هـذا رسـول الله ﷺ. فجـاءت إليه تعتـذر، فيم يقبل عـذرها، وقـال:

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب اتباع النساء للجنائز، ومسلم: كتاب الجنائز/ باب نهي النساء عن اتباع الجنائز.

"**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**"[1]، فـالنبي شـاهدها عند القـبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

ولما ثبت في "صحيح مسلم"[2] من حديث عائشة الطويـل، وفيـه: أن النبي خـرج إلى أهل البقيع في الليـل، واسـتغفر لها ودعا لهم، وأن جبريل أتـاه في الليل وأمـره، فخـرج مختفيـاً عن عائشـة، وزار ودعا ورجـع، ثم أخبرها الخبر، فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قـال: "**قولي: السـلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...**" إلخ.

قـالوا: فعلمها النـبي دعـاء زيـارة القبـور، وتعليمه هـذا دليل على الجواز.

ورأيت قولاً رابعا: أن زيارة النساء للقبور سـنة كالرجـال، لقوله : "**كنت نهيتكم عن زيـــارة القبـــور، فزوروهـــا، فإنها تـــذكركم الآخرة**"[3]، وهذا عام للرجال والنساء.

ولأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبدالله بن أبي مليكة، أليس النـبي قد نهى عن زيـارة القبـور؟ قـالت: إنه أمر بها بعد ذلك [4].

وهذا دليل على أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجب عن أدلة الأقـوال الأخـرى: بـأن الصـريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح، فمن ذلك:

أولاً: دعوى النسخ غير صحيحة، لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

1- تعــذر الجمع بين النصــين، والجمع هنا ســهل وليس بمتعــذر، لأنه يمكن أن يقال: إن الخطاب في قوله: "**كنت نهيتكم عن زيارة القبـور، فزوروها**" للرجـال، والعلمـاء اختلفـوا فيما إذا خـوطب الرجـال بحكم: هل يدخل النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول - وهو الصحيح -، فإن دخولهن في هـذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم، وعلى هذا يجوز أن يخصص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول قد خص النبي النســاء من هذا الحكم، فأمره بالزيارة للرجال فقط، لأن النساء أخرجن بالتخصـيص من هذا العمـوم بلعن الزائـرات، وأيضـاً مما يبطل النسخ قولـه: "**لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**"[1]، ومن المعلوم أن قوله: "**والمتخذين عليها المساجد والسرج**"، لا أحد يـدعي أنه منسـوخ، والحـديث واحـد، فادعـاء النسخ في جـانب منه دون آخر غـير مستقيم، وعلى هذا يكون الحديث محكماً غير منسوخ.

2- العلم بالتـأريخ، وهنا لم نعلم التـأريخ، لأن النــبي لم يقــل: كنت لعنت من زار القبور: بل قال: "**كنت نهيتكم**"، والنهي دون اللعن.

وأيضاً قولـه: "**كنت نهيتكم**" خطـاب للرجـال، ولعن زائـرات القبـور خطـاب للنســاء، فلا يمكن حمل خطـاب الرجـال على خطـاب النســاء، إذاً، فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ.

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب زيارة القبور، ومسلم: كتاب الجنائز/ باب في الصبر على المعصية عند الصدمة الأولى.

[2] مسلم: كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند دخول القبر... .

[3] مسند الإمام أحمد (1/145)، ومسلم بلفظ: "نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي..."

[4] الترمذي: كتاب الجنائز/ باب زيارة النساء للقبور، وذكره الهيثمي في "المجمع"، وقال: رواه الطبراني في "الكبير" ورجاله رجال الصحيح، والبغوي في "شرح السنة".

[1] تقدم (ص 424).

وثانياً: وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة، أن المــرأة لم تخــرج للزيــارة قطعــاً، لكنها أصــيبت، ومن عظم المصــيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقى في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي عند القبر مما يــدل على أن في قلبها شيئاً عظيماً لم تتحمله حــتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكي عند قبره، ولهذا أمرها أن تصبر، لأنه علم أنها لم تخرج للزيارة، بل خـرجت لما في قلبها من عدم تحمل هذه الصدمة الكبيرة، فالحــديث ليس صــريحاً بأنها خرجت للزيارة، وإذا لم يكن صـريحاً، فلا يمكن أن يعـارض الشـيء الصـريح بشيء غير صريح.

وأما حــديث عائشــة، فإنها قــالت للرســول : مــاذا أقــول؟ فقــال: "**قــولي: الســلام عليكم**"، فهل المــراد أنها تقــول ذلك إذا مــرت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل، فليس فيه تصريح بأنها إذا خرجت زائرة، إذا من الممكن أن يــراد به إذا مــرت بها من غــير خــروج للزيــارة، وإذا كــان ليس صريحاً، فلا يعارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها رضي الله عنهما، فــإن فعلها مع أخيها لم يســتدل عليها عبدالله بن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنما اســتدل عليها بــالنهي عن زيارة القبور مطلقاً، لأنه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور، لكنا ننظر بماذا ستجيبه.

فهو استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عاماً، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنه قد أمر بــذلك، ونحن وإن كنا نقـــول: إن عائشة رضي الله عنها اســـتدلت بلفظ العمـــوم، فهي كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول ، على أنه روي عنهــا، أنها قالت: "**لو شهدتك ما زرتك**"، وهذا دليل على أنها رضي الله عنها خرجت لتدعو له، لأنها لم تشهد جنازتــه، لكن هــذه الرواية طعن فيها بعض العلمــاء، وقال: إنها لا تصح عن عائشة رضي الله عنها، لكننا نبقى على الرواية الأولى الصحيحة، إذا ليس فيها دليل على أن الرسول نسـخه، وإذا فهمت هي، فلا يعارض بقولها قول الرسول .

* إشكال وجوابه:

في قولــه: "**زوارات القبــور**" ألا يمكن أن يحمل النهي عن تكــرار الزيارة لأن "**زوارات**" صيغة مبالغة.

الجــواب: هــذا ممكن، لكننا إذا حملنــاه على ذلــك، فإننا أضـعنا دلالة المطلق "**زائرات**".

والتضعيف قد يحمل على كـثرة الفـاعلين لأن على كـثرة الفعـل، فــ "**زوارات**" يعني: النساء إذا كن مئة كـان فعلهن كثـيراً، والتضـعيف باعتبـار الفاعل موجود في اللغة العربيــة، قـال تعـالى: **جنات عــدن مفتحة لهم الأبواب** [ص: 50]، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف، إذا الباب لا يفتح إلا مرة واحدة، وأيضاً قراءة **حــتى إذا جاؤوها وفتحت** [الزمـر: 73]، فهي مثلها.

فالراجح تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنها من كبائر الذنوب.

وأنظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (343/24).

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير الأوثان. **الثانية:** تفسير العبادة.

- **الأولى: تفسـير الأوثـان،** وهي: كل ما عبد من دون اللـه، سواء كان صنماً أو قبراً أو غيره.
- **الثانية: تفسـير العبـادة،** وهي: التـذلل والخضـوع للمعبـود خوفاً ورجاء ومحبة وتعظيماً، لقوله: "**لا تجعل قبري وثناً يعبد**".

* * *

الثالثة: أنه لم يسـتعذ إلا مما يخـاف وقوعـه. **الرابعة:** قرنه بهـذا اتخـاذ قبـور الأنبيـاء مسـاجد. **الخامسـة:** ذكر شـدة الغضب من اللـه. **السادسة:** وهي من أهمهـا: معرفة صـفة عبـادة اللات الـتي هي من أكـبر الأوثان. **السابعة:** معرفة أنه قبر رجل صالح.

- **الثالثة: أنه لم يستعذ إلا مما يخاف من وقوعه**، وذلك في قوله: "**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**".
- **الرابعة: قرنه بهذا اتخـاذ قبـور الأنبيـاء مسـاجد،** وذلك في قولـه: "**اشـتد غضب الله على قـوم اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مساجد**".
- **الخامسـة: ذكر شـدة الغضب من اللـه،** تؤخذ من قولـه: "**اشتد غضب الله**".

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقـة، لكنه كغـيره من صـفات الأفعـال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.

وفيه أنه يتفاوت كما ثبت في الحديث الصحيح حـديث الشـفاعة: "**إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله ولا بعده**"[1].

- **السادسة ـــ وهي من أهمها - : معرفة صـفة عبـادة اللات الـتي هي من أكـبر الأوثـان:** وذلك في قولـه: "**فمـات، فعكفوا على قبره**".
- **السـابعة: معرفة أنه قـبر رجل صـالح،** تؤخذ من قولـه: "**كان يلت لهم السويق**"، أي: للحجاج، لأنه معظم عندهم، والغـالب لا يكون معظماً إلا صاحب دين.

* * *

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية. **التاسعة:** لعنه زوارات القبور. **العاشرة:** لعنة من أسرجها.

- **الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معـنى التسـمية،** وهو أنه كان يلت السويق.
- **التاسـعة: لعنة زوارات القبـور،** أي: النـبي ، وذكر رحمه الله لفظ: "**زوارات القبور**" مراعاة للفظ الآخر.
- **العاشرة: لعنة من أسرجها،** وذلك في قوله: "**والمتخذين عليها المساجد والسرج**".

وهنا مسألة مهمة لم تذكر، وهي: أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً كما في قبر اللات، وهذه من أهم الوسائل، ولم يـذكرها المؤلف رحمه اللـه، ولعله اكتفى بالترجمة عن هـذه المسـألة بما حصل للات، فـإذا قيل بذلك، فله وجه.

---

[1] تقدم (ص 324).

مسألة: المرأة إذا ذهبت للروضة في المسـجد النبـوي لتصـلي فيهـا، فالقبر قريب منها، فتقف وتسلم، ولا مانع فيه.

والأحسن البعد عن الزحام ومخالطة الرجال، ولئلا يظن من يشـاهدها أن المرأة يجوز لها قصد الزيارة، فيقع الإنسان في محـذور، وتسـليم المـرء على النبي يبلغه حيث كان.

* * *

باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قولـه: "**المصـطفى**"، أصـلها: المصـتفى، من الصـفوة، وهو خيـار الشـيء، فـالنبي أفضل المصـطفين لأنه أفضل أولي العـزم من الرسـل، والرسل هم المصـطفون، والمـراد بـه: محمد ، والاصـطفاء على درجـات أعلاها اصـطفاء أولي العـزم من الرسـل، ثم اصـطفاء الرسـل، ثم اصـطفاء الأنبياء، ثم اصطفاء الصديقين، ثم اصطفاء الشهداء، ثم اصطفاء الصالحين.

قوله: "**حماية**"، من حمى الشيء، إذا جعل له مانعـاً يمنع من يقـرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها، ونحو ذلك.

قوله: "**جناب**"، بمعنى جانب، والتوحيد، تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: "**وسده كل طريق**"، أي: مع الحماية لم يدع الأبـواب مفتوحة يلج إليها من شـاء، ولكنه سد كل طريق يوصل إلى الشـرك، لأن الشـرك أعظم الـذنوب، قـال تعـالى: **إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** [النساء: 48].

قال شيخ الإسـلام ابن تيميـة: الشـرك الأصـغر لا يغفـره اللـه، لعمـوم قوله: **أن يشرك به**، وعلى هذا، فجميع الـذنوب دونه لقولـه: **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**، فيشـمل كبـائر الـذنوب وصـغائرها، فالشـرك ليس بـالأمر الهين الـذي يتهـاون بـه، فالشـرك يفسد القلب والقصـد، وإذا فسد القصد فسد العمل، إذ العمل مبناه على القصد، قال تعالى: **من كان يريد الحيـاة الـدنيا وزينتها نـوف إليهم أعمـالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الـذين ليس لهم في الآخـرة إلا النـار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** [هـود: 15،16]، وقـال : "**إنما الأعمال بالنيات**"[1].

إذاً، فالرسـول حمى جـانب التوحيد حماية محكمـة، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ولو من بعيد، لأن من سار على الدرب وصل، والشـيطان يزين للإنسان أعمال السوء شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى الغاية.

* * *

وقول الله تعالى: **لقد جاءكم رسـول من أنفسـكم عزيز عليه ما عنتم** الآية [التوبة: 128].

قولـه: **لقد جاءكم رسـول من أنفسـكم**، الجملة مؤكـدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد، وهي مؤكدة لجميع مدخولها بأنه رسـول، وأنه من أنفسـهم، وأنه عزيز عليه ما يشق علينـا، وأنه بـالمؤمنين رؤوف رحيم، فالقسم منصب على كل هذه الأوصاف الأربعة.

والخطاب في قوله: **جاءكم** قيل: للعرب، لقولـه: **من أنفسكم**، فالرسول من العرب، قال تعالى: **هو الذي بعث في الأميين رسـولاً منهم** [الجمعة: 2].

---

[1] تقدم (ص 220).

ويحتمل أن يكون عاماً للأمة كلها، ويكون المراد بـالنفس هنا الجنس، أي: ليس من الجن ولا من الملائكـة، بل هو من جنسـكم، كما قـال تعـالى: **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** [الأعراف، 189].

وعلى الاحتمال الأول فيه إشـكال، لأن النـبي بعث إلى جميع النـاس من العرب والعجم.

ولكن يقال في الجواب: إنه خـوطب العـرب بهـذا، لأن منة الله عليهم به أعظم من غيرهم، حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب.

والاحتمـال الثـاني أولى، للعمـوم، ولقولـه: **لقد من الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسـولاً من أنفسـهم** [آل عمـران: 164]، ولما كان المراد العـرب، قـال: **منهم** لا "من أنفسـهم"، قـال الله تعـالى: **هو الذي بعث في الأميين رسـولاً منهم**، وقـال تعـالى عن إبـراهيم وإسماعيل: **ربنا وابعث فيهم رسـولاً منهم**، وعلى هـذا، فـإذا جـاءت "من أنفسهم"، فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت "منهم"، فـالمراد: العـرب، فعلى الاحتمال الثاني لا إشكال في الآية.

قولـه: **رسول**، أي: من اللـه، كما قـال تعـالى: **رسـول من الله يتلو صحفاً مطهرة**، وفعول هنا بمعنى مفعل، أي: مرسل.

و**من أنفسكم**، سبق الكلام فيها.

قولـه: **عزيز**، أي: صـعب، لأن هـذه المـادة العين والـزاي في اللغة العربية تدل على الصلابة، ومنه: "أرض عزاز"، أي: صلبة قوية، والمعنى: أنه يصـعب عليه ما يشق عليكم، ولهـذا بعث بالحنيفية السـمحة، وما خـير بين شيئين إلا اختـار أيسـرهما ما لم يكن إثمـاً، وهـذا من التيسـير الـذي بعث به الرسول .

قولـه: **ما عنتم**، **ما**: مصـدرية، وليس موصـولة، أي: عنتكم، أي: مشقتكم، لأن العنت بمعنى المشقة، قال تعالى: **ذلك لمن خشي العنت منكم** [النساء: 25].

والفعل بعد **ما** يؤول إلى مصدر مرفوع، لكن بماذا هو مرفوع؟

يختلف بـاختلاف **عزيز** إذا قلنـا: بـأن **عزيز** صـفة لرسـول، صـار المصدر المؤول فاعلاً به، أي: عزيز عليه عنتكم، وإن قلنا: عزيز خبر مقدم، صار عنتكم مبتـدأ، والجملة حينئذ تكـون كلها صـفة لرسـول، أو يقـال: عزيز مبتدأ، وعنتكم فاعل سد مسد الخبر على رأي الكوفيين الذي أشـار إليه ابن مالك في قوله: وقد يجوز نحو فائز أولو الرشد.

قولـه: **حـريص عليكم**، الحـرص: بـذل الجهد لإدراك أمر مقصـود، والمعـنى: بـاذل غاية جهـده في مصـلحتكم، فهو جـامع بين أمـرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: **عزيز عليه ما عنتم**، وحصول المحبوب الـذي أفاده قوله: **حريص عليكم**، فكـان النـبي جامعـاً بين هـذين الوصـفين، وهذا من نعمة الله علينا وعلى الرسول أن يكـون على هـذا الخلق العظيم الممثل بقوله تعالى: **وإنك لعلى خلق عظيم** [القلم: 4].

قوله: **بالمؤمنين رؤوف رحيم**، **بالمؤمنين**: جار ومجرور خبر مقدم، و**رؤوف**: مبتـدأ مـؤخر، و**رحيم**: مبتـدأ ثـان، وتقـديم الخـبر يفيد الحصر.

والرأفة: أشد الرحمة وأرقها.

والرحمــة: رقة بــالقلب تتضــمن الحنو على المرحــوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا: رقة في القلب هذا باعتبـار المخلـوق، أما بالنسـبة لله تعـالى، فلا نفسـرها بهـذا التفسـير، لأن الله تعـالى ليس كمثله شـيء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها، فقد ثبت عن النبي ، أنه قال: "**إن لله مئة رحمة وضع منها رحمة واحدة يـتراحم بها الخلق منذ خلقـوا إلى يـوم القيامـة، حـتى إن الدابة لـترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**"[1].

فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقـدرها كيفيـة؟ لا أحد يسـتطيع إلا الله - عز وجل - الذي خلقها؟

فهذه رحمة واحدة، فإذا كـان يـوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسـعين رحمة بالإضـــافة إلى الرحمة الأولى، وهل هـــذه الرحمة تـــدانيها رحمة المخلوق؟

الجواب: أبداً، لا تدانيها، والقـدر المشـترك بين رحمة الخـالق ورحمة المخلـوق أنها صـفة تقتضي الإحسـان إلى المرحـوم، ورحمة الخـالق غـير مخلوقــة، لأنها من صــفاته، ورحمة المخلــوق مخلوقــة، لأنها من صــفاته، فصفات الخـالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلـوق لأننا لو قلنا بـذلك لقلنا بحلـول صـفات الخـالق بـالمخلوق، وهـذا أمر لا يمكن، لأن صـفات الخـالق يتصف بها وحده، وصفات المخلوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخـالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها.

وقولـــه: **بـــالمؤمنين رؤوف رحيم**، أي: إن النـــبي في غـــير المؤمـنين ليس رؤوفـاً ولا رحيمـاً، بل هو شـديد عليهم كما وصـفه الله هو وأصحابه بذلك في قوله: **محمد رسول الله والذين معه أشــداء على الكفار رحماء بينهم** [الفتح: 29].

قولـه: **فـإن تولـوا**، أي: أعرضـوا مع هـذا البيـان الواضح بوصف الرسول .

وهـذا التفـات من الخطـاب إلى الغيبـة، لأن التـولي مع هـذا البيـان مكروه، ولهذا لم يخاطبوا به، فلم يقل: فإن توليتم.

والبلاغيون يسمونه التفاتاً، ولو قيل: إنه انتقال، لكان أحسن.

قوله: **فقل حسبي الله**، الخطـاب للنـبي ، أي: قل ذلك معتمـداً على الله، متوكلاً عليه، معتصماً به: حسبي الله، وارتبـاط الجـواب بالشـرط واضـح، أي: فـإن أعرضـوا، فلا يهمنك إعراضـهم، بل قل بلسـانك وقلبـك: حسبي الله، و**حسبي** خـبر مقـدم، و(لفظ الجلالـة) مبتـدأ مـؤخر، ويجـوز العكس بـأن نجعـل: **حسبي** مبتـدأ و(لفظ الجلالـة) خـبر، لكن لما كـانت حسب نكرة لا تتعرف بالإضافة ، كان الأولى أن نجعلها هي الخبر.

قولـه: **لا إله إلا هو**، أي: لا معبـود حق حقيق بالعبـادة سـوى الله- عز وجل -.

قولـه: **عليه تـوكلت**، عليـه: جـار ومجـرور متعلق بتـوكلت، وقـدم للحصر.

---

[1] البخاري: كتاب الأدب/ باب جعل الله الرحمة في مئة جزء، ومسلم: كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله.

والتوكـل: هو الاعتمـاد على الله في جلب المنـافع ودفع المضـار مع الثقة به، وفعل الأسباب النافعة.

وقولـــه: **عليه تـــوكلت** مع قولـــه: **لا إله إلا هو** فيها جمع بين توحيدي الربوبية والعبودية، والله تعالى يجمع بين هذه الأمرين كثيراً، **إيــاك نعبد وإيـاك نسـتعين** [الفاتحـة: 5]، وقولـه: **فاعبـده وتوكل عليه** [هود: 123].

قوله: **وهو رب العرش العظيم**، الضمير يعود على الله - سبحانه -.

و**رب العرش**، أي: خالقه، وإضافة الربوبية إلى العرش - وإن كانت ربوبية الله - عامة تشريفاً للعرش وتعظيماً له.

ومناسبة التوكل لقولـه: **رب العرش العظيم**، لأن من كـان فـوق كل شـيء ولا شـيء فوقـه، فإنه لا أحد يغلبـه، فهو جـدير بـأن يتوكل عليه وحده.-

وقوله: **العرش** فسره بعض النـاس بالكرسـي، ثم فسـرو الكرسي بـالعلم، وحينئذ لا يكـون هنـاك كرسي ولا عـرش، وهـذا التفسـير باطـل، والصـحيح أن العــرش غــير الكرســي، وأن الكرسي غــير العلم، ولا يصح تفســيره بـــالعلم، بل الكرسي من مخلوقـــات الله العظيمة الـــذي وسع السماوات والأرض، والعـرش أعظم وأعظم، ولهـذا وصـفه بأنه عظيم بقوله تعالى: **وهو رب العرش العظيم** [التوبة 129]، وبأنه مجيد بقوله: **ذو العـرش المجيد** [الـبروج: 15] على قـراءة كسر الـدال، وبأنه كـريم في قوله: **لا إله إلا هو رب العرش الكريم** [المؤمنون: 116]، لأنه أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها وأعلاها لأن الله استوى عليه.

وفيه دليل على أن كلمة العظيم يوصف بها المخلـــوق، لأن العـــرش مخلوق، وكذلك الرحيم، والرؤوف، والحكيم.

ولا يلـزم من اتفـاق الاسـمين اتفـاق المسـميين، فـإذا كـان الإنسـان رؤوفاً، فلا يلـزم أن يكـون مثل الخـالق، فلا تقـل: إذا كـان الإنسـان سـميعاً بصيراً عليماً لزم أن يكون مثل الخالق، لأن الله سـميع بصـير عليم، كما أن وجود الباري سبحانه لا يستلزم أن تكون ذاته كـذوات الخلـق، فـإن أسـماءه كذلك لا يستلزم أن تكون كأسماء الخلق، وهناك فرق عظيم بين هذا وهذا.

وقولــه: **فقل حســبي الله**، أي: كـافيني، وهكــذا يجب أن يعلن المؤمن اعتماده على ربه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي يتخلى النـاس عنه، لأنه قال: **فإن تولوا**.

وهذه الكلمةــ كلمة الحسب - تقـال في الشـدائد، قالها إبـراهيم حين ألقي في النار، والنـبي وأصـحابه حين قيل لهم: **إن النـاس قد جمعـوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانــاً وقـالوا حسـبنا الله ونعم الوكيل** [آل عمران: 173].

* (تنبيه):

في سياقنا للآية الثانية فوائد نسأل الله أن ينفع بها.

* * *

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قـال رسـول الله : "**لا تجعلـوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي، فـإن صـلاتكم تبلغني حيث كنتم**".

قولــه: "**لا تجعلــوا**"، الجملة هنا نهي، فلا ناهيــة، والفعل مجــزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل.

قوله: "**بيوتكم**"، جمع بيت، وهو مقر الإنسان وسكنه، سواء كـان من طين أو حجارة أو خيمة أو غير ذلك، وغالب ما يراد به الطين والحجارة.

قوله: "**قبوراً**"، مفعول ثانٍ لتجعلوا، وهذه الجملة اختلف في معناها، فمنهم من قال: لا تجعلوها قبوراً، أي: لا تدفنوا فيها، وهـذا لا شك أنه ظـاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي في بيته.

وأجيب عنه بأن من خصائصه ، فالنبي دفن في بيته لسببين:

1- ما وري عن أبي بكر أنه سـمع النـبي يقـول: "**ما من نبي يموت إلا دفن حيث قبض**"[1]، وهذا ضعفه بعض العلماء.

2- ما روته عائشة رضي الله عنهـا: "**أنه خشي أن يتخذ مسجداً**"[1].

وقال بعض العلماء: المـراد بــ "**لا تجعلوا بيـوتكم قبـوراً"،** أي: لا تجعلوها مثل القبـور، أي: المقـبرة لا تصـلون فيهـا، وذلك لأنه من المتقـرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها، وأيـدوا هـذا التفسـير بأنه سـبقها جملة في بعض الطــرق: "**اجعلــوا من صــلاتكم في بيــوتكم، ولا تجعلوها قبوراً**"، وهذا يدل على أن المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

وكلا المعنيين صحيح، فلا يجوز أن يدفن الإنسان في بيته، بل يدفن مع المسلمين، لأن هذه هي العادة المتبعة منذ عهد النبي إلى اليــوم، ولأنه إذا دفن في بيته، فإنه ربما يكون وسيلة إلى الشرك، فربما يعظم هذا المكــان، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، ولأنه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منـه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لا يساوي إلا شـيئاً قليلاً، ولأنه قد يحـدث عنـده من الصخب واللعب واللغو والأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشـارع، فإن الرسول يقول: "**زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة**"[2].

وأما أن المعـنى: لا تجعلوها قبـوراً، أي: مثل القبـور في عـدم الصـلاة فيها، فهو دليل على أنه ينبغي إن لم نقل: يجب أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته ولا يخليه من الصلاة.

وفيه أيضاً: أنه من المتقرر عندهم أن المقبرة لا يصلى فيها.

إذاً، فيكون هذا النهي عن ترك الصلاة في الـبيوت لئلا تشـبه المقـابر، فيكــون فيه دليل واضح على أن المقــابر ليست محلاً للصــلاة، وهــذا هو الشـاهد من الحـديث للبـاب، لأن اتخـاذ المقـابر مسـاجد سـبب قـريب جـداً للشرك.

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين:

الأولى: أن يبني عليها مسجداً.

الثانية: أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلي عندها.

والحـديث يـدل على أن الأفضـل: أن المـرء يجعل من صـلاته في بيته وذلك جميع النوافــل، لقوله : "**أفضل صــلاة المــرء في بيتــه، إلا المكتوبة**"[3]، إلا ما ورد الشــرع أن يفعل في المســجد، مثــل: صــلاة الكسوف، وقيـام الليل في رمضـان، حـتى ولو كنت في المدينة النبويـة، لأن

---

[1] سبق (ص 292).

[1] سبق (ص 392).

[2] سبق (ص 428).

النبي قال ذلك وهو في المدينـة، وتكـون المضـاعفة بالنسـبة للفـرائض أو النوافل التي تسن لها الجماعة.

قوله: "**عيداً**"، العيد: اسم لما يعتاد فعله، أو الـتردد إليـه، فـإذا اعتـاد الإنسان أن يعمل عملاً كما لو كان كلما حال عليه الحول صـنع طعامـاً ودعا الناس، فهذا يسمى عيداً لأنه جعله يعود ويتكرر.

وكـذلك من العيـد: أن تعتـاد شـيئاً فتـتردد إليـه، مثـل: ما يفعل بعض الجهلة في شـهر رجب وهو ما يسـمى بالزيـارة الرجبيـة، حيث يـذهبون إلى مكة إلى المدينة، ويزورون كما زعموا قبر النـبي ، وإذا أقبلـوا على المدينة تسمع لهم صياحاً، وكـانوا سـابقاً يـذهبون من مكة إلى المدينة على الحمـير خاصة، ولما جاءت السيارات صاروا يذهبون على السيارات.

وأيهما المـراد من كلام النـبي : الأول، أي العمل الـذي يتكـرر بتكـرر العام، أو التردد إلى المكان؟

الظاهر الثاني، أي: لا تترددوا على قبري وتعتـادوا ذلـك، سـواء قيـدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع، فإنه نهى عن ذلـك، وإنما يـزار لسـبب، كما لو قدم الإنسان من سفر، فـذهب إلى قـبره فـزاره، أو زاره ليتـذكر الآخـرة كغيره من القبور.

وما يفعله بعض النــاس في المدينة كلما صــلى الفجر ذهب إلى قــبر النـبي من أجل السـلام عليـه، فيعتـاد هـذا كل فجـر، يظنـون أن هـذا مثل زيارته في حياته، فهـذا من الجهـل، وما علمـوا أنهم إذا سـلموا عليه في أي مكان، فإن تسليمهم يبلغه.

قوله: "**وصلوا علي**"، هذا أمر، أي: قولوا: الله صل على محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله: **إن الله وملائكته يصلون على النـبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً** [الأحزاب: 56].

وفضل الصـلاة على النـبي معـروف، ومنه أن من صـلى عليه مـرة واحدة صلى الله عليه بها عشراً[1].

والصـلاة من الله على رسـوله ليس معناها كما قـال بعض أهل العلم: إن الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن الآدميين الدعاء.

فهذا ليس بصـحيح، بل إن صـلاة الله على المـرء ثنـاؤه عليه في الملأ الأعلى، كما قال أبو العالية وتبعه على ذلك المحققون من أهل العلم.

ويدل على بطلان القول الأول قوله تعــالى: **أولئك عليهم صلوات ربهم ورحمة** [البقرة: 157]، فعطف الرحمة على الصلوات، والأصل في العطف المغايرة، ولأن الرحمة تكون لكل أحد، ولهذا أجمع العلمــاء على أنه يجوز أن تقول: فلان رحمه الله، واختلفـوا: هل يجـوز أن تقـول: فلان صـلى الله عليه؟

فمن صــلى على محمد مــرة أثــنى الله عليه في الملأ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة.

قوله: "**فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**"، حيث: ظرف مبني على الضم في محل نصب، ويقال فيها: حيث، وحوث، وحاث، لكنها قليلة.

كيف تبلغه الصلاة عليه؟

---

[3] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين/ باب استحباب صلاة النافلة في بيته.

[1] مسلم: كتاب الصلاة/ باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه.

الجواب: نقول: إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب، فالواجب أن يقال: الكيف مجهول لا نعلم بأي وسيلة تبلغه، لكن ورد عن النبي "**أن لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلغون النبي سلام أمته عليه**"[1]، فإن صح، فهذه هي الكيفية.

* * *

رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات[2]

قوله: "**رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات**"، هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، ظاهره أن بينهما اختلافاً، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوي خفيف الضبط، فمعناه أن فيه نوعاً من الثقة، فيجمع بين كلام المؤلف رحمه الله وبين ما ذكره عن رواية أبي داود بإسناد حسن: أن المراد بالثقة ليس غاية الثقة لأنه لو بلغ إلى حد الثقة الغاية لكان صحيحاً لأن ثقة الراوي تعود على تحقيق الوصفين فيه، وهما: العدالة والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضاً تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أن المراد: مطلق الثقة، ولكنه لا شك فيما أرى أنه إذا أعقب قوله: "**حسن**" بقوله: "**رواته ثقات**" أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ: "**حسن**".

ومثل هذا ما يعبر به ابن حجر في "تقريب التهذيب" بقوله: "صدوق يهم"، وأحياناً يقول: "صدوق"، وصدوق أقوى، فيكون توثيق الرجل الموصوف بصدوق أشد من توثيق الرجل الذي يوصف بأنه يهم.

لا يقول قائل: إن كلمة يهم لا تزيده ضعفاً، لأنه ما من إنسان إلا ويهم.

فنقول: هذا لا يصح، لأن قولهم: (يهم) لا يعنون به الوهم الذي لا يخلو منه أحد ولولا أن هناك غلبة في أوهامه ما وصفوه بها.

* * *

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ، فيدخل فيها، فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ، قال: "**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**". رواه في "المختارة"[1].

قوله: "**وعن علي بن الحسين**"، هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يسمى بزيد العابدين، من أفضل أهل البيت علماً وزهداً وفقهاً.

والحسين معروف: ابن فاطمة رضي الله عنها، وأبوه: علي رضي الله عنه.

قوله: "**يجيء إلى فرجة**"، هذا الرجل لا شك أنه لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن فيها فضلاً ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر، له مزية فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر، فلا يجوز أن يعتقد أن لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء

---

[1] النسائي: كتاب السهو/ باب السلام على النبي ، وقال ابن القيم في "جلاء الإفهام" (ص: 23): "وهذا إسناد صحيح".

[2] مسند الإمام أحمد (2/367)، وسنن أبي داود: كتاب المناسك/ باب بزيارة القبور، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "اقتضاء الصراط المستقيم": إسناده حسن، وقال النووي "إسناده صحيح".

[1] البخاري في "التاريخ الكبير، وأبو يعلى، كما في "مجمع الزوائد".

وقال الهيثمي: "وفيه جعفر بن إبراهيم الجعفري، ذكره أبو حاتم ولم يذكر فيه جرحاً، وبقية رجاله ثقات".

وفيه أيضاً على بن عمر بن الحسين، مستور، كما في "التقريب"ز

ورواه أيضاً: الضياء في "المختارة"، كما في "اقتضاء الصراط المستقيم" (ص 322).

أو قراءة، ولهذا نقـول: تكـره القـراءة عند القـبر إذا كـان الإنسـان يعتقد أن القراءة عند القبر أفضل.

قوله: "**فنهاه**"، أي: طلب منه الكف.

قوله: "**ألا أحدثكم حديثاً**"، قال: أحدثكم والرجل واحد، لان الظـاهر أنه كان عند أصحابه يحدثهم، فجاء هذا الرجل إلى الفرجة.

و"**ألا**": أداة عرض، أي: أعرض عليكم أن أحدثكم.

وفائدتها: تنبيه المخاطب إلى ما يريد أن يحدثه به.

قولـه: "**عن أبي عن جـدي**"، أبـوه: الحسـين، وجـده: علي بن أبي طالب.

قوله: "**عن رسول الله ﷺ**"، السند متصل، وفيه عنعنة لكنها لا تضـر، لأنها من غير مدلس، فتحمل على السماع.

قوله: "**لا تتخذوا قبري عيداً**"، يقال فيه كما في الحـديث السـابق: أنه نهى أن يتخذ قبره عيداً يعتاد ويتكرر إليه، لأنه وسيلة إلى الشرك.

قوله: "**ولا بيوتكم قبوراً**"، سبق معناه.

قوله: "**وصلوا علي، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم**"، اللفظ هكـذا، وأشك في صـحته، لأن قولـه: "**صـلوا علي**" يقتضي أن يقـال فـإن صلاتكم تبلغني، إلا أن يقال هذا من باب الطي والنشر.

والمعنى: صلوا علي وسلموا، فإن تسـليمكم وصـلاتكم تبلغـني، وكأنه ذكر الفعلين والعلـــتين، لكن حـــذف من الأولى ما دلت عليه الثانيـــة، ومن الثانية ما دلت عليه الأولى.

وقولـه: "**وصلوا علي**"، سـبق معناهـا، والمـراد: صـلوا علي في أي مكـان كنتم، ولا حاجة إلى أن تـأتوا إلى القـبر وتسـلموا علي وتصـلوا علي عنده.

قوله: "**يبلغني**"، تقدم كيف يبلغه ﷺ.

قوله: "**رواه في المختـارة**"، الفاعل مؤلف المختـارة، والمختـارة: اسم الكتاب، أي: الأحاديث المختارة.

والمؤلف هو عبد الغني المقدسي، من الحنابلة.

وما أقل الحـديث في الحنابلـة، يعـني المحـدثين، وهـذا من أغـرب ما يكون، يعني أصحاب الإمام أحمد أقل الناس تحديثاً بالنسبة للشافعية.

فالحنابلة غلب عليهم رحمهم الله الفقه مع الحديث، فصاروا محـــدثين وفقهاء، ولكنهم رحمهم الله بشر، فـإذا أخذ من هـذا العلم صـار ذلك زحامـاً للعلم الآخـر، أما الأحنـاف، فـإنهم أخـذوا بالفقـه، لكن قلت بضـاعتهم في الحديث، ولهذا يسمون أصحاب الرأي (يعني: العقل والقياس)، لقلة الحديث عندهم، والشافعية أكثر الناس عناية بالحديث والتفسير، والمالكية كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلهم في ذلك الأحناف مع أن لهم كتباً في الحديث.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية براءة. **الثانية:** إبعـاده أمته عن هـذا الحمى غاية البعد.

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير آية براءة،** وسبق ذلك في أول الباب.

- **الثاني: إبعاده أمته عن هـذا الحمى غاية البعـد،** تؤخذ من قوله: "**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً**".

* * *

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمتـه. **الرابعـة:** نهيه عن زيـارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال. **الخامسة:** نهيه عن الإكثار من الزيارة. **السادسة:** حثه على النافلة في الـبيت. **السـابعة:** أنه مقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

- **الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمتـه،** وهـذا مـذكور في آية براءة.
- **الرابعـة: نهيه عن زيـارة قـبره على وجه مخصـوص،** تؤخذ من قوله: "**ولا تجعلوا قـبري عيـداً**"، فقولـه: "**عيـداً**" هـذا هو الوجه المخصوص.

وزيارة قبر النبي من أفضل الأعمال من جنسـها، فزيارته فيها سـلام عليه، وحقه أعظم من غيره.

وأما من حيث التذكير بالآخرة، فلا فرق بين قبره وقبر غيره.

- **الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيـارة،** تؤخذ من قولـه: "**لا تجعلوا قبري عيـداً**"، لكنه لا يلـزم منه الإكثـار، لأنه قد لا يـأتي إلا بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيداً، فإن فيه نوعاً من الإكثار.
- **السادسة: حثه على النافلة في الـبيت،** تؤخذ من قولـه: "**ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً**"، وسبق أن فيها معنيين:

المعنى الأول: أن لا يقبر في البيت، وهذا ظاهر الجملة.

والثاني: الذي هو من لازم المعنى أن لا تترك الصلاة فيها.

- **السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقـبرة،** تؤخذ من قولـه: "**لا تجعلـوا بيـوتكم قـبراً**"، لأن المعـنى: لا تجعلوها قـبرواً، أي: لا تـتركوا الصلاة فيها على أحد الـوجهين، فكأنه من المتقـرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها.

* * *

الثامنة: تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعـد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب. **التاسـعة:** كونه في الـبرزخ تعـرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

- **الثامنــة: تعليل ذلك بــإن صــلاة الرجل وســلامه عليه يبلغه وإن بعـد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القـرب، أي:** كونه نهى أن يجعل قـبره عيـداً، العلة في ذلـك: أن الصـلاة تبلغه حيث كان الإنسان، فلا حاجة إلى أن يأتي إلى قبره، ولهذا نسـلم ونصـلي عليه في أي مكان، فيبلغه السلام والصلاة.

ولهذا قال علي بن الحسين: "ما أنت ومن في الأندلس إلا سواء".

- **التاسـعة: كونه في الـبرزخ تعـرض أعمـال أمته في الصلاة والسلام عليه،** أي: فقط فكل من صلى عليه أو سـلم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله: "**فإن تسليمكم يبلغـني حيث كنتم**"

* * *

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

سبب مجيء المؤلف بهذا الباب لدحض حجة من يقول: إن الشـرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمـة، وأنكـروا أن تكـون عبـادة القبـور والأوليـاء من الشرك، لأن هـذه الأمة معصـومة منـه، لقوله ﷺ: "**إن الشـيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**"[1].

والجواب عن هـذا سـبق عند الكلام على المسـألة الثامنة عشـرة من مسائل باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما.

قوله: "**أن بعض هذه الأمة**"، أي: لا كلها، لأن في هـذه الأمة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام السـاعة، لكنه سـيأتي في آخر الزمـان ريح تقبض روح كل مسلم، فلا يبقى إلى شرار الناس.

وقولـه: "**تعبد**"، بفتح التـاء، وفي بعض النسـخ: "**يعبد**"، بفتح اليـاء المثناة من تحت.

فعلى قراءة "**يعبد**" لا إشكال فيها، لإن "**بعض**" مذكر.

وعلى قراءة "**تعبد**"، فإنه داخل في قول ابن مالك:

وربما أكسب ثان أولاً   تأنيثاً إن كان لحذف موهلا

ومثلـوا لـذلك قـولهم: قطعت بعض أصـابعه، فالتـأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض.

فـإذا صـحت النسـخة "**تعبد**"، فهـذا التـأنيث اكتسـبه المضـاف من المضاف إليه.

قوله: "**الأوثان**"، جمع وثن، وهو: كل ما عبد من دون الله.

* * *

وقوله تعـالى: ﴿**ألم تر إلى الـذين أوتـوا نصـيباً من الكتـاب يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾ [النساء: 51].

ذكر المؤلف في هذا الباب عدة آيات:

- **الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾،** الاسـتفهام هنا للتقرير والتعجيب، والرؤية بصرية بدليل أنها عديت بإلى، وإذا عديت بإلى صـارت بمعنى النظر.

والخطاب إما للنـبي ﷺ، أو لكل من يصح توجيه الخطـاب إليـه، أي: ألم تر أيها المخاطب؟

قوله: ﴿**إلى الذين أوتوا**﴾، أي: أعطوا، ولم يعطوا كل الكتـاب، لأنهم حرموا بسبب معصيتهم، فليس عندهم العلم الكامل بما في الكتاب.

قوله: ﴿**نصيباً من الكتاب**﴾ المنزل.

والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل.

وقد ذكـروا لـذلك مثلاً، وهو كعب بن الأشـرف حين جـاء إلى مكـة، فاجتمع إليه المشركون، وقالوا: ما تقول في هذا الرجل (أي: النبي ﷺ) الـذي سفه أحلامنا ورأى أنه خير منا؟ فقال لهم: أنتم خـير من محمـد، ولهـذا جـاء في أخر الآية: ﴿**ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنـوا سبيلا**﴾ [النساء: 51].

---

[1] سبق (ص 201).

قولـه: ﴿**يؤمنـون بـالجبت والطـاغوت**﴾، أي: يصـدقون بهمـا، ويقرونهما لا ينكرونهما، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان، فقد آمن بها.

والجب: قيل: السر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنه عـام لكل صـنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فـالمعبود كالأصـنام، والمتبـوع كعلمـاء الضـلال، والمطـاع كـالأمراء، فطاعتهم في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله تعد من عبادتهم.

والمراد من كـان راضـياً بعبـادتهم إيـاه، أو يقـال: هو طـاغوت باعتبـار عابديه، لأنهم تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فـوق منزلته الـتي جعلها الله لـه، فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغياناً، لمجاوزتهم الحد بذلك.

والطاغوت: مأخوذ من الطغيان، فكل شـيء يتعـدى به الإنسـان حـده يعتبر طاغوتاً.

وجه المناسـبة في الآية للبـاب لا يتـبين إلا بالحـديث، وهو "**لـتركبن سنن من كان قبلكم**"، فإذا كان الـذين أوتـوا نصـيباً من الكتـاب يؤمنـون بالجبت والطاغوت، وأن من هذه الأمة من يرتكب سـنن من كـان قبله يلـزم من هذا أن في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت، فتكون الآية مطابقة للترجمة تماماً.

* * *

وقوله تعـالى: ﴿**قل هل أنـبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القـردة والخنـازير وعبد الطاغوت**﴾ [المائدة: 60].

- **الآية الثانية قوله تعـالى: ﴿قل هل أنـبئكم﴾**، الخطـاب للنبي ﷺ رداً على هؤلاء اليهود الذي اتخذوا دين الإسلام هزواً ولعباً.

وقوله: ﴿**أنبئكم**﴾، أي: أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق، أي: سأقرر عليكم هذا الخبر.

قولـه: ﴿**بشر من ذلك**﴾، شـر: هنا اسم تفضـيل، وأصـلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ومثلها كلمة خـير مخففة من أخـير، والناس مخففة من الأناس، وكذا كلمة الله مخففة من الإله.

وقولـه: ﴿**ذلك**﴾ المشـار إليه ما كـان عليه الرسـول ﷺ وأصـحابه، فـإن اليهود يزعمون أنهم هم الذي على الحق، وأنهم خير من الرسول صـلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه، وأن الرسول ﷺوأصـحابه ليسـوا على الحـق، فقال الله تعالى: ﴿**قل هل أنبئكم**﴾.

قوله: ﴿**مثوبة عند الله**﴾، مثوبـة: تميـيز لشـر، لأن شر اسم تفضـيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبيناً له يكون منصوباً على التمييز.

قال ابن مالك:

اسم بمعنى من مبين نكرة ينصب تمييزاً بما قد فسره

إلى أن قال:

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا مفضلاً كأنت أعلى منزلا

والمثوبة: من ثاب يثـوب إذا رجـع، ويطلق على الجـزاء، أي: بشر من ذلك جزاء عن الله.

قوله: ﴿**عند الله**﴾، أي: في عمله وجزائه عقوبة أو ثواباً.

قوله: ﴿**من لعنه الله**﴾، من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله، لأن الاستفهام انتهى عند قوله ﴿**مثوبة عند الله**﴾، وجواب الاستفهام: ﴿**من لعنه الله**﴾ ولعنه، أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿**وغضب عليه**﴾، أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلى معنى الانتقام، وقد سبق الكلام عليه (ص 418).

والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجرى على ظاهرها اللائق بالله - عز وجل ـ، فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتنفى عن الله، فلا نغلو في الإثبات ولا في النفي.

قوله: ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾، القردة: جمع قرد، وهو حيوان معروف أقرب ما يكون شبهاً بالإنسان، والخنازير: جمع خنزير، وهو ذلك الحيوان الخبيث المعروف الذي وصفه الله بأنه رجس.

والإشارة هنا إلى اليهود، فإنهم لعنوا كما قال تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم...**﴾ الآية [المائدة: 78].

وجعلوا قردة بقوله تعالى: ﴿**كونوا قردة خاسئين**﴾ [البقرة: 65]، وغضب الله عليهم بقوله: ﴿**فباؤوا بغضب على غضب**﴾ [البقرة: 90].

قوله: ﴿**وعبد الطاغوت**﴾، فيها قراءتان في ﴿**عبد**﴾ وفي ﴿**الطاغوت**﴾:

الأولى: بضم الباء ﴿**عبد**﴾، وعليها تكسر التاء في ﴿**الطاغوت**﴾، لأنه مجرور بالإضافة.

الثانية: بفتح الباء ﴿**عبد**﴾ على أنه فعل ماض معطوف على قوله: ﴿**لعنه الله**﴾ صلة الموصول، أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يعد ﴿**من**﴾ مع طول الفصل، لأن هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت مَنْ لأوهم أنهم جماعة آخرون وهم جماعة واحدة، فعلى هذه القراءة يكون ﴿**عبد**﴾ فعلاً ماضياً، والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو يعود على "**من**" في قوله: ﴿**من لعنه الله**﴾، ﴿**الطاغوت**﴾ بفتح التاء مفعولاً به.

وبهذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه، لأن الفاعل في صلة الموصول هو ﴿**الله**﴾، والفاعل في عبد يعود على "**من**".

وعلى كل حال، فالمراد بها عابد الطاغوت.

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط، فعلى قراءة الفعل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومة.

والطاغوت على قراءة الفعل في ﴿**عبد**﴾ تكون مفتوحة ﴿**عبد الطاغوت**﴾، وعلى قراءة الاسم تكون مكسورة بالإضافة ﴿**عبد الطاغوت**﴾.

وذكر في تركيب ﴿**عبد**﴾ مع ﴿**الطاغوت**﴾ أربع وعشرون قراءة، ولكنها قراءات شاذة غير القراءتين السبعيتين ﴿**عَبَدَ**﴾ ﴿**عَبُدَ**﴾.

* * *

وقوله تعالى: ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً**﴾ [الكهف: 21].

- **الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾**، هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة، كما قال تعالى: ﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا في آياتنا عجباً**﴾ [الكهف: 9]، وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد شرك، فخرجوا منها إلى الله - عز وجل ـ، فيسر الله لهم غاراً، فدخلوا فيه، وناموا نومة طويلة بلغت ﴿**ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً**﴾ [الكهف: 25] وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله أن الله يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يترسب الدم في أحد الجانبين، ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً، وآخر الأمر أن أهل المدينة اطلعوا على أمرهم، وقالوا: لابد أن نبني على قبورهم مسجداً.

وقوله: ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم**﴾، المراد بهم: الحكام في ذات الوقت قالوا مقسمين مؤكدين: ﴿**لنتخذن عليهم مسجداً**﴾، وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق.

* **فوائد الآيات السابقة:**

من فوائد الآية الأولى ما يلي:

1- أن من العجب أن يعطى الإنسان نصيباً من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت.

2- أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية، لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دون من المعاصي.

3- وجوب إنكار الجبت والطاغوت، لأن الله تعالى ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم، فلا يجوز إقرار الجبت والطاغوت.

4- ما ساقها المؤلف من أجله أن من هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله ﷺ: "**لتركبن سنن من كان من قبلكم**"[1]، فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت، فإنه سيوجد في هذه الأمة أيضاً من يؤمن بالجبت والطاغوت.

* **ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:**

1- تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره، بمعنى أنك تحتج على خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره فإن اليهود يعرفون بأن فيهم قوماً غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فإذا كانوا يقرون بذلك وهم يستهزئون بالمسلمين، فنقول لهم: أين محل الاستهزاء؟! الذين حلت عليهم هذه العقوبات أم الذين سلموا منها؟

والجواب: الذين حلت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

2- اختلاف الناس بالمنزلة عند الله، لقوله: ﴿**بشر من ذلك مثوبة عند الله**﴾، ولا شك أن الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

---

(1) سبق (ص 192).

3- سوء حال اليهود الذي حلت بهم هذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

4- إثبات أفعال الله الاختيارية، وأنه سبحانه يفعل ما يشــاء، لقوله: **لعنه الله**، فإن اللعن من صفات الأفعال.

5- إثبات الغضب لله، لقوله: **وغضب عليه**.

6- إثبــات القــدرة للــه، لقولــه: **وجعل منهم القــردة والخنازير**.

وهل المراد بالقردة والخنازير هذه الموجودة؟

والجواب: لا، لما ثبت في "صحيح مسـلم" عن النـبي ﷺ: "**أن كل أمة مسـخت لا يبقى لها نسل**"[1]، وإن القـردة والخنـازير كـانوا قبل ذلـك، وعلى هــذا، فليس هــذا الموجــود من القــردة والخنــازير هو بقية أولئك الممسوخين.

7- أن العقوبات من جنس العمل، لأن هؤلاء الـذين مسـخوا قردة، والقرد أشبه ما يكـون شـبهاً بالإنسـان، فعلـوا فعلاً ظـاهره الإباحة والحل وهو محرم، وذلك أنه حرم عليهم الصيد يوم السبت ابتلاء من الله، فإذا جاء يوم السبت امتلأ البحر بالحيتـان، وظهـرت على سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طـال عليهم الأمد صـنعوا شـباكاً، فصـاروا ينصـبونها في يـوم الجمعة ويـدعون الحيتـان تـدخل فيها يـوم السـبت، فـإذا أتى يـوم الأحد أخــذوها، وهــذه حيلة ظاهرها الحــل، ولكن حقيقتها ومعناها الوقوع في الإثم تماماً، ولهـذا مسـخوا إلى حيـوان يشـبه الإنسـان وليس بإنسان، وهو القرد، قال تعالى: ﴿**كونوا قــردة خاسـئين**﴾ [البقرة: 65]، وهو يفيد أن الجـزاء من جنس العمـل، ويـدل عليه صراحة قوله تعالى: ﴿**فكلا أخذنا بذنبه**﴾ [العنكبوت: 40].

8- أن هؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت، لقولــه: ﴿**وعبد الطاغوت**﴾، ولا شك أنهم حتى الآن يعبدونه، لأنه عبدوا الشـيطان وأطاعوه وعصوا الله ورسوله.

9- وفي الآية نكت نحوية في قولـــه: ﴿**عليه**﴾ و ﴿**منهم**﴾ في قوله تعـــــــالى: ﴿**من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير**﴾، فالضمير في ﴿**لعنه**﴾ الهـاء، و﴿**غضب عليه**﴾ مفرد، و﴿**منهم**﴾ جمع، مع أن المرجع واحد، وهو ﴿**من**﴾.

والجواب: أنه روعي في الإفـراد اللفـظ، وفى الجمع المعـنى، وذلك أن ﴿**من**﴾ اسم موصول صالحه للمفرد وغيره، قال ابن مالك:

ومن وما وأل تساوي ما ذكر

---

[1] مسلم: كتاب القدر/ باب بيان أن الأرزاق والآجال لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر.

لما ذكر الأسـماء الموصـولة من المفـرد والمثـنى والجمع من مـذكر ومؤنث قال: ومن وما... إلخ.

وقـال: ﴿**من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القـردة**﴾، ولم يقل: وجعلهم قردة، لان اللعن والغضب عام لهم جميعـاً، والعقوبة بمسـخهم إلى قردة وخنازير خاص ببعضهم، وليس شاملاً لبني إسرائيل.

* **ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي:**

1- ما تضـــمن ســـياق هـــذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدالة على كمال قدرة الله وحكمته.

2- أن من أســباب بنــاء المســاجد على القبــور الغلو في أصحاب القبور، لأن الذين غلبوا على أمرهم بنـوا عليهم المسـاجد، لأنهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام غلوا فيهم.

3- أن الغلو في القبــور وإن قل قد يــؤدي إلى ما هو أكــبر منه، ولهذا قال النبي ﷺ لعلي حين بعثه: "**ألا تدع قــبراً مشــرفاً إلا سويته**"[1].

* * *

عن أبي ســعيد (رضي الله عنــه)، أن رســول الله ﷺ قــال: "**لتتبعن سـنن من كـان قبلكم حـذو القـذة بالقـذة، حـتى لو دخلـوا جحر ضب، لدخلتموه**". **قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصـارى؟ قـال: "فمن"**. أخرجاه[2]

قوله في الحـديث: "**لتتبعن**"، اللام موطئة للقسـم، والنـون للتوكيـد، فالكلام مؤكد بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقـدير: والله لتتبعن.

قوله: "**سنن من كان قبلكم**"، فيها روايتان: "**سُنَن**" و "**سَنَن**".

أما "**سنن**" بضم السين: جمع سنة، وهي الطريقة.

وأما "**سنن**"، بالفتح: فهي مفرد بمعنى الطريق.

وفعل تأتي مفرده مثل: فنن جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب.

وقفوله: "**من كان قبلكم**"، أي: من الأمم.

وقوله: "**لتتبعن سنن من كـان قبلكم**" ليس على ظـاهره، بل هو عام مخصوص، لأننا لو أخـذنا بظـاهره كـانت جميع هـذه الأمة تتبع سـنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنه عام مخصـوص، لأن في هـذه الأمة من لا يتبع كما أخـبر النـبي ﷺ أنه لا تـزال طائفة من هـذه الأمة على الحـق، وقد يقـال: إن الحديث على عمومه وأنه لا يلزم أن تتبع هذه الأمم الأمةُ السـابقة في جميع سـننها، بل بعض الأمة يتبعها في شــيء وبعض الأمة يتبعها في شــيء آخــر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أوى لبقاء الحـديث على عمومـه، ومن المعلـوم أن من طـرق من كـان قبلنا ما لا يخــرج من الملــة، مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملة: كعبادة الأوثان.

---

[1] مسلم: كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر.

[2] البخاري: كتاب الأنبياء/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ومسلم: كتاب العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى، وأما لفظ "حذو القذة بالقذة" فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند.

السنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق، ولنستعرض شيئاً من هذه السنن.

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصالحين، فإنها موجودة في الأمم السابقة وقد وجت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً** [نوح: 23].

ومن ذلك الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة.

ومنها: دعاء غير الله، وقد جاء في هذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: وصف الله بالنقائص والعيوب، فقد قالت اليهود: **يد الله مغلولة** [المائدة: 64]، وقالوا: **إن الله فقير ونحن أغنياء** [آل عمران: 181]، وقالوا: إن الله تعب من خلق السماوات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه، فقد وجد من قال: ليس له يد، ومن قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بإنه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجاً عنه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه، فوصفوه بما لا يمكن وجوده، ومنهم من قال: لا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها أكسل السحت، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: أكل الربا، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: التحيل على محارم الله، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: تحريف كلام الله عن مواضعه لفظاً ومعنى، كاليهود حين قيل لهم: **ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة** [البقرة: 58]، فدخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة ولم يقولوا حطة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك، فحرف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى: **الرحمن على العرش استوى** [طه: 5]، وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إن اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود في (حطة) فقالوا: (حنطة).

نون اليهود ولام جهمي هما	في وحي رب العرش زائدتان
أمر اليهود بأن يقولوا حطة	فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمي قيل له استوى	فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ووجد في هذه الأمة من يعارض قول النبي بقول شيخه.

فإذا تأملت كلام النبي وجدته مطابقاً للواقع: "**لتتبعن سنن من كان قبلكم**"، ولكن يبقى النظر: هل هذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟

الجواب: لا شك أنه للتحذير وليس للإقرار، فلا يقول أحد سأحسد وسآكل الربا، وسأعتدي على الخلق، لأن الرسول قال ذلك، فمن قال ذلك، فإننا نقول له: أخطأت، لأن قول النبي لا شك أنه للتحذير، ولهذا قال الصحابة: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

ثم نقول لهم أيضاً: إن الرسول أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أن الإنسان يعصي أباه ويدني صديقه[1]، وهذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لضالون، ووجد في هذه الأمة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لرجعيون.

فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ما سبق، ولكن من وفقه الله للهداية اهتدى.

والحاصل: أنك لا تكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجدت لها أصلاً في الأمم السابقة.

ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثاً في هذه الأمة.

* **أما مناسبة الحديث للباب:**

فلأنه لما عبدت الأمم السابقة الأصنام والأوثان فسيكون في هذه الأمة من يعبد الأصنام والأوثان.

قوله: "**حذو القذة بالقذة**"، حذو بمعني: محاذياً، وهي منصوبة على الحال من فاعل تتبعن، أي: حال كونكم محاذين لهم حذو القذة بالقذة.

والقذة: هي ريشة السهم، والسهم له ريش لابد أن تكون متساوية تماماً، وإلا، صار الرمي به مختلاً.

قوله: "**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**"، هذه الجملة تأكيد منه للمتابعة.

وجحر الضب من اصغر الجحور، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولى أن ندخله، فالنبي قال ذلك على سبيل المبالغة، كقوله : "**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين**"[1]، ومن اقتطع ذراعاً، فمن باب أولى.

قوله: "**قالوا اليهود والنصارى**" يجوز فيها وجهان:

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارى؟

الثاني: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟

وعلى كل تقدير، فالجملة إنشائية لأنهم يسألون النبي ، فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

---

[1] الترمذي: كتاب الفتن/ باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، قال الألباني: "ضعيف" السلسلة الضعيفة.

[1] سبق (ص 75).

واليهود: أتباع موسى عليه الصلاة والسلام، وسموا يهوداً نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسحاق، أو لأنهم هادوا إلى الله، أي: رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.

والنصارى: هم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام، وسموا بذلك نسبة إلى بلدة تسمى الناصر، وقيل: من النصرة، كما قال تعالى: ﴿**من أنصاري إلى الله**﴾ [الصف: 14].

قوله: "**قال فمن**"، من هنا: اسم استفهام، والمراد به التقرير، أي: فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟ فالصحابة رضي الله عنهم لما حدثهم ﷺ بهذا الحديث، كأنه حصل في نفوسهم بعض الغرابة، فلما سألوا قرر النبي ﷺ أنهم اليهود والنصارى.

* **من فوائد الحديث:**

1- ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، لأنه من سنن من قبلنا، وقد أخبر ﷺ أننا سنتبعهم.

2- ويستفاد أيضاً من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية الله.

3- أنه ينبغي معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك - ولله الحمد - موجود في القرآن والسنة.

4- استعظام هذا الأمر عند الصحابة، لقولهم اليهود والنصارى، فإن الاستفهام للاستعظام، أي: استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى من النبي ﷺ.

5- أنه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة، فإنه يكون أبعد من الحق، لأنه أخبر عن مستقبل ولم يخبر عن الحاضر، وأن من سنن من قبلنا أنه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، قال تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾ [الحديد: 16].

فإذا كان طول الأمد سبباً لقسوة القلب فيمن قبلنا، فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في "البخاري" من حديث أنس رضي الله عنه، أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "**لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده شره منه، حتى تلقوا ربكم**"[1]، ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك، لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد، لحديث أنس رضي الله عنه حديث صحيح سنداً ومتناً، فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند في "البخاري"، والمراد به من حيث الجملة، ولذلك يوجد في أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين، فلا تيأسوا، فتقولوا: إذاً لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا مثل من سبق، لأننا نقول: إن مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتضح الأمر، فأنظرو إلى جنس الرجال وجنس النساء، أيهما خير؟

والجواب: جنس الرجال خير، قال تعالى: ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾ [البقرة: 228]، لكن يوجد في النساء من هي خير من كثير من الرجال، فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

---

[1] كتاب الفتن/ باب لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه.

فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان، فقد تكون أمة في بعض الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم، فإنهم يكونون أحسن ممن سبقهم.

أما الصحابة، فلا أحد يساويهم في فضل الصحبة، حتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيها مهما بلغ من الفضل، لأنه لم يدرك الصحبة.

مسألة: ما هي الحكمة من ابتلاء الأمة بهذا الأمر: "**لتتبعن سنن...**" إلخ، وأن يكون فيها من كل مساوئ من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين، فإن لدين يعارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يعارضها دل هذا على أن كل نقص في الأمم السابقة، فإن هذه الشريعة جاءت بتكميله، لأن الأشياء لا تتبين إلا بضدها، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

* **(تنبيه):**

قوله: "**حذو القذة بالقذة**"[2] لم أجده في مظانه في "الصحيحين"، فليحرر.

* * *

ولمسلم[(1)] عن ثوبان (رضي الله عنه)، أن رسول الله قال: "**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض**".

قوله: "**زوى لي**"، بمعنى جمع وضم، أي: جمع له الأرض وضمها.

قوله: "**فرأيت**"، أي: بعيني، فهي رؤية عينية، ويحتمل أن تكون رؤية منامية.

قوله: "**مشارقها ومغاربها**"، وهذا ليس على الله بعزيز، لأنه على كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبي ما سيبلغ ملك أمته منها.

وهل المراد هنا بالزوي أن الأرض جمعت، أو أن الرسول قوي نظره حتى رأى البعيد؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد؟

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبي : أي أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها، فالله على كل شيء قدير، فهو قادر على أن يجمع له الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

* **اعتراض وجوابه:**

---

[2] قوله "خذوا القذة بالقذة" لم تخرج في الصحيحين وإنما هي من حديث شداد بن أوس أخرجه الإمام في المسند.

[(1)] كتاب الفتن/ باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

فإن قيل: هـذا إن حمل على الواقـع، فليس بموافق للواقـع، لأنه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبي المجرد، فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

والجواب: بـأن هـذا من الأمـور الغيبية الـتي لا يجـوز أن تـورد عليها كيف ولم، بل نقـول: إن الله على كل شـيء قـدير، إذ قـوة الله - سـبحانه - أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهـذا أخـبر النـبي أن الشـيطان يجري من ابن آدم مجرى الـدم[2]، فلا يجـوز أن نقـول: كيف يجـري مجـرى الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لهـا، ولهـذا نقـول في بـاب الأسـماء والصـفات: تجـرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكـييف والتمثيل وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

وقوله: "**فرأيت مشارقها ومغاربها**"، أي أمـاكن الشـرق والغـرب منها.

قوله: "**وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**"، والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول سيبلغ ملكها ما زوي للرسول منها، وهـذا هو الواقع، فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغـرب اتسـاعاً بالغـاً، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشـرق إلى السند والهند وما وراء ذلـك، ومن المغـرب إلى ما وراء المحيـط، وهـذا يحقق ما رآه النبي .

قولـه: "**وأعطيت الكـنزين: الأحمر والأبيض**"، الـذي أعطـاه هو الله.

والكـنزان: هما الـذهب والفضة كنـوز كسـرى وقيصـر، فالـذهب عند قيصر، والفضة عند كسرى، وكل منهما عنده ذهب وفضـة، لكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب، وعلى كنوز كسرى الفضة.

وقوله: "**أعطيت**" هل النبي أعطيها في حياته، أم بعد موته؟

الجــواب: بعد موته أعطيت أمته ذلــك، لكن ما أعطيت أمتـــه، فهو كالمعطى له، لأن امتـداد ملك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقوله الجهـال، بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول .

* * *

وإني سـألت ربي لأمـتي أن لا يهلكها بسـنة بعامـة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسـهم، فيسـتبيح بيضـتهم، وإن ربي قــال: يا محمــد إني إذا قضــيت قضــاء، فإنه لا يــرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسـنة بعامـة، وأن لا أسـلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارهـا، حـتى يكـون بعضـهم يهلك بعضـاً، ويسـبي بعضـهم بعضاً".

قولـه: "**وإني سـألت ربي لأمـتي أن لا يهلكها بسـنة بعامة**"، هكــذا في الأصــل: "**بعامة**"، والمعــنى بمهلكة عامــة، وفي رواية في بعض النسخ: "**بسنة عامة**".

---

[2] البخاري: كتاب الاعتكاف/ باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ومسلم: كتاب السلام/ باب يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة... .

السنة: الجدب والقحـط، وهو يهلك ويـدمر، قـال : "**اللهم اجعلها عليهم سـنين كسـني يوسف**"[1]، وقـال تعـالى: **ولقد أخـذنا آل فرعون بالسنين** [الأعراف: 130]، ويحتمل أن يكون المعنى بعام واحد، فتكون الباء للظرفية.

وعامة، أي: عموماً تعمهم، هذه دعوة.

قولـه: "**وأن لا يسـلط عليهم عـدواً من سـوى أنفسـهم فيستبيح بيضتهم**" أي لا يسـلط عليهم عـدواً. والعـدو: ضد الـولي، وهـو: المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: "من سوى أنفسهم".

ومعنى: "**يستبيح**": يستحل، والبيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام.

والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

قوله: "**إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد**"،

اعلم أن قضاء الله نوعان:

1- قضاء شرعي قد يرد، فقد يريده الله ولا يقبلونه.

2- قضاء كوني لا يرد، ولابد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: **والله يقضى بالحق** [غافر: 20].

ومثال القضاء الشـرعي: قوله تعـالى: **وقضي ربك ألا تعبـدوا إلا إياه** [الإسراء: 23]، لأنه لو كان كونياً، لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله.

ومثال القضاء الكوني: قوله تعـالى: **وقضينا إلى بـني إسـرائيل في الكتـاب لتفسـدن في الأرض مـرتين ولتعلن علـواً كبـيراً** [الإسراء: 4]، لأن الله تعالى لا يقضي شرعاً بالفسـاد، لكنه يقضي به كونـاً وإن كان يكرهه سبحانه، فإن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغـة، كما قسم خلقه إلى مؤمـنين وكـافرين، لما يـترتب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء في هـذا الحـديث: القضـاء الكـوني، فلا أحد يسـتطيع رده مهما كان من الكفر والفسوق، فقضاء الله نافذ على أكـبر النـاس عتـواً واستكباراً، فقد نفذ على فرعون وأغرق بالمـاء الـذي كـان يفتخر بـه، وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمرهم.

وفي قوله: "**إذا قضـيت قضـاء، فإنه لا يـرد**" من كمـال سـلطان الله وقدرته وربوبيته ما هو ظـاهر، لأنه ما من ملك سـوى الله إلا يمكن أن يرد ما قضى به.

واعلم أن قضـاء الله كمشـيئته بالحكمـة، فهو لا يقضي قضـاء إلا والحكمة تقتضـيه، كما لا يشـاء شـيئاً إلا والحكمة تقتضـيه، ويـدل عليه قوله تعالى: **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كـان عليمـاً حكيمـاً** [الإنسان: 30]، فتبين أنه لا يشاء شـيئاً إلا عن علم وحكمـة، وليس لمجـرد المشيئة.

خلافـاً لما أنكر حكمة الله من الجهمية وغـيرهم، فقـالوا: إنه لا يفعل الأشياء إلا لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرفاً من الله، لأن كل عاقل من المخلـوقين لا يتصـرف إلا لحكمـة، ولهـذا كـان الـذي

---

[1] تقدم (ص 294).

يتصرف بسفه يحجر عليه، قال تعالى: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً**﴾ [النساء: 5].

فنحن نقول: إن الله - جل وعلا - لا يفعل شيئاً ولا يحكم بشيء إلا لحكمة، ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علماً؟

الجواب: لا يلزم، لأننا أقصر من أن نحيط علماً بحكم الله كلها، صحيح أن بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: "**إذا قضيت قضاء، فإن لا يرد**" بيان أن من الأشياء التي سألها النبي ﷺ ما لم يعطها، لأنه الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يرد ما قضاه الله- عز وجل -.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب إما معلومة أو مجهولة، فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله – عز وجل – منعه حتى نسأل لكن من الأشياء ما لا تقتفي الحكمة وجوده وحينئذ يجازى الداعي بما هو أكمل أو يؤخر له ويدخر له عند الله عز وجل، أو يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يجب، فإننا نجزم بأنه ادخر له.

وقوله: "**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة**" هذه واحدة.

والثانية: قوله: "**أن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**".

وهذه الإجابة قيدت بقوله: "**حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**" إذا وقع ذلك منهم، فقد يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، فكأن إجابة الله لرسوله ﷺ في الجملة الأولى بدون استثناء، وفى الجملة الثانية باستثناء "**حتى يكون بعضهم...**".

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: "**إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد**"، فصارت إجابة الله لرسوله ﷺ مقيدة.

ومن نعمة الله أن هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبداً، فكل من يدين بدين الرسول ﷺ، فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة، فإنه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً، فإنه يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وهذا هو الواقع، فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عوناً في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً، سلط الله عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطاً لا نظير له، فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسراً على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونه، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير في "الكامل": " لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، فمن الذين يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكن نسياً منسياً إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي... "، وذكر كلاماً طويلاً ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيداً من ذلك، فليرجع إلى حوادث سنة 617 من الكتاب المذكور.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضاً، وسبي بعضهم بعضاً ، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

* * *

ورواه البرقاني في "صحيحه"، وزاد: "**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف، لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم**

قوله: "**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**"، بين الرسول أنه لا يخاف على الأمة إلا الأئمة المضلين.

والأئمة: جمع إمام، والإمام قد يكون إماماً في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** [السجدة، 24].

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: **وجعلناهم أئمة يدعو إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون** [القصص: 41].

والذي في حديث الباب: "**الأئمة المضلين**"، أئمة الشر، وصدق النبي ، إن أعظم ما يخاف على الأمة الأئمة المضلون، كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرقت الأمة بسببهم.

والمراد بقوله: "**الأئمة المضلين**": الذين يقودون الناس باسم الشرع، والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان، فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين، الذين يدعون أن ما هم عليه شرع الله، وهم أشد الناس عداوة له.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لو كان لي دعوة متسجابة، لصرفتها للسلطان، فإن بصلاحه صلاح الأمة.

قوله: "**إذا وقع عليهم السيف...**" **إلخ**، هذا من آيات النبي ، وهذا حق واقع، فإنه لما وقع السيف في هذه الأمة لم يرفع، فما زال بينهم القتال منذ قتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، وصارت الأمة يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً.

قوله: "**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين**"، الحي: بمعنى القبيلة.

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معاً؟

الظاهر أن المراد جميع ذلك.

وأما الحي، فالظـاهر أن المـراد به الجنس، وليس واحد الأحيـاء، وإن قيـل: إن المـراد واحد الأحيـاء، فلا بد أن يكـون لهـذا الحي أثـره وقيمته في الأمة الإسـلامية، بحيث يتـبين ويظهـر، وربما يكـون لهـذا الحي إمـام يزيغ ــ والعياذ بالله ـ ويفسد، فيتبعه كل الحي، ويتبين ويظهر أمره.

قولـه: "**وحـتى تعبد فئـام من أمـتي الأوثـان**"، الفئـام، أي: الجماعات، وهذا وقع، ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألونهم الحاجـات والرغبـات ويلتجئـون إليهم، وفئـام، أي: ليسـوا أحيـاء، فقد يكـون بعضـهم من قبيلـة، والبعض الآخر من قبيلـة، فيجتمعون.

قوله: "**وإنه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون**"، حصرهم النبي ﷺ بعدد، وكلهم يزعم أنه نبي أوحي إليه، وهم كذابون، لأن النبي ﷺ خاتما النبيين ولا نبي بعده، فمن زعم أنه نبي بعد الرسول ﷺ، فهو كـاذب كـافر حلال الـدم والمـال، ومن صـدقه في ذلـك، فهو كـافر حلال الـدم والمـال، وليس من المسـلمين ولا من أمة محمد ﷺ، ومن زعم أنه أفضل من محمـد، وأنه يتلقى من الله مباشرة ومحمد ﷺ يتلقى منه بواسطة الملك، فهو كـاذب كـافر حلال الدم والمال.

وقوله: "**كذابون ثلاثون**" هل ظهروا أم لا؟

الجواب: ظهر بعضهم، وبعضهم ينتظر، لأن النـبي ﷺ لم يحصـرهم في زمن معين، وما دامت الساعة لم تقم، فهم ينتظرون.

* * *

يزعم أنه نـبي، وأنا خـاتم النبـيين لا نـبي بعـدي، ولا تـزال طائفة من أمتي على الحق منصـورة، لا يضـرهم من خـذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى"[1].

قوله: "**كلهم يزعم**"، أي: يدعي.

قوله: "**وأنا خاتم النبيين**"، أي: آخرهم، وأكد ذلك بقولـه: "**لا نـبي بعدي**"، **فإن قيل:** ما الجواب عما ثبت في نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان، مع أنه نبي ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسـلام، **فـالجواب:** إن نبوته سـابقة لنبـوة محمد ﷺ، وأما كونه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسـلام، فليس تشريعاً جديداً ينسخ قبول الجزيـة، بل هو تشـريع من محمد ﷺ، لأنه أخـبر به مقرراً له.

قولـه: "**ولا تـزال طائفة من أمـتي على الحق منصـورة**"، المعنى: أنهم يبقون إلى آخر وجودهم منصورين.

هذا من نعمة الله، فلما ذكر أن حياً من الأحياء يلتحقـون بالمشـركين، وأن فئامـاً يعبـدون الأصـنام، وأن أناسـاً يـدعون النبـوة، فيكـون هنا الإخلال بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله بالشرك، وأن محمداً رسول الله بادعاء النبـوة، وذلك أصل التوحيـد، بل أصل الإسـلام شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فلما بين ذلك لم يجعل الناس ييأسون، فقال: "**لا تـزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**".

والطائفة: الجماعة.

وقوله: "**على الحق**"، جار ومجرور خبر تزال.

---

[1] مسند الإمام أحمد (5/278)، أبو داود (4252)، وابن ماجة (4100).

قوله: "**منصورة**"، خبر ثان، ويجوز أن يكون حـالاً، والمعـنى: لا تـزال على الحق، وهي كذلك أيضاً منصورة.

قوله: "**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**"، خـذلهم، أي: لم ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبـوا إليـه، وفي هـذا دليل على أنه سـيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضرهم، لأن الأمور بيد الله، وقد قـال ﷺ: "**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**"[1]، وكذلك لا يضرهم من خالفهم، لأنهم منصـورون بنصر اللـه، فالله – عز وجل – إذا نصر أحداً فلن يستطيع أحد أن يذله.

قوله: "**حتى يأتي أمر الله**"، أي: الكـوني، وذلك عند قيـام السـاعة عندما يأتي أمره سبحانه وتعـالى بـأن تقبض نفس كل مـؤمن، حـتى لا يبقى إلى شرار الخلق، فعليهم تقوم الساعة.

الشاهد من هذا الحديث: قوله في رواية البرقاني: "**حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ويعبد فئام من أمتي الأوثان**".

وقوله: "**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**"، هذه لم يحدد مكانها، فتشمل جميع بقاع الأرض في الحرمين والعراق وغيرهما.

فالمهم أن هذه الطائفة مهما نأت بهم الديار، فهي طائفة واحد منصورة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

مسألة: قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث، فما مدى صحة هذا القول؟

الجواب: هذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل لا بد من التفصيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما اشبه ذلك، فهذا ليس بصحيح، لأن علماء التفسير والفقهاء الذين يتحرون البناء على الدليل هم في الحقيقة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة، لأن العلوم الشرعية تفسير، وحديث، وفقه... إلخ.

فالمقصود: إن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة، فهو من أهل الحديث بالمعنى العام.

وأهل الحديث هم: كل من يتحرى العمل بسنة رسول الله ﷺ، فيشمل الفقهاء الذين يتحرون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحاً.

فشيخ الإسـلام ابن تيمية مثلاً لا يعتـبر اصـطلاحاً، من المحـدثين، ومع ذلك، فهو رافع لراية الحديث.

والإمام أحمد رحمه الله تنازعه طائفتان: أهل الفقه قالوا: إنه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنه محدث.

وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير، ولا شك أن أقرب الناس تمسكاً بالحديث هم الذين يعتنون به.

ويخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظن أنهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحاً، فيخرج غيرهم.

فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث، سواء انتسبوا إليه اصطلاحاً واعتنوا به أو لم يعتنوا، لكنهم أخذوا به، فيحنئذ يكون صحيحاً.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية النساء. **الثانية:** تفسير آية المائدة. **الثالثة:** تفسير آية الكهف.

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير آية النساء،** وهي قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾، وقد سبق ذلك.
- **الثانية: تفسير آية المائدة،** وهي قوله تعالى: ﴿**قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾، وقد سبق تفسيرها، والشاهد منها هنا قوله: ﴿**وعبد الطاغوت**﴾.
- **الثالثة: تفسير آية الكهف،** يعني: قوله تعالى: ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً**﴾، وقد سبق بيان معناها.

* * *

الرابعة: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد قلب؟ أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟ **الخامسة:** قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من

---

[1] تقدم (ص 259).

المؤمنين. **السادسة:** وهي المقصود بالترجمة: أن هذا لا بد **أن** يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد. **السابعة:** تصريحه بوقوعها - أعني: عبادة الأوثان - .

■ **الرابعة: - وهي أهمها -: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟**

أما إيمان القلب واعتقاده، فهذا لا شك في دخوله في الآية.

وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها، فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناء على أنها صحيحة فهذا كفر وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة، فإنه لا يكفر، لكنه لا شك على خطر عظيم يخشى أن يؤدي به الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

■ **الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين،** يعني: إن هذا القول كفر وردة، لأن من زعم أن الكفار الذين يعرف كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين، فإنه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان.

■ **السادسة – وهي المقصودة بالترجمة -: أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.**

■ **السابعة: تصريحه بوقوعها، أعني: عبادة الأوثان،** والترجمة التي أشار إليها رحمه الله هي قوله: "**باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان"،** وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: "**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**". أخرجاه.

وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ما وقع فيه من سبقها.

* * *

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

■ **الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.**

والمختار هو ابن أبي عبيد الثقفي، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنه، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين، فتتبعهم، وقتل كثيراً ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولا شك أن هذه المسألة من العجب العجاب أن يدي النبوة وهو يؤمن أن القرآن حق، وفى القرآن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين، فكيف صادقاً، وكيف يصدق من هذا التناقض؟ ولكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

* * *

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. **الحادية عشرة:** أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة. **الثانية عشرة:** ما فيه من الآيات العظيمة.

■ **التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة،** يعني: من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة.

يؤخذ هذا من آخر الحديث: "**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**".

■ **العاشرة: الآية العظمى: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم،** وهذه آية عظمى: أن الكثرة الكاثرة من بني آدم على خلاف ذلك، ومع ذلك لا يضرونهم، ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ [البقرة: 249].

■ **الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة،** وقد سبق.

■ **الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة،** أي: ما في هذا الحديث من الآيات العظيمة، والآيات: جمع آية، وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هي العلامات الدالة على صدقهم.

* * *

منها إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال. وإخباره بأنه أعطي الكنزين. وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين. وإخباره بأنه منع الثالثة. وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع. وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضا. وخوفه على أمته من الأئمة المضلين. وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة. وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول.

فمما في هذا الحديث: إخباره بأن الله – سبحانه وتعالى – زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله ﷺ عليه.

ومنها: إخباره أنه ﷺ أعطي الكنزين، وهما كنزا كسرى وقيصر.

ومنها: إخباره بإجابة دعوته لأمته في الإثنتين، وهما ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً... إلخ، ومنع الثالثة، وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها، فإن هذا سوف يكون كما صرح به حديث عامر بن سعد عن أبيه: "**إن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل، فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا دعاء طويلاً، وانصرف إلينا، فقال: "سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها**"[1]، أي: منعني إياها.

ومن هذه الآيات التي تضمنها هذا الحديث: إخباره بوقوع السيف في أمته، وأنه إذا وقع، فإنه لا يرفع حتى تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذلك، فإنه منذ سلت السيوف على المسلمين من بعضهم على بعض بقي هذا إلى يومنا هذا.

ومنها: إخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، هذا أيضاً واقع.

ومنها: خوفه على أمته من الأئمة المضلين، والأئمة: جمع إمام، والإمام: هو من يقتدى به، إما لعلمه، وإما لسلطته، وإما لعبادته.

ومنها: إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر: "هذا الحصر بالثلاثين لا يعني انحصار المتنبئين بذلك، لأنهم أكثر من ذلك".

قلت: فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنى، أي أنهم لا ينقصون عن ذلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع، وهذا – والله أعلم – هو السر في ترك المؤلف رحمه الله العدد في مسائل الباب مع أنه صريح في الحديث.

ومنها: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ – رحمه الله -: "مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول".

* * *

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

- **الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين،** ووجه هذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد، فهم الذين يخشى من إضلالهم لأنه متبوعون، فالأمراء لهم السلطة والتنفيذ، والعلماء له التوجيه والإرشاد، والعباد لهم تغرير الناس وخداعهم بأحوالهم، فهؤلاء يطاعون ويقتدى بهم، فيخاف على الأمة منهم، لأنهم إذا كانوا مضلين ضل بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

* * *

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

- **الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان،** يعني أن عبادة الأوثان لا تختص بالركوع والسجود لها، بل تشمل اتباع المضلين الذين يحلون ما حرم الله فيحله الناس، ويحرمون ما أحله الله فيحرمه الناس.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

---

[1] مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب هلاك هذه الأمة بعضهم بعضاً.

السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سـمي السَّحَر لأخر الليـل، لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سـمي السـحور، لما يؤكل في آخر الليل، لأنه يكون خفياً، فكل شيء خفي سببه يسمى سحراً.

وأما في الشرع، فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عقد ورقي، أي: قـــراءات وطلاسم يتوصل بها الســـاحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضـرر المسـحور، لكن قد قـال الله تعـالى: **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** [البقرة: 102].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف.

فيجعلـون الإنسـان ينعطف على زوجته أو امـرأة أخـرى، حـتى يكـون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك.

فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئاً فشيئاً حتى يهلك.

وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وفي عقله، فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله.

فالسحر قسمان:

1- شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين، يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور.

2- عدوان، وفسق وهو الثـاني الـذي يكـون بواسـطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وبهذا التقسـيم الـذي ذكرنـاه نتوصل به إلى مسـألة مهمـة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟

اختلف في هذا أهل العلم:

فمنهم من قال: إنه يكفر.

ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسـألة، فمن كان سحره بواسطة الشيطان، فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالباً، لقوله تعـالى: **واتبعوا ما تتلـوا الشـياطين على ملك سـليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون النـاس السـحر وما أنــزل على الملكين ببابل هـاروت ومـاروت وما يعلمـان من أحد حتى يقـولا إنما نحن فتنة لا تكفر...** إلى قولـه: **وما هم بضـارين به من أحد إلا بـإذن الله ويتعلمـون ما يضـرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق** [البقرة:102]، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها، فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصياً معتدياً.

وأما قتل الساحر، فـإن كـان سـحره بالأدوية والعقـاقير ونحوهمـا، فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصياً معتدياً.

وأما قتل الساحر، فإن كان سـحره كفـراً، قتل قتل ردة، إلا أن يتـوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح. وإن كان سحره دون الكفر، قتل قتل الصـائل، أي: قتل لـدفع أذاه وفسـاده في الأرض، وعلى هـذا يرجع في قتله إلى اجتهاد الإمام وظاهر النصـوص الـتي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حـال، فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخـرى،

لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ـ عز وجل ـ ، وإنما يخيل إلى المسحور أن هذا الشـيء انقلب وهـذا الشـيء تحـرك أو مشى وما أشـبه ذلـك، كما جـرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سـحرة آل فرعـون، حيث كـان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

إذا قال قائل: ما وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد؟

نقول: **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:**

لأن من أقسـام السـحر ما لا يتـأتى غالبـاً إلا بالشـرك، فالشـياطين لا تخدم الإنسان غالباً إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بـني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

* * *

وقول الله تعالى: **ولقد علموا لمن اشـتراه ما له في الآخـرة من خلاق** الآية [البقرة: 102].

وقوله: **يؤمنون بالجبت والطاغوت** [النساء: 51].

وقد ذكر المؤلف في الباب آيتين:

- **الآية الأولى قوله تعالى: ولقد علموا.**

ضـمير الفاعل يعـود على متعلمي السـحر، والجمة مؤكـدة بالقسم واللام وقد.

ومعنى **اشتراه**، أي: تعلمه.

قولـه: **ما له في الآخـرة من خلاق**، أي: ما له من نصـيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق، فمقتضـاه أن عمله حابط باطـل، لكن إما أن ينتفي النصيب انتفاء كليـاً فيكـون العمل كفـراً، أو ينتفي كمـال النصـيب فيكون فسقاً.

* * *

- **الآية الثانية قوله تعالى: يؤمنون**، أي: اليهود. **بالجبت**، أي السحر كما فسرها عمر بن الخطاب.

واليهود كانوا من أكثر الناس تعلماً للسحر وممارسة لـه، ويـدعون أن سليمان عليه السلام علمهم، إياه وقد اعتدوا، فسحروا النبي .

قوله: **الطاغوت**. أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حـده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع.

ومعـنى "من معبـود"، أي: بعلمه ورضـاه، هكـذا قـال ابن القيم رحمه اللـه، وقد سـبق في أول الكتـاب[1] التعليق على هـذا القـول عند قولـه: **واجتنبوا الطاغوت**.

* * *

قال عمر: "الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان"[2].

الشاهد: قوله: **بالجبت**، حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأنها السحر.

وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان، فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسـرون الآية أحيانـاً بمثـال يحتـذى عليـه، مثل قوله تعـالى **ثم أورثنا الكتـاب الـذين اصـطفينا من عبادنا فمنهم**

---

[1] سبق (ص 16).

[2] علقه البخاري في "الصحيح" ـ كتاب التفسير ـ قال الحافظ في الفتح 8/252: "إسناده قوي".

ظـالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سـابق بـالخيرات بـإذن الله [فاطر: 32].

قال بعض المفسـرين: الظـالم لنفسـه: الـذي لا يصـلي إلا بعد خـروج الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في آخر الـوقت، والسـابق بـالخيرات: الـذي يصلي في أول الوقت.

وهذا مثـال من الأمثلـة، وليس ما تـدل عليه الآية على وجه الشـمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكـاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

فتفسير عمر رضي الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثـال، لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأصنام تعتبر من الطواغيت، كما قال تعـالى: **وعبد الطاغوت** [المائدة:60]، والعلماء والأمـراء الـذين يضـلون النـاس يعتبرون طواغيت، لأنه طغوا وزادوا ما ليس لهم به حق.

* * *

وقال جابر: "الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشـيطان، في كل حي واحد"[3].

قوله: "**الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد**".

هـــذا أيضـــاً من بـــاب التفســـير بالمثـــال، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن، قيل: هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السـماء، وكـان كل حي من أحيـاء العـرب لهم كـان يسـتخدم الشـياطين، فتسترق له السمع، فتأتي بخبر السماء إليه.

وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطواغيت ليسو محصورين في هؤلاء، فتفسـير جـابر رضي الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضي الله عنه.

* * *

وعن أبي هريـرة رضي الله عنـه، أن رسـول الله ﷺ قـال: "**اجتنبـوا السبع الموبقات**. قالوا: يا رسول الله! وما هن؟

قوله: "**اجتنبوا السبع الموبقات**".

النبي ﷺ أنصح الخلق للخلق، فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحـذرهم منـه، ولهـذا قـال: "**اجتنبـوا**"، وهي أبلغ من قولـه: اتركـوا، لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهـذا يسـتلزم البعد عنها.

و"اجتنبوا"، أي: اتركـوا، بل أشد من مجـرد الـترك، لأن الإنسـان قـدر يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل: اجتنبه، يعني: اتركه مع البعد.

وقولـه: "**السـبع الموبقـات**". هـذا لا يقتضي الحصـر، فـإن هنـاك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحياناً بعض الأنواع والأجنـاس، ولا يعـني بذلك عدم وجود غيرها.

---

[3] علقه البخاري في "الصحيح" ـ كتاب التفسير، وقال ابن حجر في "الفتح" (8/252): "وصله ابن أبي حاتم من طريق وهب بن منبه".

ومن ذلك الحديث: "السبعة الذين يظلهم الله في ظله يــوم لا ظل إلا ظله"[1]، فهناك غيرهم، ومثله:

"**ثلاثة لا يكلمهم الله يـــوم القيامـــة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عـذاب أليم**"، ثم قـال: "**المسـبل والمنـان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**"[2]، وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حـديث أبي هريرة في الباب على الحصر لكونه وقع بـ "أل" المعرفـة، فإنه حصـرها لأن هذه أعظم الكبائر.

قوله: "**قالوا: يا رسول الله! وما هن؟**".

كان الصحابة رضي الله عنهم أحـرص النـاس على العلم، والنـبي إذا ألقى إليهم الشيء مبهماً طلبـوا تفسـيره وتبيينـه، فلما حـذرهم النـبي من السبع الموبقات قالوا ذلك لأجل أن يجتنبوهن، فأخبرهم، وعلى هذه القاعدة [أن الصــحابة رضي الله عنهم أحــرص النــاس على العلم]، لكن ما كــانت الحكمة في إخفــاءه، فــإن النــبي لا يخــبرهم، كقوله : "**إن لله تســعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة**"[1]، ولم يرد تبيينها عن النبي في حديث صحيح.

وقد حــاول بعض النــاس أن يصــحح حــديث ســرد الأســماء التســعة والتســعين[2]، ولم يصــب، بل نقل شــيخ الإســلام اتفــاق أهل المعرفة في الحـديث على أن عـدها وسـردها لا يصح عن النـبي [3]، وصـدق رحمه الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حــاول تصــحيح هــذا الحــديث، قــال: إن الثــواب عظيم، "**من أحصاها دخل الجنة**"، فلا يمكن للصحابة أن يفوتوه، فلا يسألوا عن تعيينها فدل هذا على أنها قد عينت من قبل النبي .

لكن يجـاب عن ذلك بأنه ليس بلازم، ولو عينها النـبي ، لكـانت هـذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم أشد من علم الشـمس، ولنقلت في "الصحيحين" وغيرهما، لأن هذا مما تـدعو الحاجة إليـه، وتلح بحفظه والعناية به، فكيف لا يأتي إلا عن طريق واهية وعلى صور مختلفة؟!

فـالنبي لم يبينها لحكمة بالغـة، وهي أن يطلبها النـاس ويتحروها في كتاب الله وسنة رسول الله ، حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما ولم يبين النبي ساعة الإجابة يوم الجمعة، والعلمـاء اختلفـوا في حديث أبي موسى الذي في مسلم، حيث قال فيه: "**إنها ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضى الصلاة**"[4]، فإن بعضهم صححه وبعضـهم ضـعفه، لكن هو عندي صحيح، لأن علة التضعيف فيه واهية، والحال تؤيد صــحته، لأن الناس مجتمعـون أكـبر اجتمـاع في البلد على صـلاة مفروضـة، فيكـون هـذا الوقت في هذه الحال حرياً بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي مع أنها من أهم ما يكون.

---

[1] أخرجه البخاري: كتاب الجماعة والإمامة/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب فضل إخفاء الصدقة.

[2] أخرجه مسلم في (الإيمان، باب غلظ تحريم إسبال الإزار).

[1] أخرجه البخاري وغيره.

[2] أخرجه الترمذي (3507)، وابن حبان (2384)، والحاكم (1/22).

[3] قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الفتاوى" (6/382): "تعيينها ليس من كلام النبي باتفاق أهل المعرفة بحديثه".

[4] أخرجه مسلم: كتاب الجمعة/ باب في الساعة التي في يوم الجمعة.

وقولـه: "الموبقــات"، أي: المهلكــات، قــال تعــالى: ﴿**وجلعنا بينهم موبقاً**﴾ [الكهف: 52]، أي: مكان هلاك.

قوله: "**قالوا: يا رسول اللـه! وما هن؟**". سـألوا عن تبيينهـا، وبه تتبين الفائدة من الإجمال، وهي أن يتطلع المخاطب لبيان هذا المجمـل، لأنه إذا جاء مبيناً من أول وهلة، لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بين.

قوله: "**وما هن**"، "**ما**": اسم استفهام مبتدأ، و"**هن**": خبر المبتدأ.

وقيل بالعكس، "**ما**"**:** خبر مقـدم وجوبـاً، لأن الاسـتفهام له الصـدارة، و"**هن**": مبتدأ مؤخر.

لأن "**هن**" ضـمير معرفــة، و"**ما**" نكــرة، والقاعــدة المتبعة أنه يخــبر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس.

* * *

قال **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حــرم الله إلا بــالحق، وأكل الربــا، وأكل مــال اليــتيم، والتــولي يــوم الزحــف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**"[1].

قوله: "**قال: الشرك بالله**". قدمه لأنه أعظم الموبقات، فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله نداً وهو خلقك.

والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقاً أو معيناً، فهو مشرك، أو أن أحــداً ســوى الله يستحق أن يعبد، فهو مشرك وإن لم يعبـده، فـإن عبـده، فهو أعظم، أو أن لله مــثيلاً في أســمائه، فهو مشــرك، أو أن الله اســتوى على العــرش كاســتواء الملك على عــرش مملكتــه، فهو مشــرك، أو أن الله يــنزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى، فهو مشرك.

قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشــرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشــاء**﴾ [النســاء: 48]، وقــال تعــالى: ﴿**إنه من يشــرك بالله فقد حــرم الله عليه الجنة ومــأواه النــار وما للظــالمين من أنصــار**﴾ [المائدة: 72].

وبين أن الشرك أعظم ما يكون من جناية والجرم بقوله حين سـئل: أي الذنب أعظم "**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**"[2]

فالذي خلقك وأوجدك وأمـدك وأعـدك ورزقك كيف تجعل له نـداً؟ فلو أن أحداً من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجلعت له نظـيراً، لكــان هــذا الأمر بالنسبة إليه كفراً وجحوداً.

قوله: "**والسحر**"، أي: من الموبقات، وظاهر كلام النبي أنه لا فــرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين، فالذي لا يأتي إلا بالإشــراك بهم، فهو داخل في الشرك بالله.

وإن كان دون ذلـك، فهو أيضـاً جـرم عظيم، لأن السـحر من أعظم ما يكون في الجناية على بــني آدم، فهو يفسد على المســحور أمر دينه ودنيــاه، ويقلقه فيصــبح كالبهــائم، بل أســوأ من ذلــك، لأن البهيمة خلقت هكــذا على طبيعتهــا، أما الآدمي، فإنه إذا صــرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضــيق

---

[1] أخرجه البخاري (كتاب الحدود، باب رمي المحصنات)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر).

[2] أخرجه البخاري (كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً...﴾)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب).

والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله ــ عز وجل ـ.

قوله: "**وقتل النفس**"، القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذي فيه الروح، والمارد بالنفس هنا: نفس الآدمي وليس نفس البعير والحمار وما أشبهها.

وقوله "**التي حرم الله**".. مفعول "**حرم**" محذوف تقديره. حرم قتلها، فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: "**إلا بالحق**"، أي: بالعدل، لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام، فالمراد به العدل، وإذا ذكر بإزاء الأخبار، فالمراد به الصدق، والعدل هو ما أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل**﴾ [النحل: 90].

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن، بكسر الميم: طالب الأمان.

فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة ـ الذمي، والمعاهد، والمستأمن: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة، أي: عهد على أن يقيم في بلادنا معصوماً مع بذل الجزية.

وأما المعاهد، فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن، فهو الذي ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمناه في وقت محدد، كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه**﴾ [التوبة: 6]، وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنه ليست على حد سواء في التحريم، فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟

أشك في ذلك، لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المعاهدين، فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم، فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأياً كان، فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال.

وقوله: "**إلا بالحق**"، أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: "**وأكل الربا**"، الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾ [الحج: 5]، يعني: زادت.

وفي الشرع: تفاضل في عقد بين أشياء يجب فيها التساوي، ونسأ في عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

والربا: ربا فضل، أي: زيادة، وربا نسيئة، أي: تأخير، وهو يجري في ستة أموال بينها الرسول ﷺ في قوله: "**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح**"[1]، فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين،

---

(1) أخرجه مسلم (كتاب المساقاة، باب الصرف).

وهـذه الأصـناف السـتة إن بعت منها جنسـاً بمثله جـرى فيه ربا الفضل وربا النسـيئة، فلو زدت واحـداً على آخـر، فهو ربا فضـل، أو سـويته لكن أخـرت القبض، فهو ربـاً نسـيئة، وربما يجتمع النوعـان كما لو بعت ذهبـاً متفاضـلاً والقبض متـأخر، فقد اجتمع في هـذا العقد ربا الفضل وربا النسـيئة، وعلى هـذا، فـإذا بعت جنسـاً بجنسـه، فلا بد من أمـرين: التسـاوي، والتقـابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجنـــاس واتفقت العلـــة، أي: اتفق المقصـــود في العوضين، فإنه يجري ربا النسيئة دون ربا الفضل، فذهب بفضة متفاضـلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساوياً مع التأخير ربا لتأخر القبض.

قال : "**فإذا اختلفت هذه الأصـناف، فـبيعوا كيف شـئتم إذا كان يداً بيد**"[2].

وقولنـا: اتفقا في الغـرض والمقصـود احـترازاً مما إذا اختلف الغـرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلى هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفـرق وعـدم التسـاوي لاختلاف القصـد، لأن هـذا يقصد به النقد والثمنيـة، وهـذا يقصد به القوت.

فـــإن قيـــل: الحـــديث يـــدل على أنه لا يصح إلا بـــالقبض، فما هو الجواب؟

نقول: حقيقة إن هـذا مقتضى الحـديث أنك إذا بعت ذهبـاً بـبر وجب التقابض، لقوله : "**فإذا اختلفت هذه الأصناف، فـبيعوا كيف شـئتم إذا كان يداً بيد**".

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السنة من وجه آخر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمناً، قال ابن عباس: قـدم النـبي المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين، فقـال: "**من أسلف في شـــيء، فليســـلف في كيل معلـــوم، ووزن معلـــوم، إلى أجل معلوم**"[1].

وعلى هـذا، فحـديث: "**فـبيعوا كيف شـئتم إذا كـان يـداً بيد**" لا عموم لمفهومه، فلا يشترط القبض في كل صورة من صور المخالفـة، وإنما يشترط القبض فيما فيما إذا اتفقا في الغرض، كـذهب بفضـة، أو بر بشـعير، وأما ذهب أو فضة بشعير ونحوه، فلا يشترط القبض.

واختلف العلماء فيما عـدا هـذه الأصـناف السـتة، فالظاهرية قـالوا: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة لأنهم لا يـرون القيـاس، فيقتصر على ما جاء به النص، فيجـوز عنـدهم مبادلة أرز بـذرة متفاضـلاً مع تـأخر القبض، لأنهما لا يدخلان في المنصوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة، فإنهم عدوا الحكم إلى غيرهـا، إلا أن بعضاً منهم لم يعد الحكم إلى غيرهـا، وهو من أهل القيـاس، مثل ابن عقيل رحمه الله، فإنه قال: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة، لا لأنه لا قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا في العلة التي من أجلها كـان الربا، فلما اضطربوا في العلة ألغينا جميع هـذه العلـل، وأبقينا النص على ما هو عليه من الحصر في المنصوص عليه.

---

[2] أخرجه مسلم (كتاب المساقاة، باب الصرف).

[1] أخرجه البخاري: (كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم)، ومسلم (كتاب المساقاة، باب السلم).

والصحيح أن الربا يجري في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي الكيل والادخار مع الطعم، وهو أن يكون قوتاً مدخراً، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثمنية، فقولنا: "الجنس"ـ لأجل أن يشمل الحلي إذا بيع بعضه ببعض، فيجري فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة، فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلي خارج عن الثمنية خروجاً طارئاً، لأن التحلي طارئ، والأصل في الذهب والفضة الثمنية، لأنهما ثمن الأشياء.

وأما الملح، فقال شيخ الإسلام: إنه يصلح به القوت، أي: فهو تابع له، فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضرورياته، ولهذا لو طحنت براً ولم يكن فيه ملح، لم يبق إلا أياماً، يسير، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد، فيقول: لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: "**وأكل الربا**". ذكر النبي الأكل، لأنه أعم وجود الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: **وأخذهم الربا وقد نهوا عنه** [النساء: 161]، ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل، فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: "**وأكل مال اليتيم**"، اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه، فليس يتيماً لا شرعاً ولا لغة.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الإنفراد، أي: انفرد عن الكاسب له، لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخص اليتيم، لأنه لا أحد يدافع عنه، ولأنه أولى أن يرحم، ولهذا جعل الله له حقاً في الفيء، وإذا كان أحق أن يرحم، فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله؟

ويقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا، فليس خاصاً بالأكل، بل حتى لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب أو غيرها، فهو داخل في ذلك.

وأكل ما غير اليتيم ليس من الكبائر، لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعد الله من يأكل أموال اليتامى، قال تعالى: **إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** [النساء: 10].

قوله: "**والتولي يوم الزحف**". التولي: بمعنى الإدبار والإعراض، ويوم الزحف، أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسمي يوم الزحف، لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلي بعض، كالذي يمشي زحفاً كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويداً رويداً.

والتولي يوم الزحف من كبائر الذنوب، لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

لكن هـذا الحـديث خصصـته الآيـة، وهي قوله تعـالى: **ومن يـولهم يومئذ دبره إلا منحرفاً لقتال أو متحـيزاً إلى فئة فقد بـاء بغضب من الله** [الأنفال: 16].

فالله سبحانه استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحرفاً لقتال، أي: متهيئاً له، كمن ينصرف ليصـلح من شأنه أو يهيئ الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته، فهذا لا يعد متولياً، إنما يعد متهيئاً.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سـرية للمسـلمين يمكن أن يقضي عليها العـدو، فانصـرف من هـؤلاء لينقـذها، فهـذا لا بـأس به لـدعاء الضرورة إليه، بشـرط ألا يكـون على الجيش ضـرر، فـإن كـان على الجيش ضــرر وذهبت طائفة كبـيرة إلى هــذه السـرية بحيث تــوهن قــوة الجيش وتكسره أمام العدو، فإنه لا يجوز، لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق، فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفي هذا إذلال لدين الله، إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئـذ، لقوله تعـالى: **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضـعفاً فـإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن لم يكن منكم ألف يغلبوا ألفين** [الأنفال: 66]، أو كان عندهم عـدة لا يمكن للمسـلمين مقاومتهـا، كالطـائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فـإذا علم أن الصـمود يسـتلزم الهلاك والقضـاء على المسـلمين، فلا يجـوز لهم أن يبقـوا، لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفي هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتاب، وهو قليـل، ومن تخصـيص السنة بالكتاب أن من الشـروط الـتي بين النـبي والمشـركين في الحديبية أن من جاء من المشركين مسلماً يـرد إليهم[1]، وهـذا الشـرط عـام يشـمل الـذكر والأنـثى، فـأنزل الله تعـالى: **يا أيها الـذين آمنـوا إذا جـاءكم المؤمنــات مهــاجرات فــامتحنوهن الله أعلم بإيمــانهن فــإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار** [الممتحنة: 10].

قوله: "**وقذف المحصنات**". القذف: بمعنى الـرمي، والمـراد به هنا الرمي بالزنا، والمحصنات هنا الحرائـر، وهو الصـحيح، وقيـل: العفيفـات عن الزنا.

والغــافلات: وهن: العفيفــات عن الزنا البعيــدات عنــه، اللاتي لا يخطرعلى بالهن هذا الأمر.

والمؤمنات احترازاً من الكافرات، فمن قـذف امـرأة هـذه صـفاتها، فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يقام عليه الحد ـ ثمانون جلدة ــ ، ولا تقبل شهادته ويكـون فاسـقاً، فجعل الله عليه ثلاثة أمـور، قـال تعـالى: **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شـهداء فاجلـدوهم ثمـانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبـداً وأولئك هم الفاسـقون** [النـور: 2]، ثم قال: **إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** [النور: 3].

وهــذا الاســتثناء لا يشــمل أو الجمل بالاتفــاق، ويشــمل آخر الجمل بالاتفاق، واختلف العلماء في الجملة الثانيـة، وهي قولـه: **ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً**، فقيل: إنه يعود إليها، وقيل: لا يعود.

وبناءً على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟

---

[1] أخرجه البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية).

الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم.

فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبداً ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبد ذلك بقوله: ﴿**ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً**﴾ [النور: 4]، وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنهم مطلقاً.

وقال آخرون: بل تقبل، لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة، زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين، فليفعل.

وإلا، فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة، وإنما خص بذلك المرأة، لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر، إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد، لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضرراً أكثر، فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له، لأنه لبيان الواقع.

والشاهد من هذا الحديث قوله: "**السحر**".

* * *

وعن جندب مرفوعاً: "**حد الساحر ضربة بالسيف**". رواه الترمذي، وقال: "الصحيح أنه موقوف"[1]

قوله: "**وعن جندب**". ليس هو جندب بن عبدالله البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر.

قوله: "**مرفوعاً**"، أي: إلى النبي ﷺ، فيكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام، لكن نقل المؤلف عن الترمذي قوله: والصحيح أنه موقوف، أي: من قول جندب.

قوله: "**حد الساحر ضربة بالسيف**". حده يعني: عقوبته المحددة شرعاً.

وظاهره أنه لا يكفر، لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم.

والكافر إذا قتل على ردته، فالقتل لا يطهره.

وهذا محمول على ما سبق: أن من أقسام السحر ما لا يخرج الإنسان عن الإسلام، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التي توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.

قوله: "**ضربة بالسيف**". روي بالتاء بعد الباء، وروي بالهاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولى أبلغ، لأن التنكير وصيغة الوحدة يدلان على أنها ضربة قوية قاضية.

* * *

---

[1] أخرجه الترمذي في (الحدود، باب ما جاء في الساحر)، والطبراني في "الكبير" (رقم 1665)، والدارقطني (3/114)، والحاكم (4/360). قال الترمذي: "لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث والصحيح عن جندب موقوف، وقال الحافظ في "الفتح" (10/236): "إسناده ضعيف"، وضعفه الألباني "السلسلة الضعيفة (3/641).

وفي "صــحيح البخـــاري" عن بجالة بن عبـــدة، قـــال: "كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل سـاحر وسـاحرة". قـال: "فقتلنا ثلاث سواحر"[1].

هـذا كناية عن القتـل، وليس معنـاه أن يضـرب بالسـيف مع ظهـره مصفحاً.

قوله: "**وفي صحيح البخـاري**". ذكر في الشـرح ــ أعـني "تفسـير العزيز الحميد" ـ أن هذا اللفظ ليس في "البخـاري"، والـذي في "البخـاري" أنه: "أمر بأن يفرق بين كل ذي محرم من المجوس"[2]، لأنهم يجوزون نكاح المحارم ـ والعياذ بالله، فـأمر عمر أن يفـرق بين ذوي الـرحم ورحمـه، لكن ذكر الشـارح صـاحب "تيسـير العزيز الحميـد": أن القطيعي رواه في الجـزء الثــاني من "فوائــد"، وفيــه: "ثم اقتلــوا كل كــاهن وســاحر"، وقــال (أي: الشارح): إسناده حسن. قال: وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه. أهـ.

وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟

يحتمل هذا وهذا بناء على التفصيل السـابق[3] في كفر السـاحر، ولكن بناء على ما سبق من التفصيل نقـول: من خـرج به السـحر إلى الكفر فقتله قتل ردة، ومن لم يخــرج به الســحر إلى الكفر من بــاب دفع الصــائل يجب تنفيذه حيث رآه الإمام.

والحاصل: أنه يجب أن تقتل السحرة، سواء قلنا بكفـرهم أم لم نقـل، لأنهم يمرضون ويقتلون، ويفرقون بين المرء وزوجـه، وكـذلك بـالعكس، فقد يعطفون فيؤلفـون بين الأعـداء، ويتوصـلون إلى أغراضـهم، فـإن بعضـهم قد يسـحر أحـداً ليعطفه إليه وينـال مأربه منـه، كما لو سـحر امـرأة ليبغي بهـا، ولأنهم كانوا يسـعون في الأرض فسـاداً، فكـان واجبـاً على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة مادام أنه لدفع ضررهم وفظاعة أمرهم، فـإن الحد لا يســتتاب صاحبه، متى قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد.

* * *

وصح عن حفصة رضي الله عنها، "أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلتـ"[1]. وكذلك صح عن جندب[2]. قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النــبي .

قوله: "**قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي** ".

وهم: عمـر، وحفصـة، وجنـدب الخـير، أي: صح قتل السـاحر عن ثلاثة من أصحاب النبي .

والقــول بقتلهم موافق للقواعد الشــرعية، لأنهم يســعون في الأرض فسـاداً، وفسـادهم من أعظم الفاسـد، فقتلهم واجب على الإمـام، ولا يجـوز للإمـــام أن يتخلف عن قتلهم، لأن مثل هـــؤلاء إذا تركـــوا وشـــأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم، وإذا قتلوا سـلم النـاس من شـرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

* * *

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (1/190)، وأبو داود في "السنن" (3043).
[2] البخاري: كتاب الجزية/ باب الجزية والموادعة.
[3] تقدم (ص 490).
[1] الإمام مالك في "الموطأ" (كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر).
[2] البخاري في "التاريخ الكبير" (2/222)، والبيهقي (8/136)، والطبراني في "الكبير" (1725).

- **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية البقرة. **الثانية:** تفسير آية النساء. **الثالثة:** تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما. **الرابعة:** أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس. **الخامسة:** معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير آية البقرة،** وهي قوله تعالى: **ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق** [البقرة: 102]، أي: نصيب، ومن لا خلاق له في الآخرة، فإنه كافر، إذ كل من له نصيب في الآخرة فإن ماله إلى الجنة.
- **الثانية: تفسير آية النساء،** وهي قوله تعالى: **يؤمنون بالجبت والطاغوت** [النساء: 51]، وفسر عمر الجبت بالسحر والطاغوت بالشيطان، وفسر بأن الجبت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

وأما الطاغوت، فهو: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

- **الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما،** وهذا بناء على تفسير عمر رضي الله عنه.
- **الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.** تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق، فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.
- **الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.** وقد سبق بيانها.

* * *

السادسة: أن الساحر يكفر. **السابعة:** أنه يقتل ولا يستتاب. **الثامنة:** وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟!

- **السادسة: أن الساحر يكفر،** تؤخذ من قوله تعالى: **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر...** [البقرة: 102].
- **السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.** يؤخذ من قوله "**حد الساحر ضربة بالسيف**"[1]، والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر، فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين عقوبة الكفر، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحدود، لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود، فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر، لا يصلى عليه، ولا يغسل، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

---

[1] تقدم (ص 407).

- **الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر، فكيف فيما بعده؟** تؤخذ من قوله: "**كتب عمر: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة**"، فهذا إذا كان في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها، فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي وخلفائه وأصحابه؟ فهو أكثر انتشاراً بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلالة والجهالة، فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد، ولهذا نقول: من عمل سوء بجهالة، فهو آثم، ومن عمل سوء بجهل، فليس بآثم، قال تعالى: **إنما التوبة على الله للذين يعلمون السوء بجهالة** الآية [النساء: 17]، والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهي السفه.

* * *

* **قوله: "باب بيان شيء من أنواع السحر"**.

أي: بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفـر، وفسق[1]، فـإن كـان باستخدام الشياطين وما أشبه ذلك، فهو كفر.

وكـذلك ما ذكـره هنا من أنـواع السـحر: منها ما هو كفـر، ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

والأنواع: جمع نوع، والنـوع أخص من الجنس، لأن الجنس اسم يـدخل تحته أنـواع، والنـوع يـدخل تحته أفـراد، وقد يكـون الجنس نوعـاً باعتبـار ما فوقه، والنوع جنساً باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيـوان، والحيـوان باعتبـار الإنسـان جنس، لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيـوان باعتبـار الجسم نـوع، لأن الجسم يشمل الحيوان والجماد.

و"أنواع" هنا باعتبار الجنس العام.

وسبق أن السحر في اللغة: كل ما كان خفي السبب دقيقاً في إدراكه حتى عد الفخر الرازي من جملة أنـواع السـحر السـاعات، وهي في القـديم عبارة عن آلات مركبة، فكيف بالساعات الإلكترونية اليوم؟

* * *

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفـر، حـدثنا عـوف، عن حيـان بن العلاء، حـدثنا قطن بن قبيصـة، عن أبيـه، أنه سـمع النـبي ﷺ قـال: "**إن العيافـة، والطرق، والطيرة من الجبت**".

قـال عـوف: العيافـة: زجر الطـير، والطـرق: الخط يخط بـالأرض، والجبت: قال الحسن: رنة الشـيطان[2]. إسـناده جيـد. ولأبي داود والنسـائي وابن حبان في "صحيحه" لهم المسند منه.[3]

قولـه: "**العيافة**"، مصـدر عـاف يعيف عيافـة، وهي: زجر الطـير للتشاؤم أو التفـاؤل، فعند العـرب قواعد في هـذا الأمـر، لأن زجر الطـير له أقسام:

فتـارة يزجرها للصـيد، كما قـال أهل العلم في بـاب الصـيد: إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر، فهذا ليس من هذا الباب.

وتارة يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زجر الطائر وذهب شـمالاً تشـاءم، وإذا ذهب يمينـاً تفـاءل، وإن ذهب أمامـاً، فلا أدري أيتوقفـون أم يعيدون الزجر؟ فهذا من الجبت.

قوله: "**الطرق**". فسره عوف: بأنه الخط يخط في الأرض، وكأنه من الطريـق، من طـرق الأرض يطرقها إذا سـار عليهـا، وتخطيطها مثل المشي عليها يكون له أثر في الأرض كأثر السير عليها.

---

[1] أنظر (ص 489)

[2] الإمام أحمد في "المسند" 5/60.

[3] أبو داود في "السنن" 3907، والنسائي في "الكبرى" كما في "تحفة الأشراف" 8/275، وابن حبان في "الصحيح" 7/656، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إسناده حسن" (الفتاوى 35/192)، وكذلك النووي في "رياض الصالحين" 612.

ومعنى الخط بـالأرض معـروف عنـدهم، يضـربون به على الرمل على سـبيل السـحر والكهانـة، ويفعله النسـاء غالبـاً، ولا أدري كيف يتوصـلون إلى مقصـــودهم وما يزعمونه من علم الغيب، وأنه سيحصل كــــذا على ما هو معروف عندهم؟! وهذا نوع من السحر.

أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة، أو لبيان حـدودها ونحو ذلـك، فليس داخلاً في الحديث.

فإن قيل: قد صح عن الرسول أنه سئل عن نـبي من الأنبيـاء يخـط، فقال: من وافق خطه، فذاك[1].

قلنا: يجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسـول علقه بـأمر لا يتحقق الوصـول إليـه، لأنه قـال: فمن وافق خطه فذاك، وما يدرينا هل وافق خطه أم لا؟

الثاني: أنه إذا كـان الخط بـالوحي من الله تعـالى كما في حـال هـذا النبي، فلا بأس به، لأن الله يجعل له علامة يـنزل الـوحي بها بخطـوط يعلمه إياها.

أما هذه الخطوط السـحرية، فهي من الـوحي الشـيطاني، فـإن قيـل: طريقة الرسول أنه يسد الأبواب جميعاً خاصة في موضوع الشرك، فلمـاذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟

فالجواب: كأن هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبيـاء يخط، فلا بد أن يجيب عنه الرسول .

قولـه: "**من الجبت**". سـبق أن الجبت السـحر، وعلى هـذا، فتكـون "من" للتبعيض على الصحيح، وليس للبيان، فالمعنى أن هذه الثلاثة: العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت.

وقوله: "**الطيرة**" أي: من الجبت، على وزن فعلـة، وهم اسم مصـدر تطير، والمصدر منه تطير، وهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشــاؤم بمعلوم مرئياً كان أو مسموعاً، زماناً كان أو مكاناً، وهذا أشـمل، فيشـمل ما لا يرى ولا يسمع، كالتطير بالزمان.

وأصل التطير: التشاؤم، لكن أضيفت إلى الطـير، لأن غـالب التشـاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به، وإلا، فـإن تعريفها العـام: التشـاؤم بمـرئي أو مسموع أو معلوم.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشـخاص، وهـذا من الشرك كما قال النبي [1].

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم، ضـاقت عليه الـدنيا، وصـار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أنـاس إذا أصـبح وخـرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحـدة تشـاؤم، وقـال: اليـوم يـوم سـوء، وأغلق دكانـه، ولم يبع ولم يشـتر ــ والعيـاذ بالله ــ ، وكـان بعضـهم يتشـاءم بيـوم الأربعاء، ويقول: أنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشـهر شـوال، ولا سـيما في النكـاح، وقد نقضت عائشة رضي الله عنها هـذا التشــاؤم، بأنه عقد عليها في شوال، وبنى بها في شوال، فكانت تقـول: "أيكن كـان أحظى عنده مني؟"[2] والجواب: لا أحد.

---

[1] مسلم: كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة.

[1] يأتي (ص 78).

[2] مسلم: كتاب النكاح/ باب التزوج في شوال.

فالمهم أن التشاؤم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له على بال، لأنه ينكد عليه عيشه، فالواجب الاقتداء بالنبي ﷺ حيث كان يعجبه الفأل[3]، فينبغي للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه، وهذا خطأ، فكل شيء ترى فيه المصلحة، فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك.

وأما قول الحسن: الجبت: رنة الشيطان، قال صاحب "تيسير العزيز الحميد"[4]: لم أجد فيه كلاماً.

والظاهر أن رنة الشيطان، أي: وحي الشيطان، فهذه من وحي الشيطان وإملائه، ولا شك أن الذي يتلقى أمره من وحي الشيطان أنه أتى نوعاً الكفر، وقول الحسن جاء في "تفسير ابن كثير" باللفظ الذي ذكره المؤلف، وجاء في "المسند" (5/60) بلفظ: إنه الشيطان.

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له: فماذا يعني كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً؟ فهذا لا أصل له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك، فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة.

وكذلك الطرق من السحر، لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه.

والطيرة كذلك، لأنها مثل العيافة تماماً تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه[1].

قوله: "**إسناده جيد...**". قال الشيخ: إسناده جيد، وعندي أنه اقل من الجيد في الواقع، إلا أن يكون هناك متابعات، وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقاً للأصول، فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفاً للأصول، فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة، فهذا مشكل لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد، فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن، صحيح، فأنا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجودة، إذ جيد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي من شيء، لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول ﷺ، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن، وأيهما أهم: السند أم المتن؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغني عنه بما تشهد به الأصول، أما السند، فلا بد منه، يقول ابن المبارك: لولا السند، لقال كل من شاء ما شاء.

* * *

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: "**من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**". رواه أبو داود، وإسناده صحيح[2]

---

[3] البخاري: (كتاب الطب، باب لا عدوى)، ومسلم (كتاب السلام، باب الطيرة والفأل).

[4] أنظر: "تيسير العزيز الحميد" (ص 398).

[1] يأتي (571).

قولـه: "**من**". شـرطية، وفعل الشـرط: "اقتبس"، وجوابـه: "فقد اقتبس".

قولـه: "**اقتبس**". أي تعلم، لأن التعلم وهو أخذ الطـالب من العـالم شيئاً من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قوله: "**شعبة"**. أي: طائفة، ومنه قوله تعـالى: **وجعلناكم شـعوباً وقبائل** [الحجرات: 13]، أي: طوائف وقبائل.

قولـه: "**من النجـوم**". المـراد: علم النجـوم، وليس المـراد النجـوم أنفسها، لأن النجـوم لا يمكن أن تقتبس وتتعلم، والمـراد به هنا علم النجـوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية، فيستدل مثلاً بـاقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سـيكون سـعيداً، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقياً، فيستدلون بـاختلاف أحـوال النجـوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسـبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقـة، ولهـذا جـاء في حديث زيد بن خالد الجهني في غـزوة الحديبيـة، قـال: صـلى بنا رسـول الله ذات ليلة على إثر سماء من الليل، فقال: "**قـال الله تعـالى: أصـبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا ـ** بنـوء يعني: بنجم، والباء للسببية، يعني: هـذا المطر من النجم ـ، **فإنه كـافر بي مـؤمن بـالكوكب، ومن قـال: مطرنا بفضل الله ورحمتـه، فـذلك مؤمن بي كافر بالكوكب"** [1].

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي بالرياح أيضـاً، ومنه نأخذ خطأ العـوام الـذين يقولـون: إذا هبت الـريح طلع النجم الفلاني، لأن النجـوم لا تـأثير لها بالريـاح، صـحيح أن بعض الأوقـات والفصـول يكـون فيها ريح ومطـر، فهي ظرف لهما، وليست سبباً للريح أو المطر.

* **وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:**

الأول: علم التـأثير، وهو أن يسـتدل بـالأحوال الفلكية على الحـوادث الأرضـية، فهـذا محـرم باطل لقـول النـبي : "**من اقتبس شـعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السـحر**"[2]، وقوله في حـديث زيد بن خالـد: "**من قـال: مطرنا بنـوء كـذا وكـذا، فـذلك كـافر بي مـؤمن بالكوكب**"، ولقول النبي في الشمس والقمـر: "**إنهما آيتان من آيـات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**"[3]، فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهـذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قـال الفقهـاء: إذا دخل وقت الصـلاة يجب على الإنسـان أن يتعلم علامـات القبلة من النجـوم والشـمس والقمـر، قـال تعـالى: **وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهـاراً وسـبلاً**

---

[2] الإمام أحمد في "المسند" (1/227، 311)، وأبو داود في (الطب، باب في النجوم، 4/226)، وابن ماجة في (الأدب، باب تعلم النجوم)، وصححه النووي في "رياض الصالحين" (ص 630)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الفتاوى" (35/193): "إسناده صحيح".

[1] البخاري: كتاب الأذان/ باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

[2] سبق (ص 518).

[3] البخاري: كتاب الكسوف/ باب الصلاة في كسوف الشمس، ومسلم: كتاب الكسوف/ باب ذكر النداء بصلاة الكسوف.

لعلكم تهتدون [النحل: 15]، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية، فقال تعالى: **وعلامات وبالنجم هم يهتدون** [النحل: 16]، فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمات لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن، كالقبلة، والشمال، والجنوب.

قوله: **"فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد"**. المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف، لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له، فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يموه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله: "**زاد ما زاد**". أي: كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء، فإنه يزداد بزيادته.

* **وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:**

أن من أنواع السحر: تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية، وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند، لكن من حيث المعنى الصحيح تشهد له النصوص الأخرى.

* * *

وللنسائي من حديث أبي هريرة: "**من عقد عقدة، ثم نفث فيها، فقد سحر، ومن سحر، فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً، وكل إليه**"[1].

قوله: "**من عقد عقدة**". "**من**" شرطية، والعقد معروف.

قوله: "**ثم نفث فيها**". النفث: النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر.

أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالرطوبة، فليس بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف، فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولا سيما عند عقد النكاح، فيبعد الرجل عن زوجته، فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة، فقد وقع في السحر كما قال تعالى: **ومن شر النفاثات في العقد** [الفلق: 4].

قوله: "**ومن سحر فقد أشرك**". "**من**" هذه شرطية، وفعل الشرط: "**سحر**"، وجوابه: "**فقد أشرك**".

وقوله: "**فقد أشرك**". هذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد من سحر بالطرق الشيطانية.

أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها، فقد سبق أنه لا يكون مشركاً[2]، لكن الذي يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد، فهذا لا شك أنه مشرك.

قوله: "ومن تعلق شيئاً وكل إليه". "تعلق شيئاً"، أي: استمسك به، واعتمد عليه.

"**وكل إليه**"، أي: جعل هذا الشيء الذي تعلق به عماداً له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه.

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيوكل إلى هذا الشيء المحرم.

---

[1] أخرجه النسائي في (كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة).

[2] تقدم (ص 490).

ووجه آخــر: وهو أن من النــاس من إذا ســحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى الســـحرة وتعلق بهم، ولا يـــذهب إلى القـــراء والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه، قـال تعـالى: **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمـره﴾** [الطلاق: 5]، وإذا كـان الله حسبك، فلا بد أن تصل إلى ما تريد.

لكن من تعلق شيئاً من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من المخلـوقين وكل إلى ضـعف وعجز وعـورة، وقد يشـمل الحـديث من اعتمد على نفسه وصار معجباً بما يقول ويفعل، فإنه يوكل إلى نفســه، ويوكل إلى ضعف وعجز وعورة، ولهذا ينبغي أن تكون دائماً متعلقاً بالله في كل أفعالك وأحوالك حتى في أهون الأمور.

ونقـول للإنسـان: اعتمد على نفسك بالنسـبة للنـاس، فلا تسـألهم ولا تستذل أمـامهم، واسـتغن عنهم ما اسـتطعت، أما بالنسـبة للـه، فلا تسـتغن عنه، بل كن دائماً معتمداً على ربك حتى تتيسر لك الأمـور، ومن هـذا النـوع من يتعلقون ببعض الأحراز يعلقونها، فإنهم يوكلـون إلى هـذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية، حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النـوع أيضـاً من تعلق شـيئاً من القبـور، وجعلها ملجـأه ومغيثه عند طلب الأمـــور، فإنه يوكل إليـــه، والإنســـان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة في ذلك، قال الله تعالى: **﴿ومن أضل ممن يــدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة...﴾** [الأحقـاف: 3]، لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده.

* **مناسبة الحديث:**

أن هـؤلاء الـذين يتعلقـون بالسـحر، ويجعلونه صـناعة يصـلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

* * *

وعند ابن مســـعود، أن رســـول الله ﷺ قـــال: "**ألا هل أنـــبئكم ما العضة؟ هي النميمة، القالة بين الناس**"[1]

قوله: "**ألا**". أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يلقى إليه لأهميته.

قوله: "**هل أنبئكم ما العضة**". الاسـتفهام للتشـويق، كقوله تعـالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾** [الصف: 10].

لأن الإنسان مشـتاق إلى العلـوم يحب أن يعلم، وقد يكـون المـراد به التنبيه، لأن الموجه إليه الخطاب ينبغي أن ينتبه ليعلم، وهي تصلح للجميع.

ومعنى أنبئكم: أخـبركم، وهي مرادفة للخـبر في اصـطلاح المحـدثين، وقـال بعض العلمـاء من ناحية اللغة لا الاصـطلاح: إن الإنبـاء لغة يكـون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في الهامة وغير الهامة.

قولـه: "**العضه**" على وزن الحبل والصـمت والوعـد، بمعـنى القطـع، وأما رواية العضة على وزن عـــدة، فإنه بمعـــنى التفريـــق، وأيـــاً كـــان، فإنها تتضمن قطعاً وتفريقاً.

---

[1] مسلم: كتاب البر والصلة/ باب تحريم النميمة.

قولـه: "**هي التميمة**". فعيلة بمعـنى مفعولـة، وهي من نم الحـديث إلى غـيره، أي: نقلـه، والنميمة فسـرها بقولـه: "**القالة بين الناس**"، أي: نقل القول بين النـاس، فينقل من هـذا إلى هـذا، فيـأتي لفلان ويقـول: فلان يسبك، فهو نم إليه الحديث ونقلـه، وسـواء كـان صـادقاً أو كاذبـاً، فـإن كـان كاذباً فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقاً، فهو نميمة.

والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس[1]، فتجد هذين الرجلين صديقين، فيأتي هذا النمام، فيقول لأحـدهما: صـاحبك يسـبك، فتنقلب هــذه المــودة إلى عــداوة، فيحصل التفــرق، وهــذا يشــبه الســحر بــالتفرق، لأن الســحر فيه تفريــق، قــال تعــالى: ﴿**فيتعلمــون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾ [البقرة: 102].

والنميمة من كبـائر الـذنوب، وهي سـبب لعـذاب القـبر، ومن أسـباب حرمان دخول الجنة، قـال ﷺ: "**لا يدخل الجنة قتـات**"[2]، أي: نمـام، وفي حديث ابن عباس المتفق عليه: أنه ﷺ "**مر بقبرين يعذبان، أحدهما كـان يمشي بالنميمة**"[3].

والنميمة كما هي من كبـائر الـذنوب، فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع النمام مهما كانت حاله، قال تعــالى: ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم**﴾ [ن: 10،11]، وأعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك، فاحذره.

وهي أيضــاً من أســباب فســاد المجتمــع، لأن هــذا النمــام إذا أراد أن يعتدي على كل صديقين متحابين، ويفـرق بينهما بنميمته فسد المجتمـع، لأن المجتمع مكون من أفراد، فإذا تفرقت صار كما قال الله ـ عز وجل ـــ : ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾ [الأنفال: 46]، وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد، فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعـاً، فهو أفـراد متنـاثرة، والأفـراد المتناثرة ليس لها قوة، ولهذا قال الشاعر:

لا تخاصم بواحدٍ أهل بيت فضعيفان يغلبان قوياً

وقال الآخر:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً فإذا افترقن تكسرت أفراداً

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية، لوجدناها تحرم كل ما يكـون سـبباً للتفرق والقطيعة، قال ﷺ: "**ولا يـبيع بعضـكم على بيع أخيه**"[1]، وقـال: "**لا يخطب الرجل على خطبة أخيه**"[2]، وكل هــذا لــدفع ما يــوجب العداوة والبغضاء بين الناس.

* * *

---

[1] الإمام أحمد (6/459).

[2] البخاري: كتاب الأدب/ باب ما يكره من النميمة، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب غلظ تحريم النميمة، ولفظه: "لا يدخل الجنة نمام".

[3] البخاري: كتاب الجنائز/ باب عذاب القبر من الغيبة، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب الدليل على نجاسة البول.

[1] البخاري: كتاب البيوع/ باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه، ومسلم: كتاب البيوع/ باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه.

[2] البخاري: كتاب النكاح/ باب لا يخطب على خطبة أخيه، ومسلم: كتاب النكاح/ باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله قـال: "**إن من البيان لسحراً**"[3]

قولـه: "**إن من البيـان**". "**إن**": حـرف توكيـد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، و"**من**": يحتمل أن تكـون للتبعيض، ويحتمل أن تكـون لبيـان الجنس، فعلى الأول يكون المعنى: إن بعض البيان سـحر وبعضه ليس بسـحر، وعلى الثاني يكون المعنى: إن جنس البيان كله سحر.

قوله: "**لسحراً**". اللام للتوكيد، و"**سحراً**": اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان، قال تعالى: **خلق الإنسان * علمه البيان** [الرحمن: 3،4].

والبيان نوعان:

الأول: بيان لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع النـاس، فكل إنسـان إذا جاع قال: إني جعت، وإذا عطش قال: إني عطشت، وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تسبي العقول وتغير الأفكار، وهي التي قال فيها الرسول : "**إن من البيان لسحراً**".

وعلى هـذا التقسـيم تكـون "من" للتبعيض، أي: بعض البيـان ـــ وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة ـ سحر.

أما إذا جعلنا البيان بمعني الفصاحة فقط، صارت "**من**" لبيان الجنس.

ووجه كون البيان سـحراً: أنه يأخذ بلب السـامع، فيصـرفه أو يعطفـه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تـأثير المتكلم، فينصـرف إليـه، ولهـذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام معناه باطل لكن لقوة فصاحته وبيانه يسحر السـامع حقاً، فينصرف إليـه، وإذا تكلم إنسـان بليغ يحـذِّر من حـق، ولفصـاحته وبيانه يظن السامع أن هـذا الحق باطـل، فينصـرف عنـه، وهـذا من جنس السـحر الذي يسمونه العطف والصـرف، والبيـان يحصل به عطف وصـرف، فالبيـان في الحقيقة بمعـنى الفصـاحة، ولا شك أنها تفعل فعل السـحر، وابن القيم يقول عن الحور: حديثها السحر الحلال.

وقوله: "**إن من البيان لسحراً**"، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد، فالبيان من حيث هو بيـان لا يمـدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كـان المقصـود منه رد الحق وإثبات الباطل، فهو مذموم، لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كـان المقصـود منه إثبـات الحق وإبطـال الباطـل، فهو ممـدوح، وإذا كـان البيـان يستعمل في طاعة الله وفي الـدعوة إلى اللـه، فهو خـير من العي، لكن إذا ابتلي الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله، فهذا لا خـير فيـه، والعي خـير منه، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على الإنسـان، فقال تعالى: **علمه البيان** [الرحمن: 4].

*** وجه مناسبة الحديث للباب:**

المؤلف كان حكيماً في تعبيره بالترجمة، حيث قال: بـاب بيـان شـيء من أنـواع السـحر، ولم يحكم عليها بشـيء، لأن منها ما هو شـرك، ومنها ما هو من كبـائر الـذنوب، ومنها دون ذلـك، ومنها ما هو جـائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره.

* * *

---

[3] البخاري: كتاب الطب/ باب إن من البيان لسحراً، ومسلم: كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة.

- **فيه مسائل:**

الأولى: أن العيافة والطـرق والطـيرة من الجبت. **الثانيـة:** تفسـير العيافة والطرق. **الثالثة:** أن علم النجوم نــوع من السـحر. **الرابعة:** العقد مع النفث من ذلـك. **الخامسـة:** أن النميمة من ذلـك. **السادسـة:** أن من ذلك بعض الفصاحة.

قال: "**فيه مسائل**"، أي: في هذا البـاب وما تضـمنه من الأحـاديث والآثار مسائل:

- **المســألة الأولى: أن العيافة والطــرق والطــيرة من الجبت.** وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.
- **الثانية: تفسير العيافة والطرق.** وقد بينت في الباب أيضاً وشرحت.
- **الثالثـة: أن علم النجـوم نـوع من السـحر.** لقولـه: "**من اقتبس شـعبة من النجــوم، فقد اقتبس شـعبة من الســحر**"، وسبق الكلام عليها أيضاً.
- **الرابعـة: العقد مع النفث من ذلـك.** لحـديث أبي هريـرة: "**من عقد عقدة ثم نفث فيها، فقد سحر**"، وقد تقـدم الكلام على ذلك.
- **الخامسة: أن النميمة من ذلك.** لحـديث ابن مسـعود: "**ألا هل أنـبئكم ما العضـه؟ هي النميمة**"، وهي من السـحر، لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.
- **السادسـة: أن من ذلك بعض الفصـاحة.** أي: من السـحر بعض الفصـاحة، لقــول النــبي ﷺ: "**إن من البيــان لســحراً**"، والمؤلف رحمه الله قال: بعض الفصاحة استدلالاً بقوله ﷺ: "**إن من البيــان**"، لأن "**من**" هنا عند المؤلف للتبعيض، ووجه كــون ذلك من الســحر أن لســان البليغ ذي البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب ما عنده من الفصاحة.

* * *

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

الكهان: جمع كاهن، والكهنة أيضاً جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء، وتخبر الكاهن به، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء، اعتقده الناس عالماً بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم، فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يسمون الكهنة، إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب، فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر، فهذا ليس من الكهانة، لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في 20 من برج الميزان مثلاً في الساعة كذا وكذا، فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون: إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب (هالي)، وهو نجم له ذنب طويل، فهذا ليس من الكهانة في شيء، لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب، فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلاً لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو، لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحاً لأن يمطر، أو لا يمطر، ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس، فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح، كما قال السفاريني:

فكل معلوم بحس أو حجا ... فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذي يعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحداً أنكره مستنداً بذلك إلى الشرع، لكان ذلك طعناً بالشرع.

* * *

روى مسلم في "صحيحة" عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: "**من أتى عرافاً، فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**"[1]

قوله: "**من**": شرطية، فهي للعموم.

والعراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة، أي: من ينتسب إلى العرافة.

والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المسقيل.

---

[1] مسلم: كتاب السلام/ باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، دون قوله: "فصدقه بما يقول"). وهي عند الإمام أحمد في "المسند" (4/68،5/380).

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق، إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادعى بها المعرفة.

قوله: "**فسأله، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**". ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوماً، ولكنه ليس على إطلاقه، فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجرداً، فهذا حرام لقول النبي ﷺ: "**من أتى عرافاً...**"[2]، فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه، إذا لا عقوبة إلا على فعل محرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله: فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالى: ﴿**قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله**﴾ [النمل: 65].

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله، فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد، فقال: "ماذا خبأت لك؟ قال: الدخ فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك"[3]، فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره، لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجباً.

وإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجباً، فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس في أمور، والكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هي على حسب الحال.

فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه في الله ولله، ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس، لأنه يجمعهم الإيمان بالله.

وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضي الله ـ عز وجل ـ ، إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط، لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق والتلذذ بالاتصال، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما كان الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرؤون على المصابين بالجن.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له، فقال لهم: "**كل عظم ذكر اسم لله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة، فهي علف لدوابكم**"[1]، وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئي من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتى إنه تأخر

---

[2] تقدم (ص 531).

[3] البخاري: كتاب الجهاد/ باب كيف يعرض الإسلام على الصبي، ومسلم: كتاب الفتن/ باب ذكر ابن صياد.

[1] مسلم: كتاب الصلاة/ باب الجهر بالقراءة في الصبح.

عمر ذات يوم، فأتوا إليها، فقالوا: ابحثي لنا عنه. فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يسم إبل الصدقة[2].

قوله: "**فصدقه**". ليس في "صحيح مسلم"، بل الذي في "مسلم": "**فسأله، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**"، وزيادتها في نقل المؤلف، إما لأن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ "فصدقه"، أو أن المؤلف عزاه إلى "مسلم" باعتبار أصله، فأخذ من "مسلم": "فسأله"، وأخذ من أحمد: "فصدقه".

قوله: "**لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**". نفي القبول هنا هل يلزم منه نفي الصحة أولا؟

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع، ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفياً للصحة، كما لو قلت: من صلى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلى في مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام، أي: لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازياً لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

ومثله قوله : "**من شرب الخمر، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**"[1].

وقوله: "**أربعين يوماً**". تخصيص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله، لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالباً أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك، فهذا من الأمور التي يقصد بها التعبد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته، لأنه أبلغ في التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله ـ عز وجل ـ، فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك، فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ، لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذاً له وقبولاً، فهناك أشياء مما عينه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه، ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** [الأحزاب: 36].

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله، إلا ما استثني، كالقسم الثالث والرابع، لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة،

---

[2] "آكام المرجان في أحكام الجان" (ص 38).

[1] الإمام أحمد في "المسند" (2/35)، والترمذي: كتاب الأشربة/ باب ما جاء في شارب الخمر، وقال: "حديث حسن"، والبغوي في "شرح السنة" (11/357)، والحاكم (4/162)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال أحمد شاكر: "إسناده حسن" المسند (4917).

التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم، وهم في الغالب يـأتون بأشـياء كلها باطلة.

* * *

وعن أبي هريــرة (رضي الله عنـــه)، عن النــبي ، قــال: "**من أتى كاهناً، فصـدقه بما يقـول، فقد كفر بما أنـزل على محمد ** "رواه أبو داوود[2].

قوله: "**من أتى كاهناً**". تقدم معنى الكهـان، وأنهم كـانوا رجـالاً في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: "**فصدقه**". أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صـادق، وتصـديق الخبر يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: "**بما يقول**". "**ما**" عامة في كل ما يقـول: حـتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه، لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله "**فقد كفر بما أنزل على محمد**"، أي: بالـذي أنـزل، والـذي أنـزل على محمد القـرآن أنـزل إليه بواسـطة جبريـل، قـال تعـالى: **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين** [الشعراء: 192، 193]، وقـال تعـالى: **قل نزله روح القدس من ربك** [النحـل: 102]، وبهـذا نعرف أن القول الراجح في الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معـنى، وأما لفظه، فمن الرسول ، لكنه حكاه عن الله، لأننا لو لم نقل بـذلك لكـان الحديث القدسي أرفع سـنداً من القـرآن، حيث إن الرسـول يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظاً، لوجب أن تثبت له أحكام القرآن، لأن الشـرع لا يفـرق بين المتمـاثلين، وقد علم أن أحكـام القـرآن لا تنطبق على الحديث القدسي ولا يتعبد بتلاوته ولا يقـرأ في الصـلاة، ولا يعجز لفظـه، ولو كان من كلام الله، لكـان معجـزاً، لأن كلام الله لا يماثله كلام البشـر، وأيضـاً باتفـاق أهل العلم فيما أعلم أنه لو جـاء مشـرك يسـتجير ليسـمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية، فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله. فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء في ذلك قولان: هـذا أحدهما، والثاني: أنه من قول الله لفظاً.

فإن قال قائل: كيف تصححون هـذا والنـبي صـلى الله عليه وسـلم ينسب القـول إلى اللـه، ويقـول: قـال الله تعـالى: ومقـول القـول هو هـذا الحديث المسوق؟

قلنا: هـذا كما قـال الله تعـالى عن موسى وفرعـون وإبـراهيم: قـال موسى، قـال فرعـون، قـال إبـراهيم... مع أننا نعلم أن هـذا اللفظ ليس من كلامهم ولا قــولهم، لأن لغتهم ليست اللغة العربيــة، وإنما نقل نقلاً عنهم، ويدل هذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى، ومع ذلك ينسبها إليهم، كما قال تعـالى: **وإذ قال إبـراهيم لأبيه وقومه إنـني بـراء مما تعبـدون إلا الـذي فطرني** [الزخرف: 26،27]، وقال عن موسى: **وقال موسى لقومه استعينوا بالله** [الأعراف: 128]، وقال عن فرعون: **قـال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم** [الشعراء: 34].

---

[2] الإمام أحمد في "المسند" (2/8-4، 476)، وأبو داود: كتاب الطب/ باب في الكاهن، والترمزي: كتاب الطهارة/ باب في كراهية إتيان الحائض، وابن ماجة: كتاب الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض.

قوله: "**بما أنزل على محمد**". ذكر أهل السـنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه منزل أو أنـزل من اللـه، فهي دالة على علو الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ بذاتـه، وعلى أن القـرآن كلام اللـه، لأن الـنزول يكـون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قولـه: "**كفر بما أنـزل على محمد**". وجه ذلـك: أن ما أنـزل على محمد قـال الله تعـالى فيـه: ﴿**قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله**﴾ [النمل: 65]، وهذا من أقوى طرق الحصر، لأن فيه النفي والإثبات، فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفـراً أكـبر مخرجـاً من الملـة، وإن كـان جـاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب، فكفره كفر دون كفر.

* * *

وللأربعـة، والحـاكم ـ وقـال: "**صـحيح على شـرطهما**" ـ عن أبي هريرة: "**من أتى عرافاً أو كاهناً، فصدقه بما يقـول، فقد كفر بما أنزل على محمد** ﷺ"[1].

قولـــه: "**وللأربعة والحـــاكم**". الأربعة هم: أبو داود، والنســـائي، والترمذي، وابن ماجة، والحاكم ليس من أهل "السنن"، لكن له كتاب سمي "صحيح الحاكم".

قوله: "**صحيح على شرطهما**"، أي: شـرط البخـاري ومسـلم، لكن قول "على شرطهما" هـذا على ما يعتقـد، وإلا، فقد يكـون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله: "**على شرطهما**"، أي: أن رجاله رجـال "الصـحيحين"، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.

ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صـحيحة لم يـذكرها البخـاري ومسـلم، لأنهما لم يسـتوعبا الصـحيح كلـه، وهـذا أمر واقـع، ولكن ينظر في قـول من قال: إن هـذا الحـديث على شـرطهما، فقد تكـون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، ويكون البخاري ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

قوله: "**صحيح**". يقولو: الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح، ولهـذا قـالوا: لا عـبرة بتصـحيح الحـاكم، ولا بتوثيق ابن حبـان، ولا بوضع ابن الجـوزي، ولا بإجماع ابن المنذر.

وهــذا القــول فيه مجازفة في الحقيقــة، لأن كلمة (لا عــبرة)، أي: لا يلتفت إليه، والصواب أنه لا يؤخذ مقبـولاً في كل حـال، مع أني تـدبرت كلام ابن المنذر رحمه الله، ووجدت أنه دائماً إذا نقل الإجمـاع يقـول: إجمـاع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه، ولا يكلف الله نفسـاً إلى وسعها.

ولكننا مع ذلك نقول: إذا كـان الرجل ذا اطلاع واسـع، فقد يكـون هذا القول إجماعاً، أما إذا كان هذا الرجل لا يعـرف إلى ما حولـه، فـإن قوله هذا لا يكون إجماعاً ولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله: فلو قال رجل: لم يدرس إلا المذهب الحنبلي في مسألة، وقال هـذا إجمـاع من نحفظ قوله من أهل العلم، فـإن قوله هـذا لا يعتـبر، لأنه لم يحفظ إلا قولاً قليلاً من أقوال أهل العلم.

---

[1] الإمام أحمد في "المسند" (2/429)، والبيهقي في "السنن" (7/195)، والهيثمي في "المجمع" (5/118). قال في "تيسير العزيز" ص 409: فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يروه أحد منهم... ولعله أراد الذي قبله"، والحاكم في "المستدرك" (1/12) ـ وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: "**من أتى عرافـاً أو كاهنـاً**". "**أو**" يحتمل أن تكـون للشـك، ويحتمل أن تكون للتنويع، فالحديث الأول بلف عـراف، والثـاني بلفظ كـاهن، والثالث جمع بينهما، فتكون "**أو**" للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه، لأن كـثرة الأدلة مما يقوي المدلول، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جـاء آخر وأخبرك به ازددت توثقاً وقوة، ولهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسـان بشاهد واحد أو شاهدين.

* * *

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً[1].

وعن عمـران بن حصـين مرفوعـاً: "**ليس منا من تطـير أو تطـير له، أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد** ﷺ". رواه البزار بإسناد جيد[2]

وظاهر صـنيع المؤلـف: أن حـديث أبي هريـرة: "**من أتى عرافاً أو كاهناً**" أنه موقوف، لأنه قال عن أبي هريرة، لكنه لما قال في الـذي بعـده: "**موقوفاً**" ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع.

قوله: "**ليس منا**". تقدم الكلام على هـذه الكلمـة، وأنها لا تـدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: "**مرفوعاً**"، أي: إلى النبي ﷺ.

قوله "**تطير**". التطير: هو التشاؤم بـالمرئي أو المسـموع أو المعلـوم أو غير ذلك، وأصله من الطير، لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفـاءلون بهـا، وقد سبق ذلك[3].

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذ شرع في عمـل، ثم حصل له في أوله تعـثر تركه وتشـاءم، فهـذا غـير جـائز، بل يعتمد على الله ويتوكل عليـه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيراً، فغامر فيه، ولا تشـاءم، لأنك لم توفق فيه لأول مـرة، فكم من إنسـان لم يوفق في العمل أول مـرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة؟!

ويقال: إن الكسائي ـ إمام النحو ـ طلب النحو عـدة مـرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نـواة تمـر، فتصـعد بها إلى الجـدار، فتسـقط، حـتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار وتجاوزته، فقـال: سـبحان اللـه! هـذه النملة تكابد هـذه النـواة حـتى نجحت، إذن أنا سـأكابد علم النحو حتى أنجح. فكابد، فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: "**أو تطير له**". بالبناء للمفعول، أي: أمر من يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طـيرك لأنظـر: هل هـذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلـك، فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: "**من تطير**" يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: "**أو تكهن أو تكهن له**". سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل[1]، يقـول سـيكون كـذا وكـذا، وربما يقـع، فهـذا متكهن، ومن

---

[1] الإمام أحمد في "المسند" (2/428)، وأبو يعلى في "المسند" (5408)، والهيثمي في "المجمع" (5/118 ـ 119).

[2] البزار في "المسند" (3044)، والهيثمي في "المجمع" (5/118). قال المنذري في "الترغيب": "إسناده جيد"، وقال الهيثمي: "ورجاله، رجال الصحيح".

[3] تقدم (ص 515).

[1] تقدم (ص 530).

الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم: تكهن بأن فلاناً سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم على أمر مباح، وهذا لا ينبغي، لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور يظن أن الكهانة كلها مباحة، بدليل إطلاق هذا اللفظ على شيء مباح معلوم إباحته.

قوله: "**أو تكهن له**"، أي: طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا يصيبني غداً، أو في الشهر الفلاني، أو في السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: "**أو سحر أو سحر له**". تقدم تعريف السحر، وتقدم بيان أقسامه.

قوله: "**أو سحر له**"، أي: طلب من الساحر أن يسحر له، ومنه النشرة عن طريق السحر، فهي داخلة فيه، وكانوا يستعملونها على وجوه متنوعة، منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويصبون فيه رصاصاً، فيتكون هذا الرصاص بوجه الساحر، أي: تكون صورة الساحر في هذا الرصاص، ويسمونها العامة عندنا "صب الرصاص"، وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول الله من فاعله[2].

الشاهد من هذا الحديث: قوله: "**ومن أتى كاهناً...**" إلخ، وقوله: "**ورواه الطبراني في "الأوسط" بإسناد حسن من حديث ابن عباس...**" إلخ، فيكون هذا مقوياً للأول.

* * *

قال البغوي: "العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك"[3].

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

---

* قوله: "**قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات...**". العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة.

وهو الذي يدعي معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوي رحمه الله: أنه شامل لمن ادعى معرفة المستقبل والماضي، لأن مكان المسروق يعلم بعد السرقة، وكذلك الضالة قد حصل الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رحمه الله: "**وقيل: هو**"، أي: العراف الكاهن.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قوله: "**وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير**"، أي: أن تضمر شيئاً فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا.

أو المغيبات في المستقبل، تقول: ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي؟ متى يقدم ولدي؟ وهو لا يدري.

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا في تعريف العراف، فقيل: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها، فيكون شاملاً لمن يخبر عن أمور وقعت.

---

[2] تقدم (ص 540).

[3] شرح السنة (12/182).

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقيـل: هو الكـاهن، والكـاهن: هو الـذي يخـبر عن المغيبـات في المستقبل.

* * *

وقال أبو العباس ابن تيمية: العـراف: اسم للكـاهن والمنجم والرمـال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق"[1].

قوله: "**وقال أبو العبـاس ابن تيمية**". هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، يكـنى بـأبي العبـاس، ولم يـتزوج، ولم يتركه من بـاب الرهبانيـة، ولكنه والله أعلم كـان مشـغولاً بالجهـاد العلمي مع قلة الشـهوة، وإلا لو كـان قـوي الشـهوة لـتزوج، وليس كما يـدعي المـزورون أن له ولـداً مدفوناً إلى جانبه في دمشق، فإنه غير صحيح قطعاً.

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جـزم بهـذا، ولكن شـيخ الإسـلام قال: وقيل العراف، وذكـره بقيـل، ومعلـوم أن ما ذكر بقيل ليس مما يجـزم بـأن الناقل يقـول بـه، صـحيح أنه إذا نقله ولم ينقضـه، فهـذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال، فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قـال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرمـال والمنجم ونحـوهم، فـإنهم يـدخلون فيه بـالعموم المعنـوي، لأن عنـدنا عمومـاً معنويـاً، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعموماً لفظياً، وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكـون اللفظ شـاملاً له.

وقد ذكر شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله أن اسـتخدام الإنس للجن له ثلاث حالات.

الحال الأولى: أن يستخدم في طاعة اللـه، كـأن يكـون له نائبـاً في تبليغ الشـرع، فمثلاً: إذا كـان له صـاحب من الجن مـؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهـذا شـيء ثبت أن الجن قد يتعلمـون من الإنس، فيسـتخدمه في تبليغ الشـــرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمــور مطلوبة شرعاً، فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكـون أمـراً محمـوداً أو مطلوبـاً، وهو من الـدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ، والجن حضـروا النـبي وقـرأ عليهم القـرآن، وولوا إلى قومهم منـذرين، والجن فيهم الصـلحاء والعبـاد والزهـاد والعلمـاء، لأن المنذر لابد أن يكون عالماً بما ينـذر، عابـداً مطيعـاً لله ـ سـبحانه ـ في الإنذار.

الحال الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحــة، مثل أن يطلب منهم العـون على أمر من الأمـور المباحـة، قـال: فهـذا جـائز بشـرط أن تكـون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة، صار حراماً، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو ما أشبه ذلك.

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مـرة في سـفره، فاشـتغل فكر أبي موسـى، فقـالوا لـه: إن امـرأة من أهل المدينة لها صـاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمـر، ففعـل، فـذهب الجـني، ثم رجـع، فقال: إن أمير المؤمـنين ليس به بـأس، وهو يسم إبل الصـدقة في المكـان الفلاني[1]، فهذا استخدام في أمر مباح.

---

[1] مجموع الفتاوى (35/137).

[1] تقدم (ص 534).

الحال الثلاثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال النـاس وتـرويعهم، وما أشـبه ذلـك، فهـذا محـرم، ثم إن كـان الوسـيلة شـركاً صـار شركاً، وإن كان وسيلته غير شـرك صـار معصـية، كما لو كـان هـذا المجـني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعـاون معه على الإثم والعـدوان، فهـذا يكون إثماً وعدواناً، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من الجن، ويصـدقهم في كل ما يقولـون، فهـذا معصـية وكفـر، والطريق للحفظ من الجن هو قـراءة آية الكرسـي، فمن قرأها في ليلة لم يـزل عليه من الله حافـظ، ولا يقربه شـيطان حـتى يصـبح، كما ثبت ذلك عنه [2]، وهي: **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم...﴾** الآية.

* * *

وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أباجـاد) وينظـرون في النجـوم: "ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق"[1].

قوله: "**يكتبون أباجاد وينظرون في النجوم**". والـواو هنا ليست عطفاً، ولكنها للحال، يعني: والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: "**ما أرى من فعل ذلك**". ويجـوز بفتح الهمـزة بمعـنى: أعلم، وبالضم بمعنى: ما أظن.

وقولـه: "**أباجـاد**". هي: أبجد هـوز حطي كلمن سـعفص قرشت ثخذ ضظغ... وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به، وما زال أناس يستعملونها، حتى العلماء يؤرخـون بهـا، قـال شـيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تاريخ بناء المسجد الجامع القديم:

من سـاعدوا في ذا البنا	جد بالرضا واعط المـنى
قـول المـنيب اغفر لنا	تاريخه حين انتهى
رب تقبل سـعينا	والشـهر في شـوال يا

فقوله: "اغفر لنا" لو عددناها حسب الجمل صارت 1362هـ.

وقد اعتـنى بها العلمـاء في العصـور الوسـطى، حـتى في القصـائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يرد ابن عباس هذا القسم.

الثـاني: محـرم، وهو كتابة "أبا جـاد" كتابة مربوطة بسـير النجـوم وحركتها وطلوعها وغروبهـا، وينظـرون في النجـوم ليسـتدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سـيحدث في الأرض، إما على سـبيل العمـوم، كالجـذب والمـرض والجـرب وما أشـبه ذلـك، أو على سـبيل الخصـوص، كـأن يقـول لشخص: سـيحدث لك مـرض أو فقر أو سـعادة أو نحس في هـذا وما أشـبه ذلـك، فهم يربطـون هـذه بهـذه، وليس هنـاك علاقة بين حركـات النجـوم واختلاف الوقائع في الأرض.

وقوله: "**ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**".

قوله: "**خلاق**"، أي: نصيب.

---

[2] البخاري: كتاب الخلق/ باب صفة إبليس وجنوده.

[1] عبد الرازق في "المصنف" (11/26)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (8/139).

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم، لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر، إذ لا ينفى النصيب مطلقاً عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عذب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذي يجده عند الله.

ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا، قتلوا كفراً.

وإن حكمنا بعدم كفرهم، إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر، أو قلنا: إنهم لا يكفرون، لأن المسألة فيها خلاف، فإنه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتى وإن قلنا بعدم كفرهم، لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعال: **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض** [المائدة: 33]، فكل من أفسد على الناس أمور دينهم أو دنياهم، فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا، قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة أو خاصة، فهو شرك إن اعتقد أن هذه النجوم هي المدبرة للأمور، أو أن لها شركاً، فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط، فكفره غير مخرج من الملة، ولكن يسمى كفراً، لقول النبي على إثر سماء كانت من الليل: "**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**"[1].

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله[2].

الثاني: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس وما أشبهه، فهذا من الأمور المباحة، لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة، فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن. **الثانية:** التصريح بأنه كفر. **الثالثة:** ذكر من تكهن له. **الرابعة:** ذكر من تطير له. **الخامسة:** ذكر من سحر له. **السادسة:** ذكر من تعلم أباجاد.

فيه مسائل:

---

[1] تقدم (ص 519).

[2] (ص 519).

- **الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بــالقرآن.** يؤخذ من قوله: "**من أتى كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد**"، ووجهه: أنه كذب بالقرآن وهذا من أعظم الكفر.
- **الثانيــة: التصــريح بأنه كفــر.** تؤخذ من قولــه: "**فقد كفر بما أنزل على محمد**".
- **الثالثــة: ذكر من تكهن لــه.** تؤخذ من حــديث عمــران بن حصين، حيث قال: "**ليس منا**"، أي: إنه كالكاهن في براءة النبي منه.
- **الرابعة: ذكر من تطير له.** تؤخذ من قوله: "**أو تطير له**".
- **الخامســة: ذكر من ســحر لــه.** تؤخذ من قولــه: "**أو ســحر له**".

وأتى المؤلف بــذكر من تكهن لــه، أو ســحر لــه، أو تطــير لــه، لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا في الكهان، وهذا من المتطــيرين، وهــذا في السحرة، فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك، فهو مثلهم في العقوبة.

- **السادسة: ذكر من تعلم أباجــاد.** وتعلم ذلك فيه تفصــيل لا يحمد ولا يذم، إلا على حسب الحال التي تنزل عليها، وقد سبق ذلك.

* * *

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

- **السابعة: ذكر الفــرق بين الكــاهن والعــراف.** وفي هــذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القــول الأول: أن العــراف هو الكــاهن، فمهما مترادفــان، فلا فــرق بينهما.

القــول الثــاني: أن العــراف هو الــذي يســتدل على معرفة الأمــور بمقدمات يستدل بها، فهو أعم من الكاهن، لأنه يشمل الكــاهن وغــيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقــدمات يســتدل عليهــا، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العــراف يختص بالماضــي، والكــاهن بالمســتقبل، فهما متباينان، والظاهر أنهما متباينان، فالكــاهن من يخــبر عن المغيبــات في المســتقبل والعــراف من يــدعي معرفة الأمــور بمقــدمات يســتدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

* * *

باب ما جاء في النشرة

*** تعريف النشرة:**

في اللغة، بضم النون: فعلة من النشر، وهو التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور.

لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور: يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

أما حكمهــا، فهو يتــبين مما قاله المؤلف رحمه اللــه، وهو من أحسن البيانات.

ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الــدواء والمعالجة وفيه فضل كبير لمن ابتغى به وجه الله لكن في القسم المبـاح منهـا. لأن السـحر له تأثير على بدن المسحور وعقله ونفسه وضـيق الصـدر، حيث لا يـأنس إلا بمن استعطف عليه.

وأحياناً يكون أمراضاً نفسية بالعكس، تنفر هذا المسحور عمن تنفــره عنه من النـاس، وأحيانـاً يكـون أمراضـاً عقليـة، فالسـحر له تـأثير إما على البدن، أو العقل، أو النفس.

* * *

عن جابر، أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: "**هي من عمل الشـيطان**". رواه أحمد بسـند جيـد، وأبو داود[1]. وقـال: "سـئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

قوله في "**عن النشــــرة**". أل للعهد الــــذهني، أي: المعروفة في الجاهلية الـتي كـانوا يسـتعملونها في الجاهليـة، وذلك طريق من طـرق حل السحر، وهي على نوعين:

الأول: أن تكون باسـتخدام الشـياطين، فـإن كـان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك، كانت شركاً، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشــرك، كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر، كالأدوية والرقى والعقد والنفث وما أشــبه ذلك، فهذا له حكم السحر على ما سبق.

ومن ذلك ما يفعله بعض النـاس، أنهم يضـعون فـوق رأس المسـحور طستاً فيه ماء ويصبون عليه رصاصاً ويزعمـون أن السـاحر يظهر وجهه في هذا الرصاص، فيسـتدل بـذلك على من سـحره، وقد سـئل الإمـام أحمد عن النشـرة، فقـال: إن بعض النـاس أجازهـا، فقيل لـه: إنهم يجعلـون مـاء في طست، وإنه يغوص فيه، وإنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا؟ ما أدري ما هذا؟ فكأنه رحمه الله توقف في الأمر وكره الخوض فيه.

قولــــه: "**من عمل الشـــيطان**"، أي: من العمل الـــذي يـــأمر به الشـيطان ويـوحي بـه، لأن الشـيطان يـأمر بالفحشـاء ويـوحي إلى أوليائه بالمنكر، وهذا يغني عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد، لأن نسـبتها للشـيطان أبلغ في تقبيحها والتنفـير منهـا، ودلالة النصـوص على التحـريم لا تنحصر في لفظ التحـريم أو نفي الجـواز، بل إذا رتبت العقوبـات على الفعل كـان دليلاً على تحريمه.

قوله: "**رواه أحمد بسند جيد وأبو داود**" سـند أبي داود إلى أحمد متصل، لأنه قد حدثه وأدركه.

قولـه: "**فقـال: ابن مسـعود يكـره هـذا كله**". أجـاب رحمه الله بقــول الصــحابي، وكأنه ليس عنــده أثر صــحيح عن النــبي ﷺ في ذلــك، وإلا لاستدل به.

والمشار إليه في قوله: "**يكره هذا كله**" كل أنواع النشرة، وظاهره: ولو كـانت على الوجه المبـاح على ما يـأتي، لكنه غـير مـراد، لأن النشــرة بالقرآن والتعوذات المشروعة لم يقل أحد بكراهتـه، وسـبق أن ابن مسـعود رضي الله عنه كان يكره تعليق التمائم من القرآن وغير القرآن.

---

[1] الإمام أحمد في "المسند" (3/294)، وأبو داود: كتاب الطب/ باب في النشرة، والحاكم في "المستدرك" (4/420)، وصححه ووافقه الذهبي. قال الحافظ في "الفتح" (10/233): "إسناده حسن".

وعلى هذا، فالكلية في قول أحمد: "**يكره هذا كله**" يراد بها النشرة التي من عمل الشيطان، وهي النشرة بالسحر والنشرة التي من التمائم.

وقوله: "**يكره**". الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالباً، ولا تخرج عنه إلا بقرينة، وعند المتأخرين خلاف الأولى، فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً..**﴾ [الإسراء: 23]، إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً**﴾ [الإسراء: 38]، ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

* * *

وفي "البخاري" عن قتادة: "قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع، فلم ينه عنه"[1].

قوله: "**رجل به طب**". أي: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طباً من باب التفاؤل، كما سمي اللديغ سليماً والكسير جبيراً.

قوله: "**أو يؤخذ عن امرأته**". أي: يحبس عن زوجته، فلا يتمكن من جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.

والعجيب أنه مشتهر عند الناس أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقده عند العقد، فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم، فقال: إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلاً.

ولكن كثيراً ما يقع حبس الزوج عن زوجته ويطلبون العلاج.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجعها، فينفك السحر.

لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح، فالطلاق هنا جائز، لأنه طلاق للاستبقاء، فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشيء من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئاً.

و"أو" في قوله: "**أو يؤخذ**" يحتمل أنها للشك من الراوي: هل قال قتادة "به طب" أو قال: "يؤخذ عن امرأته"؟

أي: أو قلت: يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنويع، أي أنه سأله عن أمرين: عن المسحور، وعند الذي يؤخذ عن امرأته.

قوله: "**أيحل عنه أو ينشر**". لا شك أن "**أو**" هنا للشك، لأن الحل هو النشرة.

قوله: "**لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح**". كأن ابن المسيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.

فالضار محرم، قال تعالى: ﴿**ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم**﴾ [البقرة: 102]، والنافع لا بأس به، وهذا ظاهر ما روي عنه، وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء، فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا ما روي عن ابن

---

[1] البخاري في "الصحيح" تعليقاً: كتاب الطب/ باب هل يستخرج السحر.

المسيب بأن المراد به ما لا يعلم عن حاله: هل هو سحر، أم غير سـحر؟ أما إذا علم أنه سحر، فلا يحل، والله أعلم.

ولكن على كل حـال حـتى ولو كـان ابن المسـيب ومن فـوق ابن المسـيب ممن ليس قوله حجة يـرى أنه جـائز، فلا يلـزم من ذلك أن يكـون جائزاً في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسـنة، وقد سـئل الرسـول ﷺ عن النشرة؟ فقال: "**هي من عمل الشيطان**"[1].

* * *

وروي عن الحسن، أنه قال: "لا يحل السحر إلا ساحر"[2]

قـال ابن القيم: "النشـرة: حل السـحر عن المسـحور، وهي نوعـان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الـذي من عمل الشـيطان، وعليه يحمل قـول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعـوذات والأدوية والـدعوات المباحـة، فهذا جائز".

قوله: "**وروي عن الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر**". هـذا الأثر إن صح، فمراد الحسن الحل المعروف غالباً، وأنه لا يقع إلا من السحرة.

قوله: "**قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسـحور...**" إلخ.

هذا الكلام جيد ولا مزيد عليه.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: النهي عن النشـــرة. **الثانيـــة:** الفـــرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

فيه مسائل:

- **الأولى: النهي عن النشـــرة.** تؤخذ من قوله ﷺ: "**هي من عمل الشـيطان**"، وهنا ليس فيه صـيغة نهي، لكن فيه ما يـدل على النهي، لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقـط، بل ذم فاعله ونحـوه، وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل على النهي.
- **الثانية: الفـرق بين المنهي عنه والمـرخص فيـه.** تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله.

*** إشكال وجوابه:**

ما الجمع بين قـول الفقهـاء رحمهم الله يجـوز حل السـحر بالسـحر، وبين قولهم يجب قتل الساحر؟

الجمع أن مـرادهم بقتل السـاحر من يضر بسـحره دون من ينفـع، فلا يقتل، أو أن مرادهم بيـان حكم حل السـحر بالسـحر للضـرورة، وأما الإبقـاء على الساحر، فله نظر آخر، والله أعلم.

* * *

---

[1] تقدم (ص 553).
[2] فتح الباري (10/233)

باب ما جاء في التطير

---

* **تعريف التطير:**

واللغة: مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير، لأ، العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يميناً أو شمالاً أو ما أشبه ذلك، فإن ذب إلى الجهة التي فيها التيامن، أقدم، أو فيها التشاؤم، أحجم.

أما في الاصطلاح، فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وهذا من الأمور النادرة، لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح، لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيوداً تخصصها، مثل الصلاة لغة: الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.

وإن شئت، فقل: التطير: هو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو معلوم.

بمرئي مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً.

أو مسموع مثل: من هم بأمر فسمع أحداً يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب، فيتشاءم.

أو معلوم، كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض الشهور أو بعض السنوات، فهذه لا ترى ولا تسمع.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل، فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد، لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالى: **إياك نعبد وإياك نستعين** [الفاتحة: 4]، وقال تعالى: **فاعبده وتوكل عليه** [هود: 123].

فالطيرة محرمة، وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله ـ عز وجل ـ، ولا تسيء الظن بالله ـ عز وجل ـ.

* * *

وقول الله تعالى: **ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون** [الأعراف: 131].

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين:

* **الآية الأولى قوله تعالى: ألا إنما طائرهم عند الله**.

هذه الآية نزلت في قوم موسى كما حكى الله عنهم في قوله: **وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه** [الأعراف: 131]، قال الله تعالى: **ألا إنما طائرهم عند الله**، ومعنى: **يطيروا بموسى ومن**

معه﴾: أنه إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا: هذا من موسى وأصحابه، فأبطل الله هذه العقيدة بقوله: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾.

قوله: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾. ﴿**ألا**﴾: أداة استفتاح تفيد التنبيه والتوكيد، و﴿**إنما**﴾: أداة حصر.

وقوله: ﴿**طائر**﴾ مبتدأ، و﴿**عند الله**﴾ خبر، والمعـنى: أن ما يصـيبهم من الجدب والقحط ليس من موسى قومه، ولكنه من الله، فهو الـذي قـدره ولا علاقة لموسى وقومه بـــه، بل إن الأمر يقتضي أن موسى وقومه ســـبب للبركة والخير، ولكن هؤلاء ـ والعياذ بالله ــ يلبسـون على العـوام ويوهمـون الناس خلاف الواقع.

قوله: ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمـون**﴾. فهم في جهـل، فلا يعلمـون أن هناك إلهاً مدبراً، وأن ما أصابهم من الله وليس من موسى وقومه.

* * *

وقولــه: ﴿**قـــالوا طـــائركم معكم أئن ذكـــرتم بل أنتم قـــوم مسرفون**﴾ [يس: 19].

*** الآية الثانية قوله تعالى: ﴿قالوا طائركم معكم﴾**.

أي: قـال الـذين أرسـلوا إلى القرية في قوله تعلى: ﴿**واضـرب لهم مثلاً أصحاب القرية...**﴾ الآيات [يس: 13].

فقالوا ذلك رداً على قول أهل القرية: ﴿**إنا تطيرنا بكم**﴾ [يس: 18]، أي: تشـاءمنا بكم، وإننا لا نـرى أنكم تـدلوننا على الخـير، بل على الشر وما فيه هلاكنا، فأجابهم الرسل بقـولهم: ﴿**طائركم معكم**﴾، أي: مصـاحب لكم، فما يحصل لكم، فإنه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك.

ولا منافاة بين هـذه الآية والـتي ذكرها المؤلف قبلهـا، لأن الأولى تـدل على أن المقدر لها الشيء هو اللـه، والثانية تـبين سـببه، وهو أنه منهم، فهم في الحقيقة طـــائرهم معهم (أي الشـــؤم) الحاصل عليهم معهم ملازم لهم، لأن أعمالهم تستلزمه، كما قال تعـالى: ﴿**ظهر الفساد في الـبر والبحر بما كسـبت أيـدي النـاس**﴾ [الـروم: 41]، وقـال تعـالى: ﴿**ولو أن أهل القـرى آمنـوا واتقـوا لفتحنا عليهم بركـات من السـماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ [الأعراف: 96].

ويستفاد من الآيتين المذكروتين في الباب: أن التطير كان معروفاً من قبل العـرب وفي غـير العـرب، لأن الأولى في فرعـون وقومـه، والثانية في أصحاب القرية.

وقوله: ﴿**أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون**﴾. ينبغي أن تقف على قوله: ﴿**ذكرتم**﴾، لأنها جملة شرطية، وجواب الشـرط محـذوف تقـديره: أإن ذكرتم تطيرتم، وعلى هذا، فلا تصلها بما بعدها.

وقولـه: ﴿**بل أنتم قوم مسـرفون**﴾، ﴿**بل**﴾ هنا للإضـراب الإبطـالي، أي: ما أصابكم ليس منهم، بل هو من إسرافكم.

وقوله: ﴿**مسرفون**﴾. أي: متجاوزون للحد الذي يجب أن تكونوا عليه.

* * *

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله قال: "**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**". أخرجاه[1]، وزاد مسـلم[2]: "**ولا نوء، ولا غول**".

قوله : "**لا عـــدوى**". "لا" نافية للجنس، ونفي الجنس أعم من نفي الواحد والاثنين والثلاثة، لأنه نفي للجنس كله، فنفى الرسول العدوى كلها.

والعدوى: انتقـال المـرض من المـريض إلى الصـحيح، وكما يكـون في الأمراض الحسية يكون أيضاً في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر أن جليس السـوء كنـافخ الكـير، إما أن يحـرق ثيابـك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة[3].

فقوله: "**لا عدوى**" يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسـية أظهر.

قوله: "**ولا طيرة**". اسم مصـدر تطـير، لأن المصـدر منه تطـير، مثل الخيرة اسم مصدر اختار، قال تعـالى: **وما كـان لمـؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسـوله أمـراً أن يكـون لهم الخـيرة من أمـرهم** [الأحزاب: 36]، أي: الاختيـار، أي يختـاروا خلاف ما قضى الله ورسـوله من الأمر.

واسم المصدر يوافق المصدر في المعنى، ولـذلك تقـول كلمته كلامـاً بمعنى كلمته تكليماً، وسلمت عليه سلاماً بمعنى سلمت عليه تسليماً.

لكن لما كان يخالف المصدر في البنـاء سـموه اسم مصـدر، والطـيرة تقدم أنها هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم[4].

قوله: "**ولا هامة**". الهامة، بتخفيف الميم فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومـة، أو هي البومـة، تـزعم العـرب أنه إذا قتل القتيل، صارت عظامه هامة تطير وتصرخ حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

التفسـير الثـاني: أن بعض العــرب يقولــون: الهامة هي الطــير المعروف، لكنهم يتشاءمون بها، فإذا وقعت على بيت أحـدهم ونعقت، قـال: إنها تنعق به ليموت، ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله ـ بلا شك ـ عقيدة باطلة.

قوله: "**ولا صفر**". قيل: إنه شهر صفر، كـانت العـرب يتشـاءمون به ولا سيما في النكاح.

وقيل: إنه داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلى آخـر، وعلى هذا، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

وقيل: إنه نهي عن النسيئة، وكـانوا في الجاهلية ينسـئون، فـإذا أرادوا القتال في شهر المحـرم اسـتحلوه، وأخـروا الحرمة إلى شـهر صـفر، وهـذه النسيئة التي ذكرها الله بقوله تعالى: **فيحلوا ما حرم الله** [التوبة: 37]، وهذا القول ضعيف، ويضعفه أن الحديث في سياق التطير، وليس في سياق التغيير، والأقرب أن صفر يعني الشهر، وأن المـراد نفي كونه مشـؤوماً، أي: لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر.

---

[1] البخاري: كتاب الطب/ باب لا هامة، ومسلم: كتاب السلام/ باب لا عدوى ولا طيرة.
[2] في الموضع السابق (4/1744).
[3] البخاري: كتاب البيوع/ باب في العطار وبيع المسك، ومسلم: كتاب البر والصلة/ باب استحباب مجالسة الصالحين.
[4] تقدم (ص 559).

وهذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليسس نفياً للوجود، لأنها موجـودة، ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله، فما كـان منها سـبباً معلومـاً، فهو سـبب صحيح، وما كان منها سبباً موهومـاً، فهو سـبب باطـل، ويكـون نفيـاً لتـأثيره بنفسه إن كان صحيحاً، ولكونه سبباً إن كان باطلاً.

فقولـه: "**لا عـدوى**": العـدوى موجـودة، ويـدل لوجودها قوله ﷺ: "**لا يـورد ممـرض على مصح**"[1]، أي: لا يـورد صـاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى.

وقوله ﷺ: "**فر من المجذوم فرارك من الأسد**"[2].

والجـذام مـرض خـبيث معد بسـرعة ويتلف صـاحبه، حـتى قيـل: إنه الطاعون، فـالأمر بـالفرار من المجـذوم لكي لا تقع العـدوى منه إليـك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمراً حتميـاً، بحيث تكـون علة فاعلـة، وأمر النبي ﷺ بالفرار، وأن لا يورد ممرض على مصح من باب تجنب الأسباب لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سبباً للبلاء، لقوله تعـالى: ﴿**ولا تلقـوا بأيـديكم إلى التهلكة**﴾ [البقرة: 195]، ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تـأثير العدوى، لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قـال: "**لا عـدوى**. قـال رجـل: يا رسـول الله الإبل تكون صحيحة مثل الظباء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقـال النبي ﷺ: **فمن أعدى الأول؟**"[1]، يعني أن المـرض نـزل على الأول بـدون عـدوى، بل نـزل من عند الله ـ عز وجل ـ، فكـذلك إذا انتقل بالعـدوى فقد انتقل بأمر الله، والشـيء قد يكـون له سـبب معلـوم وقد لا يكـون له سـبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم، فجرب الأول ليس سببه معلومـاً، إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم، لكن لو شاء الله تعالى لم يجرب، ولهـذا أحيانـاً تصـاب الإبل بـالجرب، ثم يرتفع ولا تمـوت، وكـذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون.

فعلى الإنسان أن يعتمد على الله، ويتوكل عليـه، وقد روي أن النـبي ﷺ جاءه رجل مجذوم، فأخذ بيده وقال له: "**كل**" يعني من الطعـام الـذي كـان يأكل منه الرسـول ﷺ"[2]، لقـوة توكله ﷺ، فهـذا التوكل مقـاوم لهـذا السـبب المعدي.

وهــذا الجمع الــذي أشــرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحـاديث، وادعى بعضـهم النسـخ، فمنهم من قـال: إن الناسخ قولـه: "**لا عـدوى**"، والمنسـوخ قولـه: "**فر من المجـذوم**"، و"**ولا يـورد ممـرض على مصح**"، وبعضهم عكس، والصحيح أنه لا نسخ، لأن من شـروط النسخ تعـذر الجمـع، وإذا أمكن الجمع وجب الرجـوع إليـه، لأن في الجمع إعمـال الـدليلين، وفي النسخ إبطـال أحـدهما، وإعمالهما أولى من إبطـال أحـدهما، لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضاً الواقع يشهد أنه لا نسخ.

وقوله: "**ولا صفر**". فيه ثلاثة أقوال سبقت، وبيان الراجح منها.

---

[1] مسلم: كتاب السلام/ باب لا عدوى ولا طيرة.

[2] البخاري في "الصحيح" تعليقاً في (كتاب الطب، باب الجذام).

[1] البخاري: كتاب الطب/ باب لا صفر، ومسلم: كتاب السلام/ باب لا عدوى ولا طيرة.

[2] أبو داود: كتاب الطب/ باب في الطيرة، والترمذي: كتاب الأطعمة/ باب في الأكل مع المجذوم، وابن ماجة: كتاب الطب/ باب الجذام، والحاكم (4/139)، وصححه ووافقه الذهبي.

والأزمنة لا دخل لها في التـأثير وفي تقـدير الله ـ عز وجل ـ، فصـفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض النـاس إذا انتهى من شـيء في صفر أرّخ ذلك وقال: انتهى في صفر الخير، وهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل، فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان، قولنا: إنه شهر خير، فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم: رجب المعظم، بناء على أنه من الأشهر الحرم.

ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خـيراً إن شاء الله، فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور.

فهـذه الأربعة الـتي نفاها الرسـول تـبين وجـوب التوكل على الله وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أما هذه الأشياء، لأن الإنسان لا يخلو من حالين:

إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم أو ما أشبه ذلـك، فيكـون حينئذ قد علق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له، وهو نوع من الشرك.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نـوع من التوكل ويقـدم ولا يبـالي، لكن يبقى في نفسه نوع من الهم أو الغم، وهـذا وإن كـان أهـون من الأول، لكن يجب ألا يستجيب لداعي هذه الأشياء التي نفاها الرسول مطلقـاً، وأن يكون معتمداً على الله ـ عز وجل ـ.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفـاؤل، فـإذا نظر ذكر النـار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قـال: هـذا فـأل طيب، فهـذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل أننا نقـول: لا تجعل على بالك مثل هـذه الأمـور إطلاقـاً، فالأسـباب المعلومة الظـاهرة تقي أسـباب الشـر، وأما الأسـباب الموهومة التي لم يجعلها الشرع سـبباً بل نفاهـا، فلا يجـوز لك أن تتعلق بهـا، بل احمد الله على العافية، وقل: ربنا عليك توكلنا.

قوله: "**لا نوء**". واحد الأنواء، والأنواء: هي منـازل القمـر، وهي ثمـان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة.

وهـذه النجـوم بعضـها يسـمى النجـوم الشـمالية، وهي لأيـام الصـيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبيـة، وهي لأيـام الشـتاء، وأجـرى الله العـادة أن المطر في وسط الجزيرة العربية يكـون أيـام الشـتاء، أما أيـام الصـيف، فلا مطر.

فـالعرب كـانوا يتشـاءمون بـالأنواء، ويتفـاءلون بهـا، فبعض النجـوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بـالعكس يتفـاءلون به فيقولـون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنـوء كـذا، ولا يقولـون: مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخـرى لا يكون فيه مطر؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كـانت كثيراً ما يكون في زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير لـه، فقولنـا: طلع هـذا النجم، كقولنـا: طلعت الشـمس، فليس له إلا طلـوع وغـروب، والنـوء وقت تقـدير، وهو يـدل على دخـول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجـوي والمنخفض الجـوي، وهذا وإن كان قد يكـون سـبباً حقيقيـاً، ولكن لا يفتح هـذا البـاب للنـاس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمه، قال تعالى: **ألم تر أن الله يـزجي سـحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامـاً فـترى الودق يخرج من خلاله** [النور: 43]، وقـال تعـالى: **الله الذي يرسل الريـاح فتثـير سـحاباً فيبسـطه في السـماء كيف يشـاء ويجله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله** [الروم: 48].

فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمـور الجاهلية الـتي تصـرف الإنسان عن تعلقه بربه.

فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التي تصرف الإنسان عن ربه ـ سبحانه وتعالى ـ.

نعم، المنخفضات الجوية قد تكون سبباً لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثر بنفسها، فتنبه.

قوله: "**ولا غول**". جمع غَولة أو غُولة، ونحن نسـميها باللغة العاميـة: (الهولة)، لأنها تهول الإنسان.

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشـياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكـتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لاشك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقـدر ما يسـتطيع، قـال تعـالى: **إنما النجـوى من الشـيطان ليحـزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله** [المجادلة: 10].

وهذا الـذي نفـاه الرسـول هو تأثيرهـا، وليس المقصـود بـالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كـان قلبه معلقـاً بهـا، أما إن كان معتمدا على الله غير مبال بها، فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصده.

* * *

ولهما عن أنس، قـال: قـال رسـول الله : "**لا عـدوى، ولا طـيرة، ويعجبني الفأل**". قالوا: وما الفأل؟ قال: "**الكلمة الطيبة**"[1].

قوله في حـديث أنس: "**لا عـدوى، ولا طـيرة**". تقـدم الكلام على ذلك.

قوله: "**ويعجبني الفأل**". أي: يسرني، والفأل بينه بقولـه: "**الكلمة الطيبة**". فـ"**الكلمة الطيبة**" تعجبه ، لما فيها من إدخـال السـرور على النفس والانبساط، والمضي قـدماً لما يسـعى إليه الإنسـان، وليس هـذا من الطيرة، بل هذا مما يشـجع الإنسـان، لأنها لا تـؤثر عليـه، بل تزيـده طمأنينة وإقداماً وإقبالاً.

وظاهر الحـديث: الكلمة الطيبة في كل شـيء، لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سبباً لخيرات كثيرة، حـتى إنها تـدخل المـرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة.

وهذا الحديث جمع النبي فيه بين محـذورين ومرغـوب، فالمحـذوران هما العدوى والطيرة، والمرغـوب هو الفـأل، وهـذا من حسن تعليم النـبي ، فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر معه ما يكون مرغوباً، ولهذا كـان القـرآن

---

[1] تقدم (ص 516).

مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا.

قوله: "**عن عقبة بن عامر**". صوابه عن عروة بن عـامر، كما ذكـره في "التيسير"، وقد اختلف في نسبه وصحبته.

قولـه: "**ذكـرت الطـيرة عند رسـول الله**". وهـذا الـذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها، والمراد: تحدث الناس بها عند رسـول الله ﷺ.

* * *

ولأبي داود ـ بسند صحيح ـ عن عقبة بن عامر، قل: ذكرت الطيَرَة عند رسـول الله ﷺ فقـال: "**أحسـنها الفـأل، ولا تـرد مسـلماً، فـإذا رأى أحـدكم ما يكـره، فليقـل: اللهم لا يـأتي بالحسـنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**"[1].

قوله: "**أحسنها الفأل**". سـبق أن الفـأل ليس من الطـيرة[2]، لكنه شـبيه بـالطيرة من حيث الإقـدام، فإنه يزيد الإنسـان نشـاطاً وإقـداماً فيما توجه إليه، فهو يشبه الطيرة من هذا الوجـه، وإلا، فبينهما فـرق لأن الطـيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به، وضعف توكله على اللـه، ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى، لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشـاطاً، فالشـبه بينهما هو التأثير في كل منهما.

قوله: "**ولا ترد مسـلماً**". يفهم منه أن من ردته الطـيرة عن حاجته فليس بمسلم.

قولــه: "**فــإذا رأى أحــدكم ما يكــره**". فحينئذ قد تــرد على قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريد، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النـبي ﷺ دواء لـذلك وقـال: "**فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات....**" إلخ.

قولـــه: "**اللهم لا يـــأتي بالحســـنات إلا أنت**". وهـــذا هو حقيقة التوكل، وقوله: "**اللهم**". يعني: يا الله، ولهذا بنيت على الضم، لأن المنـادى علم، بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإطلاق، والميم عــوض عن يا المحذوفـة، وصـارت في آخر الكلمة تبركـاً بالابتـداء باسم الله ـ سـبحانه وتعالى ـ، وصارت ميماً، لأنها تدل على الجمع، فكأن الــداعي جمع قلبه على الله.

قولـه: "**لا يأتي بالحسـنات إلا أنت**". أي: لا يقـدرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك لـه، وهـذا لا ينـافي أن تكـون الحسـنات بأسباب، لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسـباب خلقها الله، صار الموجد هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه.

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية، كالصـلاة والزكـاة وغيرهـا، لأنها تسر المؤمن، ويشمل الحسنات الدنيوية، كالمال والولد ونحوها، قال تعـالى: ﴿**إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصـيبة يقولـون قد أخـذنا أمرنا من قبل ويتولـوا وهم فرحـون**﴾ [التوبـة: 50]، وقـال تعـالى في آية أخرى: ﴿**إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها**﴾ [آل عمران: 120].

---

[1] أبو داود (كتاب الطب، باب في الطيرة)، والبيهقي في "السنن" (8/139). قال النووي في "رياض الصالحين" (ص 620): "رواه أبو داود بإسناد صحيح".

[2] (ص 570).

وقوله: "**إلا أنت**". فاعل يأتي، لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قولـه: "**ولا يـدفع السـيئات إلا أنت**". السـيئات: ما يسـوء المـرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا اللـه، ولهـذا إذا أصـيب الإنسـان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى، حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وشـاهدوا الغرق، دعوا الله مخلصين له الدين.

ولا ينـافي هـذا أن يكـون دفعها بأسـباب، فمثلاً لو رأى رجلاً غريقـاً، فأنقذه فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه، فالسبب من الله.

فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السـيئات إلا اللـه، ولا يـدفع السـيئات إلا اللـه، وبمقتضى هـذه العقيـدة، فإنه يجب أن لا يسـأل المسـلم الحسـنات ولا يسـأل دفع السـيئات إلا من اللـه، ولهـذا كـان الرسل صـلوات الله وسـلامه عليهم يسـألون الله الحسـنات ويسـألون دفع السيئات، قال تعالى عن ذكريا: **رب هب لي من لدنك ذرية طيبة** [آل عمران: 38]، وقال تعالى عن أيوب: **وأيوب إذ نـادى ربه أني مسـني الضر وأنت أرحم الـراحمين** [الأنبيـاء: 83]، وهكـذا يجب أن يكـون المؤمن أيضاً.

قوله: "**ولا حول ولا قوة إلا بك**". في معناها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله، فالباء بمعنى في، يعـني: إلا في الله وحده، ومن سواه ليس لهم حـول ولا قـوة، ويكـون الحـول والقـوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة المطلقة، لأن غـير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملـة، فـالحول الكامل والقـوة الكاملة في الله وحده.

الثـاني: أنه لا يوجد لنا حـول ولا قـوة إلا باللـه، فالبـاء للاسـتعانة أو للسـببية، وهـذا المعـنى أصـح، وهو مقتضى ورودها في مواضـعها، إذ إننا لا نتحـول من حـول إلى حـول ولا نقـوى على ذلك إلا بالله فيكـون في هـذه الجملة كمـال التفـويض إلى اللـه، وأن الإنسـان يـبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صح الحديث، فالرسول أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشـاءم به المتشـائم أن نقـول: "**اللهم لا يـأتي بالحسـنات إلا أنت، ولا يـدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**".

* * *

وعن ابن مسعود مرفوعاً: "**الطيرة شـرك، الطـيرة شـرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**" رواه أبو داود والترمـذي وصـححه[1]. وجعل آخره من قول ابن مسعودٍ.

قوله: "**مرفوعاً**". أي: إلى النبي .

قولـه: "**الطـيرة شـرك، الطـيرة شـرك**". هاتـان الجملتـان يؤكد بعضهما بعضاً من باب التوكيد اللفظي.

وقوله: "**شرك**". أي: إنها من أنواع الشرك، وليس الشرك كله، وإلا، لقال: الطيرة الشرك.

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج من الملـة، أو أنها نـوع من أنواع الشرك؟

---

[1] الإمام أحمد في "المسند" (1/389)، وأبو داود: كتاب الطب/ باب في الطيرة)، والترمذي: كتاب السير/ باب ما جاء في الطيرة ـ وقال: "حسن صحيح" ـ ، والحاكم (1/23) ـ وصححه ووافقه الذهبي.

نقول: هي نوع من أنواع الشرك، كقوله : "**اثنتان في الناس هما بهم كفر**"[2]، أي: ليس الكفر المخـرج عن الملـة، وإلا، لقـال: "**هما بهم الكفر**"، بل هما نوع من الكفر.

لكن في تـرك الصـلاة قـال: "**بين الرجل وبين الشـرك والكفر تـرك الصـلاة**"[3]، فقـال: "**الكفر**"، فيجب أن نعـرف الفـرق بين "أل" المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر، فـالمراد أنه نـوع من الكفر لا يخـرج من الملـة، وإذا قيـل: هـذا الكفـر، فهو المخرج من الملة.

فـإذا تطـير إنسـان بشـيء رآه أو سـمعه، فإنه لا يعد مشـركاً شـركاً يخرجه من الملة، لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد على هذا السبب الـذي لم يجعله الله سبباً، وهذا يضعف التوكل على الله ويوهن العزيمة، وبذلك يعتـبر شـركاً من هـذه الناحيـة، والقاعـدة: "إن كل إنسـان اعتمد على سـبب لم يجعله الشرع سبباً، فإنه مشرك شركاً أصغر".

وهذا نوع من الإشراك مع الله، إما في التشريع إن كـان هـذا السـبب شـرعياً، وإما في التقـدير إن كـان هـذا السـبب كونيـاً، لكن لو اعتقد هـذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون اللـه، فهو مشـرك شـركاً أكـبر، لأنه جعل لله شريكاً في الخلق والإيجاد.

قوله: "**وما منا**". "**منا**": جار ومجرور خـبر لمبتـدأ محـذوف، إما قبل (إلا) إن قـــدرت ما بعد إلا فعلاً، أي: وما منا أحد إلا تطـــير، أو بعد (إلا)، أي: وما منا إلا متطير.

والمعـنى: ما منا إنسـان يسـلم من التطـير، فالإنسـان يسـمع شـيئاً فيتشاءم، أو يبدأ في فعل، فيجد أوله ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه.

والتوكل: صدق الاعتمـاد على الله في جلب المنـافع ودفع المضـار مع الثقة بالله، وفعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسباباً.

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لابد أن تثق به، لأنه سـبحانه يقـول: **من يتوكل على الله فهو حسبه**!

قوله: "**وجعل آخره من قول ابن مسعود**". وهو قوله: "**وما منا إلا...**" إلخ.

وعلى هذا يكون موقوفاً، وهو مدرج في الحديث، والمـدرج: أن يـدخل أحد الـرواة كلامـاً في الحـديث من عنـده بـدون بيـان، ويكـون في الإسـناد والمتن، ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحـديث، وقد يكـون في وسطه، وقد يكون في آخره، وهو الأكثر.

مثـال ما كـان في أول الحـديث: قـول أبي هريـرة رضي الله عنـه: "**أسـبغوا الوضـوء، وبل للأعقـاب من النـار**"[1]، فقولـه: "**أسـبغوا الوضـوء**" من كلام أبي هريـرة، وقولـه: "**ويل للأعقـاب من النـار**" من كلام الرسول .

ومثال ما كان في وسطه قول الزهري في حديث بدء الـوحي: "**كـان رسول الله يتحنث في غار حـراء، والتحنث: التعبد**"[2]، ومثـال ما

---

[2] مسلم: كتاب الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب.
[3] أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة).
[1] البخاري: كتاب الوضوء/ باب غسل الأعقاب، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب وجوب غسل الرجلين.
[2] البخاري: كتاب بدء الوحي/ باب كيف بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي إلى رسول الله .

كان في آخره: هذا الحديث الذي ذكره المؤلف، وكذا حديث أبي هريرة، وفيه: "**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته، فليفعل**"[(3)]، فهذا من كلام أبي هريرة.

ولأحمد من حديث ابن عمرو "من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك قالوا: فما كفارة ذلك، قال: أن تقولوا اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك"[3].

قوله: "**من ردته الطيرةعن حاجته**". "**من**". شرطية، وجواب الشرط: "**فقد أشرك**"، واقترن الجواب بالفاء، لأنه لا يصلح لمباشرة الأداة، وحينئذ يجب اقترانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف، وهو قوله:

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيس

وقوله: "**عن حاجته**" الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق عن الأمور الضرورية.

قوله: "**فقد أشرك**". أي: شركاً أكبر إن اعتقد أن هذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سبباً فقط فهو أصغر، لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب، وهي: "إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كوناً ولا شرعاً، فشركه شرك أصغر، لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سبباً كونياً أو شرعياً، فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها".

وقوله: "**فما كفارة ذلك**". أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأنه الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واق، فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

وقوله: "**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك**". يعني: فأنت الذي بيدك الخير المباشر، كالمطر والنبات، وغير المباشر، كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك، فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سبباً، وإلا، فكل الخير من الله ـ عز وجل ـ.

وقوله: "**فلا خير إلا خيرك**". هذا الحصر حقيقي، فالخير كله من الله، سواء كان بسبب معلوم أو بغيره.

وقوله: "**لا طير إلا طيرك**". أي: الطيور كلها ملكك، فهي لا تفعل شيئاً، وإنما هي مسخرة، قال تعالى: **أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير** [الملك: 19]، وقال تعالى: **ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** [النحل: 72]، فالمهم أن الطير مسخرة بإذن الله، فالله تعالى هو الذي يدبرها ويصرفها ويسخرها تذهب يميناً وشمالاً، ولا علاقة لها بالحوادث.

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان، فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة، فإنه من الله كما أن الخير من الله، كما قال تعالى: **ألا إنما طائرهم عند الله** [الأعراف: 131].

---

(3) البخاري: كتاب الوضوء/ باب فضل الوضوء، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب استحباب إطالة الغرة.

3 الإمام أحمد في المسند (2/220).

لكن ســــبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقـــع، بل الشر في المفعـول لا في الفعـل، بل فعله تعـالى كله خـير، إما خـير لذاتـه، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التي تجعله خيراً.

فيكـون قولـه: "**لا طـير إلا طـيرك**" مقـابلاً لقولـه: "**ولا خـير إلا خيرك**".

قولـه: "**ولا إله غـيرك**". "**لا**" نافية للجنس، و"**إله**" بمعـنى: مـألوه، كغراس بمعـنى مغـروس، وفـراش بمعـنى مفـروش، والمـألوه: هو المعبـود محبة وتعظيماً يتأله إليه الإنسان محبة له وتعظيماً له.

فـإن قيـل: إن هنـاك آلهة دون اللـه، كما قـال تعـالى: ﴿**فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء**﴾ [هود: 101].

أجيب: أنها وإن عبدت من دون الله وسميت آلهـة، فليست آلهة حقـاً لأنها لا تستحق أن تعبد، فلهذا نقول: لا إله إلا الله، أي: لا إله حق إلا الله.

*** يستفاد من هذا الحديث:**

1- أنه لا يجوز للإنسـان أن تـرده الطـيرة عن حاجتـه، وإنما يتوكل على الله ولا يبـــالي بما رأى أو ســـمع أو حـــدث له عند مباشرته للفعل أول مرة، فـإن بعض النـاس إذا حصل له ما يكـره في أول مباشـرته الفعل تشـاءم، وهـذا خطـأ، لأنه مـادامت هنـاك مصلحة دنيوية أو دينية، فلا تهتهم بما حدث.

2- أن الطيرة نوع من الشرك، لقوله: "**من ردته الطيرة عن حاجته، فقد أشرك**".

3- أ، من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة، فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسـعود: "**وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**"[1].

4- أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

5- انفراد الله بالألوهية، كما انفرد بالخلق والتدبير.

* * *

وله من حــديث الفضل بن عبــاس: "إنما الطــيرة ما أمضــاك أو ردك"[2].

قوله في حديث الفضل: "**إنما الطيرة**". هـذه الجملة عند البلاغـيين تسمى حصراً، أي: ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى في تفكير الإنسـان خـير بلا شـك، لكن إذا وقعت في القلب ولم ترده ولم يلتفت لها، فإنها لا تضـره، لكن عليه أن لا يستسلم، بل يدافع، إذ الأمر كله بيد الله.

قولـــــه: "**ما أمضـــــاك أو ردك**". أما "**ما ردك**"، فلا شك أنه من الطيرة، لأن التطير يوجب الترك والتراجع.

وأما "**ما أمضاك**"، فلا يخلو من أمرين:

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عــدم نجاحه بـالتطير، كما لو قـال: سـأزجر هـذا الطـير، فـإذا ذهب إلى اليمين، فمعنى ذلك اليمن والبركة، فيقدم، فهذا لا شك أنه تطير، لأن التفــاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح، لأنه لا وجه له، إذا الطير إذا طـار، فإنه

---

[1] تقدم (ص 89).

[2] الإمام أحمد في "المسند"، وقال الشيخ حفظه الله: "في سنده مقال" (ص 580).

يذهب إلى الذي يرى أن وجهته، فإذا اعتمد عليـه، فقد اعتمد على سـبب لم يجعله الله سبباً، وهو حركة الطير.

الثاني: أن يكون سـبب المضي كلامـاً سـمعه أو شـيئاً شـاهده يـدل على تيسير هذا الأمر له، فـإن هـذا فـأل، وهو الـذي يعجب النـبي ﷺ، لكن إن اعتمد عليه وكان سبباً لإقدامه، فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه فرح ونشط وازداد نشاطاً في طلبه، فهذا من الفأل المحمود.

والحديث في سنده مقال، لكن على تقدير صحته هذا حكمه.

* * *

- **فيه مسائل:**

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾ [الأعراف: 131]، مع قولـه: ﴿**طـائركم معكم**﴾ [يس: 19]. **الثانيـة:** نفي العـدوى. **الثالثـة:** نفي الطـيرة. **الرابعـة:** نفي الهامـة. **الخامسـة:** نفي الصـفر **السادسة:** أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

فيه مسائل:

- **الأولى: التنبيه على قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾، مع قوله: ﴿طائركم معكم﴾.**

أي: لكي ينتبه الإنسـان، فـإن ظـاهر الآيـتين التعـارض، وليس كـذلك، فالقرآن والسنة لا تعـارض بينهما ولا تعـارض في ذاتهمـا، إنما يقع التعـارض حسب فهم المخاطب، وقد سبق بيـان الجمع أن قولـه: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾ أن الله هو المقدر ذلك، وليس موسى ولا غيره من الرسـل، وأن قوله: ﴿**طائركم معكم**﴾ من باب السبب، أي: أنتم سببه.

- **الثانيـة: نفي العـدوى.** وقد سـبق أن المـراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير، لأن الله قد جعل بعض الأمراض سـبباً للعدوى وانتقالها.
- **الثالثة: نفي الطيرة.** أي: نفي التأثير لا نفي الوجود.
- **الرابعـة: نفي الهامـة. والخامسـة: نفي الصـفر.** وقد سبق تفسيرهما.
- **السادسة: أن الفأل ليس من ذلـك، بل مسـتحب.** تؤخذ من قـول النـبي ﷺ: "**يعجبـني الفـأل**"[(1)]، وكل ما أعجب النـبي ﷺ، فهو حسـن، قـالت عائشة رضي الله عنهـا: "**كان النـبي ﷺ يعجبه الـتيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله**"[(2)].

* * *

السابعة: تفسير الفأل. **الثامنة:** أن الواقع في القلـوب من ذلك مع كراهية لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل. **التاسعة:** ذكر ما يقول من وجده.

- **السابعة: تفسير الفأل.** فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبـة، وسـبق أن هـذا التفسـير على سـبيل المثـال لا على سـبيل الحصـر، لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان على شيء محمود، من قـول، أو فعل مـرئي أو مسموع.

---

(1) تقدم (ص 516).

(2) البخاري: كتاب الوضوء/ باب التيمن في الوضوء والغسل، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب التيمن في الطهور.

- **الثامنة: أن الواقع في القلـوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل.** أي: إذا وقع في قلبك وأنت كـاره لـه، فإنه لا يضـرك ويذهبه الله بالتوكـل، لقـول ابن مسـعود: "**وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل**"[1].
- **التاسعة: ذكر ما يقول من وجده.** وسبق أنه شيئان:

أن يقول: "اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السـيئات إلا أنت، ولا حـول ولا قـوة إلا بـك". أو يقـول: "اللهم لا خـير إلا خـيرك، ولا طـير إلا طيرك، ولا إله غيرك".

* * *

العاشرة: التصـريح بـأن الطـيرة شـرك. **الحادية عشـرة:** تفسـير الطيرة المذمومة.

- **العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.** وسـبق أن الطـيرة شـرك، لكن بتفصـيل، فـإن اعتقد تأثيرها بنفسـها، فهو شـرك أكـبر، وإن اعتقد أنها سبب، فهو شرك أصغر.
- **الحادية عشــرة: تفســير الطيــوة المذمومــة.** أي: ما أمضاك أو ردك.

---

[1] تقدم (ص 574).

باب ما جاء في التنجيم

التنجيم: مصدر نجم بتشـديد الجيم، أي: تعلم علم النجـوم، أو اعتقد تأثير النجوم.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

1- علم التأثير. 2- علم التسيير.

فالأول: علم التأثير. وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

1- أن يعتقد أن هذه النجـوم مـؤثرة فاعلـة، بمعـنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور، فهذا شـرك أكـبر، لأن من ادعى أن مع الله خالقــاً، فهو مشــرك شــركاً أكــبر، فهــذا جعل المخلــوق المسخر خالقاً مسخراً.

2- أن يجعلها سـبباً يـدعي به علم الغيب، فيسـتدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سـيكون كـذا وكـذا، لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقـول: هـذا الإنسـان سـتكون حياته شـقاء، لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة لأنه ولد في النجم الفلاني. فهـذا اتخذ تعلم النجـوم وسـيلة لادعـاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملـة، لأن الله يقـول: **قل لا يعلم من في السـماوات والأرض الغيب إلا الله** [النمـل: 65]، وهذا من أقوى أنواع الحصر، لأنه بالنفي والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب، فقد كذب القرآن.

3- أن يعتقـدها سـبباً لحـدوث الخـير والشـر، أي أنه إذا وقع شــيء نســبة إلى النجــوم، ولا ينسب إلى النجــوم شــيئاً إلا بعد وقوعه، فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هـذا بما ثبت عن النـبي ﷺ في قوله في الكسـوف: "**إن الشــمس والقمر آيتـــان من آيـــات الله يخـــوف الله بهما عباده**"[1]، فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يسلم أن للكسوف تـأثيراً في الحـوادث والعقوبـات من الجــدب والقحط والحــروب، ولــذلك قــال النــبي ﷺ: "**إنهما لا ينكســفان لموت أحد ولا لحياته**"[2]، لا في ما مضى ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً، فإن النص قد دل على ذلـك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصاً به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلاً أن لهما تأثيراً في هذا، لأن الحـديث لا يقتضـيه، فالحـديث ينص على التخويـف، والمخـوف هو الله تعالى، والمخوف عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التيسير. وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية، فهـذا مطلـوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجبـاً، كما لو أراد أن يسـتدل بــالنجوم على جهة القبلــة، فــالنجم الفلاني يكــون ثلث الليل قبلــة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة، فهذا فيه فائدة عظيمة.

---

[1]، [2] البخاري: كتاب الكسوف/ باب الصدقة في الكسوف، ومسلم: كتاب الكسوف/ باب ذكر النداء بصلاة الكسوف.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية، فهـذا لا بـأس بـه، وهو نوعان:

النـوع الأول: أن يسـتدل بها على الجهـات، كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شـمالاً، وهكـذا، فهـذا جـائز، قـال تعالى: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾ [النحل: 16].

النـوع الثـاني: أن يسـتدل بها على الفصـول، وهو ما يعـرف بتعلم منازل القمر، فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والـذين كرهـوه قـالوا: يخشى إذا قيـل: طلع النجم الفلاني، فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بـالبرد أو البحر أو بالرياح.

والصحيح عدم الكراهة، كما سيأتي إن شاء الله[1].

* * *

---

[1] أنظر (ص 105)

قال البخاري في "**صحيحه**": "قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك، أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به"[1] انتهى.

قوله في أثر قتادة: "**خلق الله هذه النجوم لثلاث**". اللام للتعليل، أي: لبيان العلة والحكمة.

قوله: "**لثلاث**". ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن، أي: لثلاث حكم، لهذا حذف تاء التأنيث من العدد.

والثلاث هي:

الأولى: زينة للسماء، قال تعالى: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾ [الملك: 5]، لأن الإنسان إذا رأى السماء صافية في ليلة غير مقمرة وليس فيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم ما لا يعلمه إلا الله، فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع من الفضة اللامعة، هذه نجمة مضيئة كبيرة تميل إلى الحمرة، وهذه تميل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة، وهذا شيء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجوم مرصعة في السماء، أو نقول: لا يلزم ذلك؟

الجواب: لا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء، قال تعالى: ﴿**وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون**﴾ [الأنبياء: 33]، أي: يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم، أي غطاها، وهي من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حولها في آخر الشهر، وعند قرب الفجر غطاها، فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين في آخر رمضان.

إذن هي أفلاك متفاوتة في الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مرصعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿**زينا السماء الدنيا**﴾؟

قلنا: إنها لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقاً له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قصراً وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجميلة، وليست على جدرانه، فالناظر إلى القصر من بعد يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: رجوماً للشياطين، أي: لشياطين الجن، وليسوا شياطين الإنس، لأن شياطين الإنس لم يصلوها، لكن شياطين الجن وصلوها، فهم أقدر من شياطين الإنس، ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم: ﴿**والشياطين كل بناء وغواص**﴾ [ص: 37]، أي: سخرنا لسليمان: ﴿**وآخرين مقرنين في الأصفاد**﴾ [ص: 38]، وقال تعالى: ﴿**قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾ [النمل: 39]، أي: من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ، فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: ﴿**وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً**﴾ [الجن: 9]. والرجم: الرمي.

الثالثة: علامات يهتدى بها، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون *

---

[1] البخاري: كتاب بدء الخلق، باب في النجوم، معلقاً.

وعلامات وبالنجم هم يهتدون [النحل: 16]، فـذكر الله تعـالى نـوعين من العلامات التي يهتدى بها:

الأول: أرضـــية، وتشـــمل كل ما جعل الله في الأرض من علامـــة، كالجبال، والأنهار، والطرق، والأودية، ونحوها.

والثاني: أفقية في قوله تعالى: **وبالنجم هم يهتدون**.

والنجم: اسم جنس يشــمل كل ما يهتــدى بــه، ولا يختص بنجم معين، لأن كل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم على الجهـات، سـواء جهـات القبلة أو المكان، براً أو بحراً.

وهذا من نعمة الله أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شيء، وهي النجوم، لأنك في الليل لا تشاهد جبالاً ولا أودية، وهذا من تسخير اللـه، قـال تعالى: **وسخر لكم ما في السـماوات وما في الأرض جميعـاً منه** [الجاثية: 13].

* * *

وكره قتادة تعلم منازل القمر. ولم يرخص ابن عيينة فيه. ذكره حـرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

قوله: "**وكره قتادة تعلم منـازل القمر**". أي: كراهة تحـريم بنـاءً على أن الكراهة في كلام السلف يراد بها التحريم غالباً.

وقوله: "**تعلم منازل القمر**" يحتمل أمرين

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون في الشـرطين، ويكـون في الإكليـل، فـالمراد معرفة منـازل القمر كل ليلـة، لأن كل ليلة له منزلة حـتى يتم ثمانيـاً وعشــرين وفي تسع وعشــرين وثلاثين لا يظهر في الغالب.

الثاني: أن المـراد به تعلم منـازل النجـوم، أي: يخـرج النجم الفلاني، في اليوم الفلاني وهذه النجوم جعلها الله أوقاتاً للفصـول، لأنها [28] نجمـاً، منها [14] يمانية، و[14] شمالية، فإذا حلت الشمس في المنـازل الشـمالية صار الحر، وإذا حلت في الجنوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية.

قولـــــه: "**ولم يـــــرخص فيه ابن عيينة**". هو ســــفيان بن عيينة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراهة.

قوله: "**وذكره حرب**". من أصحاب أحمد، روى عنه مسائل كثيرة.

قوله: "**إسحاق**". هو إسحاق بن راهويه.

والصـحيح أنه لا بـأس بتعلم منـازل القمـر، لأنه لا شـرك فيهـا، إلا أن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك، فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها: هل هو الربيـع، أو الخريـف، أو الشتاء، فهذا لا بأس به.

* * *

وعن أبي موســى، قـال رسـول الله ﷺ: "**ثلاثة لا يـدخلون الجنـة: مـدمن الخمـر، وقـاطع الـرحم، ومصـدق بالسـحر**" رواه أحمد وابن حبان في "صحيحه"[1]

---

[1] الإمام أحمد في "المسند" (4/339)، وابن حبان (7/365).
قال الهيثمي في "المجمع" (5/74): "رجال أحم وأبي يعلى ثقات".

قوله في حـديث أبي موسـى: "**الجنة**". هي الـدار الـتي أعـدها الله لأوليائه المتقين، وسـميت بـذلك، لكـثرة أشـجارها لأنها تجن من فيها أي تستره.

قولـه: "**مـدمن خمر**". هو الـذي يشـرب الخمر كثـيراً، والخمر حـده الرسول بقوله: "**كل مسكر خمر**"[2]، ومعنى "أسكر"، أي: غطى العقل، وليس كل ما غطى العقل فهو خمر، فالبنج مثلاً ليس بخمر، وإذا شرب دهناً فـأغمي عليـه، فليس ذلك بخمـر، وإنما الخمر الـذي يغطي العقل على وجه اللذة والطرب، فتجد الشارب يحس أنه في منزلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك، قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنها اللقاء

وقـال حمـزة بن عبد المطلب ـ وكـان قد سـكر قبل تحـريم الخمر ـ للنـبي : "**وهل أنتم إلا عبيد أبي**"[3]، فالـذي يغطي العقل على سـبيل اللذة محـرم بالكتـاب والسـنة، ومن اسـتحله، فهو كـافر، إلا إن كـان ناشـئاً ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك، فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه.

قولـه: "**قـاطع رحم**". الـرحم: هم القرابـة، قـال تعـالى: **وأولـوا الأرحـام بعضـهم أولى ببعض** [الأنفـال: 75]، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين، لأن هذه تسـمية غـير شـرعية، والشـرعية في أقـارب الزوجين: أن يسموا أصهاراً.

ومعنى قاطع الرحم: أن لا يصـله، والصـلة جـاءت مطلقة في الكتـاب والسـنة، قـال تعـالى: **والـذين يصـلون ما أمر الله به أن يوصل** [الرعد: 21]، ومنه الأرحام وما جاء مطلقاً غير مقيـد، فإنه يتبع فيه العـرف كما قيل:

وكل ما أتى ولم يحدد بالشرع كالحرز فبالعرف احدد

فالصـلة في زمن الجـوع والفقـر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسـوة والطعام دائماً، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك.

وكـذلك الأقـارب ينقسـمون إلى قـريب وبعيـد، فـأقربهم يجب له من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى: قسم من الأقـارب يـرى أن لنفسه حقـاً لا بد من القيـام بـه، ويريد أن تصـله دائمـاً، وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها، فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها إلى العـرف، إلا أنه يسـتثنى من ذلك مسـألة، وهي: ما لو كـان العـرف عـدم الصـلة مطلقـاً، بـأن كنا في أمة تشـتتت وتقطعت عرى صـلتها كما يعـرف الآن في البلاد الغربيـة، فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول: لابد من صلة، فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناهـا، وإذا لم يكن هنـاك صـلة، فلا يمكن أن نعطل هـذه الشـريعة الـتي أمر الله بها ورسوله.

والصـلة ليس معناها أن تصل من وصـلك، لأن هـذا مكافـأة، وليست صلة، لأن الإنسـان يصل أبعد النـاس عنه إذا وصـله، إنما الواصـل، كما قـال

---

[2] مسلم (كتاب الأشربة)، باب بيان أن كل مسكر خمر.

[3] البخاري: كتاب المساقاة/ باب بيع الخطب، ومسلم: كتاب الأشربة/ باب تحريم الخمر.

الرسـول ﷺ: "**من إذا قطعت رحمه وصلها**"[1]، هـذا هو الـذي يريد وجه الله والدار الآخرة.

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمي؟

الظاهر أنها حق للآدمي، وهي حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قولـه: "**ومصـدق بالسـحر**". هـذا هو شـاهد البـاب، ووجهه أن علم التنجيم نـوع من السـحر، فمن صـدق به فقد صـدق بنـوع من السـحر، فقد سـبق: "**أن من اقتبس شعبة من النجـوم، فقد اقتبس شـعبة من السحر**"[2]، والمصـدق به هو المصـدق بما يخـبر به المنجمـون، فـإذا قـال المنجم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به، فإنه لا يـدخل الجنـة، لأنه صـدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى: ﴿**قل لا يعلم من في السـماوات والأرض الغيب إلا الله**﴾ [النمل: 65].

فـإن قيـل: لمـاذا لا يجعل السـحر هنا عامـاً ليشـمل التنجيم وغـير التنجيم؟

أجيب: إن المصـــدق بما يخـــبره به الســـحر من علم الغيب يشـــمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيراً، فلا يلحقه هذا الوعيد، إذا لا شك أن للسحر تـأثيراً، لكن تـأثيره تخييـل، مثل ما وقع من سـحرة فرعـون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصي كأنها حيات تسـعى، وإن كـان لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصاً فيجعله يُحِب فلانـاً ويبغض فلانـاً، فهو مؤثر، قـال تعـالى: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقـون به بين المـرء وزوجه**﴾ [البقرة: 102]، فالتصـديق بـأثر السـحر على هـذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيـان بحيث يجعل الخشب ذهبـاً أو نحو ذلـك، فلا شك في دخوله في الوعيـد، لأن هـذا لا يقـدر عليه إلا الله ـ عز وجل ـ .

وقولـه: "**ثلاثة لا يـدخلون الجنة**". هل المـراد الحصر وأن غـيرهم يدخل الجنة؟

الجواب: لا، لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوى هؤلاء، فهـذا الحـديث لا يدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مـذهب المعتزلة والخـوارج الـذين يأخـذون بنصـوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولـون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلــدون في النـار، فيجـرون هـذا الحـديث ونحـوه على ظـاهره، ولا ينظرون إلى الأحـاديث الأخـرى الدالة على أن من في قلبه إيمـان وإن قـل، فإنه لا بد أن يدخل الجنة.

القـول الثـاني: أن هـذا الوعيد فيمن اسـتحل هـذا الفعل بـدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل، فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب، لأن من اسـتحله كـافر ولو لم يفعلـه، فمن

---

[1] البخاري: كتاب الآداب/ باب ليس الواصل بالمكافئ.

[2] تقدم (ص 518).

استحل قطيعة الـرحم أو شـرب الخمر مثلاً، فهو كـافر وإن لم يقطع الـرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد الـتي تمر كما جـاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قـال الله وقـال رسـوله ونسـكت، فمثلاً: قوله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمـداً فجـزاؤه جهنم خالـداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً**﴾ [النسـاء: 93]، هـذه الآية من نصوص الوعيد، فنؤمن بها، ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى، ونقول: هكذا قال اللـه، والله أعلم بما أراد، وهـذا مـذهب كثـير من السلف، كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر.

القـول الرابـع: أن هـذا نفي مطلـق، والنفي المطلق يحمل على المقيد، فيقال: لا يدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعني لا يسبقه عـذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخـولاً يسـبقه عـذاب بقـدر ذنـوبهم، ثم مـرجعهم إلى الجنـة، وذلك لأن نصـوص الشـرع يصـدق بعضـها بعضـاً، ويلائم بعضـها بعضـاً، وهـذا أقـرب إلى القواعد وأبين حـتى لا تبقى دلالة النصـوص غـير معلومـة، فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهنـاك احتمـال: أن من كـانت هـذه حاله حَـرِيٌ أن يختم له بسـوء الخاتمة، فيموت كافراً، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليـه، وحينئذ لا يبقى في المسألة إشـكال، لأن من مـات على الكفـر، فلن يـدخل الجنـة، وهو مخلد في النار، وربما يؤيده قوله ﷺ: "**لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**"[1]، فيكون هذا قولاً خامساً.

* * *

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجـوم. **الثانية:** الـرد على من زعم غـير ذلك. **الثالثة:** ذكر الخلاف في تعلم المنازل. **الرابعـة:** الوعيد فيمن صـدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم. وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء.
- ورجوم للشياطين.
- وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حكم أخرى لا نعلمها.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلـك. لقـول قتـادة: "من تأول فيها غير ذلك، أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به".

ومراد قتادة في قوله: "**غير ذلك**" ما زعمه المنجمون من الاستدلال بـالأحوال الفلكية على الحـوادث الأرضـية، وأما ما يمكن أن يكـون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة، فلا ضلال لمن تأوله.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل. سبق ذلك[2].

---

[1] البخاري: كتاب الديانات، باب قوله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمدا...**﴾

[2] أنظر (ص 105).

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه، فإن عليه هذا الوعيد، كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل، لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به وبتعلمه وبممارسته؟!